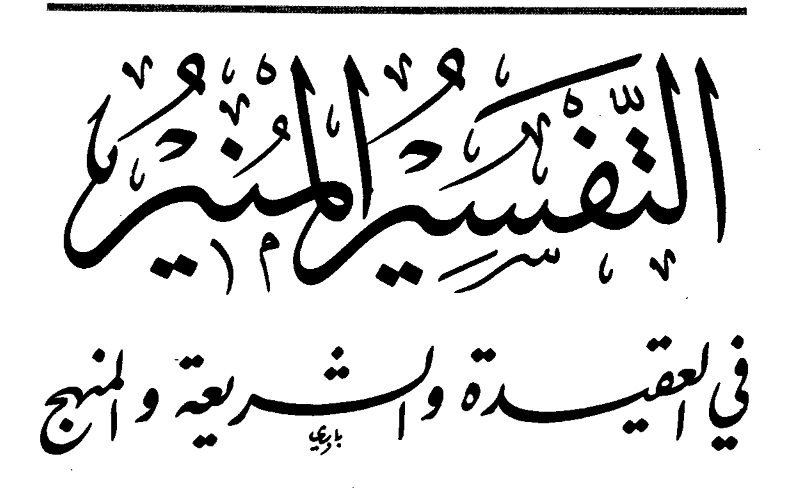
يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم

الأنفال ٨ / ٢٤



الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

المجلد التاسع

الجزءان ١٧ ـ ١٨





دار الفكر - دمشق - البرامكة

 ٣٠٠١ ٩٧ ٩٤٧ ٠٠٩٦٣

٣٠٠١ ١١ ٠٠٩٦٣

http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

أ.د. وهبة الزحيلي

المجلد التاسع

الرقم الاصطلاحي: ٩- ١٦٩٠,٠١١

الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-160-5

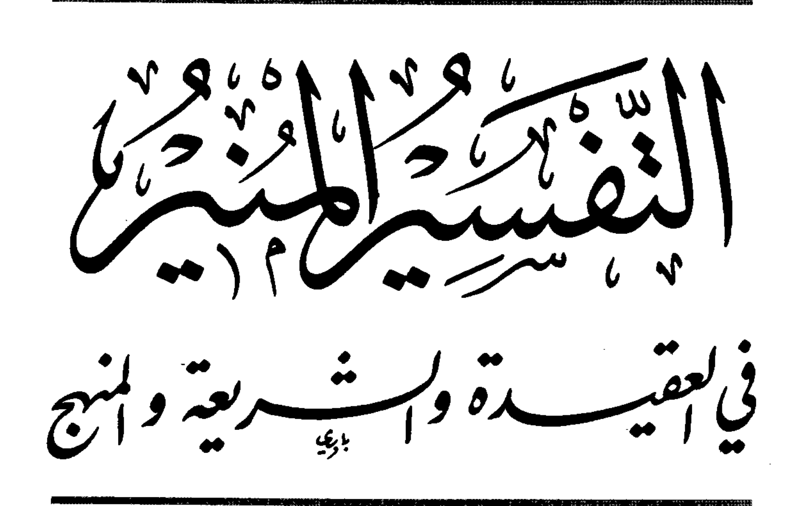
الرقم الموضوعي: ٢١١ (القرآن وعلومه)

٦٧٢ ص، ١٧ × ٢٥ سم

الطبعة العاشرة: ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م

ط٢ / ٢٠٠٣م

بسم الله الرحمن الرحيم



المجلد التاسع

الجزءان ١٧ ـ ١٨



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنبياء

مكية، وهي مئة واثنتا عشرة آية

تسميتها:

سميت سورة (الأنبياء) لتضمنها الحديث عن جهاد الأنبياء المرسلين مع أقوامهم الوثنيين، بدءاً من قصة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام بإسهاب وتفصيل، ثم إسحاق، ويعقوب، ولوط، ونوح، وداود، وسليمان، وأيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذي الكفل، وذي النون: يونس، وزكريا، وعيسى، إلى خاتم النبيين محمد صلوات الله وسلامه عليهم، وذلك بإيجاز يدل على مدى ما تعرضوا له من أهوال وشدائد، فصبروا عليها، وضحوا في سبيل الله، لإسعاد البشرية.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من ناحيتين:

الأولى:

الإشارة إلى قرب الأجل المسمى للعذاب، ودنو الأمل المنتظر، فقال تعالى في آخر سورة طه: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾

ثم قال: ﴿قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ﴾ وقال تعالى في مطلع هذه السورة: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾.

والثانية:

التحذير من الاغترار بالدنيا، والعمل للآخرة، فقال تعالى في آخر سورة طه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فإن قرب الساعة يقتضي الإعراض عن زهرة الحياة الدنيا؛ لدنوها من الزوال والفناء، وختمت سورة الأنبياء بمثل ما بدئت به السورة المتقدمة، فأبان الله تعالى أنه بالرغم من قرب الساعة والحساب، فإن الناس غافلون عنها، ولاهون عن القرآن والاستماع إليه.

فضلها ومزيتها:

ورد في فضل هذه السورة أحاديث صحاح منها:

ما رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: «بنو إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء: هن من العتاق الأُوَل، وهن من تِلادي» أي من قديم ما حفظ من القرآن، كالمال التّلاد.

ولما نزلت هذه السورة قيل لعامر بن ربيعة رضي الله عنه: هلا سألت النبي ﷺ عنها؟ فقال: «نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا».

مشتملاتها:

موضوع السورة بيان أصول العقيدة الإسلامية ومبادئها وهي التوحيد، والرسالة النبوية، والبعث والجزاء، وقد بدأت بوصف أهوال القيامة، ثم ذكرت قصص جملة من الأنبياء الكرام عليهم السلام، كما تقدم.

كانت البداية مرهبة مرعبة، منذرة محذِّرة بقرب قيام الساعة، والناس

لاهون غافلون عنها وعن خطورة الحساب والعقاب، معرضون عن سماع القرآن، مفتونون بلذائذ الحياة الدنيا.

ثم أوضحت السبب في إنكار المشركين في مكة نبوة محمد ﷺ وهو أنه بشر مثلهم، وعجزه عن الإتيان بآيات فذة ومعجزات باهرة مادية، كما أتى بها الأنبياء السابقون مثل موسى وعيسى، فرد القرآن عليهم بأن الأنبياء جميعاً كانوا بشراً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، ثم أنذرهم بالإهلاك، كما أهلك بعض الأمم المتقدمة لتكذيبهم رسلهم، ولفت أنظارهم إلى عظمة خلق السماوات والأرض، وإلى أن الملائكة طائعون لله، منقادون لأمره، ينفّذون ما أُمروا به من التعذيب بسرعة لا تعرف التردد والانتظار، ونعى على من ادعى أنهم بنات الله تعالى.

ثم ناقشهم القرآن في اتخاذهم آلهة من دون الله، وطالبهم بالدليل على ادعائهم، وأقام البرهان على وحدانية الله؛ إذ لو كان في السماء والأرض آلهة إلا الله لفسدتا، ووصف النشأة الأولى للسماوات والأرض، وأنهما كانتا رتقاً ففصلتا، وأبان أن الجبال أوتاد للأرض حتى لا تميد بأهلها، وأن الله تعالى خالق الليل والنهار والشمس والقمر، ثم تكون النهاية الموت والفناء لكل شيء، حتى للملائكة والأنبياء، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام، وأوضح أن استعجال الكافرين العذاب غباء وطلب في غير محله؛ فإن العذاب قريب، والساعة آتية لا ريب فيها، وأنها تأتيهم بغتة فتبهتهم، وأن موازين الحساب دقيقة وفي أتم عدل، فلا يبخس أحد شيئاً من حقه، ولا يظلم إنسان مثقال حبة من خردل.

وتحقيقاً لهاتيك الغايات وتأكيداً عليها، جاءت الأمثال الواقعية تنذر وتذكّر، من خلال إيراد قصص بعض الأنبياء كموسى وهارون، وإبراهيم ولوط، وإسحاق ويعقوب، ونوح، وداود وسليمان، وأيوب وإسماعيل، وإدريس وذي الكفل، ويونس وزكريا ويحيى، وعيسى عليهم السلام.

وأثبت القرآن عقب ذلك وحدة مهام الأنبياء وهي الدعوة إلى عبادة الله، وتطمين المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالجزاء الحسن، وأن الأمم المعذبة في الدنيا سترجع حتماً إلى الله في الدار الآخرة لعذاب آخر.

ومن علائم الساعة انفتاح سد يأجوج ومأجوج.

وفي القيامة عذاب شديد، وأهوال شديدة يلقاها الكفار، وأنهم مع أصنامهم حطب جهنم، وفيها تتبدل الأرض غير الأرض وتطوى السماوات كطي الكتب، ويحظى الصالحون بالنعيم الأبدي، ويرث الأرض من هو أصلح لعمارتها.

وختمت السورة ببيان كون النبي ﷺ رحمة للعالمين، وأنه أوحي إليه بأن الإله واحد لا شريك له، وأنه يجب الانقياد لحكمه، وأنه ينذر الناس بعذاب قريب وأن مجيء الساعة واقع محتم، وأن الإمهال به وتأخير العقوبة امتحان واختبار، وأن الله يحكم بين النبي ﷺ وبين أعدائه المشركين، وأنه المستعان على افتراءاتهم واتهاماتهم.

غفلة الناس عن الحساب يوم القيامة ودليل ذلك

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾

القراءات:

﴿يأتيهم﴾ :

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (ياتيهم).

﴿أفتأتون﴾ :

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (أفتاتون).

﴿قَالَ رَبِّي﴾ : قرئ:

١- (قالَ ربي)، وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (قلْ ربي) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿مُّحْدَثٍ﴾ صفة ﴿ذِكْرٍ﴾ وأجاز الفرَّاء رفعه على النعت حملاً على موضع ﴿مِّن ذِكْرٍ﴾ و﴿مِّن﴾ : زائدة، مثل قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٩] وغيرها وأجاز الكسائي نصبه على الحال.

﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ جملة اسمية في موضع حال من واو ﴿ٱسْتَمَعُوهُ﴾.

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ ﴿لَاهِيَةً﴾ : حال من ضمير ﴿يَلْعَبُونَ﴾ و﴿قُلُوبُهُمْ﴾ : فاعله، مثل ﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٤١] لأن اسم الفاعل إذا وقع حالاً ارتفع الاسم به كالفعل.

﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ إما مرفوع أو منصوب أو مجرور، والرفع إما على أنه بدل من واو ﴿وَأَسَرُّوا۟﴾ وإما أنه خبر مبتدأ محذوف، أي هم الذين ظلموا، وإما أنه مبتدأ خبره محذوف أي يقولون: ماهذا إلا بشر، وإما فاعل أسروا على لغة «أكلوني البراغيث» والنصب بتقدير: أعني، والجر على أنه نعت لـ «الناس».

﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ الكلام كله في محل نصب بدلاً من النجوى، أي وأسروا هذا الحديث، ويجوز أن يتعلق بقالوا بمعنى اعتقدوا.

البلاغة:

﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ التنكير للتعظيم والتهويل.

﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ صيغة مبالغة.

﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ فيه إضراب ترقٍ، يدل على أن قولهم الثاني أفسد من الأول، والثالث أفسد من الثاني، وذلك كله دليل الاضطراب والتردد والتحير في وصف القرآن، وتزييف الحقائق.

المفردات اللغوية:

﴿ٱقْتَرَبَ﴾ قرب أي اقترب زمان الحساب، والمراد اقتراب الساعة، وأصله: اقترب حساب الناس، وإذا اقتربت الساعة فقد اقترب ما يكون فيها من الحساب والثواب والعقاب وغير ذلك. ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي جميع المكلفين من الناس. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إن المراد بالناس: المشركون: وهذا من إطلاق اسم الجنس على بعضه، بدليل الوصف التالي: ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ وصفهم بالغفلة مع الإعراض، والغفلة في الأصل: عدم تذكر الشيء، والمراد هنا: الترك إهمالاً وإعراضاً. والإعراض: الإضراب والتولي عن الشيء، والمراد هنا الإعراض عن التأهب للحساب بالإيمان.

﴿مِّن ذِكْرٍ﴾ أي قرآن ينبّه من الغفلة والجهالة ﴿مُّحْدَثٍ﴾ أي جديد إنزاله، منزل شيئاً فشيئاً، أتى به لتكرير التنبيه لأسماعهم كي يتعظوا ﴿يَلْعَبُونَ﴾ يستهزئون ويسخرون ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ غافلة ساهية متشاغلة عن التأمل وتفهم معناه ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ أي أسروا التناجي والكلام، والمراد:

أنهم أخفوا التناجي وبالغوا في الإخفاء ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي أسروا هذا الحديث، أو قالوا بمعنى اعتقدوا، والمراد: هل هذا أي محمد إلا بشر مثل الناس، وكل من ادعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة هو ساحر، ومعجزته سحر، ولذلك قالوا: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي أتتبعون السحر، وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر؟!

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي قال لهم محمد: الله يعلم القول كائناً في السماء والأرض، جهراً كان أو سراً، فضلاً عما أسرّوا به ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما أسروه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما قالوا، فلا يخفى عليه ما تسرون، ولا ماتضمرون.

﴿بَلْ﴾ للانتقال من غرض إلى آخر، ولا تذكر في القرآن إلا على هذا النحو ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ﴾ أي إنهم قالوا: إن ما أتى به من القرآن تخاليط أحلام رآها في النوم، فهم أضربوا عن قولهم: هو سحر إلى أنه أخلاط أحلام ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي اختلقه من عنده، فهم أضربوا ثانية إلى أنه كلام افتراء ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ أي ثم أضربوا إلى أنه قول شاعر، فما أتى به هو شعر، والانتقال في المواضع الثلاثة للدلالة على التردد والتحير في وصف القرآن ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ﴾ أي كناقة صالح، وعصا موسى ويده، ومعجزات عيسى كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى.

﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ أي ما آمن أهل قرية أهلكناها بتكذيب ما أتاها من الآيات التي جاءتهم لما اقترحوها ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ لو جئتهم بها، وهم أعتى منهم؟ لا. وفيه تنبيه على أن عدم الإتيان بالمقترح للإبقاء عليهم؛ إذ لو أتى به، ولم يؤمنوا، استوجبوا عذاب الاستئصال، كمن قبلهم.

سبب النزول:

نزول الآية (٦):

أخرج ابن جرير عن قتادة قال: قال أهل مكة للنبي ﷺ: إن كان ما تقول حقاً، ويسرّك أن نؤمن، فحوِّل لنا الصفا ذهباً، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: إن شئتَ كان الذي سألك قومك، ولكنه إن كان، ثم لم يؤمنوا، لم يُنْظَروا، وإن شئتَ استأنيتَ بقومك، قال: بل أستأني بقومي، فأنزل الله: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾.

التفسير والبيان:

ينبه الله تعالى على اقتراب الساعة ودنوها فيقول: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ أي قرب زمان حساب الناس على أعمالهم في الدنيا، وهو اقتراب الساعة، ولكن الناس في حياتهم ساهون غافلون، لاهون معرضون عن التأهب للحساب، والتفكر بالآخرة، بالمبادرة إلى الإيمان.

والمراد بالناس في رأي ابن عباس المشركون منكرو البعث، بدليل قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ وذلك للإشارة إلى أن البعث لا ريب فيه.

والظاهر أن لفظ الآية يتناول عموم الناس، وإن كان المشار إليه في ذلك الوقت كفار قريش، بدليل مابعد ذلك من الآيات، فتكون الآية لوقف الأطماع، والحث على الإقبال على الإيمان، فمن علم اقتراب الساعة، بادر إلى التوبة، ولم يركن إلى الدنيا، فكل آتٍ قريب، والموت لا محالة آتٍ، وموت كل إنسان قيام ساعته، والقيامة أيضاً قريبة بالنسبة إلى ما مضى من الزمان. قال الرازي: يجب أن يكون المراد بالناس من له مدخل في الحساب وهم المكلفون، دون من لا مدخل له.

روي أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ كان يبني جداراً، فمرّ به آخر في يوم نزول هذه السورة، فقال الذي كان يبني الجدار: ماذا نزل اليوم من القرآن؟ فقال الآخر: نزل: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ فنفض يده من البنيان، وقال: والله، لا بنيت أبداً وقد اقترب الحساب.

وفي الآية دليل على قرب القيامة، لذا قال ﷺ فيما رواه أحمد والشيخان والترمذي عن أنس: «بعثت أنا والساعة كهاتين».

ثم استدل الله تعالى على غفلة الناس، فقال:

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ أي ما يأتي أولئك الكفار من قريش وأشباههم من قرآن جديد إنزاله، ينزل سورة سورة، وآية آية، على وفق المناسبات والوقائع، إلا استمعوه وهم لاهون ساخرون مستهزئون، متشاغلة قلوبهم عن التأمل وتفهم معناه.

وهذا ذم صريح للكفار، وزجر لأمثالهم عن تعطيل الانتفاع بما يحقق لهم السعادة في الدنيا والآخرة.

وقوله ﴿مُّحْدَثٍ﴾ لا يوهم كون القرآن مخلوقاً، فإن الحروف المنطوق بها، والصوت المسموع حادث بلا شك، وأما أصل القرآن الذي هو كلام الله تعالى النفسي فهو قديم بقدم الله تعالى وصفاته القدسية.

ثم وصف الله تعالى موقف الكفار عند نزول القرآن فقال:

﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي وأخفوا التناجي والكلام فيما بينهم، بل وبالغوا في الإخفاء حتى لا يطلع أحد على تناجيهم، قائلين:

﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي هل محمد ﷺ إلا بشر كغيره من الناس أمثالكم في تكوينه وعقله وتفكيره، فكيف يختص بالرسالة دونكم؟ وهذا ناشئ من اعتقادهم أن الرسول النبي لا يكون إلا مَلَكاً، وأن كل من ادّعى الرسالة من البشر، وجاء بالمعجزة هو ساحر، ومعجزته سحر، فلذلك قالوا على سبيل الإنكار:

﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؟ أي أفتتبعونه، فتكونون كمن يأتي السحر، وهو يعلم أنه سحر، أو أتصدقون بالسحر، وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر؟!

فهم يستبعدون كون رسول الله ﷺ نبياً؛ لأنه بشر مثلهم، والرسول لا يكون إلا ملكاً، وأما ما أتى به من القرآن فهو سحر.

وإنما أسروا الحديث بينهم في ذلك للتشاور في المخلص، والتوصل إلى أنجع الطرق لهدم دينه.

فأجابهم تعالى عما افتروه واختلقوه من الكذب بقوله:

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾﴾ أي قال لهم الرسول بأمر من الله مفتضحاً أسرارهم: لا تخفوا ما تقولون، فإن الله ربي وربكم يعلم ذلك، لا يخفى عليه خافية من أمر السماء والأرض وما يحدث فيهما من أقوال وأفعال، وهو الذي أنزل القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين، وهو السميع لأقوالكم، العليم بأحوالكم.

وفي هذا تهديد لهم ووعيد.

وإنما قال: ﴿يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ﴾ ولم يقل: يعلم السر؛ لقوله المتقدم: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى﴾ لأن القول عام يشمل السر والجهر، وعلمه بالأمرين على سواء، لا تفاوت فيه، خلافاً لمعلومات الناس، فكان التعبير شاملاً للعلم بالسر وزيادة، وكان آكد في بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول: يعلم السرّ.

ثم أخبر الله تعالى عن تخبط الكفار، وتعنتهم وإلحادهم، وحيرتهم وضلالهم، وترددهم في وصف القرآن، واختلافهم في ذلك، فقال:

﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ أي إنهم وصفوا رسول الله ﷺ أولاً بأنه ساحر وأن ما يقوله سحر، ثم أضربوا عن قولهم: هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام رآها في المنام، ثم إلى أنه كلام مفترى مختلق من عنده، ثم إلى أنه قول شاعر.

وهذا الاضطراب والتردد والتحير دليل على أن قولهم باطل، يشوه الحق، ويزيف الحقائق، فهم إما جاهلون بحقيقة ما جاء به محمد ﷺ، أو عارفون الحقيقة، ولكنهم مكابرون يائسون يأس المهزوم المغلوب، فقالوا: إنه سحر وكذب.

ولما فرغوا من تعداد هذه الاحتمالات، وترداد هذه المزاعم قالوا:

﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي إن كان محمد صادقاً في أنه رسول من عند الله، وأن القرآن الموحى به إليه كلام الله، فليأتنا بآية جلية غير القرآن، لا يتطرق إليها شيء من هذه الاحتمالات، كالآيات المنقولة عن الأنبياء السابقين، مثل ناقة صالح، وآيات موسى كالعصا واليد، وعيسى كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، ونحو ذلك من المعجزات الحسية التي تثبت النبوة والرسالة.

وقوله: ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ يدل على أن تلك الآيات مسلّم بها عندهم، وتحقّق المقصود.

ثم أجابهم تعالى عن هذا السؤال الأخير مفنداً كذبهم، ومشيراً إلى عدم إفادة الآيات المنزلة، بسبب إمعانهم في الكفر، فقال:

﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾؟ أي ما أتينا

أهل قرية من القرى الذين بعث إليهم الرسل آية على يدي نبيهم، فآمنوا بها، بل كذبوا، فأهلكناهم بذلك، أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك؟

والمعنى: أنهم أشد عتواً من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات، ووعدوا أنهم يؤمنون عند مجيئها، فلما جاءتهم نكثوا العهد، وخالفوا، فأهلكهم الله، فلو أعطيناهم ما يقترحون لكانوا أشد نكثاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ١٠/٩٦-٩٧].

والخلاصة: أن عدم تلبية اقتراحاتهم هو في صالحهم، إذ لو أجابهم تعالى لما طلبوا، ثم بقوا على كفرهم وعنادهم، لنزل بهم عذاب الاستئصال، إلا أن حكمة الله اقتضت تأخير العذاب عنهم إلى الآخرة.

وأما سؤالهم فهو سؤال تعنت، والله يعلم أنهم لا يؤمنون.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - إن قيام الساعة أمر محتم لا ريب فيه، وهو قريب الحصول، وأما مرور القرون السالفة من عهد البعثة إلى يومنا هذا وإلى ما شاء الله من أزمان، فلا يدل على طول المدة؛ لأن هذه القرون قصيرة جداً في عمر الدهر والتاريخ، فما بقي من الدنيا أقل مما مضى.

٢ - الناس مع الأسف وبالرغم من قرب القيامة في غفلة وإعراض، أما الغفلة: فهي السهو عن الحساب وعن التفكر في العاقبة المحتومة، مع أن عقولهم تقتضي أنه لابد من جزاء المحسن والمسيء.

وأما الإعراض: فهو الإمعان في البعد عن القرآن وترك آياته وعدم الإيمان بالله، بالرغم من الانتباه من الغفلة والجهالة.

٣ً - لقد عطل كفار قريش مفاتيح الهداية والانتفاع بنور القرآن، وهزؤوا وسخروا من آيات الله التي تأخذ بيدهم إلى السعادة الدنيوية والأخروية.

٤ً - احتج المعتزلة على حدوث القرآن بقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ فقالوا: القرآن ذِكْر، والذكر محدث، فالقرآن محدث.

وأجابهم أهل السنة بأن المقصود بالإحداث: هو ما يسمع من حروف القرآن وأصواته، فهذا حادث لا شك. أما القرآن الذي هو كلام الله تعالى فهو قديم بقدم الله سبحانه وصفاته الحسنى.

٥ً - طعن كفار قريش في نبوة النبي محمد ﷺ بأمرين:

أحدهما - أنه بشر مثلهم.

والثاني - أن الذي أتى به سحر.

وكلا الطعنين مردود؛ لأن النبوة تثبت بالمعجزات والدلائل، لا بالصور، فكونه بشراً لا يمنع نبوته، ولو بعث إليهم الملك لما علم كونه نبياً لمجرد صورته، بل الأولى أن يكون المبعوث إلى البشر بشراً؛ لأن الإنسان يأنس بأمثاله، وهو أقرب إلى قبول الشيء من أشباهه.

ثم إن ما أتى به الرسول ﷺ من القرآن وغيره لا تمويه فيه ولا تلبيس، وليس فيه شيء من ظواهر السحر، فقد تحداهم ﷺ بالقرآن، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة، فلو قدروا على المعارضة لأتوا بما يشبه القرآن، فلما لم يأتوا بمثله، دل ذلك على كونه معجزة في نفسه.

٦ً - الحق أن قلوب الكفار ساهية معرضة عن ذكر الله، متشاغلة عن

التأمل والتفهم لمعاني القرآن، وقد تناجوا فيما بينهم بالتكذيب، وتشاوروا، فما صدر عن مشاوراتهم أعجب من موقفهم، فوصفوا محمداً ﷺ بأنه ساحر، وبأن ما أتى به سحر، وقالوا: فكيف تجيئون إليه وتتبعونه، وأنتم تشاهدون أنه إنسان مثلكم؟!

٧ً - أطلع الله نبيه ﷺ على ما تناجوا به، وأعلمهم بأن الله لا يخفى عليه شيء مما يقال في السماء والأرض، فسواء أسروا القول أم جهروا به، فإن الله به عليم.

٨ً - صور القرآن الكريم اضطراب كفار قريش وترددهم وحيرتهم في وصف النبي محمد ﷺ وفي وصف القرآن بأشد أنواع الاستهجان، فقالوا: إنه ساحر وما أتى به سحر، ثم قالوا: إن ما أتى به أخلاط كالأحلام المختلطة، رآها في المنام، ثم قالوا: إنه افتراء، ثم قالوا: إنه شاعر، فهم متحيرون لا يستقرون على شيء، قالوا مرة: سحر ومرة أضغاث أحلام، ومرة افتراء، ومرة شاعر.

ثم عدلوا عن ذلك إلى المطالبة بالآيات على صدق نبوته كالآيات التي ظهرت على يد موسى كالعصا واليد، ومثل ناقة صالح، ومثل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بوساطة عيسى، وإنما كان سؤالهم تعنتاً، فقد أعطاهم الله ما فيه الكفاية.

٩ً - اقتضت حكمة الله ورحمته تأخير العذاب عن الكفار المنكرين للبعث ولبعثة محمد ﷺ، إذ لو أجابهم تعالى إلى مطلبهم، لعجل لهم عذاب الاستئصال، كما فعل بأهل القرى المتقدمين مثل قوم صالح وقوم فرعون، فإنهم ما آمنوا بالآيات، فاستؤصلوا، فلو رأى هؤلاء ما اقترحوا لما آمنوا؛ لما سبق من القضاء في علم الله بأنهم لا يؤمنون أيضاً؛ وإنما تأخر عقابهم لعلمه تعالى بأن في أصلابهم من يؤمن.

بشرية الرسل وإنجاز الوعد لهم وجعل القرآن عظة

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾

القراءات:

﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ : قرئ:

١- (نوحي إليهم) وهي قراءة حفص.

٢- (يوحى إليهُم) وهي قراءة حمزة.

٣- (يوحى إليهِم) وهي قراءة الباقين.

﴿فَسْـَٔلُوٓا۟﴾ :

وقرأ ابن كثير، والكسائي، وحمزة وقفاً (فَسَلُوا).

الإعراب:

﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ ﴿ذِكْرُكُمْ﴾ : مرفوع بالظرف، ويجوز كونه مبتدأ، و﴿فِيهِ﴾ خبره، والجملة في موضع نصب؛ لأنها وصف ﴿كِتَٰبًا﴾.

﴿جَسَدًا﴾ على حذف مضاف أي ذوي جسد، فتوحيد الجسد على حذف مضاف، أو لإرادة الجنس أو لأنه مصدر في الأصل.

﴿لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ صفة لـ﴿جسداً﴾.

البلاغة:

﴿أَفَلَا﴾؟ إنكار توبيخي.

المفردات اللغوية:

﴿أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ هم هنا أهل الكتاب العلماء بالتوراة والإنجيل ﴿جَسَدًا﴾ الجسد هو الجسم، إلا أنه لا يطلق على غير الإنسان ﴿خَٰلِدِينَ﴾ باقين دائمين في الحياة الدنيا ﴿صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ أي نصرناهم على أعدائهم وأنجيناهم، والمراد: صدقناهم في الوعد ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾ يعني المؤمنين المصدقين لهم، ومن في إبقائه حكمة كمن سيؤمن هو أو أحد من ذريته، ولذلك حمى الله العرب من عذاب الاستئصال ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في الكفر والمعاصي، المكذبين.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ يا قريش ﴿كِتَٰبًا﴾ يعني القرآن ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي فيه سمعتكم وصيتكم، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٤٤] أو فيه موعظتكم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ تتدبرون ما فيه من المواعظ والعبر، فتؤمنوا به.

المناسبة:

هذه الآيات جواب لقول كفار قريش: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وهو أن سنة الله تعالى في الرسل قبل محمد ﷺ إرسال رجال من البشر أنبياء، فلا يكون الرسول إلا بشراً، خلافاً لما ينكرون، فلا يصح اعتراضهم في كون محمد بشراً.

التفسير والبيان:

يرد الله تعالى على من أنكر بعثة الرسل من البشر بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ أي إن جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالاً من البشر، ولم يكن

فيهم أحد من الملائكة، كما قال تعالى في آية أخرى﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٢/١٠٩] وقوله سبحانه: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٤٦/٩] وقوله حكاية عمن تقدم من الأمم الذين قالوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦٤/٦] .

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم في شك من كون جميع الرسل بشراً، فاسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة؟ فالله يأمرهم أن يسألوا علماء الكتب السابقة عن حال الرسل المتقدمة، لتزول عنهم الشبهة، وليعلموا أن رسل الله الموحى إليهم كانوا بشراً، ولم يكونوا ملائكة كما اعتقدوا.

وإنما أحالهم على أولئك؛ لأن المشركين كانوا يشاورونهم في أمر النبي ﷺ، ويثقون بقولهم، ويلتقون معهم في معاداته؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ٣/١٨٦] .

وإنما كانوا بشراً ليتمكن الناس من تلقي الوحي عنهم، والأخذ بيسر بما نزل عليهم. وهذا نص صريح في بشرية الرسل وفي كونهم رجالاً لا نساء.

﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾ أي وما جعلنا الأنبياء ذوي جسد غير طاعمين كالملائكة، بل كانوا أجساداً يأكلون الطعام، وما كانوا مخلّدين باقين في الدنيا، ونظير الآية: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٥/٧] وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٥/٢٠] .

وهذا نفي لما اعتقدوا أن من صفات الرسل الترفع عن الحاجة إلى الطعام،

فهم كانوا بشراً يأكلون الطعام، ويتصفون بكل الصفات الإنسانية، ويطرأ عليهم الحزن والسرور، والمرض، والنوم واليقظة، والحياة والموت، فلا خلود لهم في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٣٤] .

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ﴾ أي إننا نصون حياة الرسل وكراماتهم، وَنَصْدُقُهم في الوعد الذي نعدهم به من النصر على أعدائهم، وإهلاك الظالمين، وننجيهم ومن نشاء من أتباعهم المؤمنين بهم، ونهلك المكذبين لهم، المسرفين على أنفسهم بالكفر والمعاصي، المكذبين بما جاءت به الرسل.

وبعد إثبات بشرية الرسل للرد على المشركين الذين اعتقدوا بأن الرسالة من خواص الملائكة، نبّه تعالى على شرف القرآن وفضله ونفعه للناس، وحرض على معرفة قدره، فقال:

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي لقد أعطيناكم هذا القرآن العظيم المشتمل على دستور الحياة الإنسانية الفاضلة، فيه شرفكم وصيتكم وسمعتكم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٤٤] أو فيه عظتكم وتذكيركم بمحاسن الأخلاق ومكارم الشيم، والأخذ بأيديكم إلى عز الدنيا وسعادة الآخرة.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تتدبرون أمركم، وتقدرون هذه النعمة، وتتلقونها بالقبول، وتتفكرون بما اشتمل عليه هذا القرآن من العظات والعبر، فتأخذوا بما فيه، وتتجنبوا ما حذره وما نهى عنه.

وفي هذا حث شديد على تدبر أحكام القرآن وتعقل ما جاء فيه من أمور الدنيا والدين والحياة.

فقه الحياة أو الأحكام:

اشتملت الآيات على ما يأتي:

١ً - الأنبياء والرسل من جنس البشر، وليسوا من الملائكة، ليسهل الأخذ عنهم، ومناقشتهم وتفهم الموحى به إليهم، فقد ثبت بالتواتر والاستقراء والتتبع أن الرسل كانوا من البشر.

٢ً - إن سؤال أهل العلم واجب، وعلى العامة تقليد العلماء، وقد أجمع علماء الأمة الإسلامية على أن الأعمى لابدّ له من تقليد غيره ممن يثق به في الاتجاه إلى القبلة إذا أشكلت عليه، وكذلك كل من لا علم له ولا بصر بمعنى ما يدين به، لابد له من تقليد أحد العلماء. ولا يجوز للعامة الفتيا في الدين، للجهل بالمعاني التي يرتكز عليها التحليل والتحريم.

٣ً - لم يجعل الله تعالى الرسل بصفات منافية لطباع البشر، لا يحتاجون إلى طعام وشراب، بل هم كغيرهم من البشر يأكلون الطعام، ويشربون الماء، ويمشون في الأسواق، ويتعاطون شؤون الحياة والمكاسب المتعددة.

٤ً - يصون الله تعالى حياة الأنبياء ويعصمهم من الناس، وينجز لهم وعده بإنجائهم ونصرهم وإهلاك مكذبيهم، وينجي معهم المؤمنين المصدقين برسالاتهم، ويهلك الله المشركين المكذبين لهم.

٥ً - إن القرآن الكريم سبب لرفعة شأن العرب؛ لأنه نزل بلغتهم، وفيه أحكام الشرع، وبيان مصير الناس في الآخرة، وما يلقونه من ثواب وعقاب.

وهو أيضاً عظة وعبرة، يرغب ويبشر، ويحذر وينفر، ويأمر وينهى، ويرشد إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ويوضح ما فيه سعادة الدارين، ويرشد البشرية كافة إلى اتباع النظام الأصلح.

٦ً - يحث القرآن الكريم دائماً على تدبر ما جاء فيه من أحكام، وتفهم ما تضمنه من نظام سديد في الدين والدنيا والآخرة.

الإنذار بعذاب الاستئصال والتذكير بعجائب الخلق

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَـٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

القراءات:

﴿وَأَنشَأْنَا﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (وأنشانا).

﴿بَأْسَنَآ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (باسنا).

الإعراب:

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ﴾ ﴿تِّلْكَ﴾ مرفوع أو منصوب اسماً أو خبراً، وكذلك ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾.

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ ﴿مَن﴾: مبتدأ، ﴿وَلَهُۥ﴾: خبره. وذهب الأخفش إلى أنه في موضع رفع بالظرف.

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ مبتدأ وخبر، وليس معطوفاً على ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. فإن جعل معطوفاً كان قوله: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ في موضع الحال، أي غير مستكبرين، وكذلك ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي غير مستحْسرين.

البلاغة:

﴿حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ تشبيه بليغ، أي جعلناهم كالزرع المحصود، وكالنار الخامدة.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ في قوله: ﴿نَقْذِفُ﴾ استعارة تمثيلية، شُبّه الحق بشيء صلب جامد، والباطل بشيء رخو، واستعير لفظ القذف لغلبة الحق على الباطل بطريق التمثيل، كما يرمي الإنسان شيئاً فيتلفه.

المفردات اللغوية:

﴿وَكَمْ﴾ خبرية تفيد كثرة وقوع ما بعدها، فهي صيغة تكثير ﴿قَصَمْنَا﴾ أهلكنا وأصل القصم: كسر بتفريق الأجزاء وإبانة تلاؤمها، وهو يدل على غضب عظيم. أما الفصم فلا يدل على تفريق الأجزاء، فهو كسر من غير إبانة ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ أي أهل قرية ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ كافرة، وهي صفة لأهلها، ووصف بها القرية؛ لأنها أقيمت مقام أهلها ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ بعد إهلاك أهلها ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ مكانهم.

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ أي أدركوا شدة عذابنا إدراك المشاهد المحسوس، والضمير عائد لأهل القرية المحذوف، أي شعر أهل القرية بالإهلاك. والإحساس: الإدراك بالحاسة، وهو هنا الإدراك بحاسة البصر، والبأس: الشدة ﴿يَرْكُضُونَ﴾ يهربون مسرعين، والركض: الفرار والهرب بسرعة، وأصله: ضرب الدابة وكدُّها بالرجل، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص: ٣٨/ ٤٢].

﴿أُتْرِفْتُمْ﴾ أي نعمتم، والإتراف: التنعم والتلذذ، أو إبطار النعمة. ﴿وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾ التي كانت لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي لتسألوا غداً عن أعمالكم أو تعذبون، فإن السؤال من مقدمات العذاب ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾ ياهلاكنا، ويا: للتنبيه ﴿ظَٰلِمِينَ﴾ بالكفر ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ﴾ الكلمات ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي دعوتهم التي يردّدونها، أي ما زالوا يكررون تلك الكلمة ﴿حَصِيدًا﴾ محصودين، كما يحصد الزرع بالمناجل، بأن قتلوا بالسيف ﴿خَٰمِدِينَ﴾ ميتين، كخمود النار إذا طفئت.

﴿لَٰعِبِينَ﴾ عابثين، بل دالين على قدرتنا ومرشدين عبادنا ﴿لَهْوًا﴾ ما يلهى به من زوجة أو ولد. والفرق بين اللعب واللهو: أن الأول لا يقصد به هدف صحيح، والثاني يقصد به الترويح عن النفس ﴿مِن لَّدُنَّآ﴾ من عندنا من الحور العين والملائكة ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ذلك، لكنا لم نفعله فلم نُرِدْه.

﴿نَقْذِفُ﴾ نرمي رمياً بعيداً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الإيمان ﴿عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ الكفر ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ يذهبه ويقهره ويهلكه، وأصل الدمغ: كسر الشيء الرخو، وإصابة الدماغ بالضرب، وهو مقتل ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ ذاهب وهالك وزائل ﴿وَلَكُمُ﴾ ياكفار مكة ﴿ٱلْوَيْلُ﴾ العذاب الشديد ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ الله به من الزوجة أو الولد.

﴿وَلَهُۥ﴾ لله تعالى ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ لا يتعظمون ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ لا يكِلون ولا يعيون ولا يتعبون ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ ينزهونه ويعظمونه دائماً ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ لا يضعفون.

المناسبة:

هذه الآيات مبالغة في زجر الكفار عن عصيانهم وكفرهم، فبعد أن أبان الله تعالى أنه أهلك المسرفين في تكذيبهم وكفرهم بالله، ونصر الأنبياء المرسلين عليهم، وأسقط اعتراضاتهم التي أظهرت إعجاز القرآن، وأوضحت أن إيراد

تلك الاعتراضات كان لحب الدنيا وحب الرياسة فيها، بالغ تعالى في زجرهم عن ذلك، فقال:

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾ أي كثيراً ما أهلكنا من أهل القرى الذين كانوا ظالمين أنفسهم بالكفر بالله وتكذيب الرسل، وأوجدنا وأحدثنا بعد إهلاكهم قوماً آخرين مكانهم، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٧] وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الحج: ٢٢/ ٤٥] .

والمراد بالقرية: مدائن كانت باليمن، وقال أهل التفسير والأخبار: إنه أراد أهل حَضُور، وكان بعث إليهم نبي اسمه شعيب بن ذي مَهْدَم، وقبر شعيب هذا باليمن بجبل يقال له: ضنن كثير الثلج، وليس بشعيب صاحب مدين؛ لأن قصة «حَضُور» قبل زمن عيسى عليه السلام، وبعد مئات من السنين من زمن سليمان عليه السلام، لكنهم قتلوا نبيهم، وكانت «حضور» بأرض الحجاز من ناحية الشام (١).

﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي فلما تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة، كما وعدهم نبيهم، إذا هم يفرون هاربين منهزمين من قريتهم، لما أدركتهم مقدمة العذاب.

﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ أي يقال لهم تهكماً واستهزاء: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب، وارجعوا إلى ماكنتم فيه من النعمة التي أبطرتكم والسرور، والمعيشة الرغيدة، والمساكن الطيبة، لعلكم تسألون عما كنتم فيه، فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة، أو يسألكم الناس: لماذا نزل هذا العذاب؟!

---

(١) تفسير القرطبي: ١١/ ٢٧٤

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ تهكم بهم وتوبيخ، فأجابوا:

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾﴾ أي إنهم اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك، فقالوا: ياهلاكنا، إنا ظلمنا أنفسنا بكفرنا بربنا. وهذا اعتراف صريح منهم بالكفر الموجب للعذاب.

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي فما زالوا يرددون تلك المقالة، وهي الاعتراف بالظلم، حتى حصدناهم حصداً، وخمدت حركاتهم، وسكنت أصواتهم خموداً كالنار التي أصبحت خامدة لا حياة فيها. فقوله: ﴿تِّلْكَ﴾ إشارة إلى قولهم: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ الخ؛ لأنها دعوى، كأنه قيل: فما زالت تلك الدعوى دعواهم. والدعوى هنا بمعنى الدعوة أي المطلب، قال تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠/١٠] وسميت دعوى؛ لأنهم كانوا دعوا بالويل فقالوا: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ والمولول كأنه يدعو الويل، فيقول: تعال ياويل، فهذا وقتك. والحصيد: الزرع المحصود، أي جعلناهم مثل الحصيد، تشبيهاً لهم به في استئصالهم، كما تقول: جعلناهم رماداً، أي مثل الرماد، فهم يشبهون الحصيد والخمود.

وعقابهم هذا حق وعدل جزاء إنكارهم النبوة، وجعلهم معجزات النبي عبثاً ولعباً، لذا أبان تعالى أنه ما خلق السماء والأرض وما بينهما إلا بالعدل فقال:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ أي وما أوجدنا السماوات والأرضين إلا بالحق، أي بالعدل والقسط، لا للهو واللعب، فإنا خلقناها لفائدة دينية هي أن تكون دليلاً على معرفة الخالق لها، ولمنافع أخرى دنيوية وغيرها، وليجزي الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، وأنه لم يخلق ذلك عبثاً ولعباً.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٢٧] ثم أكد تعالى نفي اللعب فقال:

﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي لو شئنا أن نتخذ ما يلهو كما يتخذ العباد من الزوج والولد، لاتخذناه مما لدينا من الملائكة والحور العين، إن كنا نقصد اللهو ونفعل اللعب. واللهو: المرأة بلسان أهل اليمن، والولد أيضاً؛ لأنه ملازم للمرأة.

وهو كقوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٤]. وهذا رد على من اتخذ المسيح أو عزيراً ابناً لله تعالى.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ﴾ أي بل إننا نبين الحق، فيدحض الباطل ويزيله، فإذا هو زائل مبدَّد، ذاهب مضمحل. و﴿بَلْ﴾ هنا إضراب عن اتخاذ اللهو واللعب، وتنزيه منه لذاته، فليس من صفاتنا وحكمتنا اللعب، وإنما إيثار الجد على اللهو، ودحض الباطل بالحق، كأنه قال: سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب، بل من عادتنا إيثار الجد على اللهو، ودحض الباطل بالحق.

وقد استعار القذف والدمغ لضياع الباطل وفنائه، لتصويره بالصورة الحسية المؤثرة التي ترسخ في الأذهان، وتدل على قوة الحق، وضعف الباطل، حتى لكأنه غير موجود.

وإذا كان هذا من شأننا فكيف لا نبين الحق وننذر الناس، وإلا كنا لاهين لاعبين. فقوله: ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ معناه: ماكنا فاعلين، مثل ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [فاطر: ٣٥/ ٢٣] أي ما أنت إلا نذير. و﴿إِنْ﴾ بمعنى الجحد، وقيل: إنها بمعنى الشرط، أي إن كنا فاعلين ذلك ولكن لسنا بفاعلين ذلك؛

لاستحالة أن يكون لنا ولد.

﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي ولكم أيها القائلون: لله ولد، أو أيها المشركون الظالمون الهلاك والدمار والعذاب الشديد؛ لوصفكم ربكم بما ليس من صفته، وتقولكم وافترائكم عليه أنه اتخذ صاحبة أو زوجة، وولداً، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي وكيف يكون لله شريك خاص، وهو مالك جميع من في السماوات والأرض، وكيف تتنكرون لطاعته، وله تعالى جميع المخلوقات ملكاً وخلقاً وعبيداً؟! الكل ومنهم الملائكة طائعون خاضعون له، دأبهم الطاعة ليلاً ونهاراً، لذا قال:

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي وجميع من عنده من الملائكة لا يترفعون عن عبادته، ولا يعيون ولا يتعبون ولا يملون. والعندية هنا ليست مكانية، وإنما هي عندية مكانة وتشريف. وتخصيص الملائكة بالذكر هنا لإبانة رفعة شأنهم.

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي يعبدون الله وينزهونه في الليل والنهار، فهم دائبون في العمل ليلاً ونهاراً، مطيعون قصداً وعملاً، قادرون عليه، لا ينقطعون عن الطاعة ولا يفترون ساعة عنها، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦٦/٦] .

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى مايأتي:

١ - الإنذار الشديد الأكيد لأهل الكفر والعصيان الذين أنكروا النبوات بحال أهل القرى الظالمة الكافرة، حيث دمرها الله تعالى تدميراً شديداً بمن فيها، لظلمهم، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وهم وضعوا الكفر

موضع الإيمان.

٢ً - عند دُنُوّ العذاب تقع الحيرة والاضطراب، وتحدث محاولات الفرار من القرية، فيركض أهلها هاربين منها، والركض: العَدْو بشدة الوطء، فتناديهم الملائكة استهزاء: لا تركضوا ولا تفرّوا، وارجعوا إلى مواطن الترف والنعم التي كانت سبب بطركم، لعلكم تُسألون شيئاً من دنياكم، استهزاء بهم.

ولما قالت لهم الملائكة: ﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾ ونادت: يالثارات الأنبياء! ولم يروا شخصاً يكلمهم، عرفوا أن الله عز وجل هو الذي سلط عليهم عدوهم، بقتلهم النبي الذي بعث فيهم، فقالوا: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ وهذا اعتراف منهم بأنهم ظلموا، حين لا ينفع الاعتراف.

وما زالوا يقولون: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ حتى أصبحوا أثراً بعد عين، وجثثاً هامدة لا حراك فيها، وتم استئصالهم، وحصدوا بالسيوف كما يحصد الزرع بالمنجل، وصاروا خامدين ميتين.

٣ً - لما بيَّن الله تعالى إهلاك أهل القرية لأجل تكذيبهم، أتبعه بما يدل على أنه فعل ذلك عدلاً منه، ومجازاة على ما فعلوا، وهو خلق السماوات والأرض بالعدل والقسط: ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٤٤/٣٩] فهو تعالى خلقها لفوائد دينية ودنيوية، أما الدينية: فليتفكر المتفكرون فيها، كما قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٣/١٩١] وأما الدنيوية: فلما يتعلق بها من المنافع التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى.

وبما أن خلق السماوات والأرض حق لا لعب فيه، فإن المعجزات التي ظهرت على يد النبي ﷺ هي حق أيضاً لا لعب فيها، تقرر صحة نبوته، وترد على منكريها.

٤ً - إن خلق السماوات والأرض للتنبيه على أن لها خالقاً قادراً يجب امتثال أمره، وأنه يجازي المسيء والمحسن، وليس خلقها ليظلم بعض الناس بعضاً، ويكفر بعضهم، ويخالف بعضهم ما أمر به، ثم يموتوا ولا يجازوا، فذلك هو اللعب بعينه.

٥ً - تعالى الله وتقدس وتنزه عن اتخاذ الزوجة والولد، فذلك من اللهو، ولو أراد الله أن يتخذ لهواً من زوجة أو ولد لاتخذه من عنده لا من عند الناس. وهذا رد واضح على من قال: المسيح أو عزير ابن الله، والأصنام أو الملائكة بنات الله تعالى.

٦ً - يبين الله تعالى الحق ومنهجه لدحر الباطل وزخارفه، والحق هنا: القرآن، والباطل: الشيطان وكذب الكفار ووصفهم الله عز وجل بغير صفاته من الولد وغيره. وللكفار الويل، أي العذاب في الآخرة بسبب وصفهم الرب بما لا يجوز وصفه وهو اتخاذه سبحانه الولد.

٧ً - إذا كان كل من في السماوات والأرض لله خلقاً وملكاً، فكيف يجوز أن يشرك به ماهو عبده وخلقه؟!

وأما الملائكة الذين ذكر المشركون أنهم بنات الله فلا يأنفون عن عبادة الله والتذلل له، ولا يعيون ولا يتعبون ولا يملون، وهم دائماً في الليل والنهار يصلون ويذكرون الله وينزهونه دائماً، لا يضعفون ولا يسأمون، يلهمون التسبيح والتقديس كما يُلهَمون النَّفَس. سئل كعب عن تسبيح الملائكة: أما لهم شغل عن التسبيح، أما يشغلهم عنه شيء؟ فقال: ياابن أخي، هل يشغلك شيء عن النَّفَس؟ إن التسبيح لهم بمنزلة النفَس. وقد استدل بهذا من قال: إن الملائكة أفضل من بني آدم [١].

(١) تفسير القرطبي: ١١/ ٢٧٨

وهذا دليل على استغناء الله تعالى عن طاعة الكفار؛ لأنه هو المالك لجميع المخلوقات، وإنما فائدة الطاعة تعود على الطائعين أنفسهم، فأجدر بهم أن يطيعوه، وأولى بهم أن يعبدوه، بل يجب عليهم طاعته والانقياد لحكمه؛ لأن كل المكلفين في السماء والأرض عبيده، وهو الخالق لهم، والمنعم عليهم بأصناف النعم.

توبيخ المشركين وإثبات الوحدانية

﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) ۞ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)﴾

القراءات:

﴿مَعِيَ﴾ :

قرأ حفص (معيَ).

وقرأ الباقون (مَعِيْ).

﴿نُوحِي إِلَيْهِ﴾ : قرئ:

١- (نوحِي إليه) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (يُوحَى إليه) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو (ومن يقل منهم إنيَ إله).

الإعراب:

﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ صفة لآلهة، أو متعلقة بالفعل، على معنى الابتداء، وفائدتها التحقير لا التخصيص.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: ﴿إِلَّا﴾: في موضع (غير) وهي وصف لـ ﴿ءَالِهَةٌ﴾ وتقديره: غير الله، ولهذا أعربت إعراب الاسم الواقع بعد ﴿إِلَّا﴾ وهو الرفع. ولا يجوز أن يكون الرفع على البدل؛ لأن البدل إنما يكون في النفي لا في الإثبات، وهذا في حكم الإثبات. وذهب الفراء إلى أن ﴿إِلَّا﴾ بمعنى «سوى».

﴿ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ ذكر غير منون: مضاف إلى ﴿مَن﴾ الذي هو مضاف إليه. ويقرأ بتنوين على تقدير محذوف، أي ذِكْرٌ ذِكْرُ من معي.

﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ منصوب بيعلمون. وقرأ الحسن ﴿ٱلْحَقَّ﴾ بالرفع بتقدير مبتدأ محذوف، أي هو الحق.

﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ ﴿عِبَادٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف، تقديره: بل هم عباد مكرَمون. وأجاز الفراء: (بل عباداً مكرمين) على تقدير: بل خَلَقهم عباداً مكرمين.

البلاغة:

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ طباق السلب.

﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ تبكيت للخصم.

﴿أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ فيهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟﴾ أي بل اتخذوا، للانتقال، والهمزة لإنكار اتخاذهم ﴿ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي آلهة كائنة من الأرض، كحجر وذهب وفضة ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ أي الآلهة يحيون الموتى من قبورهم، من أنشره: أي أحياه؟ لا، فلا يكون إلهاً إلا من يحيي الموتى، فالنشر: إحياء الموتى من قبورهم، والحشر: سوقهم إلى أرض المحشر.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ﴾ أي في السماوات والأرض ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ غيره ﴿لَفَسَدَتَا﴾ لبطلتا وخربتا وخرجتا عن نظامهما المشاهد؛ لما يكون بينهما من الاختلاف والتمانع، على وفق العادة، فإنه عند تعدد الحاكم والاتفاق في المراد، يحدث التنافر في القدرات، إذ بأي قدرة لهما سيوجد؟! وعند الاختلاف يحدث التمانع في الشيء وعدم وجوده، مثلاً لو اختلفا في تحريك زيد وتسكينه، فلا يمكن حدوث المرادين لاستحالة الجمع بين الضدين، ولا يمكن حدوث أحد المرادين لمعارضة الآخر، وإذا حدث كان أحد الإلهين قادراً والآخر عاجزاً، والعجز نقص، وهو على الله محال.

﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ﴾ تنزيهاً لله عما وصفوه به ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ خالق الكرسي ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزيهاً لله عما يصف الكفار الله به من الشريك له، وغير ذلك.

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لعظمته وقوة سلطانه وتفرده بالألوهية والسلطنة الذاتية ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ عن أفعالهم؛ لأنهم مملوكون مستعبدون، والضمير للآلهة المزعومة أو للعباد.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ﴾ أي بل اتخذوا من دون الله تعالى أي سواه آلهة، وفيه استفهام توبيخ، وكرره استعظاماً لكفرهم، وتبكيتاً، وإظهاراً لجهلهم، والمعنى: أوجدوا آلهة يُنشرون الموتى، فاتخذوهم آلهة، لما وجدوا فيهم من خواص الألوهية، أو وجدوا في الكتب الإلهية الأمر بإشراكهم، فاتخذوهم تنفيذاً للأمر، ثم أبان فساد الأول عقلاً، والثاني نقلاً، فقال:

﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْۖ﴾ أي أحضروا برهانكم على ذلك من العقل أو النقل، فإنه لا يصح القول بما لا دليل عليه.

﴿هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾ أي هذا هو القرآن المنزل على من معي أي على أمتي أي عظة لهم ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ﴾ أي والكتب السماوية المنزلة على الأمم قبلي وهي عظة لهم، وهي التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله، ليس في واحد منها أن مع الله إلهاً، مما قالوا، وإنما فيها الأمر بالتوحيد، والنهي عن الإشراك. وإضافة الذكر إليهم؛ لأنه عظتهم.

﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ﴾ أي توحيد الله، ولا يميزون بين الحق والباطل ﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن التوحيد واتباع الرسول من أجل ذلك، وعن النظر الموصل إليه.

﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ أي وحدوني ﴿وَلَدًاۗ﴾ من الملائكة ﴿سُبْحَـٰنَهُۥۚ﴾ تنزيه له عن ذلك .﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي بل هم ﴿عِبَادٌ﴾ مخلوقون، عنده ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ : مقربون لديه، والعبودية تنافي الولادة، فليسوا بأولاد.

﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ أي لا يتكلمون حتى يأمرهم، ولا يأتون بقولهم إلا بعد قوله ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ لا يعملون قط مالم يأمرهم به، ويعملون بعد أمره ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي يعلم ما عملوا وما هم عاملون، لا يخفى عليه خافية مما قدموا وأخروا، وهو كالعلة لما قبله،

والتمهيد لما بعده، وبذلك يضبطون أنفسهم، ويراقبون أحوالهم .﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ أن يشفع له، مهابة منه ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ﴾ أي من عظمته ومهابته تعالى ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون مرتعدون.

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ من الملائكة أو من الخلائق ﴿إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ﴾ أي غير الله وهو إبليس، دعا إلى عبادة نفسه، وأمر بطاعتها ﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ هذا تهديد للمشركين بتهديد مدعي الربوبية ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ المشركين أي من أظلم بالإشراك وادعاء الربوبية.

المناسبة:

ما تقدم من أول السورة إلى هنا كان في النبوات، وما يتعلق بها سؤالاً وجواباً، وأما هذه الآيات فإنها في بيان التوحيد، ونفي الشريك.

التفسير والبيان:

﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي بل اتخذ المشركون آلهة من الأرض من دون الله يحيون الموتى من قبورهم، أي لا يقدرون على شيء من ذلك، فكيف جعلوها لله نداً وعبدوها معه؟! قال الزمخشري: و﴿أَمِ﴾ هنا - أي مع الاستفهام - هي المنقطعة الكائنة بمعنى «بل» الإضرابية، والهمزة قد آذنت بالإضراب عما قبلها، والإنكار لما بعدها، وهو اتخاذهم آلهة يُنشرون الموتى.

والمراد بالآية التذكير بخواص الألوهية التي منها إحياء الموتى من قبورهم، فإن المشركين وإن لم يصرحوا بذلك، فإنهم بادعائهم الألوهية لها يثبتون تلك الصفة لها. ووصف الآلهة بكونها من الأرض إشارة إلى أنها من الأصنام المعبودة في الأرض. وهذا تهكم بهم وتوبيخ وتجهيل لهم.

ثم أثبت الله تعالى التوحيد ونفي وجود إله غير الله، فقال:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ أي لو كان في السماوات والأرض آلهة غير الله لخربتا وفسد نظامهما؛ لأنهما إذا اختلفا وقع الاضطراب والخلل والفساد، وإن اتفقا في التصرف في الكون، فلا داعي للتعدد؛ لأنه يؤدي إلى وجود الخلْق والأمر والمقدور من خالقين قادرين على مخلوق واحد، وهذا محال؛ لأنه يجعل وقوع المقدور والمراد للاثنين، لا لواحد منهما، وهذا لا يصح؛ لأن لكل منهما إرادة مستقلة بالتأثير، فلا يعقل وقوع مخلوق لخالقين.

وبناء عليه يكون جميع ما في هذا العالم العلوي والسفلي من المخلوقات دليل وحدانية الله تعالى، لذا قال:

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزه الله تعالى وتقدس عن الذي يفترون ويقولون: إن له ولداً أو شريكاً، وتعالى عما يأفكون علواً كبيراً، فهو رب العرش المحيط بهذا الكون.

ونظير الآية: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٩١].

وتأكيداً لهذا التنزيه قال تعالى:

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي لا يسأل تعالى عن أفعاله، فهو الحاكم الذي لا معقّب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد، لعظمته وجلاله وكبريائه، وعلمه وحكمته، وعدله ولطفه، وإنما يسأل خلقه عن أفعالهم، ما عملوا وما سيعملون، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٩٢-٩٣] وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٨٨].

ثم كرر تعالى الإنكار على المشركين استفظاعاً لشأنهم، واستعظاماً لكفرهم

فقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي أيصح بعد هذه الأدلة أن يتخذوا آلهة دون الله، ويصفوا الله بأن له شريكاً؟ فإن وصفتم الله تعالى بأن له شريكاً، فهاتوا برهانكم على ذلك، إما من العقل وإما من الوحي، فإنكم لا تجدون كتاباً من كتب الأولين كالتوراة والإنجيل إلا وفيه تقرير توحيد الله وتنزيهه عن الشركاء، كما أن العقل كما تقدم يرفض وجود إلهين، وأشار فيما يأتي إلى الدليل النقلي فقال:

﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ أي هذا الوحي الوارد في معنى توحيد الله ونفي الشركاء عنه، ورد علي، كما ورد على جميع الأنبياء، فهو ذكر أي عظة للذين معي أي أمتي، وعظة للذين من قبلي أي أمم الأنبياء السابقين عليهم السلام. وبذلك اتفق القرآن وجميع الكتب السماوية السابقة على الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، وهذا تبكيت للمشركين يتضمن نقيض مدَّعاهم.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ أي بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعرفون الحق، ويعرضون عنه، ولا يميزون بين الحق والباطل، فلا تنفع فيهم الأدلة والبراهين.

﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي فهم لجهلهم معرضون عن قبول الحق وعن النظر المؤدي إليه. وهذا دليل على أن الجهل أو عدم العلم هو أصل الشر والفساد كله، وأنه يترتب على عدم العلم الإعراض عن استماع الحق وطلبه.

وتأكيداً لمضمون الكتب والرسالات السماوية بالتوحيد ونبذ الشرك قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ أي لم نرسل رسولاً سابقاً من عهد آدم عليه السلام إلى قومه إلا أوحينا إليه ألا معبود إلا الله، فاعبدوه مخلصين له العبادة، وخصوه بالألوهية، فرسالات جميع الأنبياء قائمة على التوحيد، وكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لاشريك له.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن

دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٤٥] وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ١٦/ ٣٦].

والخلاصة: أنه لا دليل للمشركين على ما زعموا، فلا برهان لهم، وحجتهم داحضة؛ لأن الفطرة تشهد بتوحيد الله، وكذلك العقل السليم، ورسالات جميع الأنبياء متحدة في دفع الشرك وإقرار التوحيد.

وبعد التنزيه عن الشريك، نفى تعالى اتخاذ الولد فقال:

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ أي وقال بعض العرب وهم بطون من خُزاعة وجُهَيْنة وبني سَلَمة: الملائكة بنات الله، فرد الله عليهم بقوله:

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي تنزيهاً له عن الولد، فإن الولد يشبه أباه في شيء، ويخالفه في أشياء، فلو كان لله ولد لأشبهه من بعض الوجوه، وخالفه من وجوه أخرى، فيقع التركيب في ذات الله تعالى، والله سبحانه منزه عن مشابهة الحوادث، ولا مجانسة بين الخالق والمخلوق.

ولما نزه سبحانه نفسه عن الولد، أخبر عن الملائكة بقوله:

﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي ليس الملائكة بنات الله، بل هم عباد مخلوقون له، مقربون لديه، والعبودية تنافي الولادة، إلا أنهم مفضلون على سائر العباد. ومن خصائصهم أنهم:

١ - ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ربهم، ولا يخالفونه فيما أمرهم به، بل يبادرون إلى فعله، وهو تعالى عالم محيط علمه بهم، فلا يخفى عليه منهم خافية، كما قال:

٢ - ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي يعلم ما تقدم منهم من عمل،

وما هم عاملون في المستقبل، أي كما أن قولهم تابع لقول الله، فعملهم أيضاً مبني على أمره، لا يعملون عملاً مالم يؤمروا به، وجميع ما يأتون ويذرون في علم الله واطلاعه، وهو مجازيهم عليه، فلا يزالون يراقبونه في جميع أحوالهم، ويضبطون أنفسهم عن أي مخالفة لأمره.

٣ - ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ أي لا يجسرون أن يشفعوا إلا لمن ارتضاه الله، وأهّله للشفاعة، فلا تُعلقوا الآمال على شفاعتهم بغير رضا الله تعالى.

٤ - ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ أي إنهم مع هذا كله من خوف الله ورهبته خائفون حذرون مراقبون ربهم.

وبعد أن وصف كرامتهم عليه وقرب منزلتهم عنده، ووصفهم بتلك الأفعال السنية، فاجأ من أشرك منهم بالوعيد الشديد، وأنذرهم بعذاب جهنم، فقال:

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ أي ومن يدّعي منهم على سبيل الافتراض أنه إله من دون الله، أي مع الله، كإبليس حيث ادعى الألوهية، ودعا إلى عبادة نفسه، فجزاؤه جهنم على ما ادّعى. وأما الملائكة فلم يقل أحد منهم: إني إله غير الله.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء نجزي كل من ظلم نفسه، وقال ذلك، وهم المشركون. قال ابن كثير: وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه، كقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف: ٨١/٤٣] . وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥/٣٩] .

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١ - الإنكار الشديد على من اتخذ آلهة أخرى مع الله، وتوبيخ المشركين على اتخاذهم آلهة ليس لها خواص الألوهية، ومنها الإحياء بعد الإماتة وهو النشر.

٢ - إن تعدد الآلهة سبب مؤد لفساد نظام العالم والكون من السماوات والأرض، وتخريبها وهلاك من فيهما بوقوع التنازع والاختلاف الواقع بين الشركاء عادة، لذا نزَّه الله تعالى نفسه، وأمر العباد أن ينزهوه عن أن يكون له شريك أو ولد.

وقد استدل الرازي بأدلة أخرى عقلية ونقلية على وحدانية الله تعالى، وهي اثنان وعشرون دليلاً، أربعة عشر منها عقلية، وثمانية نقلية سمعية، وأقوى الأدلة العقلية: أنه لو فرضنا وجود إلهين، لافتقر أحدهما إلى الآخر؛ لأنه يصبح مركباً من ذاته ومما يشاركه به الآخر، وكل مركب هو مفتقر إلى جزئه، وكل مفتقر إلى غيره ممكن، والإله واجب الوجود لذاته غير ممكن لذاته، فإذن ليس واجب الوجود إلا الواحد، وكل ما عداه مفتقر إليه، وكل مفتقر إلى غيره فهو محدث، فكل ما سوى الله تعالى محدث.

ومن الأدلة النقلية هذه الآية: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ وهو كقوله: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٩١] وقد صرح الله تعالى بكلمة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في سبعة وثلاثين موضعاً من القرآن، وصرح بالوحدانية في موضعين فقط، وهما قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٣] وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١١٢/ ١] [1].

٣ - لا يُسْأَلُ عما يفعل وهم يُسْأَلون، أي لا يسأله الخلق عن قضائه في خلقه، وهو يسأل الخلق عن عملهم؛ لأنهم عبيد. وهذا يدل على أن من يسأل غداً عن أعماله، كالمسيح والملائكة لا يصلح للألوهية، وعلى كون المكلفين مسؤولين عن أفعالهم.

---

(١) تفسير الرازي: ٢٢/ ١٥٢ - ١٥٤

روي عن علي رضي الله عنه أن رجلاً قال له: يا أمير المؤمنين: أيحب ربنا أن يُعصى؟ قال: أفيُعصى ربُّنا قهراً؟ قال - أي الرجل -: أرأيت إن منعني الهدى، ومنحني الردى أأحسن إلي أم أساء؟ قال: إن منعك حقك فقد أساء، وإن منعك فضله، فهو فضله يؤتيه من يشاء، ثم تلا: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

وعن ابن عباس قال: لما بعث الله عز وجل موسى وكلمه، وأنزل عليه التوراة، قال: اللهم إنك رب عظيم، لو شئت أن تطاع لأُطِعتَ، ولو شئت ألا تُعصى ما عُصيت، وأنت تحب أن تطاع، وأنت في ذلك تُعصى، فكيف هذا يا ربّ؟ فأوحى الله إليه: إني لا أُسْأَلُ عما أفعل، وهم يسألون.

٤ - أعاد الله تعالى في الآيات التعجب من اتخاذ الآلهة من دون الله، مبالغة في التوبيخ، على وصفهم المتقدم في الإنشاء والإحياء، فتكون ﴿أَمِ﴾ بمعنى هل، أي هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من دون الله؟ فليأتوا بالبرهان على ذلك.

وقيل: إن التعجب الأول: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ احتجاج من حيث المعقول؛ لأنه قال: ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ أي يحيون الموتى. والثاني ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ احتجاج بالمنقول، أي هاتوا برهانكم من الكتب السماوية، ففي أي كتاب نزل هذا؟ في القرآن، أم في الكتب المنزلة على سائر الأنبياء؟!

٥ - إن الجهل هو المصدر الأصيل في فساد عقائد المشركين: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ﴾.

٦ - جميع الرسل والأنبياء أوحى الله إليهم أنه لا إله إلا الله، فأدلة العقل شاهدة أنه لا شريك له، والنقل عن جميع الأنبياء موجود، والدليل إما معقول وإما منقول. قال قتادة: لم يرسل نبي إلا بالتوحيد، والشرائع مختلفة في التوراة

والإنجيل والقرآن، وكل ذلك على الإخلاص والتوحيد. أي إن دعوة الرسل جميعاً جاءت لبيان التوحيد.

٧ - ردّ الله تعالى على بعض العرب الذين كانوا يقولون: الملائكة بنات الله بتنزيه نفسه عن اتخاذ الولد، قيل: نزلت آية ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ في خزاعة، حيث قالوا: الملائكة بنات الله، وكانوا يعبدونهم طمعاً في شفاعتهم لهم.

وبعد التنزيه ذكر الله خمس صفات للملائكة تدل على العبودية ونفي الولادة وهي:

أ - المبالغة في طاعة الله، فهم لا يقولون قولاً ولا يفعلون فعلاً إلا بأمر الله، وهذه صفات العبيد، لا صفات الأولاد.

ب - إن الله تعالى يعلم أسرارهم، وهم لا يعلمون أسراره، فهو المستحق للعبادة، لا هم.

جـ - إنهم لا يشفعون إلا بإذن الله ورضاه، ومن كان إلهاً لا يحتاج لإذن أحد.

د - إنهم أشد الخلق خوفاً من الله، وذلك من صفات العبيد.

هـ - الملائكة وإن أكرموا بالعصمة، فهم كسائر المكلفين مسؤولون موجه لهم الوعد والوعيد، فلا يتصور كونهم آلهة. وهذه الآية تدل على كون الملائكة مكلفين، وعلى أنهم معصومون، وعلى أنهم مُتَوَعَّدون.

٨ - كما يجزي الله تعالى بالنار كل من ادعى الشركة مع الله، ودعا إلى عبادة نفسه كإبليس، فكذلك يجزي الظالمين الواضعين الألوهية والعبادة في غير موضعهما.

توبيخ آخر للمشركين على عدم تدبر آيات الكون الدالة على وجود الإله الواحد

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾

القراءات:

﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ :

وقرأ ابن كثير (أَلَمْ ير).

الإعراب:

﴿رَتْقًا﴾ قال ذلك، ولم يقل: رتقين؛ لأنه مصدر، وتقديره: كانتا ذواتي رَتْق.

﴿سُبُلًا﴾ بدل.

﴿يَسْبَحُونَ﴾ أتى بالواو والنون، وهي إنما تكون لمن يعقل؛ لأنه أخبر عنها بفعل من يعقل، فأجراها مجرى من يعقل، كقوله تعالى: ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ و﴿كُلٌّ﴾ : مبتدأ، وجملة: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ : خبره، والجملة منهما حال من ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾.

البلاغة:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ استفهام معناه التعجب والإنكار.

﴿رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ بين الرتق والفتق طباق.

﴿يَهْتَدُونَ﴾، ﴿يَسْبَحُونَ﴾ بينهما سجع لطيف.

﴿كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ التنكير للتعميم.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ التفات من المتكلم إلى الغائب بعد قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ للفت النظر إلى النعم الجليلة والاعتناء بها.

المفردات اللغوية:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أو لم يعلموا. ﴿رَتْقًا﴾ الرتق: السد والضم والالتحام، والمراد: ذات رتق، أي ملتزقتين. والمعنى: كانتا شيئاً واحداً، أو حقيقة متحدة. ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ أي فصلناهما بالتنويع والتمييز، فجعلنا السماء سبعاً والأرض سبعاً. والفتق: الفصل بين الشيئين الملتصقين. ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ أي وخلقنا من الماء كل حيوان سواء النازل من السماء والنابع من الأرض. ﴿كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أي صيرنا كل شيء حي بسبب من الماء، لا يحيى دونه، سواء النبات وغيره، فالماء سبب لحياته. ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ بتوحيدي، مع ظهور الآيات.

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أي جبالاً ثوابت. ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي لئلا تتحرك بهم، أو كراهة أن تميل بهم وتضطرب. ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي في الرواسي. ﴿فِجَاجًا سُبُلًا﴾ أي مسالك وطرقاً نافذة واسعة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي ليهتدوا بها إلى مصالحهم ومقاصدهم في الأسفار والزراعة.

﴿سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ أي سقفاً للأرض، مثل سقف البيت، محفوظاً من الوقوع بقدرته، أو من الفساد والانحلال إلى الوقت المعلوم بمشيئته. ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا﴾ أي عن أحوالها الدالة على وجود الله ووحدته وكمال قدرته وروعة حكمته، بما اشتملت عليه من الشمس والقمر والنجوم. ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكرون فيها، فيعلمون أن خالقها لا شريك له.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ بيان لبعض تلك الآيات. ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ﴾ أي كل واحد منهما له مدار مستدير، والتنوين: بدل من المضاف إليه، أي كل من الشمس والقمر وتابعهما وهو النجوم. والمراد بالفلك: الجنس، وهو مدار الشمس والقمر والنجوم .﴿يَسْبَحُونَ﴾ يسيرون على سطح الفلك بسرعة، كالسابح في الماء، وللتشبيه به، وإنما جمع الفعل باعتبار جنس الطوالع المتكاثرة كل يوم وليلة، وهو سبب جمعهما بالشموس والأقمار، وإلا فالشمس واحدة والقمر واحد. وعوملوا معاملة العقَلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة.

المناسبة:

بعد أن وبخ الله تعالى المشركين الذين عبدوا مع الله آلهة أخرى، والذين قالوا: اتخذ الله ولداً من الملائكة، وبخهم على عدم تدبر الآيات الكونية الدالة على وجود الله، وعلى التوحيد وتنزيهه من الشرك، وأنه لا يصح لعاقل عبادة الأصنام والأوثان لعجزها وعدم الجدوى من عبادتها.

التفسير والبيان:

أورد الله تعالى في هذه الآيات ستة أدلة تدل على وجود الإله الواحد القادر ذي القدرة التامة والسلطان العظيم في خلق الأشياء وقهر جميع المخلوقات، وهي ما يلي:

أ - فتق السماوات عن الأرض:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ أي أو لم يعلم الجاحدون لألوهية الله، العابدون معه غيره أن الله هو المستقل بالخلق، المستبد بالتدبير، فكيف يليق أن يعبد معه غيره، أو يشرك به ما سواه، ألم يعلموا أن السماوات والأرض كانتا متصلتين ببعضهما، تلاصقت

أجزاؤهما، وتراكم بعضها فوق بعض، ثم فصلناهما، وجعلنا بين السماء الدنيا والأرض طبقة من الهواء؟!

وهذه هي نظرية السديم عند علماء الفلك الذين يثبتون أن الشمس والكواكب والأرض كانت قطعة واحدة، وأن الشمس كانت كرة نارية، وفي أثناء سيرها السريع انفصلت عنها أرضنا والكواكب السيارة الأخرى، وهي تسعة مرتبة بحسب قربها من الشمس: عُطارد، والزُّهَرة، والأرض، والمرِّيخ، والمُشْتَري، وزُحَل، وأُورانوس، ونبتون، وبلوتوه. ولكل منها مدار بحسب تأثير الجاذبية، وهي تجري في الفلك، وهي تسعة أفلاك دون السماوات المطبقة التي يعيش فيها الملائكة. والفلك: استدارة في السماء تدور بالنجوم مع ثبوت السماء، أو هو مجراها وسرعة سيرها.

وهذا السبق العلمي الذي أعلنه القرآن دليل واضح قاطع على أن القرآن كلام الله ووحيه المنزل على عبده محمد ﷺ النبي الأمي الذي يستحيل أن يكون عالماً بمثل ذلك لولا الوحي الإلهي.

٢ - جعل الماء أساس الحياة:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ أي وخلقنا من الماء كل حيوان، أي فيه حياة، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٢٤/٤٥] فكل حيوان من النطفة التي هي ماء، ولا ينبت النبات إلا بالماء.

وهذا موافق لما يراه بعض العلماء: أن كل حيوان خلق أولاً في البحر، ثم انتقل بعض الحيوان إلى البر، وتطبع بطباع البر مع مرور الزمن.

﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي ألا يتدبرون هذه الأدلة، وهم يشاهدون عياناً حدوث المخلوقات شيئاً فشيئاً، فيؤمنون بالخالق، ويتركون منهج الشرك؟!

وفي كـــل شيء لـــه آيـــة تـــدل عـــلى أنـــه واحـــد

٣ - جعل الجبال رواسي الأرض:

﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي وخلقنا في الأرض جبالاً لإرساء الأرض بها وتثبيتها، لئلا تضطرب بالناس وتتحرك، فلا يحصل لهم قرار عليها، والرواسي: الجبال، والراسي: هو الداخل في الأرض.

والأرض تدور حول نفسها وحول الشمس، وقد أثبت العلماء أن الأرض كانت ناراً ملتهبة، ثم بردت قشرتها، وصارت صوَّانية صلبة، وذلك منذ حوالي ثلاث مئة مليون سنة بل حوالي خمسة مليارات سنة كما يرى المعاصرون. ويؤكد ذلك وجود حُمم النيران التي تخرجها البراكين. ونسبة الجبال إلى الأرض هي بنسبة ملليمتر ونصف من المتر.

وهذا دليل ثالث على أن القرآن وحي من عند الله، لا من عند بشر.

٤ - إيجاد الطرق مسالك بين الجبال:

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي وخلقنا في الأرض بين الجبال طرقاً واسعة نافذة، يسلكها الناس بسهولة من مكان إلى آخر، أو من قطر أو إقليم إلى آخر، ليهتدوا بها إلى مقاصدهم ومصالحهم المعيشية في البلاد، وقيل: ليهتدوا إلى وحدانية الله تعالى بالاستدلال. والفج: الطريق الواسع، والسبيل: الطريق السالك. وقدمت الفجاج وهي صفة على السبل، ولم تؤخر، كما في قوله تعالى: ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح: ٧١/ ٢٠] لتجعل حالاً، والفرق من جهة المعنى أن قوله: ﴿سُبُلًا فِجَاجًا﴾ إعلام بأنه جعل فيها طرقاً واسعة، وأما قوله: ﴿فِجَاجًا سُبُلًا﴾ فهو إعلام بأنه حين خلقها خلقها على تلك الصفة، فهذه الآية بيان لما أبهم في الآية الأولى.

وقوله: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ معناه: لكي يهتدوا؛ إذ الشك لا يجوز على الله تعالى.

والضمير في قوله: ﴿فِيهَا﴾ عائد إلى الجبال، أي وجعلنا في الجبال التي هي رواسي فجاجاً سبلاً، أي طرقاً واسعة، وقيل: إنه عائد إلى الأرض، أي وجعلنا في الأرض فجاجاً وهي المسالك والطرق.

٥ - جعل السماء سقفاً للأرض:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ أي وجعلنا السماء كالسقف على الأرض وكالقبة عليها، وذلك السقف محفوظ من الوقوع والاضطراب، ومن الشياطين التي تسترق السمع، كما قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٢٢/ ٦٥] وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٥] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٣٥/ ٤١] . وحفظها من الشياطين إما بالملائكة وإما بالنجوم.

﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ أي لا يتفكر المشركون وغيرهم فيما خلق الله في السماوات من الأدلة والعبر الدالة على وحدانية الله وعظيم قدرته، من الشمس والقمر وسائر الكواكب الثابتة والسيارة، ليتعاقب الليل والنهار، وتظهر المنافع بالحر والبرد، وللإرشاد إلى الحساب القويم والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة. وذلك كقوله تعالى﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ١٠٥] .

٦ - خلق الليل والنهار والشمس والقمر:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي والله خلق الليل والنهار، نعمة منه، ودليلاً على عظمة سلطانه، بواسطة دوران الأرض حول نفسها، لتتحقق الفائدة المرجوة من كليهما بالظلام والسكون، والضياء والأنس، والتفاوت في الطول والقصر أو التساوي بينهما في مدار السنة، وخلق أيضاً الشمس والقمر، للإضاءة وإمداد الأحياء بحرارة

الشمس، وإفادة بعض المزروعات والثمار بضوء القمر، وكل من الشمس والقمر والنجوم والأرض يدور في فلكه، دوران المغزل في الفلكة، فلا يدور المغزل إلا بالفلكة، ولا الفلكة إلا بالمغزل، كذلك الشمس والقمر والنجوم لا تدور إلا بالفلك، ولا يدور إلا بهن، كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام: ٦/٩٦] . وقوله: ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ بالجمع يشمل النجوم، فهي وإن لم تكن مذكورة نصاً فهي مذكورة ضمناً.

ودوران الشمس والقمر والأرض في الفضاء اللانهائي يثبته أيضاً العلم الحديث، مما يدل على أن هذا القرآن معجز للأبد، دال على كونه وحياً صادراً منه، وأنه النعمة الكبرى لبني الإنسان.

فقه الحياة أو الأحكام:

الآيات كما لاحظنا تتضمن أدلة كافية على وجود الإله الصانع الواحد الأحد، المنزه عن الشريك والولد، وهي أدلة تثير الإعجاب، وتوحي باتصاف الموجد الخالق بالقدرة التامة، والسلطان العظيم.

وقد عرفنا أنها أدلة ستة هي:

أولاً - فتق السماوات عن الأرض، وجعل طبيعة خاصة لكل منهما، فالأرض بهوائها ومائها تتناسب مع وجود الحياة الإنسانية والحيوانية والنباتية، ومع ما يتطلبه الاستقرار والثبات عليها، والسماوات تتلاءم مع وجود المجرَّات والكواكب والنجوم والشمس والقمر، لنشر الحرارة، وإلقاء الضوء، والسماوات سبع، وكذا الأرض سبع.

وثانياً - جعل الماء سبباً للحياة، فالله تعالى خلق كل شيء من الماء، وحفظ حياة كل شيء بالماء، وأوجد الإنسان من ماء الصلب. روى أبو حاتم البستي

في المسند الصحيح له عن أبي هريرة قال: قلت: يا رسول الله، إذا رأيتُك طابت نفسي، وقرَّت عيني، أنبئني عن كل شيء؛ قال: «كل شيء خلق من الماء». وما أروع لفت النظر بعد هذه الآية حين قال تعالى: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي أفلا يصدقون بما يشاهدون، وأن ذلك لم يكن بنفسه، بل لمكوّن كوَّنه، ومدبر أوجده، ولا يجوز أن يكون ذلك المكوِّن مُحْدَثاً، بل لا بدّ من أن يكون أزلياً قديماً؛ لأن صفة الألوهية تقتضي عقلاً عدم المشابهة للحوادث.

وثالثاً - خلق الله الجبال رواسي أي جبالاً ثوابت، لتكون مثبتة للأرض، حتى لا تتحرك بمن عليها، وليتم القرار والاطمئنان عليها، أو كراهية أن تميد، والميد: التحرك والدوران.

ورابعاً - أوجد الله في الأرض وبين هامات الجبال مسالك وطرقاً واسعة، لتكون منافذ يسهل على الناس اختراقها وتجاوزها من مكان لآخر، ومن قطر إلى قطر أو إقليم إلى إقليم. والفجاج جمع فجّ: وهو الطريق الواسع بين الجبلين، ثم فسر تلك الفجاج بالسبل، أي الطرق النافذة السالكة؛ لأن الفج قد يكون طريقاً نافذاً مسلوكاً، وقد لا يكون، ووجود الطرقات للاهتداء بها إلى السير في الأرض نعمة عظمى، وندرك هذه النعمة إذا لاحظنا ما تنفقه الدولة الحديثة من النفقات الباهظة على تعبيد الطرق وشقها، لربط الأقاليم والأمصار وأجزاء البلاد بشبكة من الطرق، تسهل الانتقال بينها والاتصال معها.

وخامساً - جعل السماء سقفاً للأرض، محفوظاً من الوقوع والسقوط على الأرض، فلا تمكن الحياة في الأرض بدون هذا السقف، كما لا يمكن العيش في بيت أو دار بدون سقف، ولأن حفظ طبقة الهواء بهذا السقف أمر ضروري محتم لحياة الإنسان، كما أن الحفاظ على هذا السقف من التداعي والسقوط على الأرض أمر أساسي لصون الحياة الإنسانية، ومنع الضرر عن الناس، فإذا

سقط على الناس بعض الكتل النارية أو الأجرام السماوية، كان الدمار والهلاك الجزئي، فكيف إذا سقطت السماء كلها؟!

ومما يدعو إلى الأسف والعجب أن الكفار معرضون عن آيات السماء من الشمس والقمر والنجوم وغيرها. وقد أضاف الله تعالى الآيات في قوله: ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا﴾ إلى السماء؛ لأنها مجعولة فيها، وفي مواضع أخرى أضاف تعالى الآيات إلى نفسه؛ لأنه الفاعل لها.

وهذا دليل على أن المشركين غفلوا عن النظر في السماوات وآياتها، من ليلها ونهارها، وشمسها وقمرها، وأفلاكها ورياحها وسحابها، وما فيها من قدرة الله تعالى؛ إذ لو نظروا واعتبروا، لعلموا أن لها صانعاً قادراً واحداً، فيستحيل أن يكون له شريك.

وسادساً - خلق الليل والنهار، وهذا تذكير بنعمة أخرى على الناس، فالله جعل لهم الليل ليسكنوا فيه، والنهار ليتصرفوا فيه وينطلقوا لمعايشهم، وجعل الشمس آية النهار، والقمر آية الليل، لتعلم الشهور والسنون والحساب، وكل من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار يجرون ويسيرون بسرعة في فلك خاص، كالسابح في الماء.

موت جميع الخلائق ومجيء القيامة أو عذاب النار بغتة

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾

القراءات:

﴿مِّتَّ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (مُتُّ).

﴿هُزُوًا﴾:

قرأ حفص (هُزُواً).

وقرأ حمزة (هُزْءاً) وصلاً، و(هُزْواً) وقفاً.

وقرأ الباقون (هُزُؤاً).

﴿وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾: قرئ:

١- (وجوهِهِم النار) وهي قراءة أبي عمرو.

٢- (وجوهُهُم النار) وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف.

٣- (وجوهِهُم النار) وهي قراءة الباقين.

﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ﴾: قرئ:

١- (ولقَدِ استُهزئ) وهي قراءة أبي عمرو، وعاصم، وحمزة.

٢- (ولقَدُ استُهزئ) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ﴾ حقُّ همزة الاستفهام إذا دخلت على حرف الشرط كما هنا: أن تكون رتبتها قبل جواب الشرط. وفي هذه الآية دليل على أنَّ (إن) إذا دخلت عليها همزة الاستفهام، لا تبطل عملها، كقولك: إن تأتني آتك؛ لدخول الفاء في ﴿فَهُمُ﴾ وفاء ﴿فَهُمُ﴾ لتعلق الشرط بما قبله، والهمزة لإنكاره، بعدما تقرر ذلك.

﴿فِتۡنَةٗ﴾ مفعول لأجله.

﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ فيه محذوف تقديره: قائلين: أهذا الذي يذكر آلهتكم، وهو في موضع الحال، وحذف القول كثير في كلامهم.

﴿وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ الجملة في موضع الحال، أي يتخذونك هزواً، وهم على حال هي أصل الهزء والسخرية، وهي الكفر بالله تعالى.

البلاغة:

﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ﴾ التنكير للتعميم.

﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾ يوجد طباق بين الشر والخير.

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ مبالغة في وصف الإنسان، جعل لفرط استعجاله، كأنه مخلوق من العجل نفسه، كقول العرب لمن لازم اللعب: هو من لعب.

﴿ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ ﴿كَٰفِرُونَ﴾ ﴿تَسْتَعْجِلُونِ﴾ ﴿يُنصَرُونَ﴾ ﴿يُنظَرُونَ﴾ ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ بينها سجع لطيف.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلْخُلْدَ﴾ الخلود والبقاء في الدنيا .﴿فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ في الدنيا؟ لا، وهذه الجملة محل الاستفهام الإنكاري .﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ في الدنيا، والذوق هنا: الإدراك، والمراد من الموت: مقدماته من الآلام الشديدة، والمدرِك: هي النفس المفارقة للبدن. وجملة ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ برهان على ما أنكره من الخلود للنفوس في الدنيا .﴿وَنَبْلُوكُم﴾ نختبركم أي نعاملكم معاملة المختبر. ﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾ بالبلايا والنعم، أو المحبوب والمكروه، كفقر وغنى، وسقم وصحة، وذلّ وعزّ .﴿فِتْنَةً﴾ أي ابتلاء، وهو مصدر من غير لفظ الفعل المتقدم، أي لننظر: أتصبرون وتشكرون أم لا؟ ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فنجازيكم حسبما يوجد منكم من الصبر والشكر. وفيه إيماء بأن المقصود من هذه الحياة الابتلاء.

﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي ما يتخذونك إلا مهزوءاً به، مسخوراً منه .﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي يقولون: أهذا الذي يعيب آلهتكم؟ ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي إذا ذكر الإله الرحمن الواحد .﴿هُمْ﴾ الثانية تأكيد كفرهم .﴿كَٰفِرُونَ﴾ به، إذ قالوا: ما نعرفه، أي لا يصدقون به أصلاً، فهم أحق منك بأن يتخذوا هُزُواً، فإنك محق وهم مبطلون. وقيل: معنى بذكر الرحمن: قولهم ما نعرف الرحمن إلا مسيلمة. وقيل: بذكر الرحمن: معناه بما أنزل عليك من القرآن.

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي أنه لكثرة عجله في أحواله، كأنه خلق منه، ومن عجلته: مبادرته إلى الكفر .﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي﴾ أي مواعيدي بالعذاب، في الدنيا كوقعة بدر، وفي الآخرة عذاب النار .﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ فيه أو بالإتيان به.

﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي بالقيامة .﴿صَٰدِقِينَ﴾ فيه، يعنون النبي ﷺ وأصحابه .﴿لَا يَكُفُّونَ﴾ يدفعون .﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يمنعون منها في القيامة. وجواب ﴿لَوْ﴾: ما قالوا ذلك .﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ القيامة أو النار. ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة .﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي تحيرهم، أو تغلبهم .﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يمهلون لتوبة أو معذرة.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ .﴿فَحَاقَ﴾ نزل أو أحاط .﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي العذاب، وهو وعد للنبي ﷺ بأن ما يفعلونه به يحيق بهم، كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء ما فعلوا أي جزاءه.

سبب النزول:

نزول الآية (٣٤):

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ﴾ نزلت هذه الآية، لما قال الكفار: إن محمداً سيموت، قائلين: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٥٢/ ٣٠] . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: نُعي إلى النبي ﷺ نفسه، فقال: يا رب، فمن لأمتي؟ فنزلت: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ الآية.

نزول الآية (٣٦):

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن السُّدِّي قال: مَرَّ النبي ﷺ على أبي جهل وأبي سفيان، وهما يتحدثان، فلما رآه أبو جهل

ضحك، وقال لأبي سفيان: هذا نبي بني عبد مناف، فغضب أبو سفيان، وقال: أتنكرون أن يكون لبني عبد مناف نبي؟ فسمعها النبي ﷺ، فرجع إلى أبي جهل، فوقع به، وخوَّفه، وقال: ما أراك منتهياً حتى يصيبك ما أصاب عمك الوليد بن المغيرة، وقال لأبي سفيان: أما إنك لم تقل ما قلت إلا حميَّة، فنزلت الآية: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾.

نزول الآية (٣٧):

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ نزلت هذه الآية في استعجالهم العذاب، روي أن الآية نزلت في النضر بن الحارث، وهو القائل: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٢] .

المناسبة:

بعد أن أقام الله تعالى أدلة ستة على وجود الخالق المتصف بالوحدانية، أبان أن مصير الدنيا إلى فناء وزوال، وأنها خلقت للابتلاء والامتحان، ولتكون جسراً إلى الآخرة دار الخلود، وأن مصير الخلائق جميعاً إلى الله تعالى للحساب والجزاء، ثم ذكر أن مجيء القيامة أو العذاب بالنار آتٍ بغتة لا محالة، فلا يَغْتَرَّنَّ أحد بطول البقاء في الدنيا، ولا يَسْخَرَنَّ برسول من عند الله، فإنه سيلقى جزاء سخريته واستهزائه، وهذا زجر واضح شديد التأثير.

التفسير والبيان:

ينفي الحق تعالى الخلود في الدنيا لأحد من المخلوقات، فيقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ أي قضى الله تعالى ألا يخلد في الدنيا بشراً، فلا أنت يا محمد ولا أحد ممن سبقك أو عصاك أو يأتي بعدك إلا عرضة للموت، وقد قدِّر لك أن تموت كسائر الرسل المتقدمين قبلك.

﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَالِدُونَ﴾ أي هل إذا متّ أنت أيبقى هؤلاء المشركون بربهم؟ لا، بل الكل ميتون، فلا يؤملون أن يعيشوا بعدك.

وهذا رد على المشركين الذين كانوا يتمنون موت رسول الله ﷺ، وكانوا يقدرون أنه سيموت، فيشمتون بموته، فنفى الله تعالى عنه الشماتة بهذا.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٢٦-٢٧] .

أخرج البيهقي وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل أبو بكر على النبي ﷺ، وقد مات، فقبّله وقال: وانبياه، واخليلاه، واصفيّاه، ثم تلا: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ الآية.

واستدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر عليه السلام مات، وليس بحي إلى الآن؛ لأنه بشر، سواء كان ولياً أو نبياً أو رسولاً.

وتأكيداً لبيان موت جميع البشر، قال تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي كل مخلوق إلى الفناء، وكل نفس ذائقة مرارة الموت قبل مفارقتها الجسد، جاء في الحديث: «إن للموتِ لَسَكَراتٍ» (١) فلا يفرح أحد بموت أحد، ولا يشمت أو يتشفى لوفاته، فالكل متجرع كأس المنون. والذوق هنا: مجاز عن الإدراك. والمراد بالموت هنا: مقدماته من الآلام العظيمة.

﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ أي نبتليكم ونختبركم بالبلايا والنعم، أو بالمحبوب والمكروه، بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال، اختباراً وامتحاناً،

(١) روى ابن ماجه في معناه: «اللهم أعني على سكرات الموت».

لنعلم أتصبرون وتشكرون أم لا؟ وقوله ﴿فِتۡنَةٗ﴾ مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه.

والمراد من ذلك: أنا نعاملكم معاملة من يختبركم، لنعرف الصابر في الشدائد، والشاكر في الرخاء.

﴿وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ أي ومرجعكم ومصيركم في النهاية إلينا، أي إلى حكمنا ومحاسبتنا ومجازاتنا، فنجازيكم بأعمالكم. وفي هذا وعد بالثواب، ووعيد بالعقاب.

والابتلاء لا يكون إلا بعد التكليف، والتكليف لا يكون إلا بعد البلوغ والعقل، فالآية دالة على حصول التكليف، والتكليف لا يقتصر بالمكلف على ما أُمر به ونهي عنه، بل ابتلاه بأمرين:

أحدهما - ما سماه خيراً: وهو نعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور.

والثاني - ما سماه شراً: وهو المضارّ الدنيوية من الفقر والآلام وسائر الشدائد النازلة بالمكلفين.

وإنما سمي ذلك ابتلاء، والله عالم بما سيكون من أعمال العالمين قبل وجودهم؛ لأنه في صورة الاختبار.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي وإذا رآك كفار قريش كأبي جهل وأشباهه، ما كان همهم إلا السخرية منك، وما يتخذونك إلا مهزوءاً به، فيستهزئون بك وينتقصونك، وكان جديراً بهم التفكير في سلوكك وأخلاقك، وفيما ينزل عليك من وحي فيه عظة وذكرى للعقلاء، وهم الذين حمى الله نبيهم منهم بقوله: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥﴾ [الحجر: ١٥/٩٥].

وهم القائلون: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ أي يقولون تعجباً واستنكاراً: أهذا الذي يعيب آلهتكم ويسفّه أحلامكم؟!

﴿وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ أي والحال أنهم كافرون بالله الذي خلقهم وأنعم عليهم، وإليه مرجعهم، و﴿هُمۡ﴾ الثانية توكيد كفرهم أي فهم الكافرون، مبالغة في وصفهم بالكفر. والمراد أنهم كيف يعجبون منك ومن صنيعك بنبذ آلهتهم ووصفها بالسوء، وهم أشد عجباً، إذ يكفرون بالله، ويستهزئون برسول الله ﷺ، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٢﴾ [الفرقان: ٢٥/٤١-٤٢].

والخلاصة: أنهم يعيبون على النبي ذكر آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع بالسوء، مع أنهم كافرون بالرحمن الذي هو المنعم الخالق المحيي المميت، ولا فعل أقبح من ذلك، فالهزء والذم يعود عليهم من حيث لا يشعرون، وهم أحق بالاستهزاء والسخرية؛ لأنهم وضعوا الشيء في غير موضعه.

وبالرغم من هذا فهم أناس حمقى طائشون متهورون يستعجلون بمجيء العذاب الذي تهددهم به يا محمد، فقال تعالى:

﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ﴾ أي خلق عجولاً، أو فطر الإنسان على العجلة، والمراد نوع الإنسان، وقيل: إنه شخص معين، حتى لكأن التعجل جزء من تكوينه وفطرته، وسجيته وطبعه كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾، فاستعجل هؤلاء المشركون عذاب الله وآياته الملجئة إلى الإيمان والإقرار بالعبودية، وبرسالة محمد ﷺ، فالمراد بالآيات: أدلة التوحيد وصدق الرسول، أو الهلاك المعجل في الدنيا والعذاب في الآخرة، ولذلك قال: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ أي أنها ستأتي لا محالة في وقتها، ثم حكى الله تعالى قولهم:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ أي إنهم يستعجلون أيضاً بوقوع العذاب بهم تكذيباً وجحوداً، وكفراً وعناداً، واستبعاداً لحدوثه، فيقولون على سبيل الاستهزاء للنبي ﷺ ولأصحابه المؤمنين لجهلهم وغفلتهم: متى وقت حدوث عذاب النار الذي تهددوننا به إن كنتم صادقين في وعدكم وقولكم؟! فقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي يا معشر المؤمنين.

أراد تعالى نهيهم عن الاستعجال وزجرهم، فقدَّم أولاً ذمّ الإنسان على إفراط العجلة، وأنه مطبوع عليها، ثم نهاهم وزجرهم عن استبطاء الموعود به بقصد إنكار وقوعه وعدم تصوره أصلاً، ثم بيَّن مدى حماقتهم بهذا الطلب فقال:

﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ أي لو تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة، لما استعجلوا، ولو علموا أحوال عذاب النار التي تحيط بهم من الأمام والخلف وجميع الجهات، وحين يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، فلا يستطيعون ردّ النار عن وجوههم، ولا دفعها عن ظهورهم، ولا يجدون ناصراً لهم ينصرهم ويمنعهم من العذاب وينقذهم منه كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد: ١٣/ ٣٤] وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، أي لو علموا وقت الوعيد، لما أصروا في البقاء على كفرهم، ولما استعجلوا هذا العذاب الشديد.

والعلم في قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ﴾ بمعنى المعرفة، فلا يقتضي مفعولاً ثانياً، مثل ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٠].

وإنما خص الوجوه والظهور؛ لأن شدة تأثرها بالعذاب أكثر.

ونظير الآية: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ٣٩/ ١٦]، وقوله أيضاً: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٧/

٤١] ، وقوله كذلك: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٥٠] فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم.

ثم أبان الله تعالى كما هو المعتاد في قرآنه أن وقت مجيء العذاب مجهول فقال: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝﴾ أي بل إن الساعة تأتيهم فجأة، فتحيرهم وتغلبهم، فلا يجدون حيلة لردها، ولا هم يمهلون ويؤجلون لتوبة أو معذرة، لفوات الوقت. وهذا تذكير بإمهاله إياهم، وإعطائهم فرصة واسعة للتذكر والإيمان، والعدول عن الكفر والضلال، فلا يمهلون بعد طول الإمهال.

والسبب في عدم العلم بمجيء الساعة هو جعل العبد أشد حذراً، وأقرب إلى تدارك الأخطاء، فلا يتكل ولا يتوانى لحين حدوث العذاب.

ورجوع الضمير المؤنث في قوله: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾ هو إلى النار، أو إلى الوعد؛ لأنه في معنى النار، أو إلى الحين؛ لأنه في معنى الساعة (القيامة).

ثم سلى رسوله ﷺ عن استهزائهم به وتكذيبهم له، فقال:

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي إن لك في الأنبياء عليهم السلام أسوة، فقد استهزئ برسل كثيرين من قبلك، فنزل بالساخرين المستهزئين العذاب جزاء ما فعلوا، وسينزل أيضاً بمن استهزأ بك العذاب والبلاء جزاء استهزائهم، كما حدث بأسلافهم من الأمم المكذبة لرسلها، ذلك العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه، كما قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝﴾ [الأنعام: ٦/ ٣٤] .

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - لا خلود لأحد من المخلوقات في دار الدنيا، وكل من عليها فان، وكل نفس ذائقة الموت، فإن مات النبي محمد ﷺ، أفهم الخالدون إن مات؟!

٢ً - الدنيا دار ابتلاء واختبار، والاختبار كما يكون بالشر يكون بالخير، فيختبر الناس بالشدة والرخاء، والحلال والحرام، وينظر كيف شكرهم وصبرهم، ثم يكون المرجع والمآل إلى الله تعالى للجزاء بالأعمال.

والابتلاء لا يكون إلا بعد التكليف، فتدل الآية على حصول التكليف، ولا يقتصر الابتلاء على المأمور به والمنهي عنه، وإنما يشمل ما سماه خيراً وهو نعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور، وما سماه شراً وهو المضار الدنيوية من الفقر والآلام وسائر الشدائد النازلة بالمكلفين، والعبد يتردد بين هاتين الحالتين، لكي يشكر على المنح والنعم، ويصبر في المحن.

٣ً - العموم في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ من قبيل العموم المخصوص، فإنه تعالى نفس؛ لقوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَۚ﴾ [المائدة: ١١٦/٥] مع أن الموت لا يجوز عليه، وكذا الجمادات لها نفوس، وهي لا تموت. والعام المخصوص حجة، فيبقى معمولاً به فيما عدا هذه الأشياء.

٤ً - الكفار المستهزئون بالنبي ﷺ الذي يعيب اتخاذ الأصنام آلهة أحق وأجدر بالاستهزاء والسخرية لكفرهم بالإله الحق الخالق المنعم المتفضل على الناس بأصناف النعم الكثيرة.

٥ً - رُكّب الإنسان على العجلة، فخلق عجولاً، وصار طبع الإنسان العجلة، ولكن في العجلة أحياناً حماقة وطيش وجهل وغفلة، كما في حال استعجال المشركين نزول العذاب الموعود.

٦ً - إن مجيء الساعة أو وقت العذاب بالنار محقق، ولكنه يأتي فجأة، فلا يبقى مجال لتوبة واعتذار.

٧ً - إن الاستهزاء بالرسل ديدن الكفار قديماً وحديثاً، فلا بد من الصبر، وسيلقى المستهزئون جزاء استهزائهم.

حراسة الله وحفظه للإنسان وعدل الحساب

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾

القراءات:

﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ﴾:

وقرأ ابن عامر (ولا تُسْمِعُ الصُّمَّ).

﴿مِثْقَالَ﴾:

وقرأ نافع (مثقالُ).

الإعراب:

﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ ﴿مِثْقَالَ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾ الناقصة، واسمها مضمر فيها، وتقديره: وإن كان الظلم مثقال حبة. وقرئ بالرفع على أن تجعل ﴿كَانَ﴾ التامَّة، فيكون مرفوعاً على أنه فاعل.

البلاغة:

﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ استعارة، استعار الصُّمّ للكفار، لأنهم كالبهائم لا يسمعون النداء إلى الإيمان سماع تدبر وتفهم.

﴿حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ كناية عن العمل القليل.

المفردات اللغوية:

﴿يَكْلَؤُكُم﴾ يحرسكم ويحفظكم، والفعل الماضي: كلأ: حفظ، والمصدر: الكلاءة: الحراسة والحفظ. ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي من بأسه وعقابه الذي تستحقونه إن أراده بكم. وفي لفظ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ تنبيه على ألا كالئ غير رحمته العامة. ﴿ذِكْرِ رَبِّهِم﴾ أي القرآن. ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ لا يتفكرون فيه. ﴿مِّن دُونِنَا﴾ من غيرنا ومن عذابنا. ﴿يُصْحَبُونَ﴾ يجارون من عذابنا، يقال: صحبك الله أي حفظك.

﴿أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ من الله، لا من قبل نفسي. ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ إنما سماهم الصم لتركهم العمل بما سمعوه من الإنذار كالصم. ﴿نَفْحَةٌ﴾ نصيب قليل أو أدنى شيء، وأصل النفح: هبوب رائحة الشيء. ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾ يا هلاكنا، و(يا): للتنبيه. ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ بالإشراك وتكذيب محمد ﷺ.

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ أي ذوات العدل، توزن بها صحائف الأعمال. ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي فيه أو لجزاء يوم القيامة. ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ من نقص حسنة أو زيادة سيئة. ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ﴾ أي وإن كان العمل أو الظلم مقدار حبة، وحبة الخردل مثل في الصغر. ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أحضرناها وأتينا بموزونها. ﴿حَٰسِبِينَ﴾ محصين كل شيء؛ إذ لا مزيد على علمنا وعدلنا.

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى أن الكفار لا يستطيعون أن يكفوا النار عن وجوههم ولا عن ظهورهم، أتبعه ببيان أنهم في الدنيا أيضاً، فلولا أن الله تعالى يحرسهم ويحفظهم لما بقوا سالمين.

ثم أردفه ببيان أنهم معرضون لا يتفكرون بالأدلة التي ترشدهم إلى الإيمان وترك عبادة الأصنام، كما أنهم لا يرون آثار قدرة الله في إتيان الأرض من جوانبها، بأخذ الواحد بعد الواحد، وفتح البلاد والقرى حول مكة، وفي ذلك عبرة، فيؤمنوا برسول الله ﷺ.

ثم ذكر وظيفة الرسل التي هي التبليغ والإنذار، لا الإلزام بالقبول، لكفاية أدلة القرآن على الإيمان. ثم بيَّن سبحانه أن جميع ما يتعرض له الكفار في الآخرة لا يكون إلا عدلاً، فهم وإن ظلموا أنفسهم في الدنيا فلن يظلموا في الآخرة، فموازين الحساب قائمة على العدل والقسط.

التفسير والبيان:

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم﴾ أي قل أيها الرسول لأولئك الذين يسخرون منك ويستهزئون: من يحفظكم ويحرسكم ليلاً في نومكم ونهاراً في عملكم من بأس الله وعذابه إن أتاكم أو أراد إنزاله بكم؟!

وفي تعبير ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إشارة إلى أن تأخير العذاب عن الكفار والعصاة هو من رحمة الله ونعمته وفضله، كي يعود الإنسان إلى ربه من نفسه.

﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ أي بل إن هؤلاء المشركين، بالرغم من وجود الأدلة الكثيرة العقلية والمذكورة في القرآن الدالة على فضل الله ونعمته بالحفظ والكلاءة، معرضون عن تلك الأدلة، ولا يتفكرون فيها، ولا يعترفون بنعمة الله عليهم وإحسانه إليهم.

وفي ذكر (الرب) دلالة على أنهم خاضعون لسلطانه، وأنهم يعيشون في رعايته وتربيته وإمداده بالنعم الوفيرة.

ثم بعد بيان اتصافهم بالإعراض، وبخهم الله تعالى على عبادتهم آلهة لا تضر ولا تنفع فقال:

﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾؟ أي هل لهؤلاء المستهزئين المعرضين عن بيان الله آلهة قادرة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا؟

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي إن تلك الآلهة المزعومة لا تتمكن من نصر أنفسهم، ولا دفع الضر والبلاء عنهم، ولا هم منا يجارون أو يمنعون؛ لأنهم في غاية العجز والضعف، فكيف ينصرون غيرهم، ويدفعون الضر عنهم، أو يجلبون النفع لهم؟!

ثم أخبر تعالى عن مزيد فضله عليهم فقال:

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي إن الذي غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال أنّهم مُتّعوا في الحياة الدنيا، ونَعِموا بها، وطال عليهم العمر فيما هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شيء، والحقيقة أنهم مع طول الزمان في غفلة، حتى اغتروا بنعمتنا، ونسوا شكرها.

والخلاصة: أنه ما حملهم على الإعراض عن آيات الله إلا الاغترار بطول المهلة.

ثم قال تعالى واعظاً لهم:

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه، وإهلاكه الأمم المكذبة، والقرى الظالمة، وإنجائه لعباده المؤمنين، وفتح البلاد حول مكة، وتناقص رقعة بلاد أهل الشرك؟!

وبعبارة أخرى: أفلا يرون أنا ننقص أرض الكفر ودار الحرب، ونحذف جوانبها وأطرافها بتسليط المسلمين عليها، وتغلبهم على أهلها، وضمها إلى دار الإسلام.

والفائدة في قوله: ﴿نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ تصوير ما كان يجريه على أيدي المسلمين، وأن عساكرهم وسراياهم كانت تفتح أرض المشركين المعتدين، وتأتيها غالبة عليها، ناقصة من أطرافها. ومعنى نقص أطرافها: دخول المسلمين فيها، واتساع نفوذ الإسلام شيئاً فشيئاً، وانحسار أرض الكفار، بدليل قوله بعدئذ: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أي هل نحن الغالبون أم هم؟ فكيف يتوهمون غلبتهم؟ فهم المغلوبون الأخسرون، وهو استفهام بمعنى التقرير والتقريع.

ويرى بعض علماء العصر أن في الآية دلالة واضحة على نقص أطراف الكرة الأرضية في الشمال والجنوب، وأنها غير كاملة التكوير والاستدارة، وذات تفلطح، وهو ما يعبر عنه بالخط الإهليلجي في القطب الشمالي والجنوبي، مما يدل على قدرة الله تعالى، وقوة سلطانه، وتحكمه في الأرض أثناء دورانها.

وبعد أن كرر تعالى إيراد الأدلة في القرآن على وجود الله وقدرته وتوحيده، وبالغ في التنبيه عليها، أتبعه بقوله:

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ أي قل أيها النبي: إني إنما أنذركم بالقرآن الذي هو كلام ربكم، وإنما أنا مبلّغ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال، فلا تظنوا أن ذلك من قبلي، بل الله آتيكم به، وأمرني بإنذاركم، وعملي هو مجرد التبليغ لا الإلزام بالقبول، فإن لم تجيبوا دعوتي، فعليكم الوبال والنكال، لا علي.

﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ أي لا يجدي هذا الوحي من

أعمى الله بصيرته، وختم على سمعه وقلبه، وما مثلهم حين لم ينتفعوا بما سمعوا من الإنذار، على كثرته وتتابعه، إلا مثل الصم الذين لا يسمعون شيئاً أصلاً؛ إذ ليس الغرض من الإنذار مجرد السماع، بل العمل بما يُسْمَع، والتمسك به، بالإقدام على فعل الواجب، والتحرز عن المحرَّم، ومعرفة الحق، فإذا لم يتحقق هذا الغرض فلا فائدة في السماع. ثم بيَّن تعالى أن حالهم سيتغير، فيصبحون سريعي التأثر بما ينذرون، ويعترفون بما لا ينتفعون، فقال:

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي ولئن مسّ أو أصاب هؤلاء المكذبين أدنى شيء من عذاب الله يوم القيامة، ليعترفن بذنوبهم، وأنهم كانوا ظالمين أنفسهم في الدنيا، ويظهرون الندامة على ما فرط منهم، ويتنادون بالويل والهلاك، ولا فائدة من ذلك. قال الزمخشري في الكشاف: وفي المس والنفحة ثلاث مبالغات: لفظ المس، وما في النفح من معنى القلة والنزارة، ولفظ المرة.

ثم بيَّن الله تعالى أن جميع ما ينزل بهم في الآخرة لا يكون إلا عدلاً، فقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ أي ونضع الموازين العدل التي توزن بها صحائف الأعمال في يوم القيامة، أو لأهل يوم القيامة، فلا يلحق نفساً أي ظلم، فهم إن ظلموا أنفسهم في الدنيا، فلن يظلموا في الآخرة، وقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ تأكيد عدالة الميزان، وأنه لا ينقص ثواب أي نفس ما تستحقه.

والأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه. ووصفت الموازين بأنها عادلة، لأن الميزان قد يكون مستقيماً وقد يكون بخلافه.

والمراد بوضع الموازين: إرصاد الحساب السوي والجزاء على حسب

الأعمال بالعدل والإنصاف، من غير أن يظلم أحد مثقال ذرة، أي أن المقصود من الوزن العدل بين الخلائق، وقد مثل ذلك بوضع الموازين لتوزن بها الموزونات. وفي قول آخر هو الأرجح: المراد أنه تعالى يضع الموازين الحقيقية، ويزن بها الأعمال. قال الحسن البصري: هو ميزان له كفتان ولسان. فمن رجحت حسناته على سيئاته، كان من الناجين، ومن غلبت سيئاته على حسناته، كان من الهالكين. والقسط: العدل أي ليس في الموازين بخس ولا ظلم كما يكون في وزن الدنيا.

﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي وإن كان العمل أو الظلم مقدار زنة حبة الخردل، فنجازي عليه الجزاء الأوفى، حسناً أو سيئاً.

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ أي وكفى بنا محصين لأعمال العباد، فلا أحد أعلم بأعمالهم منا، ولا أحد أضبط ولا أعدل في تقويم الأعمال منا. وفي هذا تحذير شديد، ووعيد أكيد للكفار والعصاة على تفريطهم أو تقصيرهم فيما يجب عليهم نحو الله تعالى؛ لأن العالم الذي لا يشتبه عليه شيء، القادر الذي لا يعجزه شيء، جدير بأن يكون الناس في أشد الخوف منه.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - إن من فضل الله ورحمته الكلاءة: الحراسة والحفظ للناس من عذاب الله تعالى بالليل حال النوم، وفي النهار حال التصرف في الأمور، ولكن الناس لاهون غافلون عن موعظة القرآن ومواعظ ربهم ومعرفته حق عليهم.

٢ - إن الآلهة الذين زعم الكفار أنهم ينصرونهم لا يستطيعون نصر أنفسهم، فكيف ينصرون عابديهم؟! وكيف يُمنَعون ويجارون من عذاب الله تعالى؟!

٣ً - إن تقلب أهل مكة وأمثالهم في نعيم الدنيا، وظنهم أن النعمة لا تزول عنهم هو سبب اغترارهم وإعراضهم عن تدبر حجج الله عز وجل، وكان عليهم التأمل في متابعة انتصارات النبي ﷺ وغلبته عليهم، وتمكين الله له من فتح البلاد بلداً بعد بلد، مما حول مكة.

٤ً - إن مهمة النبي ﷺ إنذار الكفار وتحذيرهم بالقرآن الموحى إليه من عند الله، لا من قبله، ولكنهم إذا لم ينتفعوا بما سمعوا من الإنذار، صاروا كالصم الذين لا يسمعون أصلاً، وسيتغير حالهم إذا مسّهم أدنى شيء من عذاب الله، فعندئذ يسمعون ويعتذرون ويعترفون حين لا ينتفعون، أي يعترفون بظلم أنفسهم وبكفرهم حين لا ينفعهم الاعتراف.

٥ً - لا عدل أدق وأضبط وأحكم فوق عدل الله، فموازينه لأهل يوم القيامة أو في يوم القيامة غاية العدل، فلا ينقص من إحسان محسن، ولا يزاد في إساءة مسيء، وإن كان العمل أو الشيء الذي قدمه المحسن مثقال حبة الخردل، ومثقال الشيء: ميزانه من مثله، وكفى بالله مجازياً على ما قدم الناس من خير أو شر، وكفى به محصياً عاداً لأعمال عباده، وألا أحد أسرع حساباً منه، والحساب: العد، والغرض من ذلك التحذير.

والغرض من قوله: ﴿حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ المبالغة في أن الشيء مهما صغر أو كبر غير ضائع عند الله تعالى.

٦ً - الذي وردت به الأخبار وعليه أكثر العلماء هو أن لكل مكلف ميزاناً توزن به أعماله، فتوضع الحسنات في كفة، والسيئات في كفة. قال حذيفة رضي الله عنه: «صاحب الميزان يوم القيامة: جبريل عليه السلام».

وقيل عن مجاهد وقتادة والضحاك: ذكر الميزان مَثَل، وليس ثَمَّ ميزان، وإنما هو العدل.

القصة الأولى - قصة موسى عليه السلام
مقارنة بين خصائص التوراة وخصائص القرآن

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

القراءات:

﴿وَضِيَآءً﴾ :

وقرأ قنبل (وضِئَاء).

الإعراب:

﴿وَضِيَآءً﴾ فيه محذوف تقديره: ذا ضياء، فحذف المضاف، وأدخل واو العطف على ﴿وَضِيَآءً﴾ وإن كان في المعنى وصفاً دون اللفظ، كما يدخل على الوصف إذا كان لفظاً، كقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الأنفال: ٨/٤٩] وكقولهم: مررت بزيد وصاحبِك أي مررت بزيد صاحبك، فدل هذا وغيره على أن الواو تدخل على الوصف إذا كان لفظاً أو كان وصفاً في المعنى. وقرئ (ضياء) بغير واو على أنه حال من الفرقان.

﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ صفة ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أو مدح لهم.

﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من الفاعل أو المفعول.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ التوراة الفارقة بين الحق والباطل والحلال والحرام، وهي أيضاً

ضياء تنير طرق الهدى، والذكر، أي الموعظة التي يوعظ بها، لما فيها من عبرة. ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ أي يخافون عذابه. ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ في حال الخفاء عن الناس. ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي من أهوالها. ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون.

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ﴾ أي وهذا القرآن أيضاً ذكر أي تذكير وعظة. ﴿مُّبَارَكٌ﴾ أي كثير الخير غزير النفع. ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي أفتنكرونه، وهو في غاية الجلاء والوضوح؟ والاستفهام فيه للتوبيخ.

المناسبة:

بعد أن أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول لقومه: ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ أتبعه ببيان أن هذه سنة الله تعالى في أنبيائه، فقد أنزل الوحي عليهم ليكون ما تضمنه من الشريعة والأحكام سبباً لهداية البشر.

وبعد أن أبان تعالى أدلة التوحيد والنبوة والمعاد شرع في التذكير بقصص الأنبياء عليهم السلام تسلية لرسوله ﷺ فيما يناله من قومه، وتقوية لقلبه على أداء الرسالة والصبر عليها، وهذه هي القصة الأولى - قصة موسى وهارون عليهما السلام.

التفسير والبيان:

كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الحديث عن موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وبين كتابيهما، ليبين امتداد صلة النبوة وصلة الوحي، وليشير إلى وجود الشبه الكثير بين التوراة في أصلها الصحيح وبين القرآن الكريم في كمال الشريعة الشاملة للدين والدنيا، والعقيدة والعبادة، فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ أي ووالله لقد أعطينا موسى وهارون كتاباً شاملاً لأحكام الشريعة، وهو التوراة الذي هو كتاب فرق الله فيه بين الحق والباطل، وبين الحلال والحرام، وهو

أيضاً منار يستضاء به في ظلمات الحيرة والجهالة للتوصل إلى طريق الهداية والنجاة، وهو كذلك عظة وتذكير يتعظ به المتقون ربهم وهم ذوو الأوصاف التالية:

أ - خشية الله في السر:

﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي الذين يخافون عذاب ربهم، فيأتمرون بأمره، وينتهون بنهيه، في حال الخفاء والسر والخلوات حيث لا يطلع عليهم أحد من الناس، قال الرازي: وهذا هو أقرب المعاني.

وقد تكرر في القرآن الكريم التركيز على هذا المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٥٠/ ٣٣] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾﴾ [الملك: ٦٧/ ١٢] .

٢ - الخوف من يوم القيامة:

﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ أي وهم من القيامة وأهوالها وسائر ما يحدث فيها من الحساب والسؤال خائفون وَجِلُون. وفي تصدير الضمير وبناء الحكم عليه مبالغة وتعريض.

وكما أن هذه خصائص التوراة، فكذلك خصائص القرآن مثلها فقال تعالى:

﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ﴾ أي وهذا القرآن العظيم المنزل عليك تذكير وعظة، ومبارك فيه بكثرة منافعه وغزارة خيره.

﴿أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾؟ أي فمثل هذا الكتاب مع كثرة منافعه كيف يمكنكم إنكاره؟ وكيف تنكرونه وهو في غاية الجلاء والوضوح؟ وهو أيضاً معجز لاشتماله على النظم العجيب والبلاغة البعيدة، والأدلة العقلية، وبيان

الشرائع، فكيف تنكرون إنزاله من عند الله، وأنتم خير من يقدّر روعة الكلام وفصاحة اللسان وإحكام البيان؟!

فقه الحياة أو الأحكام:

اقتصر البيان في قصة موسى وهارون عليهما السلام على كتاب التوراة ليقرن الكلام عنه مع الكلام عن القرآن الكريم.

وقد تبين من الآيات أن التوراة فرقان بين الحق والباطل والحلال والحرام والغي والرشاد، وضياء يستضاء بها لسلوك طريق الهداية والنجاة، مثل قوله عنها في آية أخرى ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٤] وعظة وتذكير للمتقين.

وهي أيضاً أوصاف القرآن في آيات أخرى، فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ، مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٣-٤] . ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ١] . وقال سبحانه: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ٥/ ١٥] ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٧] . وقال جل جلاله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٦/ ٤٤] . ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٤٤] وقال تعالى هنا: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾.

فإن رأى العرب تمسك اليهود بفرقان موسى، فهم أجدر بالتمسك بكتابهم فرقان محمد ﷺ.

أما أوصاف المتقين فهي واحدة قديماً وحديثاً، ذكر تعالى منها هنا وصفين: خشية الله تعالى في السر أي وفي العلن، والخوف من يوم القيامة وأهوالها، وما يجري فيها من الحساب والسؤال قبل التوبة.

وختمت الآيات ببيان الهدف الجوهري منها: وهو التعجب من إنكار العرب للقرآن، وهو كلام الله تعالى، بدليل أنه معجز لا يقدرون على الإتيان بمثله، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

القصة الثانية - قصة إبراهيم عليه السلام

- ١ -

إنكار عبادة الأصنام والدعوة إلى توحيد الله تعالى

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

القراءات:

﴿أَجِئْتَنَا﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (أجيتنا).

﴿جُذَٰذًا﴾:

وقرأ الكسائي (جِذَاذاً).

الإعراب:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ ﴿إِذْ﴾: ظرف في موضع نصب يتعلق بـ ﴿ءَاتَيْنَآ﴾ وتقديره: آتينا إبراهيم رشدَه في وقت قال لأبيه.

﴿عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ متعلق بمحذوف مقدر، يدل عليه ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ويفسره. ولا يجوز تعلقه به؛ لأنه لا يجوز تقديم الصلة ومعمولها على الموصول.

المفردات اللغوية:

﴿رُشْدَهُۥ﴾ الرشد: الاهتداء لوجوه الخير والصلاح في الدين والدنيا، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٦/٤] وقرئ أيضاً ﴿رُشَدَهُۥ﴾.

ومعنى إضافة الرشد لإبراهيم: أنه رشد مثله، وأنه رشد له شأن. ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل موسى وهارون عليهما السلام. ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أي علمنا منه أنه أهل لما آتيناه، أو جامع لمحاسن الأوصاف ومكارم الخصال. وفيه إشارة إلى أن فعله تعالى باختيار وحكمة، وأنه عالم بالجزئيات.

﴿ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ الأصنام، جمع تمثال: وهو الصنم، والتمثال: اسم للشيء المصنوع المضاهي خلق الله تعالى، كإنسان أو حيوان أو شجر، سمى الأصنام بالتماثيل تحقيراً لشأنها وتصغيراً لها، مع علم إبراهيم بتعظيمهم وإجلالهم لها. وفرق بعضهم بين الصنم والوثن بأن الصنم: المصنوع من المعدن القابل للتمدد بالنار، والوثن: المصنوع من الخشب أو غيره.

﴿عَٰكِفُونَ﴾ مقيمون على عبادتها. ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ فاقتدينا بهم. ﴿كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ﴾ بعبادتها. ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ بيِّن.

﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالشيء الثابت في الواقع. ﴿ٱللَّٰعِبِينَ﴾ الهازلين. ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ربكم المستحق للعبادة هو مالك السماوات والأرض. ﴿فَطَرَهُنَّ﴾ خلقهن وأبدعهن على غير مثال سبق. ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ الذي قلته. ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ به المتحققين صحته، والمبرهنين عليه، فإن الشاهد: من تحقق الشيء وحققه.

﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ لأجتهدن في كسرها. والكيد في الأصل: الاحتيال في الإضرار، والمراد هنا: المبالغة في إلحاق الأذى بها. ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ بعد ذهابهم إلى مجتمعهم في يوم عيد لهم. ﴿جُذَٰذًا﴾ قطعاً أو فتاتاً، من الجذ، أي القطع. ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ للأصنام، كسر غيره، واستبقاه، وجعل الفأس على عنقه. ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي إلى الكبير. ﴿يَرْجِعُونَ﴾ فيروا ما فعل بغيره.

المناسبة:

هذه هي القصة الثانية من قصص الأنبياء في هذه السورة تسلية للرسول ﷺ، ليتأسى بهم في الصبر والجهاد في سبيل الله والدعوة إلى الدين الحق ومعاداة المشركين.

التفسير والبيان:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ أي والله لقد آتينا إبراهيم رشده، أي هديناه إلى ما فيه الخير والصلاح، من قبل موسى وهارون أو من قبل النبوة، ووفقناه إلى توحيد الله، ومعاداة عبادة الأصنام؛ لأنها لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تبصر، وما هي إلا حجر أو معدن أو خشب صنعها أبوه أمامه بالقدوم، وكنا عالمين بأنه أهل للنبوة، وجامع لمحاسن الأخلاق. والرشد: إما النبوة وإما الأهلية للخير والصلاح في الدين والدنيا.

قال القرطبي: وعلى الأول أكثر أهل التفسير.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ ﴿إِذْ﴾: إما أن يتعلق بآياتنا أو برشده، أو بمحذوف، أي اذكر من أوقات رشده هذا الوقت. أي آتيناه الرشد حين أنكر على قومه عبادة الأصنام من دون الله عز وجل، فقال: ما هذه التماثيل أي الأصنام التي أنتم مقيمون على عبادتها وتعظيمها؟

وفي هذا القول تنبيه إلى ضرورة التأمل في شأنها، وأنها لا تغني عنهم شيئاً، لكنهم لم يفعلوا، وأصروا على تقليد الأسلاف دون برهان، فقالوا:

﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ أي لا حجة لنا سوى تقليد الآباء واتباع الأسلاف، وكفى بذلك ضعفاً وسذاجة، فوبخهم إبراهيم عليه السلام على ما يفعلون:

﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ أي قال إبراهيم لأبيه وقومه: لا فرق بينكم وبين آبائكم، فأنتم وهم في ضلال بيِّن واضح، على غير منهج الحق والطريق المستقيم. وهذا تنبيه إلى أن سوء الرأي لا يغيره تقادم الزمن، ومضي الأيام.

فتعجبوا من قوله وسألوه:

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾ أي ما هذا الكلام الصادر عنك، أتقوله لاعباً هازلاً مازحاً أم محقاً جادّاً فيه، فإنا لم نسمع به قبلك؟

فأجابهم إبراهيم بعد إنكاره عبادة الأصنام بما يبين الحق، ويرشد إلى الإله المستحق للعبادة:

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ أي قال إبراهيم: إني أتكلم بالجد والحق، لا بالهزل واللعب، فإن الرب المستحق للعبادة هو مالك السماوات والأرض الذي خلقها وكونها وأنشأها من العدم، على غير مثال سابق، وهو الخالق لجميع الأشياء، وهو الرب الذي لا إله غيره.

﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي وأنا أشهد أنه لا إله غيره، ولا رب سواه. والخلاصة: أنه أظهر لهم أنه مجدٌّ في إظهار الحق الذي هو التوحيد بالقول أولاً وهو ما قاله، ثم بالفعل ثانياً. لذا أقسم إبراهيم الخليل قسماً أسمعه بعض قومه:

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ أي ووالله لأجتهدن في كسر أصنامكم، وفي إلحاق الأذى بها، بعد أن تذهبوا إلى عيدكم، وكان لهم مجمع عيد يخرجون إليه كل سنة، ثم يعودون، فيسجدون للأصنام.

وقوله: ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾ أي منطلقين ذاهبين. وسمع هذا القول رجل منهم، فحفظه، ثم أخبر عنه، وشاع ذلك في جماعة، وعليه قال تعالى: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٦٠].

ولم يخرج إبراهيم معهم معتذراً بأنه سقيم، وصمم على تنفيذ خطته عملياً، لعلهم يتركون عبادة الأصنام، حينما يتأملون أنها لا تستطيع دفع الأذى عن نفسها، والبرهان العملي أوقع في النفس، وأدعى إلى التأمل، وأشد صدمة للذهن.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي فلما ذهبوا دخل على الأصنام، وأمامهم الأكل، فجعلهم قطعاً فتاتاً وحطاماً، كسرها كلها إلا الصنم الكبير عندهم لم يكسره كما قال تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٩٣] لعل هؤلاء الوثنيين يرجعون إلى الكبير الذي يلجأ إليه عادة، وقد علق إبراهيم الفأس على عنقه، أو في يده، فيتبين لهم أنه عاجز لا يستطيع فعل شيء، وأنهم بعبادة الأصنام مغرورون جاهلون.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستفاد من الآيات ما يأتي:

١ - لا تأتي النبوة لأحد إلا بعد إعداد وصقل وتوافر مقومات ومؤهلات تؤهل لها، فهذا إبراهيم الخليل عليه السلام وفَّقه الله لهدايته وللنظر والاستدلال على توحيد الله بآيات الكون من قبل النبوة على الرأي الراجح، أو من قبل موسى وهارون كما قيل، وكان الله عالماً بأنه أهل لإيتاء الرشد وصالح للنبوة.

٢ - كان لإبراهيم موقف جريء رائع من الأصنام وعبدتها، فقال لأبيه آزر وقومه أي النمروذ ومن اتبعه: ما هذه التماثيل التي أنتم مقيمون على عبادتها؟.

فأجابوه بأنهم يعبدونها تقليداً للأسلاف، فيرد عليهم بأنهم وآباءهم في خسران مبين بعبادتها؛ إذ هي جمادات لا تنفع ولا تضر ولا تعلم.

وكأنهم لم يصدقوا قوله، فسألوه: هل جئتنا بحق فيما تقول أم أنت لاعب مازح؟

فكان إبراهيم صارماً مجداً في إظهار الحق الذي هو التوحيد قولاً وفعلاً، أما القول فقال: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ أي خلقهن وأبدعهن .﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي إنني شاهد على أنه رب السماوات والأرض، والشاهد يبين الحكم، وأنا أبين بالدليل ما أقول.

وأما الفعل: فإنه كسر الأصنام وكان عددها سبعين، فعل واثق بالله تعالى، موطّن نفسه على تحمل المكروه في سبيل رفع لواء الدين الحق، وإعلاء راية التوحيد لله. وترك كبير الأصنام وعظيم الآلهة في الخلق، فإنه لم يكسره. قال السدي ومجاهد: ترك الصنم الأكبر، وعلَّق الفأس الذي كسر به الأصنام في عنقه؛ ليحتج به عليهم.

وهذا هو معنى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي إلى الصنم الأكبر يرجعون في تكسيرها، كما يرجع إلى العالم أو الزعيم في حل المشكلات، فيقولون له: ما لهؤلاء مكسورة، ومالك صحيحاً، والفأس على عاتقك؟. وحينئذ يتبين لهم أنه عاجز لا ينفع ولا يضر، ويظهر لهم أنهم في عبادته على جهل عظيم.

وذكر القرطبي والرازي وجهاً آخر في تفسير ذلك: وهو لعلهم إلى إبراهيم ودينه يرجعون إذا قامت الحجة عليهم، أو يرجعون إلى توحيد الله عند تحققهم عجز آلهتهم.

- ٢ -

النقاش الحاد بين إبراهيم وقومه بعد كارثة تكسير الأصنام

﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾

القراءات:

﴿فَسْـَٔلُوهُمْ﴾:

وقرأ ابن كثير، والكسائي، وحمزة وقفاً (فَسَلوهم).

الإعراب:

﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿مَن﴾: مبتدأ، و﴿لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: خبره.

﴿يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ الفعلان هنا صفتان لفتى، أو أن ﴿يَذْكُرُهُمْ﴾: ثاني مفعولي سمع. و﴿يُقَالُ﴾: فعل مبني للمجهول، و﴿إِبْرَٰهِيمُ﴾: قيل: هو خبر مبتدأ محذوف (أي هو إبراهيم) أو منادى مفرد (أي يا إبراهيم) قال الزمخشري: والصحيح أنه فاعل (أي نائب فاعل) يقال؛ لأن المراد الاسم، لا المسمى.

﴿عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ في محل الحال بمعنى معايناً مشاهداً، أي بمرأى منهم ومنظر، أو هو على حذف مضاف، تقديره: على رؤية أعين الناس، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه. والاستعلاء في ﴿عَلَىٰٓ﴾ في الرأي الأول وارد على طريق المثل، أي يثبت إتيانه في الأعين، ويتمكن فيها ثبات الراكب على المركوب وتمكنه منه.

﴿كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا﴾ مبتدأ وخبر.

البلاغة:

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾ استعارة، شبه رجوعهم عن الحق إلى الباطل بانقلاب الشخص حتى يصبح أسفله أعلاه بطريق الاستعارة.

المفردات اللغوية:

﴿قَالُواْ﴾ أي بعد رجوعهم من مجتمعهم في يوم العيد، ورؤيتهم ما فعل. ﴿قَالُواْ﴾ الثانية: أي بعضهم لبعض. ﴿يَذۡكُرُهُمۡ﴾ أي يعيبهم ويسبهم. ﴿عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي معايناً ظاهراً بمرأى منهم، بحيث تتمكن صورته في أعينهم تمكن الراكب على المركوب. ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ﴾ عليه بفعله أو قوله، أو يحضرون عقوبتنا له.

﴿قَالُوٓاْ﴾ بعد إتيانه ﴿ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا﴾ حين أحضروه. ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا﴾ أسند الفعل إليه تجوُّزاً وتعريضاً لهم بأن الصنم المعلوم عجزه عن الفعل لا يكون إلهاً، وإنما هو متسبب لما حصل، والقصد تبكيتهم وإلزامهم الحجة وحملهم على ترك الوثنية، أو للاستهزاء بهم، ولهذا قال: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ أي اسألوا هذه الأصنام عن الفاعل الذي كسرها إن كانوا يقدرون على النطق. وما روي في الصحيحين وعند أحمد عن أبي هريرة أنه ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات» تسمية

للمعاريض كذباً، لما شابهت صورتها صورته. وجملة ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ﴾ فيه تقديم جواب الشرط.

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي راجعوا عقولهم، وفكروا وتدبروا ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ لأنفسهم ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بعبادتكم من لا ينطق .﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ انقلبوا إلى المجادلة بعدما استقاموا، وعادوا إلى جهلهم، وردوا إلى كفرهم، وقالوا لإبراهيم: والله ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ أي فكيف تأمرنا بسؤالهم. وقوله: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ﴾ شبَّه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء مستعلياً على أعلاه.

التفسير والبيان:

هذا هو الفصل الثاني من قصة إبراهيم، الذي يصور مرحلة الغليان والغيظ والحقد عند عبدة الأصنام بعد تكسيرها وتحطيمها، وهي كارثة بالنسبة إليهم تتطلب معرفة الفاعل للثأر منه، وحكاية ذلك:

﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾؟ أي قال عبدة الأوثان قوم إبراهيم، النمروذ وأتباعه، على سبيل الوعيد والتوبيخ، حين رجعوا وشاهدوا تحطيم آلهتهم: من الذي كسر هذه الآلهة؟ وتعبيرهم بالآلهة تشنيع وتهويل، ومبالغة في التعنيف.

﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي إن هذا الفاعل في صنيعه هذا لمن الذين ظلموا أنفسهم وعرَّض نفسه للإهانة والعقاب، إما لجرأته على الآلهة، وإما لإفراطه في كسرها وتماديه في الاستهانة بها.

﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ قال بعضهم الذي سمع قوله المتقدم: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾: سمعنا شاباً يعيبهم ويتوعدهم يسمى إبراهيم، فهو الذي فعل بهم هذا. قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً إلا

شاباً، ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب، وتلا هذه الآية: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى﴾.

وظاهر الآية يدل على أن القائلين جماعة لا واحد، فقد كان يناقشهم ويقول: ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ فغلب على أذهانهم أنه الفاعل.

﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١)﴾ أي قال نمروذ وأشراف قومه: إذن فائتوا به على مرأى ومسمع من الناس في الملأ الأكبر، بحضرة الناس كلهم، حتى يروه ويشهدوا عليه، فلا يأخذوه بغير بينة، أو حتى يبصروا ما يصنع به فيكون عبرة. وكان هذا هو مقصود إبراهيم عليه السلام أن يبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم، وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام التي لا تمنع عن نفسها ضراً ولا تنصر أحداً.

﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢)﴾؟ أي فلما أتوا به - وهذا كلام محذوف مفهوم - قالوا له: أأنت الذي كسرت هذه الأصنام؟ فأجابهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ أي بل الذي فعل هذا هو الصنم الأكبر، الذي لم يكسره.

وقد نسب الفعل إلى هذا الصنم الأكبر، لما رأى شدة تعظيمهم له، باعتباره المتسبب أو الباعث على الفعل، أي الاستهانة والتحطيم، والفعل كما يسند إلى مباشره يسند إلى المتسبب فيه. أو أنه أقرّ بفعله بأسلوب تعريضي لإلزامهم الحجة وتبكيتهم، كما يقول الصانع الحاذق الشهير أو الخطاط المشهور لمن يسأله عن هذه الصنعة الرائعة أو الخط الجميل: بل أنت صنعت ذلك أو بل أنت كتبت ذلك، والقصد بهذا الجواب تقرير السائل على سؤاله مع الاستهزاء به، لا نفيه عن صاحبه وإثباته للسائل.

﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ أي فاسألوا هذه الأصنام عمن كسرها إن كانوا آلهة ينطقون.

وفي ذلك الجواب لفت أنظارهم وتنبيه أذهانهم إلى عقم عبادة الأصنام، فيبادروا من تلقاء أنفسهم للاعتراف بعدم جدواها وأنها أحجار صماء لا تنطق، وجمادات لا تتكلم، فكيف تستحق العبادة؟! وقد أثر الجواب في أفكارهم بدليل قوله الآتي: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي فرجع قوم إبراهيم حينئذ على أنفسهم بالملامة، ونسبوا إلى أنفسهم التقصير في عدم الاحتراز وعدم حراسة آلهتهم، ما داموا لا ينطقون، وقالوا:

﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ أي قال بعضهم لبعض: إنكم أنتم الظالمون في ترككم لها مهملة لا حافظ عندها. أو أنتم الظالمون أنفسكم بعبادة ما لا ينطق.

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي ثم أطرقوا في الأرض للتأمل والتفكير، أو عادوا إلى المجادلة بالباطل لإبراهيم وانقلبوا عن حال الاستقامة، واحتجوا على إبراهيم حينما أدركتهم الحيرة بقولهم: إنك تعلم ونحن نعلم أن هؤلاء لا ينطقون، فكيف تطلب منا سؤالهم إن كانوا ينطقون؟! أي أنهم احتجوا على إبراهيم بما هو الحجة لإبراهيم عليهم بسبب الحيرة التي أدركتهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

لقد طاشت سهام قوم إبراهيم حينما رأوا أصنامهم مكسَّرة، بعد أن رجعوا من عيدهم، فقالوا على جهة البحث والإنكار: ﴿مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾. وهذا أمر متوقع، قدَّره إبراهيم عليه السلام.

كما أنه قدر أنهم سيعرفون أنه هو المتهم بالتكسير، لحملته السابقة بالقول والنكير، وتسفيه الأحلام والعقول، وانتقاده اللاذع لعبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، ودعوته إلى عبادة الله الواحد الأحد الذي يمنح ويمنع، ويضر وينفع.

ولما بلغ الخبر نمروذ وأشراف قومه، أرادوا إثبات التهمة عليه بالبينة، فقالوا: ائتوا به على مرأى ومسمع من الناس، ليشهدوا عليه بما يقول، ليكون ذلك حجة عليه.

وفي هذا دليل على أنه ما كان يؤخذ أحد بدعوى أحد، وهكذا الأمر في شرعنا، وكل الشرائع.

ولكنهم ما أدركوا أن تلك المواجهة مع إبراهيم عليه السلام أمام الناس في غير صالحهم، فقد كان إبراهيم قوي الحجة، وأراد تنبيه الأفكار إلى عبث عبادتهم، وقلة عقلهم، وكثرة جهلهم، فسألوه عمن فعل تلك الفعلة، فأجابهم بأن الفاعل هو كبيرهم، تعريضاً بأن عبادتهم له وتعظيمهم إياه سبب للغيظ والغضب، مما حمله على تكسيرها، وتنبيهاً لهم بأن من لا يتكلم ولا يعلم لا يستحق أن يُعبَد، وكان قوله من المعاريض، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب، قال ﷺ فيما رواه ابن عدي والبيهقي عن عمران بن حصين وهو ضعيف: «إن في المعاريض لمندوحةً عن الكذب» وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث: ثنتين في ذات الله قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾. وواحدة في شأن سارة إذ قال: لسارة أختي، وذلك ليدفع بقوله مكروهاً».

ثم قال إبراهيم: سلوهم إن نطقوا، فإنهم يصدقون، وإن لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل. ويتضمن هذا الكلام اعترافاً بأنه هو الفاعل.

فقد احتج عليهم بأمرين: الأول: قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وشأن الكبير حماية الأتباع والصغار، أو لأنه غضب أن تعبد معه هذه الصغار، فكسرها.

والثاني: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ ليقولوا: إنهم لا ينطقون ولا ينفعون ولا يضرون، فيقول لهم: فلم تعبدونهم؟ فتقوم عليهم الحجة منهم.

ولما ألزمهم بحجته أقروا بأنهم هم الظالمون بعبادة من لا ينطق بكلمة، ولا يملك لنفسه شيئاً، فكيف ينفع عابديه، ويدفع عنهم البأس من لا يرد عن رأسه الفأس، ثم عادوا لجهلهم وعنادهم، فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾.

- ٣ -

الانتصار الساحق لإبراهيم - نجاته من النار

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾

القراءات:

﴿أُفٍّ لَّكُمْ﴾: قرئ:

١- (أفٍّ) وهي قراءة نافع، وحفص.

٢- (أفَّ) وهي قراءة ابن كثير، وابن عامر.

٣- (أفِّ) وهي قراءة الباقين.

البلاغة:

﴿يَنفَعُكُمْ﴾ ﴿يَضُرُّكُمْ﴾ بينهما طباق.

﴿كُونِى بَرْدًا﴾ مجاز مرسل، من إطلاق المصدر، وإرادة اسم الفاعل، أي باردة أو ذات برد.

المفردات اللغوية:

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي بدله. ﴿مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا﴾ من رزق وغيره. ﴿وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ شيئاً إذا لم تعبدوه. ﴿أُفٍّ﴾ هو صوت المتضجر، ومعناه: نتناً وقبحاً، ويستعمل للدلالة على أن القائل متضجر، والمراد هنا أن إبراهيم تضجر على إصرارهم على الباطل البيِّن. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي غيره. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قبح صنعكم، وأن هذه الأصنام لا تستحق العبادة، ولا تصلح لها، وإنما يستحقها الله تعالى.

﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ﴾ أخذوا في المضارّة لما عجزوا عن المحاجة، أي حرقوا إبراهيم، فإن النار أهول ما يعاقب به. ﴿وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾ بتحريقه والانتقام لها. ﴿إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ﴾ أي إن كنتم ناصريها نصراً مؤزراً. والقائل منهم: رجل من أكراد فارس، اسمه (هينون) خسف به الأرض، وقيل: نمروذ. فجمعوا له الحطب الكثير، وأضرموا فيه النار، وأوثقوا إبراهيم، ورموه في منجنيق في النار.

﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ أي كوني ذات برد وسلام، أي ابردي برداً غير ضار، فلم تحرق منه غير وثاقه، وذهبت حرارتها، وبقيت إضاءتها، وسلم من الموت ببردها. ﴿كَيْدًا﴾ أي تحريقاً ومكراً في إضراره، والكيد: المكر والخديعة. ﴿ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ في مرادهم، أي أخسر من كل خاسر، لما عاد سعيهم برهاناً قاطعاً على أنهم على الباطل، وإبراهيم على الحق، وموجباً لمزيد درجته، واستحقاقهم أشد العذاب.

التفسير والبيان:

هذا هو الفصل الثالث والخاتمة المدهشة من قصة إبراهيم مع قومه عبدة الأصنام، فإنه لما أقروا على أنفسهم بأن لا جدوى من عبادة آلهتهم، وألزمهم إبراهيم الحجة، اندفع كالسيل الهادر يعلن ضرورة إنهاء هذه العبادة الخرافية، التي تقوم على الأوهام، والتي يترفع عنها العقلاء، فقال:

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾﴾؟ أي قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بأن تلك الآلهة لا تنطق: أتعبدون بدلاً عن الله أشياء لا تنفعكم شيئاً إذا علّقتم الأمل بها، ولا تضركم شيئاً إذا عاديتموها أو خفتم منها.

﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي تبّاً لكم وقبحاً لآلهتكم، وهذا التأفف والتضجر لكم ولها لعبادتكم إياها غير الله تعالى.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الذي لا يدين به إلا كل جاهل ظالم فاجر.

ولما تفوق إبراهيم بحجته عليهم، وظهر الحق واندحر الباطل، لم يجدوا مناصاً إلا اللجوء للأذى والمضارّة:

﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ أي قال بعضهم لبعض - والمشهور أن القائل: نمروذ بن كنعان بن سنحاريب بن نمروذ بن كوش بن حام بن نوح، وقيل: إنه رجل من الكرد من أعراب فارس -: احرقوا إبراهيم بالنار، وانصروا آلهتكم إن كنتم ناصريها نصراً مؤزراً، فجمعوا حطباً كثيراً جداً، ورموا إبراهيم من كفة منجنيق.

﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ أي قال الله تعالى المتكفل بحفظ أنبيائه وعصمتهم من أذى الناس: يا نار كوني برداً، وسلاماً على إبراهيم، أي أبردي برداً غير ضار، فكانت وسطاً لا حامية ولا باردة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لو لم يقل ذلك لأهلكته ببردها. وقال أبو العالية: ولو لم يقل ﴿بَرْدًا وَسَلَـٰمًا﴾ لكان بردها أشد عليه من حرّها. وبرودتها حدثت بنزع الله عنها طبعها من الحر والإحراق، مع بقائها على الإضاءة والإشراق والاشتعال كما كانت، والله على كل شيء قدير.

روى البخاري عن ابن عباس أن إبراهيم لما ألقوه في النار قال: «حسبي الله ونعم الوكيل، وقالها محمد عليهما السلام حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾» [آل عمران: ١٧٣/٣].

وروى الحافظ أبو يعلى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أُلقي إبراهيم عليه السلام في النار قال: اللهم إنك في السماء واحد، وأنا في الأرض واحد أعبدك».

وعن أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «أن إبراهيم حين قيدوه وألقوه في النار قال: لا إله إلا أنت سبحانك ربّ العالمين، لك الحمد، ولك المُلْك لا شريك لك» قال: ثم رموا به في المنجنيق من مضرب شاسع، فاستقبله جبريل، فقال: يا إبراهيم؟ ألك حاجة؟ قال: «أما إليك فلا» فقال جبريل: فاسأل ربك، فقال: «حسبي من سؤالي علمه بحالي» فقال الله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[1].

﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ أي وأراد قوم إبراهيم به مكراً وتدبيراً يؤذيه ويقتله، فجعلناهم المغلوبين الأسفلين، ونجاه الله من النار.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه الآيات عبرة لمن اعتبر، إنها تمثل موقف المجاهد الصابر في سبيل دعوته إلى التوحيد والحق والفضيلة، وموقف المعادي الجاهل المناصر للباطل والشرك والوثنية.

لقد دبَّر قوم إبراهيم له طريقاً للخلاص منه، وأرادوا إحراقه وتعذيبه بأشد

(١) تفسير القرطبي: ١١/ ٣٠٣

أهوال العذاب، ومعاقبته بالنار؛ لأنها أشد العقوبات، وجمعوا الحطب وأوقدوا النار، واشتعلت واشتدت، ثم قيدوا إبراهيم ووضعوه في المنجنيق مغلولاً. وهذا من أشد وأعتى ما يفعله البشر، ولكن أين الله؟!

لقد كانت النتيجة مروعة مذهلة مدعاة للعجب والاستغراب، وفوق حدود التصورات البشرية، فسلخ الله تعالى من النار خاصية الإحراق، ونجا إبراهيم وخرج من النار كأنه يخرج من حمام أمام الجموع الغفيرة المشاهدة، ولم تحرق النار إلا وِثاقه في أول ملامستها له، وتلك معجزة تدعو إلى الإيمان بحق، وتستدعي التأمل في تدبير البشر ومكرهم، وفي تدبير الله الأعظم الذي يبدد كل تدبير، ويحبط كل مسعى شرير، فنجاه الله من النار، وجعلهم الأخسرين المغلوبين الأسفلين؛ لأنهم أرادوا به التحريق، فخاب مرادهم.

روى ابن أبي حاتم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حين ألقي في النار، لم يكن في الأرض دابة إلا تطفئ النار غير الوَزَغ [١]، فإنه كان ينفخ على إبراهيم».

وقال عطية العوفي: لما ألقي إبراهيم في النار، جاء ملكهم لينظر إليه، فطارت شرارة، فوقعت على إبهامه، فأحرقته مثل الصوفة.

آمنت بالله وحده لا شريك له، فهو صاحب القدرة المطلقة، إذا أراد شيئاً قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

---

(١) الوَزَغ: دُوَيْبَّة أمر رسول الله ﷺ بقتلها وسماها فويسقة.

- ٤ -

نعم أخرى على إبراهيم وإنجاؤه مع لوط إلى الأرض المباركة

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾

البلاغة:

﴿فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ عطف الصلاة والزكاة على فعل الخيرات من باب عطف الخاص على العام للتفضيل؛ فإنهما من فعل الخيرات، وخصهما بالذكر لفضلهما ورفعة مرتبتهما.

﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿صَٰلِحِينَ﴾ ﴿عَٰبِدِينَ﴾ سجع لطيف.

المفردات اللغوية:

﴿وَلُوطًا﴾ ابن أخي إبراهيم ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ أي من العراق إلى أرض فلسطين في الشام، التي بارك الله فيها بكثرة الأنهار والأشجار، أو لأن أكثر الأنبياء بعثوا فيها، فانتشرت في العالمين شرائعهم التي هي مبادئ الكمالات والخيرات الدينية والدنيوية. روي أن إبراهيم نزل بفلسطين، ولوط بالمؤتفكة، وبينهما مسافة يوم وليلة ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ أي لإبراهيم، وكان قد سأل ولداً، كما جاء في سورة الصافات ﴿نَافِلَةً﴾ عطية ومنحة، وهي حال من إسحاق ويعقوب، أو المراد: زيادة على ما سأل وهو

إسحاق، فتختص كلمة ﴿نَافِلَةً﴾ بيعقوب، ولابأس به للقرينة، كما قال البيضاوي.

﴿وَكُلًّا﴾ أي الأربعة: هو وولداه ولوط ﴿جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أنبياء، ووفقناهم للصلاح، فصاروا كاملين ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾ رؤساء يقتدى بهم في الخير ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس إلى ديننا ﴿بِأَمْرِنَا﴾ أي بأمرنا لهم بذلك ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ أي أن يحثوا الناس على فعل الخير، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، فيتم كمالهم بانضمام العمل إلى العلم. وأصل الكلام: أن تفعل الخيرات. وحذفت تاء ﴿وَإِقَامَ﴾ تخفيفاً، وهي الإقامة؛ لقيام المضاف إليه مقامها ﴿عَابِدِينَ﴾ موحدين مخلصين في العبادة، ولذلك قدم الصلة وهي لنا ليفيد الإخلاص في العبادة.

المناسبة:

بعد إنجاء إبراهيم من النار، ذكر الله تعالى نعماً أخرى عليه وعلى لوط ابن أخيه، وقد قرن مع إبراهيم لما كان بينهما من القرابة والاشتراك في النبوة. ومن تلك النعم: إخراجهما من العراق إلى بلاد الشام الأرض المباركة، ومنها: جعلهما أئمة يقتدى بهم، وإنزال الوحي عليهما لفعل الخيرات، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ومن النعم على إبراهيم هبته من الذرية إسحاق ويعقوب.

التفسير والبيان:

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ أي ومن نعم الله تعالى على إبراهيم: أنه ولوط عليهما السلام نجاهما إلى الأرض المباركة، بالهجرة من العراق إلى بلاد الشام الأرض المقدسة، والتي بارك الله فيها بكثرة ما بعث فيها من الأنبياء، وانتشرت شرائعهم بين العالمين، كما بارك فيها

بخصوبة أراضيها وكثرة أشجارها وأنهارها، فاجتمع فيها خير الدنيا والآخرة. ويقال: هي أرض المحشر والمنشر، وبها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام، وبها يهلك المسيح الدجال.

وكانت هجرة إبراهيم من كُوثى من بلدة «فدان آرام» بالعراق، ومعه لوط وسارَّة، فراراً من الشرك والوثنية، والتماساً لمقر التوحيد وعبادة الله، فنزل حَرَّان، ثم رحل إلى مصر، ثم رجع إلى الشام، فنزل بِفَلْسطين، وأقام لوط في قرى المؤتفكة التي تبعد عن فلسطين مسيرة يوم وليلة.

ثم ذكر الله تعالى نعماً أخرى على إبراهيم بعد نعمتي النجاة من النار والهجرة إلى الأرض المباركة فقال:

١ - ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أي ومنحنا إبراهيم من الذرية المباركة إسحاق ويعقوب، أو أعطيناه إسحاق إجابة لدعائه، إذ قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٠٠] وزدناه يعقوب نافلة زائدة على ما سأل، كالصلاة النافلة التي هي زيادة على الفرض. وعلى التفسير الأول: تكون النافلة (أي العطية والمنحة) إسحاق ويعقوب، وعلى التفسير الثاني: النافلة يعقوب خاصة.

٢ - ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ أي وكلاً من الأربعة: لوط وإبراهيم وولديه، أو: وكلاً من إبراهيم وإسحاق ويعقوب، جعلنا الجميع أهل خير وصلاح، يطيعون ربهم، ويتجنبون محارمه، أو جعلناهم أنبياء مرسلين، والأول أقرب لشموله الكل.

ووصفهم بالصلاح يدل على أن الأنبياء معصومون.

٣ - ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي وصيرناهم قادة وأئمة يقتدى بهم، يدعون إلى دين الله بإذنه، وإلى الخيرات بأمره. وفيه دلالة على أن من

صلح للقدوة في دين الله موفق مهدي للدين الحق وطريق الاستقامة، وليس له أن يخل بمقتضى الهداية ويتثاقل عنها.

٤ - ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي وأنزلنا عليهم أن يفعلوا الخيرات وهي الأعمال الصالحات من فعل الطاعات وترك المحرّمات. وهذا يدل على أنه سبحانه خصهم بشرف النبوة، وذلك من أعظم النعم على الأب إبراهيم عليه السلام.

٥، ٦ - ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي وأوحينا إليهم أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة المفروضتين، وهذا من عطف الخاص على العام؛ لأن الصلاة والزكاة من الخيرات، وخصهما بالذكر من سائر العبادات لسمو مرتبتهما وخطورتهما؛ لأن الصلاة أشرف العبادات البدنية، وشرعت لذكر الله تعالى، والزكاة أشرف العبادات المالية، وشرعت لدفع حاجة الفقراء، وفي كلتا العبادتين تعظيم أمر الله تعالى.

وبعد تعداد هذه النعم ووصفهم بالصلاح أولاً، ثم بالإمامة، ثم بالنبوة والوحي، أبان اشتغالهم بالعبودية والعبادة لله تعالى، فقال: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ أي وكانوا لجناب الله خاشعين خاضعين، طائعين فاعلين ما يأمرون به الناس. وفي هذا دلالة على أنهم كانوا أوفياء لإحسان الله ونعمه عليهم، فلما أكرمهم الله بالإنعام وتفضل عليهم بالإحسان، كانوا أوفياء له بالعبودية وهو الطاعة والعبادة.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى بيان ما تفضل الله به من النعم الوفيرة على إبراهيم عليه السلام بعد نجاته من النار، وهي ما يلي:

أ - النجاة من أرض الكفر والوثنية إلى أرض الإيمان والتوحيد، وذلك

بهجرة إبراهيم الخليل مع ابن أخيه لوط من بلاد العراق إلى أرض الشام المباركة ببعثة أكثر الأنبياء فيها، وبكثرة الخيرات الزراعية، فهي معادن الأنبياء، وكثيرة الخصب والنمو، ووافرة الثمار والأنهار العذبة.

٢ - هبة الذرية الطيبة له، فقد وهبه الله إسحاق إجابة لدعائه، وزاده يعقوب من غير دعاء، فكان ذلك نافلة، أي زيادة على ما سأل.

٣ - جعل الله كلاً من إبراهيم وإسحاق ويعقوب صالحاً عاملاً بطاعة الله، ورأى البيضاوي إضافة رابع وهو لوط. قال القرطبي: وجعلهم صالحين إنما يتحقق بخلق الصلاح والطاعة لهم، وبخلق القدرة على الطاعة، ثم ما يكتسبه العبد، فهو مخلوق لله تعالى.

٤ - جعلهم رؤساء يقتدى بهم في الخيرات وأعمال الطاعات، يعملون بأمر الله وبما أنزله عليهم من الوحي والأمر والنهي، ويهدون الناس إلى دين الله الحق بأمر الله لهم، ويدعونهم إلى التوحيد.

٥ - الإيحاء لهم بأن يفعلوا الطاعات.

٦ - أمرهم بإقامة الصلاة المفروضة التي هي أشرف العبادات البدنية.

٧ - الوحي لهم أيضاً بإيتاء الزكاة الواجبة التي هي أشرف العبادات المالية. وكانوا مشتغلين بالعبودية، مطيعين لأوامر الله تعالى، كأنه سبحانه وتعالى لما وفى بعهد الربوبية في الإحسان والإنعام، فهم أيضاً وَفّوا بعهد العبودية، وهو الاشتغال بالطاعة والعبادة.

القصة الثالثة - قصة لوط عليه السلام

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾

الإعراب:

﴿وَلُوطًا﴾ منصوب بفعل مقدر، تقديره: وآتينا لوطاً آتيناه، وقيل: تقديره: واذكر لوطاً.

البلاغة:

﴿وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ مجاز مرسل علاقته المحلية، أي أدخلناه في الجنة؛ لأنها مكان تنزل الرحمات.

المفردات اللغوية:

﴿وَلُوطًا﴾ هو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام، كما عرفنا ﴿حُكْمًا﴾ حكمة، أو نبوة، أو فصلاً بين الخصوم ﴿وَعِلْمًا﴾ بما ينبغي علمه للأنبياء ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ هي قرية سَدُوم التي بعث إليها لوط عليه السلام ﴿ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ﴾ أي يعمل أهلها، وصفها بصفة أهلها ﴿ٱلْخَبَـٰٓئِثَ﴾ أي الأعمال الخبيثة من اللواط وغيره كالرمي بالبندق واللعب بالطيور ﴿قَوْمَ سَوْءٍ﴾ مصدر ساء نقيض سَرّ، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ﴾ كالتعليل لما سبق ﴿وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ بأن أنجيناه من قومه، وجعلناه في أهل رحمتنا أو في جنتنا ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى.

المناسبة:

بعد بيان ما أنعم الله تعالى به على إبراهيم عليه السلام، ذكر نعمه على لوط عليه السلام، لما بينهما من القرابة والاشتراك في النبوة. ولوط: هو لوط بن هاران بن آزر، كان قد آمن بإبراهيم عليه السلام واتبعه وهاجر معه، قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٢٦].

التفسير والبيان:

﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ أي آتى الله لوطاً النبوة والحكمة (وهي ما يجب فعله) والحكم: وهو حسن الفصل في الخصومات بين الناس، وكذلك آتاه علماً بما ينبغي للأنبياء وهو كل ما يتعلق بالعقيدة والعبادة وطاعة الله تعالى، وبعثه إلى «سَدُوم» وتوابعها وهي سبع قرى، فخالفوه وكذبوه، فأهلكهم الله، ودمر عليهم، كما أخبر في مواضع من القرآن العزيز. وهاتان نعمتان على لوط، والنعمة الثالثة هي:

﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾ أي ونجاه الله من عذابه الذي عذَّب به أهل القرية «سدوم» الذين كانوا يرتكبون خبائث الأعمال، وأخطرها اللواط. وسبب ذلك أنهم كما قال تعالى:

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ﴾ أي إنهم كانوا جماعة سوء وقبح، خارجين عن طاعة الله، مرتكبين معاصيه، والفسوق: الخروج.

والنعمة الرابعة هي: ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ﴾ أي وجعلناه من أهل رحمتنا أو في جنتنا، كما جاء في الحديث الصحيح: «قال الله عز وجل للجنة: أنتِ رحمتي، أرحم بك من أشاء من عبادي» وقيل: الرحمة: هي النبوة، أو الثواب. والسبب هو كما قال:

﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي من الذين يعملون الصالحات، ويؤدون الطاعات، بفعل الأوامر، واجتناب النواهي.

فقه الحياة أو الأحكام:

أنعم الله تعالى على لوط عليه السلام بأربع نِعَم وهي:

١ً - إيتاؤه الحكم: أي النبوة، والحكمة: وهي ما يجب فعله.

٢ً - تعليمه العلم النافع: وهو المعرفة بأمر الدين، وما يقع به الحكم بين الخصوم.

٣ً - إنجاؤه من العذاب الذي حل بالقرى التي أرسل إليها، لارتكاب أهلها خبائث الأعمال، وأهمها اللواط، ولأنهم قوم سوء فاسقين، أي خارجين عن طاعة الله تعالى.

٤ً - إدخاله في جنان الخلد التي هي متنزل الرحمات الإلهية؛ لأنه من القوم الصالحين الذين آمنوا بالله، وأطاعوا ربهم، وائتمروا بأمره، وانتهوا عن نهيه.

القصة الرابعة - قصة نوح عليه السلام

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾

المفردات اللغوية:

﴿وَنُوحًا﴾ أي واذكر نوحاً ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ إذ دعا على قومه بالهلاك، بقوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح: ٧١/٢٦] وهو بدل مما قبله .﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل المذكورين: إبراهيم ولوط ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ دعاءه ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ في السفينة ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أي من الطوفان والغرق، وأذى قومه، والكرب: الغم الشديد ﴿وَنَصَرْنَاهُ﴾

جعلناه منتصراً ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ الدالة على رسالته ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ لاجتماع الأمرين: تكذيب الحق، والانهماك في الشر، ولم يجتمعا في قوم إلا وأهلكهم الله.

المناسبة:

بعد بيان قصة إبراهيم أبي الأنبياء ولوط قريبه، ذكر الله تعالى قصة نوح أب البشر الثاني؛ لأن جميع الباقين بعد الطوفان من ذريته عليه السلام. وكل من إبراهيم ونوح من الرسل أولي العزم.

التفسير والبيان:

﴿وَنُوحًا﴾ أي واذكر أيها النبي وقت أن نادى نوح ربه بأن دعا على قومه لما كذبوه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠﴾ [القمر: ٥٤/١٠] ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦﴾ [نوح: ٧١/٢٦] وذلك من قبلك وقبل إبراهيم ولوط، فاستجبنا له دعاءه ونجيناه والذين آمنوا به من أهله، كما قال تعالى: ﴿وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [هود: ١١/ ٤٠] نجيناهم من الغرق والشدة والأذى. فقوله ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي من قبل هؤلاء المذكورين. والكرب: الطوفان والغم الشديد والعذاب النازل بالكفار، وتكذيب قومه إياه وما لقي منهم من الأذى.

وذلك بعد أن لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل، فلم يؤمن به منهم إلا القليل.

﴿وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ أي وجعلناه منتصراً على القوم الذين كذبوا بأدلتنا الدالة على رسالته. وفي لغة هذيل: اللهم انصرهم منه، أي اجعلهم منتصرين منه.

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أي إن سبب إهلاكهم أنهم

قوم سوء لأجل تكذيبهم لنبيهم، فكان جزاؤهم أن أهلكهم الله جميعاً صغاراً وكباراً، ولم يبق منهم أحد، كما دعا عليهم نبيهم، بعد أن أصروا على كفرهم، وتصدّوا لإيذائه، وتواصوا قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل على مخالفته وعصيان أمره.

فقه الحياة أو الأحكام:

إن في عذاب الاستئصال للأمة أو القوم جميعاً عبرة وعظة بالغة، فهؤلاء قوم نوح الذين عكفوا على عبادة الأوثان، وأصروا على الكفر، وتمردوا على دعوة نوح ورسالته، قد أهلكهم الله عامة بالطوفان الذي عم السهول والجبال.

والسبب هو تكذيبهم لنبيهم وإيذاؤهم له، بالرغم من الصبر عليهم قرابة عشرة قرون (٩٥٠) عاماً، وهي مدة طويلة جداً.

وكان النصر حليف نوح عليه السلام، فنجاه الله والمؤمنين الذين آمنوا به، وعددهم قليل.

فلله الأمر والحكمة، وبيده مقاليد السماوات والأرض، ولا يصدر عنه إلا الخير والعدل، ولا يظلم أحداً من عباده، فلو علم الله فيهم خيراً لما عذبهم وأهلكهم، وسيلقون أيضاً في الآخرة عذاب النار.

وقد أجمع المحققون - كما ذكر الرازي - على أن دعاء نوح على قومه كان بأمر الله تعالى، وإلا كان ذلك مبالغة في الإضرار، وسبباً لنقصان حال الأنبياء.

القصة الخامسة - قصة داود وسليمان عليهما السلام

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

القراءات:

﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ : قرئ:

١- (لتُحْصِنَكُم) وهي قراءة ابن عامر، وحفص.

٢- (ليُحْصِنَكُم) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿بَأْسِكُمْ﴾ :

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (باسكم).

الإعراب:

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ أي واذكر داود وسليمان.

﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ الضمير في ﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ راجع إلى داود وسليمان، على طريقة إقامة الجمع مقام التثنية. أو أن المراد بالضمير الحاكمان والمتحاكمان وهم جماعة.

﴿يُسَبِّحْنَ﴾ الجملة حال، أو استئناف لبيان وجه التسخير (معه) متعلق بيسبحن أو بسخرنا.

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ منصوب معطوف على ﴿ٱلْجِبَالَ﴾، أو لأنه مفعول معه.

﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ أي الصنعة، وقرئ بالياء أي (ليحصنكم الله) وقرئ بالنون، أي: لنحصنكم نحن.

المفردات اللغوية:

﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ أي واذكر قصتهما ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ بدل مما قبله ﴿ٱلْحَرْثِ﴾ الزرع، وقيل: كرم تدلت عناقيده ﴿نَفَشَتْ﴾ رعت ليلاً بلا راع، بأن انفلتت من حظيرتها، والنفش: الرعي ليلاً .﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ أي حاضرين، وفيه استعمال ضمير الجمع لاثنين أو كنا شاهدين عالمين حكم الحاكمين والمتحاكمين إليهما. وكان حكم داود: أن يتملك صاحب الزرع الأغنام، وحكم سليمان: تبادل المتحاكمين الشيء المملوك لمدة سنة، فينتفع صاحب الزرع بدَرّ الغنم ونسلها وصوفها إلى أن يعود الحرث كما كان بإصلاح صاحب الغنم، ثم يردها إلى صاحبها.

﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ الضمير يعود للفتوى الصادرة. وكان حكم داود وسليمان باجتهاد، ثم رجع داود إلى حكم سليمان ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي آتينا كلاً منهما حكماً أي نبوة، وعلماً بأمور الدين.

﴿يُسَبِّحْنَ﴾ يقدسن الله معه، إما بلسان الحال، أو بصوت يتمثل له، أو بخلق الله فيها صوتاً بلغة معينة .﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ أي وكذلك سخرنا الطير له للتسبيح معه، بأمره به في وقت الراحة ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي تسخير التسبيح معه، فكنا فاعلين لأمثاله، فليس ببدع منا، وإن كان عجباً عندكم أي مجاوبة الجبال والطير لسيدها داود ﴿صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ المراد هنا الدروع؛ لأنها تلبس،

وهو أول من صنعها، وكان قبلها صفائح. واللبوس في الأصل: السلاح بأنواعه ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بقوله ﴿وَعَلَّمْنَاهُ﴾ أو متعلق بصفة للبوس. ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ لتحميكم وتمنعكم وتصونكم الصنعة ﴿مِّنْ بَأْسِكُمْ﴾ بدل اشتمال بإعادة الجار، وبأسكم: حربكم مع أعدائكم، البأس: الحرب ﴿فَهَلْ أَنتُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿شَاكِرُونَ﴾ نعمتي، بتصديق الرسول، فإن شكركم لي يكون بذلك. وقوله ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾؟ أمر في صورة الاستفهام للمبالغة والتقريع.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ﴾ أي وسخرنا له ﴿الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ الريح العاصف: هي الشديدة الهبوب. وكانت ﴿رُخَاءً﴾ أي لينة خفيفة في نفسها طيبة، كما جاء في آية أخرى، فقد جمعت بين الوصفين، فهي لينة طيبة، وتسرع في جريها كالعاصف ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ هي الشام ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ أي نعلم بكل شيء، فنجزيه على ما تقتضيه الحكمة، وقد علم الله تعالى بأن ما يعطيه سليمان يدعوه للخضوع لربه.

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ﴾ أي وسخرنا له ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ﴾ أي يدخلون في البحر، فيخرجون منه الجواهر لسليمان، والغوص: النزول إلى أعماق البحار لاستخراج اللؤلؤ. ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي سوى الغوص أو غيره، كبناء المدن والقصور واختراع الصنائع الغريبة، كقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٣]. ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ أن يزيغوا عن أمره، أو يفسدوا ما عملوا؛ لأنهم كانوا إذا فرغوا من عمل أفسدوه إن لم يشتغلوا بغيره.

المناسبة:

هذه القصة كسابقاتها أيضاً فيها تعداد النعم العظمى على داود وسليمان عليهما السلام، فذكر فيها أولاً النعمة المشتركة بينهما وهي تزيينهما بالعلم

والفهم كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾ مما يدل على شرف العلم، لتقديم ذكره على سائر النعم الأخرى. ثم ذكر ما اختص به كل منهما من النعم، أما داود فخص بنعمة تسخير الجبال والطير للتسبيح معه، وبصناعة الدروع. وأما سليمان فاختص بنعمة تسخير الريح، وتسخير الشياطين للغوص في أعماق البحار لاستخراج اللؤلؤ والمرجان، ولأعمال أخرى كبناء المدن والقصور وصناعة الأشياء الغريبة من قدور ومحاريب وتماثيل.

التفسير والبيان:

ذكر الله تعالى قصة الحكم بين المزارع والراعي، ثم ذكر النعم الجليلة المختصة بكل من داود وسليمان.

أما قصة الحكم كما قال أكثر المفسرين وكما ذكر الرازي: فهي أن راعي غنم رعت غنمه زرع فلاح ليلاً، فاحتكما إلى داود عليه السلام، فحكم بالغنم لصاحب الحرث (الزرع) فقال سليمان - وهو ابن إحدى عشرة سنة: غير هذا أرفق بهما، وأمر بتسليم الغنم إلى أهل الحرث، فينتفعون بألبانها وأولادها وأشعارها، وتسليم الحرث إلى أرباب الغنم، يتعهدونه بالمطلوب، حتى يعود إلى ما كان، ثم يترادّان. وكان حكمهما باجتهاد.

والحكم في شرعنا في رأي الإمام الشافعي: وجوب ضمان المتلف بالليل، إذ المعتاد ضبط الدواب ليلاً، وكذلك قضى النبي ﷺ لما دخلت ناقة البراء حائطاً (بستاناً) وأفسدته، فقال: «على أهل الأموال حفظها بالنهار، وعلى أهل الماشية حفظها بالليل» [1].

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن حِرَام بن سعد بن مُحَيِّصة.

وفي رأي الإمام أبي حنيفة: لا ضمان إلا أن يكون معها حافظ حارس؛ لقوله ﷺ: «جُرْح العجماء جُبَار» [١] أي أن ما تتلفه البهيمة هدر لا ضمان فيه. أما النص القرآني في هذا الحكم فهو:

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ أي واذكر أيها الرسول قصة داود وسليمان حينما حكما في زرع رعته ليلاً غنم لآخرين، وكان الله عليماً شاهداً بما حكم به داود وسليمان، لا تخفى عليه خافية.

ولكنه تعالى أفهم سليمان القضية والحكمة والفتوى الصحيحة الراجحة فكان رأيه هو الأصوب، مع أنه سبحانه آتى كلاً من داود وسليمان النبوة وحسن الفصل في الخصومات والعلم والفهم والإدراك السليم للأمور، مما يدل على إقرار الحكمين في الجملة، وعلى أن خطأ المجتهد لا يقدح فيه، وإن كان الصواب واحداً، وهو ما قضى به سليمان، ودل قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ على إظهار ما تفضل الله عليه به في صغره.

قال ابن العربي: لم يُرِدْ إذ جمعهما في القول اجتماعَهما في الحكم، فإن حاكمين على حُكْم واحد لا يجوز، وإنما حَكَم كل واحد منهما على انفراد بحكم، وكان سليمان هو الفاهم لها [٢].

وأما نعم الله على داود عليه السلام فهي:

أ - ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي وسخر أي ذلل الله الجبال والطيور مسبحات مُقَدِّسات الله مع داود لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه،

---

(١) نص الحديث «العجماء جُرْحها جُبَار» رواه الجماعة (أحمد وأصحاب الكتب الستة) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أحكام القرآن: ٣/ ١٢٥٤

وترد عليه الجبال تسبيحاً، فيكون ذلك أكثر تأثيراً في مشاعره وعواطفه، فيستديم في التسبيح، وقد وصف النبي ﷺ صوت أبي موسى الأشعري حين استمع لقراءته القرآن فقال فيما رواه أحمد والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة، والنسائي عن عائشة: «لقد أوتي مزماراً من مزامير آل داود».

وقدمت الجبال على الطير؛ لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة الإلهية، وأروع في الإعجاز؛ لأنها جماد، والطير حيوان إلا أنه غير ناطق.

ونطق الجبال والطير بأن يخلق الله فيها الكلام، كما خلقه في الشجرة حين كلم موسى عليه السلام، فإذا ذكر داود ربه ذكرت الجبال والطير ربها معه، لذا قال تعالى:

﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي قادرين على أن نفعل هذا، وإن كان عجباً عندكم. ونظير الآية: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤٤].

٢ - ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ أي وعلمنا داود صناعة الدروع لباساً لكم، وكانت الدروع قبله صفائح وهو أول من جعلها حِلَقاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ، أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٠-١١] أي لا توسع الحلقة ولا تغلظ المسمار. وذلك لتحميكم وتمنعكم وتحرسكم من شدة الحرب في القتال من جرح وقتل وضرب، فهل أنتم شاكرون نعم الله عليكم بتعليمه داود ذلك من أجلكم؟ وهذا استفهام معناه الأمر للمبالغة والتقريع، أي اشكروا الله على هذه الصنعة. والبأس: الحرب.

وفيه دلالة على أن أول من عمل الدرع داود عليه السلام، ثم تعلم الناس منه، وتوارثوا الصنعة عنه، فعمَّت النعمة كل المحاربين إلى آخر الدهر.

وأما نعم الله على سليمان عليه السلام فهي كما قال قتادة: ورَّث الله تعالى سليمان من داود ملكه ونبوته، وزاده أمرين: سخر له الريح والشياطين، فقال:

أ - ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح العاصفة الشديد السرعة والهبوب، وجعلناها طائعة منقادة له، مع كونها في نفسها رخاء أيضاً أي لطيفة لينة، فهي تجري بأمره، وتخضع لحكمه، وتنقله إلى أجزاء الأرض المقدسة المباركة، وهي أرض الشام، فيخرج مع صحبه في الغداة حيث شاؤوا، ثم يرجعون في يومهم إلى منزله، أي أن تلك الريح كانت جامعة بين الأمرين: رخاء في نفسها، وعاصفة في عملها، مع طاعتها لسليمان عليه السلام وهبوبها على حسب ما يريد.

﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ أي وكان الله عالماً بكل شيء وعالماً بتدبيره، فما آتاه الملك والنبوة، وما سخر له الريح بأمره إلا لعلمه بما فيه الحكمة والمصلحة والاستحقاق، فيشكر هو وقومه المنعم عليهم، ويعرفوا هذه المعجزات الظاهرة.

روي أنه كان له بساط من خشب، يوضع عليه كل ما يحتاجه من أمور المملكة، كالخيل والجمال والخيام والجند، ثم يأمر الريح أن تحمله، فتدخل تحته، ثم تحمله وترفعه، وتسير به وتظله الطير، لتقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض، فينزل، وتوضع آلاته، كما قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٣٦] وقال: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٢] (١).

٢ - ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ﴾ أي وسخرنا له فئة من الشياطين

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٨٧

تغوص في أعماق البحار لاستخراج اللؤلؤ والمرجان والجواهر ونحوها، والغوص: النزول تحت الماء.

﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي ويؤدون له عملاً غير ذلك كبناء المدن والقصور والمحاريب والتماثيل والقدور الراسيات ونحوها، كما قال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٣٧-٣٨] وقال: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٣] وأما الصناعات فهي مثل الطواحين والقوارير والصابون.

﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ أي حافظين لأعمالهم، نحرسه من أن يناله أحدهم بسوء، وقد جعلنا له سلطة مطلقة عليهم، إن شاء أطلق، وإن شاء حبس منهم من يشاء، ولهذا قال في الآية السابقة: ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى مايأتي من الأحكام:

أ - الحق والصواب واحد لا يتعدد، فإن حكم سليمان كان هو الأصوب، ولكن لا مانع من الخطأ في الاجتهاد، فمن اجتهد فأصاب فله أجران، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد، ولكن لا يجوز الحكم قبل الاجتهاد بالإجماع، وعلى المجتهد أن يجدد النظر عند وقوع الحادثة، ولا يعتمد على اجتهاده المتقدم، لإمكان أن يظهر له ثانياً خلاف ما ظهر له أولاً.

فقد ثبت في صحيح البخاري عن عمرو بن العاص أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصابَ فله أجران، وإذا اجتهدَ فأخطأ فله أجْرٌ» وفي السنن الصحاح: «القضاة ثلاثة: قاضٍ في الجنة، وقاضيان في النار: رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه، فهو في النار».

وقال الحسن البصري: لولا هذه الآية لرأيت القضاة قد هلكوا، ولكنه تعالى أثنى على سليمان بصوابه، وعذر داود باجتهاده.

وقريب من هذه القصة المذكورة في القرآن: ما رواه الإمام أحمد في مسنده والشيخان والنسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما امرأتان معهما ابنان لهما، إذ جاء الذئب، فأخذ أحد الابنين، فتحاكمتا إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا، فدعاهما سليمان، فقال: هاتوا السكين أشقُّه بينكما، فقالت الصغرى: يرحمكَ الله، هو ابنها، لا تشقه، فقضى به للصغرى».

وأما حكم مسألة رعي الزرع ليلاً في شرعنا، فقال الجصاص: ولا خلاف بين أهل العلم أن حكم داود وسليمان بما حكما به من ذلك منسوخ؛ وذلك لأن داود عليه السلام حكم بدفع الغنم إلى صاحب الحرث، وحكم سليمان له بأولادها وأصوافها، ولا خلاف بين المسلمين أن من نفشت غنمه في حرث رجل أنه لا يجب عليه تسليم الغنم، ولا تسليم أولادها وألبانها وأصوافها إليه، فثبت أن الحكمين جميعاً منسوخان بشريعة نبينا ﷺ [(١)].

وأما آراء فقهائنا فهي كما يلي [(٢)]:

قال مالك وأبو حنيفة والشافعي: لا ضمان على أرباب المواشي فيما أصابت بالنهار. وقال الليث: يضمن أرباب المواشي بالليل والنهار.

وأما ما تتلفه المواشي بالليل فللعلماء فيه رأيان مشهوران:

---

(١) أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ٢٢٣

(٢) أحكام القرآن لابن العربي: ٣/ ١٢٥٦ ومابعدها، تفسير الرازي: ٢٢/ ١٩٩، تفسير القرطبي: ١١/ ٣١٥.

رأي الجمهور (المالكية والشافعية والحنابلة): وهو ضمان ما تتلفه البهائم ليلاً، عملاً بما قضى به النبي ﷺ في ناقة البراء، وهو أن حفظ البهائم بالليل على أرباب المواشي، وهذا حديث خاص، وأما حديث «العجماءُ جُرْحها جُبَار» أي أن فعل البهائم هدَر، فهو عام، ولا خلاف أن العام يقضي عليه الخاص، أي أنه يقدم الخاص على العام، ولأنه لا إشكال في أن من أتلف شيئاً فعليه الضمان، ويكون الضمان بالقيمة، وإن زادت على قيمة المواشي.

ورأي أبي حنيفة: ألا ضمان لما تتلفه المواشي، ليلاً أو نهاراً، للحديث المتقدم: «العجماء جرحها جُبَار».

٢ً - قال ابن العربي: من أراد أن يتخذ ما ينتفع به مما لا يضر بغيره مُكِّن منه، مثل النحل والحمام والإوز والدجاج، وذلك كالماشية. وأما انتفاعه بما يتخذه بإضراره بأحد، فلا سبيل إليه، قال ﷺ فيما رواه أحمد وابن ماجه عن ابن عباس: «لا ضرر ولا ضرار» [(١)].

٣ً - إنما يكون الأجر للحاكم المخطئ إذا كان عالماً بالاجتهاد والسنن والقياس، وقضاء من مضى من السلف؛ لأن اجتهاده عبادة، ولا يؤجر على الخطأ، بل يوضع عنه الإثم فقط. فأما من لم يكن محلاً للاجتهاد، فهو متكلف لا يعذر بالخطأ في الحكم، بل يخاف عليه أعظم الوزر، بدليل الحديث المتقدم: «القضاة ثلاثة» قال ابن المنذر: إنما يؤجر على اجتهاده في طلب الصواب، لا على الخطأ، بدليل قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾.

٤ً - أكثر الفقهاء قالوا: إن الحق واحد من أقوال المجتهدين، وليس الحق أو الصواب في جميع أقوالهم، بدليل قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ فخص سليمان بالفهم، ولو كان الكل مصيباً لم يكن لتخصيص سليمان عليه السلام بهذا التفهيم فائدة.

(١) أحكام القرآن: ١٢٥٨/٣، تفسير القرطبي: ٣١٨/١١

٥ً - هل للأنبياء الاجتهاد؟ اختلف العلماء في جواز الاجتهاد على الأنبياء، فمنعه قوم، وجوزه المحققون الأكثرون؛ لأنه ليس فيه استحالة عقلية؛ لأنه دليل شرعي، فلا مانع أن يستدل به الأنبياء، والله تعالى قال: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ﴾ [الحشر: ٥٩/٢] وهو أمر للكل بالاعتبار، وذلك يشمل الرسول ﷺ، ولأنه إذا غلب على ظنه أن الحكم في الأصل المقيس عليه معلل بمعنى، ثم وجد ذلك المعنى في صورة أخرى، فلا بد وأن يغلب على ظنه أن الفرع كالأصل في الحكم، ثم إنه لو جاز الاجتهاد للعلماء وهو أرفع درجات العلم، لثبت لأحد من أمة النبي ﷺ من الفضيلة مالا يثبت له.

٦ً - في هذه الآية دليل على جواز رجوع القاضي عما حكم به، إذا تبين له أن الحق في غيره، فقد رجع داود إلى حكم سليمان عليهما السلام، وهذا ثابت أيضاً في رسالة عمر إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما.

٧ً - كان ترتيل داود عليه السلام لكتابه الزبور وتسبيحه تتردد أصداؤه في الجبال والطيور، وكانت هذه تتجاوب معه بالتسبيح، وتذكر الله معه بلغة خاصة بها، قال مقاتل: إذا ذكر داود عليه السلام ربه، ذكرت الجبال والطير ربها معه. وقيل: كان داود إذا وجد فترة أي راحة أمر الجبال، فسبَّحت حتى يشتاق، ولهذا قال: ﴿وَسَخَّرۡنَا﴾ أي جعلناها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح. وقيل: إن سيرها معه تسبيحها، والتسبيح مأخوذ من السباحة؛ بدليل قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ﴾ [سبأ: ٣٤/١٠] . قال الرازي: والقول الأول (أي قول مقاتل) أقرب؛ لأنه لا ضرورة في صرف اللفظ عن ظاهره. وتسبيح الجبال والطير فيه دلالة على قدرة الله تعالى، وعلى تنزهه عما لا يجوز.

٨ً - كان داود أول من اتخذ الدروع وصنعها، وتعلمها الناس منه، وإنما كانت صفائح، فهو أول من سردها وحلقها، فأصبحت النعمة عليه نعمة على جميع المحاربين على الدوام أبد الدهر، لحماية الناس وحراستهم من السلاح في أثناء القتال، فلزمهم شكر الله تعالى على النعمة.

وذلك يقتضي الشكر، لذا قال تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ أي على تيسير نعمة الدروع لكم، وأن تطيعوا رسول الله فيما أمر به. والمراد: اشكروا الله على مايسر عليكم من هذه الصنعة.

٩ً - هذه الآية دليل على جواز اتخاذ الصنائع والأسباب، فالسبب سنة الله في خلقه، وهي شهادة للعمال وأهل الحرف والصنائع بأن العمل شرف، واتخاذ الحرفة كرامة، وقد أخبر الله تعالى عن داود أنه كان يصنع الدروع، وكان أيضاً يصنع الخوص، وأخبر نبينا ﷺ عن داود عليه السلام أنه كان يأكل من عمل يده، وذلك أفضل الكسب. وكان آدم حراثاً، وكان نوح يصنع السفن وكان نجاراً، وكان إدريس ولقمان خياطين، وطالوت دباغاً، أو سقّاءً، وكل ذلك يدل على أن العمل كان منهج الأنبياء والصالحين، وطريق المؤمنين الأقوياء. والإسلام دين يحب العمل ويوجبه، ويكره البطالة والكسل، ويحارب العاطلين والخاملين إذا كانوا قادرين على العمل، جاء في الحديث الصحيح الذي يرويه الشيخان والنسائي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لأن يأخذ أحدكم حبله، ثم يغدو إلى الجبل، فيحتطب، فيبيع، فيأكل، ويتصدق، خير له من أن يسأل الناس». وبالصنعة يكف الإنسان نفسه عن الناس، ويدفع بها الضرر والبأس عن نفسه. جاء في حديث آخر رواه الحكيم الترمذي والطبراني والبيهقي عن أبي هريرة، وهو ضعيف: «إن الله يحب العبد المؤمن المحترف الضعيف المتعفف، ويبغض السائل الملْحِف».

١٠ً - كان من إكرام الله تعالى لسليمان تسخير الريح التي تجري بأمره إلى حيث شاء، ثم تردّه إلى بلاد الشام المباركة. يروى أنها كانت تجري به وبأصحابه إلى حيث أراد، ثم تردّه إلى الشام.

ومن إنعام الله عليه تسخير الشياطين له يعملون بصفة غواصين لاستخراج الجواهر من البحر، كما يعملون له أعمالاً أخرى غير الغوص، من بناء المدن

والقصور، ونحت المحاريب والتماثيل، وصناعة القدور الراسيات والجفان الواسعة والطواحين والقوارير والصابون، وغير ذلك مما يسخّرهم فيه، ويحفظ الله له أعمالهم من أن يفسدوها، أو أن يهيجوا أحداً من بني آدم في زمان سليمان، أو أن يهربوا أو يمتنعوا من أمره، فقد كانوا رهن إشارته، وطوع إرادته، لا يجرؤ أحد منهم على الاقتراب منه.

القصة السادسة - قصة أيوب عليه السلام

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

القراءات:

﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾:

وقرأ حمزة (مَسَّنيْ الضُّر).

الإعراب:

﴿رَحْمَةً﴾ مفعول لأجله ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾ صفة.

البلاغة:

﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ألطف في السؤال، حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية الرحمة، ولم يصرح بالمطلوب.

﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فيهما جناس الاشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿وَأَيُّوبَ﴾ أي واذكر أيوب ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ لما ابتلي به من المرض، وهو

بدل مما قبله ﴿أَنِّي﴾ أي بأني ﴿ٱلضُّرُّ﴾ بالضم: الضرر والشدة في النفس من مرض وهزال. وأما الضَّرر بالفتح: فهو الأذى في كل شيء، فالضُّر خاص بما في النفس من مرض وهزال، والضرر: شائع في كل ضرر. ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وصف ربه بغاية الرحمة، بعدما ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، واكتفى بذلك عن عرض المطلوب، لطفاً في السؤال.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ أجبنا له نداءه ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ أي أزلنا ورفعنا ضره بالشفاء من مرضه ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ أي وأعطيناه مثل أهله عدداً، وزيادة مثل آخر، بأن ولد له ضعف ما كان عنده من زوجته وزيد في شبابها ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ أي رحمة على أيوب، وتذكرة لغيره من العابدين، ليصبروا كما صبر، فيثابوا كما أثيب.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى قصص خمسة من الأنبياء: إبراهيم، ولوط، ونوح، وداود، وسليمان، وما تعرضوا له من الابتلاء في سبيل الدعوة إلى الله، ذكر هنا قصة أيوب وابتلاءه له بأنواع المحن في نفسه وأهله، والكل قد صبروا على المحن والبلايا، وشكروا الله على ما أنعم عليهم من رفع البلاء، والنصر على أقوامهم.

أضواء على قصة أيوب عليه السلام:

ورد اسم أيوب عليه السلام في القرآن الكريم أربع مرات في سور النساء والأنعام والأنبياء وسورة ص. وهو أيوب بن أموص، وأمه من ولد لوط عليه السلام، وكان عليه السلام رومياً من ولد يعقوب بن إسحاق عليهما السلام. كان موطنه أرض عوص من جبل سعير أو بلاد أدوم، قيل: إنه كان قبل موسى، أو قبل إبراهيم بأكثر من مئة سنة، قال ابن إسحاق في السيرة: الصحيح أنه كان من بني إسرائيل، ولم يصح في نسبه شيء، إلا أن اسم أبيه: أموص.

آتاه الله النبوة، وبسط عليه الدنيا، وكثّر أهله وماله، فكان له سبعة بنين، وسبع بنات، وذلك تعويضاً عما ابتلاه الله من محنة في نفسه إذ مرض مدة طويلة هي ثماني عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة أو سبع سنوات ونيف، على حسب الروايات، ولكنه مرض غير منفر للناس؛ لأن الأنبياء متصفون بالسلامة عن الأمراض المنفرة طبعاً. وابتلاه الله أيضاً في أهله بذهاب ولده، انهدم عليهم البيت، فهلكوا. وابتلاه كذلك في ماله بذهابه وفنائه، وكان رحيماً بالمساكين، ويكفل اليتامى والأرامل، ويكرم الضيف.

وقد أكرمه الله تعالى بكفارة يمينه، كما ذكر في سورة ص، بأن يأخذ بيده ضِغْثاً، فيضرب به زوجته، حتى لا يكون حانثاً. وزوجته: هي رحمة بنت أفرايم بن يوسف، أو ماخر بنت ميشا (منسا) بن يوسف، أو ليا بنت يعقوب، على اختلاف الروايات، ذهبت لحاجة، فأبطأت، أو بلغت أيوب عن الشيطان أن يقول كلمة محظورة فيبرأ، وأشارت عليه بذلك، فقالت له: إلى متى هذا البلاء؟ فحلف إن برئ ليضربنها مئة ضربة، فحلل الله له يمينه وأمره بأن يأخذ ضغثاً (وهو حزمة صغيرة من حشيش أو ريحان أو قضبان) ويضربها به، وذلك رحمة به وبها، لحسن خدمتها إياه، ورضاه عنها.

وهي رخصة مقررة في عقوبات الحدود في شريعتنا وفي غيرها أيضاً في حالات الضرورة كالمرض والحمل.

التفسير والبيان:

أيوب عليه السلام مثل أعلى ومشهور في الصبر على المحنة والبلاء، حتى صار يضرب به المثل، فيقال: كصبر أيوب، وهاهي قصته:

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ أي واذكر أيها الرسول للعبرة والعظة والتأسي خبر أيوب الذي أصابه البلاء في ماله وولده وجسده، حين دعا ربه، وقد مسّه الضر فقال: رب إني مسني الضر والعناء، وأنت أرحم الرحماء. وصف نفسه

بما يقتضي الرحمة، ووصف ربه بغاية الرحمة، ولم يصرح بمطلوبه بطريق التلطف في السؤال، وإيمانه بأن ربه عليم به. والنداء: الدعاء.

وكان مرضه طويل الأمد، إلا أنه غير منفر للناس ولا مشوه للجسد؛ لأن الأنبياء معصومون، سالمون عن الأمراض المنفرة طبعاً. وقد لازمته زوجته، وظلت تحنو عليه وتقوم بأمره. وقد قال النبي ﷺ فيما رواه أحمد والبخاري والترمذي وابن ماجه عن سعد: «أشد الناس بلاءً: الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دِينه، فإن كان في دينه صلباً، اشتد بلاؤه».

قال الضحاك ومقاتل: بقي في البلاء سبع سنين وسبعة أشهر، وسبعة أيام، وسبع ساعات. قال ابن العربي: وهذا ممكن، ولكنه لم يصح في مدة إقامته خبرٌ ولا في هذه القصة.

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ﴾ أي أجبنا دعاءه، ورفعنا عنه ضره، وعافيناه.

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ أي وعوضناه عما فقد في الدنيا، فأعطيناه مثل أهله وزيادة مثل آخر، فقد ولد له من زوجته من الأولاد ضعف ما كان عنده.

﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ أي أعطيناه التعويض عن المال والأهل والولد، وعافينا جسده، رحمة منا به، وتذكيراً للعابدين بالاقتداء به، والصبر كما صبر، ليثابوا كما أثيب، وحتى لا ييأس مؤمن من عفو الله ورحمته وفضله، ولا يطمع مؤمن في أنه لا يصاب بسوء أو مكروه، فالدنيا دار ابتلاء وامتحان.

وقال الزمخشري: أي لرحمتنا العابدين، وأنا نذكُرهم بالإحسان، لا

ننساهم، أو رحمة منا لأيوب وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر، حتى يثابوا كما أثيب في الدنيا والآخرة.

فقه الحياة أو الأحكام:

ذكر القرطبي سبعة عشر قولاً في بيان الضر الذي مس أيوب، والحق الاقتصار على ظاهر النص القرآني، وهو أنه أصيب بضرر في نفسه وبدنه وأهله وماله، فصبر، ثم عافاه الله تعالى، وأعطاه خيراً مما فقد، وأثنى عليه بالصبر: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٨/ ٤٤] . والثابت المؤكد أن مرضه لم يكن منفراً. والهدف أن قصته عبرة، وتعريف أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن الواجب على الإنسان أن يصبر على ما يناله من البلاء فيها، ويجتهد في القيام بحق الله تعالى، وألا يضجر من شيء، وألا يتسخط ولا يتبرم، وإنما يصبر على حالتي الضراء والسراء. وقد أجمل الله تعالى هذه العبرة بقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ أي فعلنا ذلك به رحمة من عندنا، وتذكيراً للعبَّاد؛ لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب، وصبره عليه ومحنته له، وهو أفضل أهل زمانه، صبروا صبر أيوب، فيكون هذا تنبيهاً لهم على إدامة العبادة، واحتمال الضرر. وأما مدة إقامته في البلاء ففيها روايات، قال القرطبي: الأصح منها - والله أعلم - ثماني عشرة سنة؛ رواه ابن شهاب الزهري عن النبي ﷺ، كما ذكر ابن المبارك.

القصة السابعة

قصة إسماعيل وإدريس وذي الكفل عليهم السلام

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾

البلاغة:

﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ ﴿ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ بينهما جناس ناقص.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِسۡمَـٰعِيلَ﴾ أي واذكر ﴿وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ﴾ يعني إلياس وقيل: يوشع بن نون، وقيل: زكريا، سمي بذلك؛ لأنه كان ذا حظ من الله، أو تكفل منه، أو له ضعف عمل أنبياء زمانه وثوابهم. والكفل في اللغة بمعنى النصيب، والكفالة، والضعف. قيل: لم يكن نبياً، والأكثرون أنه نبي وهو ابن أيوب عليه السلام، وهذا ما صرح به الرازي والزمخشري، خلافاً للقرطبي.

قيل: خمسة من الأنبياء ذوو اسمين: إسرائيل ويعقوب، إلياس وذو الكفل، عيسى والمسيح، يونس وذو النون، محمد وأحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ أي كل هؤلاء من الصابرين على مشاق التكاليف وشدائد النوائب، أو على طاعة الله وعن معاصيه ﴿وَأَدۡخَلۡنَـٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ﴾ يعني في النبوة، أو في نعمة الآخرة ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أي الكاملين في الصلاح، وهم الأنبياء، فإن صلاحهم معصوم عن كدر الفساد.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى صبر أيوب عليه السلام ودعاءه ربه، أتبعه بذكر هؤلاء الأنبياء، فإنهم كانوا أيضاً من الصابرين على الشدائد والمحن والعبادة. أما إسماعيل عليه السلام: فلأنه صبر على الانقياد للذبح، وصبر على الإقامة ببلد لا زرع فيه ولا ضرع ولا بناء، وصبر في بناء البيت، فأكرمه الله بجعل خاتم النبيين من صلبه.

وأما إدريس فكما قال ابن عمر رضي الله عنهما: «بعث إلى قومه داعياً لهم

إلى الله تعالى، فأبوا، فأهلكهم الله تعالى، ورفع إدريس إلى السماء الرابعة» وهو أول من خاط الثياب ولبس المخيط، وكانوا قبله يلبسون الجلود، وأول من اتخذ السلاح عُدّة للحرب.

وأما ذو الكفل: فإنه صبر على صلاة الليل حتى يصبح، وعلى صيام النهار فلا يفطر، ويقضي بين الناس فلا يغضب، ووفى بذلك وبما ضمن على نفسه.

قيل: إنه كان عبداً صالحاً، كان يصلي لله كل يوم مئة صلاة، والأكثرون كما ذكرت أنه من الأنبياء عليهم السلام، بدليل اقترانه مع الأنبياء.

التفسير والبيان:

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ أي واذكر أيها النبي نبأ إسماعيل بن إبراهيم الخليل، وإدريس بعد شيث وآدم، وذي الكفل أي الحظ الكثير، الذي هو إلياس ومن بني إسرائيل، وقد عاش في بلاد الشام، كل واحد من هؤلاء من الصابرين المحتسبين الذين صبروا على البلاء والمحن، وعلى طاعة الله وعن معاصيه. وقد عرفنا أحوال صبر كلٍ منهم.

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي وجعلناهم من أهل رحمتنا بالنبوة، ودخول الجنة، والظفر برضانا وثوابنا؛ لأنهم من فئة الكاملي الصلاح؛ لأنهم أنبياء معصومون، وصلاحهم لا يعكره فساد.

فقه الحياة أو الأحكام:

هؤلاء الأنبياء الثلاثة: إسماعيل، وإدريس، وذو الكفل من الذين صبروا على أمر الله تعالى، والقيام بطاعته، واجتناب معاصيه، فكافأهم الله تعالى بنيل رضاه، ودخول جنته؛ لأنهم قوم صالحون، كاملو الصلاح والتقوى، بعيدون عن الفساد بمظاهره المختلفة.

والمراد هو التأسي والاقتداء بهم، فإنه لم يقصّ الله في قرآنه على الناس نبأ أحد من الأنبياء إلا وكان في ذلك الخير والفائدة، والعبرة والعظة، وضرب الأمثال العملية الواقعية للالتزام بأمر الله، والاستقامة في الدين والحياة.

القصة الثامنة - قصة يونس عليه السلام

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

القراءات:

﴿نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

وقرأ ابن عامر (نُجِّي).

الإعراب:

﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ منصوب بفعل مقدر، تقديره: واذكر ذا النون ﴿مُغَٰضِبًا﴾ منصوب على الحال من ضمير ﴿ذَّهَبَ﴾ وهو العامل في الحال. ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وقرئ: (نُجِّي المؤمنين) قال أكثر النحويين: إن هذه القراءة محمولة على إخفاء النون من ﴿نُـۨجِي﴾ فتوهمه الراوي إدغاماً. وأجازه آخرون على أنه فعل مبني للمجهول، على تقدير المصدر، لدلالة الفعل عليه، وإقامته مقام الفاعل، أي: نُجِّيَ النجاءُ المؤمنين، كقراءة أبي جعفر يزيد بن القعقاع المدني: ليُجزى قوماً أي ليُجْزِي الجزاءُ قوماً.

المفردات اللغوية:

﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ أي واذكر صاحب الحوت وهو يونس بن متى ﴿إِذ ذَّهَبَ

﴿مُغَٰضِبًا﴾ لقومه، و﴿إِذ﴾: بدل مما قبله، أي ذهب غضبان من قومه، مما قاسى منهم، لطول دعوتهم، وإصرارهم على الكفر، ذهب قبل أن يؤمر أو يؤذن له في الذهاب. ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ أي فظن أن لن نضيق عليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦/١٣] وغيرها أي ويضيق، وقوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧/٦٥] أي ضيق أو ظن أن لن نقضي عليه بالعقوبة، من التقدير أي القضاء والحكم. أو أن يكون ذلك من باب التمثيل بمعنى: فكانت حاله ممثلة بحال من ظن أن لن نقدر عليه في مراغمته قومه، من غير انتظار لأمر الله. هذه تأويلات. ويجوز أن يكون ذلك مجرد وسوسة الشيطان، ثم يردعه ويرده بالبرهان، فسمي ظناً للمبالغة، كما قال تعالى مخاطباً المؤمنين: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠/٣٣]. والخلاصة: أن الظن هنا ليس حاصلاً من يونس عليه السلام؛ لأن من ظن عجز الله تعالى فهو كافر.

﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي في الظلمة الشديدة المتكاثفة، أو ظلمات بطن الحوت والبحر والليل ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ أي بأنه لا إله إلا أنت ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ تنزيهاً لك من أن يعجزك شيء ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لنفسي بالمبادرة إلى المهاجرة من غير إذن. جاء في الحديث الذي أخرجه البيهقي عن سعد عن النبي ﷺ: «مامن مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له».

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾ أي أجبنا له دعاءه بتلك الكلمات، بأن قذفه الحوت إلى الساحل بعد أربع ساعات مكث فيها في بطنه، وقيل: ثلاثة أيام. ﴿مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾: أي من غمه بسبب كونه في بطن الحوت، وبسبب خطيئته ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي وكما أنجينا يونس عليه السلام من كرب الحبس إذا دعانا، كذلك ننجي المؤمنين من كربهم إذا استغاثوا بنا.

المناسبة:

هذه قصة يونس عليه السلام، تبين مدى فضل الله وإنعامه عليه، كما أنعم على الأنبياء المتقدمين الذين ذكر قصصهم، وأجاب دعاءهم بعد الكرب والشدة، ومقاساة الأهوال، والصبر على العناء.

التفسير والبيان:

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ أي واذكر أيها الرسول قصة يونس بن متى عليه السلام حين بعثه الله إلى أهل قرية نِينَوى (من أرض الموصل) وكان اسم ملكها «حزقيا» فدعاهم إلى الله تعالى وإلى توحيده وطاعته، فأبوا عليه، وتمادوا على كفرهم، فخرج من بينهم مغاضباً لهم، وأوعدهم بالعذاب بعد ثلاث.

فلما تحققوا منه ذلك، وعلموا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، وفرقوا بين الأمهات وأولادها، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل، ورغتِ الإبل وفُصْلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وسِخالها، فرفع الله عنهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٩٨] .

وأما يونس عليه السلام: فإنه ذهب، فركب مع قوم في سفينة، فاضطربت بهم وخافوا أن يغرقوا، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم في البحر، للتخفيف، فوقعت القرعة على يونس، فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوها، فوقعت القرعة عليه أيضاً فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً، كما قال تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٤١] أي وقعت عليه القرعة.

فقام يونس عليه السلام، وتجرد من ثيابه، ثم ألقى نفسه في البحر، فأرسل الله سبحانه إليه من البحر حوتاً يشق البحار، فالتقمه [١].

وقوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ أي الحوت، صحت الإضافة إليه بهذه النسبة. وقوله: ﴿مُغَـٰضِبًا﴾ أي غضبان من قومه، لتكذيبهم إياه، وكراهيته خلف ما أوعدهم به من العذاب بعد ثلاث، لكنه لم يأتهم، لتوبتهم التي لم يعلم بها، لا كراهية لحكم الله، أو مغاضباً ربه، وإلا كان مرتكباً كبيرة لا تليق بالشخص العادي فضلاً عن النبي، فهو مغاضب من أجل ربه، بدليل وصف نفسه أنه من الظالمين، وهذا رأي أكثر المفسرين.

﴿أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي نضيق عليه في بطن الحوت، ونقضي عليه بالعقوبة، من القدر والتقدير أي القضاء والحكم، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ٥٤/١٢] أي قدِّر، وكان خروجه يشبه حالة الآبق.

﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ﴾ أي فدعا ربه في أعماق الظلمات المتكاثفة أو من تحت الظلمات الثلاث: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل: تنزيهاً لك يارب، أنت الإله وحدك لا شريك لك، تفعل ما تشاء، وتحكم ما تريد، لا يعجزك شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ نفسي بالخروج دون أمر أو إذن منك، وهذا خلاف الأولى للأنبياء، بدليل قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ [القلم: ٦٨/٤٨].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/١٩١

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ أي فأجبنا له دعاءه الذي أظهر به الندم والتوبة.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وأخرجناه من بطن الحوت وتلك الظلمات، وكما أنجيناه من الكرب والشدة، ننجي أيضاً المؤمنين الصادقين إذا استغاثوا بنا، وطلبوا رحمتنا.

روى البيهقي وغيره عن سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ قال: «دعوةُ ذي النون في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، لم يَدْعُ بها مسلم ربه في شيء قط، إلا استجاب له» فهو قد بدأ بالتوحيد، ثم بالتنزيه والتسبيح والثناء، ثم بالاستغفار والإقرار على نفسه بالظلم أي الذنب.

وروى ابن أبي حاتم عن أنس يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ: أن يونس النبي عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات، وهو في بطن الحوت قال: (اللهم، لا إله إلا أنت، سبحانك، إني كنت من الظالمين) فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش، فقالت الملائكة: يارب، صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة، فقال: أما تعرفون ذاك؟ قالوا: لا، يارب، ومن هو؟ قال: عبدي يونس، قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يُرْفَع له عملٌ مُتَقَبَّل، ودعوة مجابة، قالوا: يارب، أولا ترحم ماكان يصنع في الرخاء، فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى، فأمر الحوت، فطرحه في العراء.

فقه الحياة أو الأحكام:

أحوال الأنبياء عجائب وغرائب ومعجزات خاصة يظهرها الله على أيديهم، لا تقاس عليها إطلاقاً أحوال البشر العاديين. وقصة يونس من هذه العجائب الفريدة.

فقد ذهب يونس عليه السلام مغاضباً من أجل الله، والمؤمن يغضب لله

عز وجل إذا عُصي، وكانت هذه المغاضبة صغيرة في رأي القرطبي، ولم يغضب على الله، ولكن غضب لله، إذ رفع العذاب عنهم.

فلا يجوز على نبي الله أن يغاضب ربه؛ لأن ذلك صفة الجاهل كونَ الله مالكاً للأمر والنهي، والجاهلُ بالله لا يكون مؤمناً، فضلاً على أن يكون نبياً، وإنما خرج مغاضباً من أجل ربه، أي غضب على قومه من أجل كفرهم بربه.

لكن كان الأولى له أن يصابر وينتظر الإذن من الله تعالى في الهجرة عن قومه، لهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٦٨/٤٨] كأن الله تعالى أراد لمحمد ﷺ أفضل المنازل وأعلاها.

وقال القشيري: والأظهر أن هذه المغاضبة كانت بعد إرسال الله تعالى إياه (أي يونس) وبعد رفع العذاب عن القوم بعدما أظلهم؛ فإنه كره رفع العذاب عنهم.

وظن يونس عليه السلام عند ذهابه ألا يضيق الله عليه بالحبس، أو ألا يقضي عليه بالعقوبة، من القدَر الذي هو القضاء والحكم، وورد القدر بمعنى التضييق كما في الآيتين المتقدمتين: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ١٣/٢٦] أي يضيق، وقوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٦٥/٧]. وورد بمعنى التقدير وهو الحكم، وليس القدرة والاستطاعة، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ٥٤/١٢].

ثم أدرك يونس وهو في ظلمات الليل والبحر وبطن الحوت أنه ظلم نفسه في الخروج من غير أن يؤذن له، أو في ترك الصبر على قومه، وليس في ذلك من الله عقوبة؛ لأن الأنبياء لا يجوز أن يعاقبوا، وإنما كان ذلك تمحيصاً وتعليماً، وقد يؤدب من لا يستحق العقاب كالصبيان، فتضرع إلى الله وجأر إليه بالدعاء المتقدم: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ﴾ فأكرمه الله تعالى، وحماه من أن يهضم الحوت جسده، وإنما جعله له سجناً فقط، ثم أمر الحوت بإلقائه، فطرحه على ساحل البحر.

جاء في الخبر: في هذه الآية شرط الله لمن دعاه أن يجيبه، كما أجابه، وينجّيه كما أنجاه.

ومن فضل الله ورحمته أن هذا الإنجاء لمن استغاث بالله واستعان به ليس خاصاً بيونس عليه السلام، وإنما هو شامل لكل المؤمنين إذا استغاثوا بالله، وطلبوا رحمته، فإن الله تعالى يخلصهم من همهم بما سبق من عملهم. وذلك قوله تعالى﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٤٣-١٤٤] .

وهذا من حفظ الله لعبده يونس رعى له حق تعبده، وحفظ له ما أسلف من الطاعة.

والله يجيب دعاء الداعين في أي مكان، لذا قال ﷺ: «لا تفضلوني على يونس بن متى فإني لم أكن، وأنا في سدرة المنتهى بأقرب إلى الله منه، وهو في قعر البحر في بطن الحوت» [(١)]. وهذا دليل على أن الباري سبحانه وتعالى ليس في جهة معينة.

(١) روى البخاري ومسلم وأبو داود عن ابن عباس الحديث بلفظ آخر.

القصة التاسعة والعاشرة
قصة زكريا ويحيى عليهما السلام مع قصة مريم

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾

القراءات:

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ﴾: قرئ:

١- (وزكريا إذ) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي.

٢- (وزكرياءَ إذ) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ ﴿وَٱلَّتِىٓ﴾: منصوب بفعل مقدر، أي: واذكر التي أحصنت .﴿ءَايَةً﴾ منصوب مفعول ثانٍ بـ (جعل). وقال: ﴿ءَايَةً﴾، ولم يقل: آيتين لوجهين: أحدهما - لأن التقدير: وجعلناها آيةً، وجعلنا ابنها آية، إلا أنه اكتفى بذكر الثاني عن ذكر الأول. والثاني - أن يكون ﴿ءَايَةً﴾ في تقدير التقديم، أي وجعلناها آية للعالمين وابنها، والوجه الأول أوجه.

البلاغة:

﴿رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ بينهما طباق.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ نسب الروح إليه تعالى تشريفاً وتكريماً، مثل ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧/٧٣] ومواضع أخرى.

المفردات اللغوية:

﴿وَزَكَرِيَّآ﴾ أي واذكر زكريا .﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ بدل منه، أي دعا ربه بقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ أي لا تتركني وحيداً بلا ولد يرثني .﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ الباقي بعد فناء خلقك، فإن لم ترزقني من يرثني، فلا أبالي. ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ أي نداءه .﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ أي أصلحناها للولادة، فأتت بالولد بعد عقمها .﴿إِنَّهُمْ﴾ أي المذكورين من الأنبياء عليهم السلام .﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ يبادرون .﴿فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي الطاعات .﴿رَغَبًا﴾ في رحمتنا .﴿وَرَهَبًا﴾ من عذابنا .﴿خَٰشِعِينَ﴾ متواضعين في عبادتهم.

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ﴾ أي واذكر مريم التي حفظت فرجها من أن ينال بالحلال أو الحرام .﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ أي أحيينا عيسى وأوجدناه في جوفها، ويجوز أن يراد: وفعلنا النفخ في مريم من جهة روحنا وهو جبريل عليه السلام، حيث نفخ في جيب درعها (قميصها) فوصل النفخ إلى جوفها. ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ هم الإنس والجن والملائكة حيث ولدته من غير رجل. ولم يقل: آيتين، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ [الإسراء: ١٧/١٢] لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة وهي ولادتها إياه من غير فحل.

المناسبة:

بعد بيان النعم الخاصة بكل نبي، أبان الله تعالى ما أنعم به على زكريا عليه السلام بمنحه الولد، في حال الكبر هو وزوجته، وبعد أن مسّه الضر بتفرده، فدعا ربه أن يرزقه الولد، وأحب أن يكون معه من يؤنسه ويقويه على أمر دينه ودنياه، ويقوم مقامه بعد موته.

وكان دعاؤه دعاء مخلص عارف بأن الله تعالى قادر على ذلك، وإن بلغ هو وزوجته سن اليأس من الولد، بحسب العادة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان سِنّه مئة، وسن زوجته تسعاً وتسعين.

ثم ذكر تعالى قصة مريم وولادتها عيسى، لما بين ولادته وولادة يحيى من الغرابة وتشابه المعجزة. وتقدمت القصتان في سورتي آل عمران ومريم.

التفسير والبيان:

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ أي واذكر أيها الرسول خبر زكريا حين طلب أن يهبه الله ولداً، يكون من بعده نبياً، فدعا ربه خفية عن قومه قائلاً: ربِّ لا تتركني وحيداً، لا ولد لي ولا وارث يقوم بعدي في دعوة الناس إليك، وأنت الباقي بعد فناء خلقك، فإن لم ترزقني من يرثني فلا أبالي، فإنك خير وارث. وقوله: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ دعاء وثناء.

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ﴾ أي فأجبنا نداءه ومطلبه، ووهبناه ولداً اسمه يحيى، وأصلحنا له امرأته بإزالة موانع الولادة، فولدت بعد العقم وفي حال الكبر.

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي إن المذكورين من الأنبياء عليهم السلام، ومنهم زكريا وزوجه كانوا يبادرون إلى طاعتنا والتقرب إلينا، أو إلى فعل الطاعات، وعمل القربات، والمراد أنهم ما استحقوا الإجابة إلى طلباتهم إلا لمبادرتهم أبواب الخير، ومسارعتهم في تحصيلها، كما يفعل الراغبون في الأمور الجادة.

﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ أي ويدعوننا رغبة في رحمتنا وفضلنا، وخوفاً من عذابنا وعقابنا، وكانوا لنا متواضعين متذللين. والمعنى أنهم ضموا إلى فعل الطاعات والمسارعة فيها أمرين:

أحدهما - الفزع إلى الله تعالى، رغبةً في ثوابه، ورهبة من عقابه.

والثاني - الخشوع: وهو المخافة الثابتة في القلب، أو الخوف اللازم للقلب، لا يفارقه أبداً.

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن حكيم قال: خطبنا أبو بكر رضي الله عنه، ثم قال: «أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله، وتثنوا عليه بما هو له أهل، وتخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة؛ فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾».

ثم يذكر الله تعالى قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، كما هو المعتاد في كلامه تعالى، فيذكر أولاً قصة زكريا، ثم يتبعها بقصة مريم؛ لأن تلك مربوطة بهذه، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير طاعن في السن، ومن امرأة عجوز عاقر، لم تكن تلد في حال شبابها. أما قصة مريم فهي أعجب، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر.

حدث هذا الاقتران بين القصتين في سورتي آل عمران ومريم، وههنا في سورة الأنبياء.

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي واذكر نبأ مريم التي منعت نفسها من الرجال، سواء في الحلال أو الحرام، كما حكى تعالى عنها: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ١٩/ ٢٠] وكما قال في سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ٦٦/ ١٢] .

﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ أي نفخنا الروح في عيسى في بطنها، أي أحييناه في جوفها. ويلاحظ أن الضمير هنا عائد إلى مريم، وليس المقصود كما هو الظاهر إحياء مريم، وإنما إحياء عيسى في جوفها. وأما في سورة التحريم

فالضمير عائد إلى فرجها، أي فنفخنا في فرجها، وقرئ: ﴿فِيهَا﴾ أي في مريم أو الحمل. وقوله: ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ في السورتين أي من روح خلقناه بلا توسط أصل. وأضيف إلى الله تعالى تشريفاً.

﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي وجعلنا أمر مريم وعيسى وهو الحمل من غير أب آية ومعجزة خارجة عن العادة، دالة على أن الله على كل شيء قدير، وأنه يخلق ما يشاء، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾. ونظير الآية قوله سبحانه: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ١٩/ ٢١] ولم يقل: آيتين؛ لأن معنى الكلام: وجعلنا شأنهما وأمرهما وقصتهما آية للعالمين، أو أن الآية واحدة وهي الولادة من غير رجل، وقوله: ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي الجن والإنس والملائكة.

وهناك آيات أخرى لكل من مريم وعيسى، مثل إتيان الملائكة لها برزقها: ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣/ ٣٧] . وأما آيات عيسى فمثل إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله كما جاء في [آل عمران: الآية ٤٩].

فقه الحياة أو الأحكام:

إن في كلٍّ من قصتي زكريا وابنه يحيى ومريم وابنها عيسى آية خارقة للعادة، ومعجزة غير معتادة دالة على قدرة الله تعالى الفائقة، والشاملة لكل شيء.

أما قصة زكريا فقد أكرمه الله تعالى بولادة يحيى بعد دعاء ومناجاة، وتضرع وإخلاص، وأدب وتفويض لله تعالى، وذلك في سن الكبر هو وامرأته، التي كانت عاقراً لا تلد في وقت الشباب. ووجه الآية الفريدة أن الكبير عادة لا ينجب، وأن العاقر العقيم لا يلد، فأزال الله موانع الولادة، وهيأ القدرة على الإنجاب والإخصاب عند الأب زكريا عليه السلام.

وسبب هذه الإجابة لدعاء زكريا أنه كان كغيره من الأنبياء يبادر إلى فعل الطاعات، وعمل القربات، وأنه كان يدعو في حال الرخاء وحال الشدة، وحال الرجاء والرهبة، وأملاً في رحمة الله وفضله، وخوفاً من عذابه وعقابه؛ لأن الرغبة والرهبة متلازمتان.

وأما قصة مريم الطاهرة البتول فقد أحصنت فرجها إحصاناً كلياً من الحلال والحرام جميعاً، ولم يقربها رجل، وتم نفخ الروح في جوفها، وإيجاد عيسى بواسطة جبريل الروح القُدُس من غير أصل ذكر.

فقوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ معناه أمرنا جبريل حتى نفخ في درعها أي قميصها، فأحدثنا بذلك النفخ (المسيح) في بطنها، ووصل النفخ إلى جوفها، وسرت الروح إلى فرجها، وكان ذلك آية أي علامة وأعجوبة للخلق، وعلماً لنبوة عيسى، ودلالة على نفوذ قدرتنا فيما نشاء.

وآيات مريم كثيرة كما تقدم:

أحدها - ظهور الحمل فيها من غير ذكر.

وثانيها - أن رزقها كان يأتيها به الملائكة من الجنة.

وثالثها ورابعها - قال الحسن البصري: إنها لم تلتقم ثدياً يوماً قط، وتكلمت هي أيضاً في صباها، كما تكلم عيسى عليه السلام[١].

وأما آيات عيسى عليه السلام فقد تقدم بيانها في سورة آل عمران.

وكل تلك الآيات بإذن الله وأمره، وليس للبشر فيها قدرة مع قدرة الله تعالى وتدبيره وحكمته.

---

(١) تفسير الرازي: ٢٢/٢١٨

وحدة الرسالات السماوية والسنَّة الإلهية

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

القراءات:

﴿وَحَرَٰمٌ﴾ :

وقرأ حمزة، والكسائي (وحِرْم).

﴿فُتِحَتْ﴾ :

وقرأ ابن عامر (فُتِّحت).

﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ :

قرأ عاصم (يأجوج ومأجوج).

وقرأ الباقون (ياجوج وماجوج).

الإعراب:

﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ حال لازمة.

﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿لَا﴾: إما زائدة، أي وحرام أنهم يرجعون، أي إلى

الدنيا، وأن واسمها وخبرها خبر المبتدأ: (حَرَام). وإما غير زائدة، ويكون (حَرَام) مبتدأ، وخبره مقدر، أي: وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون كائن أو محكوم عليه، فحذف الخبر، وحذف الخبر أكثر من زيادة «لا» وهو الأوجه عند أبي علي الفارسي والزجاج.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾ إما مقدر، تقديره: قالوا: ﴿يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾، وإما أن يكون الجواب قوله: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ والواو زائدة، وهذا مذهب الكوفيين، وإما أن يكون الجواب قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

البلاغة:

﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة كأنه ينقل عنهم ما أفسدوه إلى آخرين للتقبيح، واستعارة تمثيلية، مثل اختلافهم في الدين وتفرقهم أحزاباً بالجماعة التي تتوزع الشيء أنصباء.

﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ استعارة، استعير الكفران لمنع الثواب، كما استعير الشكر لإعطائه.

﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ فيه إيجاز بالحذف، أي: ويقولون: يا ويلنا.

﴿فَٱعْبُدُونِ﴾، ﴿رَٰجِعُونَ﴾، ﴿كَٰتِبُونَ﴾ سجع لطيف.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾ الأمة لغة: القوم المجتمعون على أمر، ثم شاع استعمالها في الدين أو الملة، أي إن ملة التوحيد أو الإسلام ملتكم ودينكم أيها المخاطبون، التي يجب عليكم أن تكونوا عليها .﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي ملة واحدة غير مختلفة فيما بين الأنبياء .﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ أي أنا الله لا إله غيري، فوحدوني واعبدوني لا غير.

﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾ أي جعل بعض المخاطبين أمر دينهم فيما بينهم قطعاً، بمعنى أنهم تفرقوا في الدين، وتخالفوا فيه، وجعلوا أمره قِطَعاً مُوزَّعة بقبيح فعلهم، وهم طوائف اليهود والنصارى. ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ أي كل من الفرق المتجزئة راجعون إلينا فنجازيهم بأعمالهم. ﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ أي لا جحود ولا إنكار لعمله، ولا تضييع لثوابه. ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ أي وإنا لسعيه مثبتون في صحيفة عمله، لا نضيع شيئاً منه بوجه ما، ونأمر الحفظة بكتبه، فنجازيه عليه.

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ﴾ أي ممتنع على أهلها، غير متصور منهم. ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾ أي حكمنا بإهلاكها أو قدرنا هلاكها، أو وجدناها هالكة. ﴿أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ ﴿لَا﴾: زائدة، أي ممنوع عليهم رجوعهم إلى التوبة أو إلى الدنيا.

﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية لامتناع رجوعهم، أي يستمر عدم الرجوع إلى قيام الساعة وظهور أماراتها وهو فتح سد يأجوج ومأجوج. ﴿إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾ أي إذا فتح سدهما، وذلك قرب يوم القيامة، وهما اسمان أعجميان لقبيلتين. ﴿وَهُم﴾ يعني يأجوج ومأجوج، أو الناس كلهم. ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ مرتفع من الأرض. ﴿يَنسِلُونَ﴾ يسرعون أو يخرجون مسرعين، مأخوذ من نَسَلان الذئب، أي إسراعه.

﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ أي قرب يوم القيامة. ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ أي القصة، وإذا: للمفاجأة، كقوله: ﴿إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٠/٣٦] وهي جواب الشرط السابق وهو ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾. ﴿شَٰخِصَةٌ﴾ مرتفعة أجفانها لا تكاد تنظر، من شدة الهول. ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ أي يقولون: يا هلاكنا، ويا: للتنبيه. ﴿قَدۡ كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿فِي غَفۡلَةٍ مِّنۡ هَٰذَا﴾ اليوم، لم نعلم أنه حق ﴿بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أنفسنا بتكذيبنا الرسل، وإخلال النظر.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن أن دين الإنسانية دين واحد، فيقول:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي إن ملة التوحيد أو ملة الإسلام هي ملة واحدة وشريعة واحدة، متفق عليها بين جميع الأنبياء والشرائع، وهي التي يجب أن تكونوا عليها، فكونوا عليها أمة واحدة غير مختلفة فيما بين الأنبياء، وأنا الله الذي لا إله غيري فاعبدوني وحدي، ولا تشركوا معي شيئاً آخر، من مَلَك أو بشر أو حجر أو شجر أو صنم.

وقال في آية أخرى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: ٥٢/٢٣] . وقال رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد: «نحن معاشر الأنبياء أولاد عَلات [(١)] ديننا واحد» يعني أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له، بشرائع متنوعة لرسله، كما قال تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة: ٤٨/٥] فليس الاختلاف في أصول العقيدة والأخلاق والفضيلة والعبادة، وإنما الاختلاف في الفروع والجزئيات والأشكال بحسب الاختلاف في الأزمنة والعصور.

﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ أي إن الأمم اختلفت على رسلها، بين مصدق لهم ومكذب، وفرقوا أمر دينهم بينهم فرقاً شتى، وهذا بطريق الالتفات إلى الغيبة للتقبيح، والأصل: وتقطعتم، كأنه ينقل عنهم ما أفسدوه إلى آخرين، ويقبّح عندهم فعلهم، ويقول لهم: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء. والمعنى: جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً، كما تتوزع الجماعة الشيء ويقسمونه، فيصير لهذا نصيب، ولهذا نصيب، تمثيلاً لاختلافهم فيه، وصيرورتهم فرقاً وأحزاباً شتى. وهذا التفرق في أمر الدين الواحد معيب شنيع، ولهذا قال تعالى متوعداً على فعلهم:

---

(١) أولاد العَلات: أولاد الرجل من نسوة شتى.

﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ أي كل فرقة منهم سيرجعون إلينا يوم القيامة، فنجازي كل واحد بحسب عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وطريق الجزاء ومنهاجه هو:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ مِن: للتبعيض لا للجنس إذ لا قدرة للمكلف أن يأتي بجميع الطاعات كلها، فرضها ونفلها، والمعنى: ومن يعمل عملاً صالحاً موافقاً لمنهاج الله تعالى، وهو بقلبه ولسانه مصدق بربه ورسله، أو من يعمل شيئاً من الطاعات وهو موحد مسلم، فلا تضييع لسعيه، ولا بطلان لثواب عمله، ولا جحود لعمله، أي لا يضيع جزاؤه ولا يغطى، بل يُشكر أي يثاب عليه، ونوفيه الجزاء الأوفى، ولا يظلم مثقال ذرة، وإنا له مثبتون حافظون جميع عمله في صحيفته، لنجازي عليه، فلا يضيع عليه منه شيء، مهما صغر، كما قال في آيات أخرى منها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٣٠] ومنها: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٩].

والآية دليل على أن أساس القبول والنجاة الجمع بين أن يكون الشخص مؤمناً، وبين أن يعمل الصالحات، والإيمان: يشمل العلم والتصديق بالله ورسوله، والعمل الصالح هو فعل الواجبات وترك المحظورات. والكفران: مثل في حرمان الثواب، والشكر مثل في إعطائه، والمراد من الآية ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ المراد نفي للجنس، وفيه ترغيب العباد في التمسك بطاعة الله تعالى.

﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ أي وممتنع على أهل قرية حكمنا بإهلاكها رجوعهم إلى التوبة أو الحياة الدنيا قبل يوم القيامة.

وتكون ﴿لَا﴾ زائدة للتأكيد، وهو كقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٥٠] . وقوله: ﴿وَحَرَامٌ﴾ مستعار لمنع الوجود بحال، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٠] أي منعهما.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي يستمر عدم رجوع القوم المهلكين إلى قيام الساعة وظهور أماراتها وهو فتح سد يأجوج ومأجوج، وهما قبيلتان أو الناس جميعاً، وإتيان الناس مسرعين من كل مرتفع من الأرض. ويكون المقصود من الآية الردّ على المشركين الذين ينكرون البعث والجزاء.

﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي وقرب يوم القيامة إذا حصلت هذه الأهوال والزلازل والبلايا، وإذا حدث ذلك أو وقع ترى أبصار الكافرين مرتفعة الأجفان، مثبتة الحدق، جامدة لا تتحرك، لا تكاد تنظر من هول وشدة ما يشاهدونه من الأمور العظام.

﴿يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي يقولون: يا هلاكنا، والويل: الهلاك، قد كنا في الدنيا غافلين لاهين، لم نعلم أن هذا هو الحق، وأن البعث والرجوع إلى الله للحساب والجزاء ثابت قائم، بل إننا في الواقع ظالمون لأنفسنا بتعريضها للعذاب، وهذا اعتراف صريح بظلمهم لأنفسهم، حيث لا ينفعهم ذلك.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على وحدة الرسالات السماوية في أصولها، وعلى تفرق الناس في أمر الدين، وعلى وحدة السنن الإلهية في إثابة المؤمن الصالح العمل، وتعذيب الكافر المسيء، وعلى إثبات البعث والجزاء وما يشتمل عليه من شدائد وأهوال.

أما وحدة الرسالات السماوية: فالأنبياء كلهم متفقون على التوحيد، لذا وجب اتفاق البشر قاطبة على أن الإله واحد لا شريك له، وعلى وجوب إفراده بالعبادة. أما المشركون فقد خالفوا كل الأنبياء.

وأما الاختلاف في الدين بين مصدق ومكذب: فهو ظاهرة شائعة، لذا نعى الله تعالى التفرق في أمر الدين، سواء المسلمين أو اليهود والنصارى وغيرهم من المشركين، وذمهم لمخالفتهم الحق، وندد بغير المسلمين اتخاذهم آلهة من دون الله، فيكون المراد بقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾ جميع الخلق، بأن جعلوا أمرهم في أديانهم قطعاً، وتقسموه بينهم، فمن موحّد، ومن يهودي، ومن نصراني، ومن عابد مَلَك أو صنم. والكل من هؤلاء الفرق المختلفة راجع إلى حكم الله فيجازيهم.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تفرقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة، فهلكت سبعون وخلصت فرقة، وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة، فتهلك إحدى وسبعون فرقة، وتخلص فرقة واحدة، قالوا: يا رسول الله، من تلك الفرقة الناجية؟ قال: الجماعة، الجماعة، الجماعة» فتبين بهذا الخبر أن المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ﴾ الجماعة المتمسكة بما بينه الله تعالى في هذه السورة من التوحيد والنبوات، وأن في قول الرسول ﷺ في الناجية: إنها الجماعة، إشارة إلى أمة الإيمان. ولكن المراد بقوله: «ستفترق أمتي» أي في حال ما، وليس فيه دلالة على افتراقها في سائر الأحوال، لا يجوز أن يزيد أو ينقص [1].

والقاعدة الثابتة أن من يعمل شيئاً من الطاعات، فرضاً أو نفلاً، وهو

---

(١) تفسير الرازي: ٢٢/٢١٩، والحديث رواه أصحاب السنن الأربعة عن أبي هريرة، ولفظه: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة».

موحد مسلم، مصدق بمحمد ﷺ، فلا جحود ولا كفران لعمله، ولا يضيع جزاؤه، والكفر ضدّ الإيمان، وهو أيضاً جحود النعمة، وهو ضد الشكر، والله حافظ لعمله، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٥] أي كل ذلك محفوظ ليجازى به. وفي هذا ترغيب الناس بطاعة الله تعالى.

ومن القواعد والسنن الثابتة الجارية على منهاج واحد أنه ممتنع على أهل قرية أهلكهم الله أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا، وهذا على أن ﴿لَآ﴾ زائدة. والراجح عند أبي علي الفارسي والزجاج أن ﴿لَآ﴾ غير زائدة، إذ لا فائدة في أن المراد: وحرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا إلى الدنيا، وإنما في الكلام إضمار، أي وحرام على قرية حكمنا باستئصالها أو بالختم على قلوبها أن يتقبل منهم؛ لأنهم لا يرجعون، أي لا يتوبون. وهذا هو الأولى عندي.

ويظل المنع من رجوعهم إلى فتح سد يأجوج ومأجوج، وهم الناس جميعاً، أو هم يأجوج ومأجوج، وهو الأظهر في رأي القرطبي، وإلى خروج الناس من قبورهم مقبلين من كل حَدَب (مرتفع من الأرض)، وذلك يحصل عند قيام الساعة (القيامة) وهذا دليل على إثبات النشر والحشر.

ثم أثبت الله تعالى البعث والجزاء بقوله: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ وما يتعرض له الكفار من أهوال وشدائد تشخص منها أبصارهم، أي ترتفع من هول القيامة لا تكاد تطرف، ويقولون: يا ويلنا ويا هلاكنا إنا كنا ظالمين بمعصيتنا، ووضعنا العبادة في غير موضعها.

أحوال الكافرين والمؤمنين في الآخرة وحال السماء فيها

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

القراءات:

﴿لِلْكُتُبِ﴾: قرئ:

١- (للكتب) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (للكتاب) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿بَدَأْنَآ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (بدانا).

﴿ٱلزَّبُورِ﴾:

وقرأ حمزة، وخلف (الزُّبور).

﴿عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾:

وقرأ حمزة (عباديْ الصالحون).

الإعراب:

﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ﴾ الكاف في موضع نصب؛ لأنها صفة مصدر محذوف، أي نطوي السماء طيّاً كطي السجل، فحذف الموصوف وأقام صفته مقامه، والمصدر مضاف إلى المفعول إذا كان بمعنى المكتوب فيه وهو الصحيفة، أي كما يطوى السجل. وللكتاب: أي للكتابة، كقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ٣/٤٨] .

﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾ منصوب بوعدنا المقدر قبله، وهو مؤكد لمضمون ما قبله.

البلاغة:

﴿نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ فيه تشبيه مرسل مفصل، أي نطوي السماء طياً مثل طيّ الصحيفة على ما كتب فيها.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي إنكم أيها الكفار والمشركون وما تعبدونه من الأوثان من غير الله ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ما يرمى به إليها من حطب ووقود. ﴿وَٰرِدُونَ﴾ داخلون فيها. ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً﴾ لو كان هؤلاء الأوثان آلهة كما زعمتم. ﴿مَّا وَرَدُوهَا﴾ دخلوها؛ لأن المؤاخَذ المعذَّب لا يكون إلهاً. ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ كل من العابدين والمعبودين خالدون دائمون في جهنم.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أي للعابدين في جهنم أنين وتنفس شديد يخرج من أقصى الجوف. ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ شيئاً لشدة غليانها. ﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ المنزلة الحسنى

أو الكلمة الحسنى التي تبشر بثوابهم الحسن على أعمالهم .﴿حَسِيسَهَا﴾ صوتها الذي يحس من حركتها .﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ﴾ من النعيم. ﴿خَٰلِدُونَ﴾ دائمون في غاية التنعم، وتقديم الظرف للاختصاص والاهتمام به. ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ النفخة الثانية أو الأخيرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٧/ ٨٧] وقيل: هو الانصراف إلى النار وهو أن يؤمر بالعبد إلى النار، وقيل: حين يطبق على النار، أو حين يذبح الموت على صورة كبش أملح .﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ تستقبلهم الملائكة مهنئين عند خروجهم من القبور .﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي ويقولون لهم: هذا اليوم الذي كنتم توعدون به في الدنيا.

﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ﴾ أي اذكر يوم الطي: وهو ضد النشر .﴿ٱلسِّجِلِّ﴾ الصحيفة المكتوب فيها. ﴿لِلْكُتُبِ﴾ للكتابة فيها .﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ أي من عدم. ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾ بعد إعدامه .﴿وَعْدًا﴾ منصوب بـ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾، أو بفعل مقدر تأكيداً لـ ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾ أي وعدناه وعداً. ﴿عَلَيْنَآ﴾ أي علينا إنجازه .﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ما وعدنا ذلك لا محالة.

﴿ٱلزَّبُورِ﴾ كتاب داود .﴿ٱلذِّكْرِ﴾ أي التوراة، أو جنس الكتب المنزلة، أو اللوح المحفوظ .﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أرض الجنة .﴿عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ أي عامة المؤمنين أو كل صالح .﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ القرآن أو ما ذكرناه من الأخبار والمواعظ والمواعيد .﴿لَبَلَٰغًا﴾ كفاية في دخول الجنة .﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ أي همهم العبادة دون العادة.

سبب النزول:

نزول الآية (١٠١):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ : أخرج الحاكم عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ قال ابن الزِّبَعْرى: عُبد الشمس والقمر والملائكة وعزير، فكل هؤلاء في النار مع آلهتنا، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ ونزلت: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٥٧-٥٨] .

المناسبة:

بعد بيان أحوال أهل النار وأهل الجنة، واقتراب الساعة، ذكر الله تعالى حال العابدين والمعبودين من دون الله، وأنهم سيكونون وقود جهنم، باستثناء أهل السعادة أو البشرى بالثواب.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ إنكم أيها المشركون بالله من عبدة الأصنام والأوثان وما تعبدون من غير الله، وقود جهنم، أنتم جميعاً داخلون فيها، كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤] .

ويشمل ما يعبدون من دون الله الأصنام وإبليس وأعوانه؛ لأنهم بطاعتهم لهم، واتباعهم خطواتهم في حكم عبدتهم. ولا تشمل هذه الآية عزيراً والمسيح والملائكة؛ لأن قوله: ﴿إِنَّكُمْ﴾ خطاب مشافهة مع مشركي قريش، وهم كانوا يعبدون الأصنام فقط، ولأنه تعالى لم يقل: (ومن تعبدون) بل قال: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ وكلمة (ما) لا تتناول العقلاء، فسقط سؤال ابن الزبعرى،

كما أبان الرازي [١]. وأما قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾ [الشمس: ٩١/ ٥] وقوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾ [الكافرون: ١٠٩/٢] فهو محمول على الشيء، ونظيره ههنا أن يقال: إنكم والشيء الذي تعبدون من دون الله، لكن لفظ الشيء لا يفيد العموم، فلا يرد سؤال ابن الزبعرى.

ويتضح سبب النزول المتقدم ودخول الشياطين في المعبودين بما يأتي:

روى محمد بن إسحاق في سيرته: «أن رسول الله ﷺ دخل المسجد، وصناديد قريش في الحطيم [٢]، وحول الكعبة ثلاث مئة وستون صنماً، فجلس إليهم، فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليهم: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية، فأقبل عبد الله بن الزِّبَعَرى، فرآهم يتهامسون، فقال فيم خوضكم؟ فأخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله، فقال عبد الله: أما والله، لو وجدته لخصمتُه، فدعوه، فقال ابن الزِّبعرى: أأنت قلت ذلك؟ قال: نعم، قال: قد خصمتك وربِّ الكعبة، أليس اليهود عبدوا عُزَيراً، والنصارى عبدوا المسيح، وبنو مليح عبدوا الملائكة؟ فقال ﷺ: بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ الآية، يعني عزيراً والمسيح والملائكة عليهم السلام.

وأما سبب إدخال المعبودين في النار: فهو كما أبان الزمخشري [٣] ليزداد العابدون بهم غماً وحسرةً، وليكونوا أبغض شيء لديهم بعد أن اتخذوهم في الدنيا شفعاء لهم في الآخرة.

ثم ذكر تعالى دليل كون المعبودين غير آلهة فقال:

---

(١) تفسير الرازي: ٢٢/٢٢٣

(٢) الحطيم: جدار حِجْر الكعبة أي حجر إسماعيل من ناحية الشمال.

(٣) الكشاف: ٢/٣٣٨

﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ أي لو كان هؤلاء الأصنام وأشباههم آلهة صحيحة تنفع وتضر كما يظن العابدون ما دخلوا النار، إذ لو كانت تنفع وتضر لأبعدت الضر عن نفسها، فهي جديرة بالهجرة والإهانة.

﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي وكل من هؤلاء الآلهة المعبودين دائمون في عذاب النار، لا مخرج لهم منها.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ أي وهم في النار من شدة العذاب وشدة الكرب والغم أنين وتنفس شديد يخرج من أقصى الجوف، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١١/١٠٦] وهم لا يسمعون فيها ما يسرهم أو ينفعهم، بل يسمعون صوت من يتولى تعذيبهم من الزبانية.

وبعد بيان أحوال أهل النار، ذكر الله تعالى أحوال السعداء من المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ أي إن الذين سبقت لهم من الله السعادة، وأسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا، فهم مبعدون عن دخول النار، وهم في الجملة: أهل السعادة أو البشرى بالثواب، أو التوفيق للطاعة، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ١٠/٢٦] . يروى أن علياً رضي الله عنه قرأ هذه الآية، ثم قال: أنا منهم، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، ثم أقيمت الصلاة، فقام يجرُّ رداءه، وهو يقول: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾.

وأوضاع نعيمهم هي:

١ - ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي لا يسمعون صوت النار، وحريقها في الأجساد، ولا يصيبهم شررها.

٢ - ﴿وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ أي وهم ماكثون أبداً فيما يشتهونه من نعيم الجنة ولذائذها. والشهوة: طلب النفس اللذة.

٣ - ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ لا يخيفهم هول النفخة الثانية أو الأخيرة بعد قيامهم من قبورهم للحساب، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٢٧/ ٨٧] . وقيل بغير ذلك كما تقدم في بيان المفردات. والأصح: أنه أهوال يوم القيامة والبعث.

٤ - ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي وتستقبلهم الملائكة تقول لهم وتبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم: هذا يومكم الذي وعدتم به في الدنيا، يوم المسرة والكرامة والمثوبة والحسنى.

وذلك التلقي والاستقبال هو كما قال تعالى:

﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أي لا يحزنهم الفزع الأكبر يوم نطوي السماء، أو تتلقاهم الملائكة يوم نطوي السماء يوم القيامة كما يطوى السجل، أي الصحيفة للكتابة فيه، وهذا موقف آخر فيه روع وخوف وحيرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦٧] .

﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي أن هذا الطي كائن لا محالة يوم يعيد الله الخلائق بالبعث خلقاً جديداً، كما بدأهم في المرة الأولى، وهو القادر على إعادتهم، وذلك وعد الله الذي لا يُخلَف، والله تعالى فاعله حتماً، فهو واجب الوقوع، ولا بدّ من تحققه؛ لأنه قادر عليه. وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي قادرين على أن نفعل ذلك.

ونظير الآية: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٦/ ٩٤]، وقوله: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٨] .

ثم أخبر الله تعالى عما قضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة، ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة، فقال:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾ أي ولقد قضينا قضاءً محتماً في كتاب الزبور بعد التوراة أو القرآن أن وراثة الأرض في الدنيا والآخرة لا تكون إلا للعباد الصالحين وهم المؤمنون العاملون بطاعة الله تعالى.

والذِّكْر: التوراة، وقال ابن عباس: القرآن، وقيل: إنه أم الكتاب يعني اللوح المحفوظ، فهو اسم لجنس ما أنزل على الأنبياء من الكتب.

والأرض: إما أرض الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٣٩/٧٤] . وإما أرض الدنيا، وأهلها الصالحون لعمارتها، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٢٤/٥٥] ، وقال سبحانه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٧/١٢٨] . وإما الأرض المقدسة يرثها الصالحون، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ٧/١٣٧] .

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ أي إن في هذا المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة البلاغ أي الكفاية والمنفعة لقوم عابدين: وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبَّه ورضيه، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - إن المشركين بالله والآلهة التي عبدوها من دون الله من الأصنام

والأوثان والشياطين وقود جهنم، هم جميعاً داخلون فيها، إظهاراً لعدم فائدة عبادتها، وزيادة لعابديها في الغم والحسرة، وإيجاد الكراهية الشديدة لها، وإمعاناً في السخرية منهم ومن عبادتهم، وإقامة الحجة القاطعة على قدرة الله الشاملة لكل شيء.

وقد استدل الأصوليون بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ على القول بالعموم وأن له صيغاً مخصوصة بدليل الاستثناء منها.

٢ً - الدليل على إبطال صفة الألوهية لتلك الآلهة المزعومة أنه لو كانت الأصنام وأمثالها آلهة لما ورد عابدوها النار، ولما خلدوا هم والمعبودون فيها.

٣ً - أحوال المعذبين النفسية في النار غريبة وشديدة، فلهؤلاء الذين وردوا النار من الكفار والشياطين زفير: وهو صوت المغموم الذي يخرج من القلب، ولا يسمعون ما يسرهم، بل ما يسوؤهم من أصوات الزبانية الذين يتولون تعذيبهم.

٤ً - إن أهل السعادة والتوفيق للطاعة والبشرى بالثواب مبعدون عن دخول النار.

وأحوالهم سارة، فهم لا يسمعون حسّ النار وحركة لهبها وحريقها الأجساد، ويتمتعون بنحو دائم فيما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١/٤١] . ولا يحزنهم الفزع الأكبر الذي يصيب غيرهم وهو أهوال يوم القيامة والبعث، وتستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون لهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فما أجمل هذا الاستقبال والترحاب الحار الصادق، وما أحسنه اطمئناناً وإسعاداً للنفس!!

٥ً - الثابت في هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ وغيرها على أن

السماوات والأرض تتبدل يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/٤٨] .

٦ً - والثابت أيضاً أن الله تعالى سيحشر الناس من قبورهم ويعيدهم خلقاً جديداً أحياء، كما خلقهم في المرة الأولى يوم بُدئوا بالخلق في البطون. روى النسائي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «يحشرُ الناسُ يومَ القيامة عُراة غُرلاً - غير مختونين - أوّلُ الخلق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾». وأخرجه مسلم أيضاً عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «يا أيها الناس، إنكم تُحشرون إلى الله حُفَاةً عُراةً غُرْلاً ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ألا وإن أول الخلائق يُكْسَى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام».

٧ً - المقرر في جميع الكتب السماوية المنزلة أن أرض الجنة في الآخرة، وكذا الأرض في الدنيا - كما يفهم من إطلاق الآية - يرثها عباد الله الصالحون. والصالحون للآخرة: هم المؤمنون العاملون بطاعة الله، والصالحون للدنيا: مَن يصلح لعمارتها والقيام بحقها.

٨ً - إن في هذا القرآن الذي أنزله الله على عبده محمد ﷺ لبلاغاً لقوم عابدين أي لمنفعة وكفاية للذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه، وآثروا طاعته على كل شيء.

نبي الرحمة المهداة

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٌ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

القراءات:

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم﴾:

قرأ حفص (قال ربِّ احكم).

وقرأ الباقون (قُلْ ربِّ احكم).

الإعراب:

﴿عَلَىٰ سَوَآءٍۖ﴾ إما منصوب على أنه صفة مصدر محذوف، وتقديره: آذنتكم إيذاناً على سواء، وإما في موضع نصب على الحال من الفاعل والمفعول في ﴿ءَاذَنتُكُمۡ﴾ وهما التاء والكاف والميم، مثل قول الشاعر:

«فلئن لقيتُك خالِيَيْنِ لَتعلَمَنْ» فنصب خاليين على الحال من ضمير الفاعل والمفعول في «لقيتك».

البلاغة:

﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ استفهام يراد به الأمر، أي أسلموا كما في الآية المتقدمة: ﴿فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٨٠].

المفردات اللغوية:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ أي وما أرسلناك يا محمد إلا للرحمة بالعالمين: الإنس والجن؛ لأن ما بعثت به سبب لإسعادهم، وموجب لصلاح معاشهم ومعادهم.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي ما يوحى إلي في أمر الإله إلا وحدانيته، فهو الإله الواحد؛ لأن المقصود الأصلي من بعثته مقصور على التوحيد، فكلمة ﴿إِنَّمَا﴾ الأولى لقصر الحكم على الشيء، والثانية على العكس﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ منقادون خاضعون لما يوحى إلي من وحدانية الإله. والاستفهام بمعنى الأمر، أي أسلموا وأخلصوا العبادة لله تعالى على مقتضى الوحي.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أعرضوا عن ذلك. ﴿ءَاذَنتُكُمْ﴾ أعلمتكم ما أمرت به، وكثر استعماله في الإنذار، كما قال تعالى: ﴿فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٩].

﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي مستوين في علمه، أي أنا وأنتم في العلم بما أعلمتكم به أو في الحرب والمعاداة. ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ﴾ أي ما أدري. ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾ من العذاب أو من غلبة المسلمين عليكم أو من القيامة والحشر، فذلك كائن لا محالة، وإنما يعلمه الله. ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ﴾ إنه تعالى. ﴿ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي ومن الفعل، منكم ومن غيركم من الطعن في الإسلام. ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ﴾ أي وما أدري لعل تأخير عذابكم استدراج لكم، وزيادة في الامتحان والاختبار. ﴿لَّكُمْ﴾ ليرى كيف صنعكم. ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وتمتع إلى أجل مقدر تقتضيه مشيئته.

﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي اقض بيني وبين مكذبي كأهل مكة بالعدل، أي بتعجيل العذاب لهم أو النصر عليهم، فعذبوا ببدر وأحد وحنين والأحزاب

أو الخندق، ونصره الله عليهم .﴿تَصِفُونَ﴾ أي أن الله هو كثير الرحمة على خلقه، المطلوب منه المعونة على ما تصفون من الحال بأن الشوكة تكون لهم، وبكذبكم على الله باتخاذه ولداً، وعلي بأني ساحر، وعلى القرآن بأنه شعر.

المناسبة:

بعد بيان قصص الأنبياء المتقدمين عليهم، وبعد الإعلام بأن القرآن بلاغ ومنفعة وكفاية للعابدين، أخبر الله تعالى عن سبب بعثة النبي ﷺ وهو أنه رحمة للعالمين في الدين والدنيا، أما في الدين فبتخليصهم من الجاهلية والضلالة، وأما في الدنيا فبالتخليص من كثير من الذل والقتال والحروب، والنصر والعلو ببركة دينه. وأما مجيئه بالسيف أيضاً فهو لتأديب من استكبر وعاند، ولم يتفكر ولم يتدبر، كما أن الله رحمن رحيم، وهو أيضاً منتقم من العصاة.

التفسير والبيان:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ أي وما أرسلناك يا محمد بشريعة القرآن وهديه وأحكامه إلا لرحمة جميع العالم من الإنس والجن في الدنيا والآخرة، فَمَنْ قَبِلَ هذه الرحمة، وشكر هذه النعمة، سعد في الدنيا والآخرة، ومن ردّها وجحدها، خسر الدنيا والآخرة. وقيل: كونه رحمة للكفار: أنهم أمنوا به من الخسف والمسخ وعذاب الاستئصال.

قال تعالى مبيناً خسارة الجاحدين: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/٢٨-٢٩] .

وقال سبحانه في صفة القرآن: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١/٤٤] . وقال ﷺ فيما رواه مسلم عن أبي هريرة:

«إني لم أُبْعث لعاناً، وإنما بعثت رحمة» ورواه الحاكم بلفظ: «إنما أنا رحمة مهداة».

ثم أمر الله رسوله أن يقول للمشركين بما يكون إعذاراً وإنذاراً في مجاهدتهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨)﴾ أي قل يا محمد لمشركي مكة ولكل إنسان: ما يوحى إلي شيء في شأن الإله إلا أنه إله واحد لاشريك له، فاعبدوه وحده، وأسلموا له وانقادوا، وأطيعوني واتبعوني على ذلك.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي فإن أعرضوا وتركوا ما دعوتهم إليه، فقل: أعلمتكم أني حرب لكم، كما أنكم حرب لي، وأنا بريء منكم، كما أنتم برآء مني، كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٤١)﴾ [يونس: ١٠/٤١] ، وقوله سبحانه: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٨/ ٥٨] أي ليكن علمك وعلمهم بنبذ العهد على السواء، وهذا معنى الآية هنا ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي أعلمتكم ببراءتي منكم، وبراءتكم مني، لعلمي بذلك، وقد استوينا في هذا العلم.

﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي إن ما توعدون من العذاب وغلبة المسلمين عليكم واقع كائن لا محالة، ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده.

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠)﴾ أي إن الله يعلم الغيب جميعه، ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون، يعلم ما تجهرون به من الطعن في الإسلام، وما تضمرونه من الحقد والكيد على المسلمين، وسيجزيكم على قليل ذلك وكثيره.

﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١)﴾ أي وما أدري لعل

تأخير العذاب عنكم ابتلاء واختبار لكم، وتمتع بلذات الدنيا إلى أجل مسمى، لينظر كيف تعملون.

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي قال النبي: ربنا افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق والعدل، فقولك الحق، وأنت الحق، ووعدك الحق، وحكمك بالحق، ولاتحب إلا الحق. قال قتادة: كانت الأنبياء عليهم السلام يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩/٧] وأُمِرَ رسول الله ﷺ أن يقول ذلك. وروى مالك عن زيد بن أسلم: كان رسول الله ﷺ إذا شهد غَزَاة قال: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾.

﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي والله ربنا هو المطلوب منه العون على ما تصفون من الشرك والكفر، والكذب والباطل، وهو القول: بأن لله ولداً، وأني ساحر شاعر، وأن القرآن شعر، وعلى ما تطمعون أن تكون الشوكة والغلبة لكم.

والاحتكام إلى الله إنذار وإظهار للحق، وتوعد للكفار، وتهديد بالهزيمة والاندحار أمام جند الإيمان وأنصار الحق.

فقه الحياة أو الأحكام:

في اختتام سورة الأنبياء بهذه الآيات دلالات ظاهرة وحجة بينة على الحق الأبلج وهي:

١ - إن رسول الله ﷺ خاتم النبيين الذي توج الله برسالته رسالات الأنبياء المتقدمين رحمة لجميع الناس، فمن آمن به، وصدَّق بدعوته، سعد، ومن لم يؤمن به سَلِم في الدنيا مما لحق الأمم من الخسف والمسخ والغرق وعذاب الاستئصال، وخسر الآخرة خسراناً مبيناً.

٢ - جميع رسالات الأنبياء ورسالة خاتمهم أيضاً لا يوحى فيها شيء في

شأن الإله إلا التوحيد والوحدانية، فلا يجوز الإشراك به، فهل أنتم أيها البشر قاطبة منقادون لتوحيد الله تعالى، أي فأسلموا تسلموا.

٣ً - إن أعرض المشركون والكفار عن رسالة الإسلام فقد تم إنذارهم وإعذارهم، وتم إعلامهم ألا لقاء بين الإيمان والكفر، وألا صلح بين المسلمين والكفار، وأن الحرب والعداوة مستمرة بين الفريقين، ولكن لا يشترط أن تكون حرباً مستعرة وقتالاً دائراً، وإنما ذلك إعلان قاطع عما يكنّ في أصائل قلوب المؤمنين من إنكار قلبي لمختلف ألوان الكفر، دون مهادنة ولا رضا، ولا إقرار لأي شيء من أوضاع الكفر الفاسدة.

٤ً - إن أجل العذاب ويوم القيامة لا يدريه أحد، لا نبي مرسل، ولا مَلَك مقرَّب.

٥ً - الله تعالى عالم الغيب والشهادة، والسر والجهر، والباطن والظاهر، يعلم مطاعن الكفار بالإسلام، ومكائدهم وأحقادهم على المسلمين وشركهم وكفرهم، وسيجزيهم على ما يصدر منهم من صغير أو كبير.

وربما كان الإمهال بالعذاب اختباراً ليرى ما يصنعون، والله أعلم بما يفعلون، وربما كان عدلاً وفضلاً تأخير العذاب ليتمتع الكفار بلذائذ وشهوات الدنيا، ثم يحرموا منها في الآخرة.

٦ً - عقيدة المؤمن الصادق الإيمان لها محوران في أزمات الاحتكاك مع الكفار، المحور الأول - هو تفويض الأمر إلى الله وتوقع الفرج من عنده، وهذا ما أمر به الله تعالى نبيه ﷺ بقوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي احكم بيني وبين هؤلاء المكذبين وانصرني عليهم. والمحور الثاني - هو الاستعانة بالله القوي الغالب، وهذا ما ختمت به السورة: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي ماتصفونه من الكفر والتكذيب، والطمع في الغلبة على أهل الإيمان.

٧ً - يقوم شرع الله ودينه على عقيدة التوحيد الخالص من شوائب الشرك، وعلى العدل والقسط، فالله سبحانه يقضي بالحق، وينصر أهل الحق والإيمان بالله، ويخذل الظلمة والكفار، ويدحر الظلم وأهله، ويعين المظلوم، وينصر الضعيف، وينتصف للفقير من الغني، ويسوي بين الخصمين، ولو كان أحدهما مسلماً والآخر كافراً، ويدعو إلى الرحمة والإحسان، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، وهذه هي أصول الحضارة الصحيحة، ونواة (الديمقراطية) السديدة، فلا تعصب فيه، ولا ظلم، ولا جهل، ولا فوضى، وإنما العلم والمعرفة والوعي منهاج الحياة الإسلامية، وطريق الدعوة القرآنية، ومصباح العالم كله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الحج

مدنية، وهي ثمان وسبعون آية

تسميتها:

سميت سورة الحج لإعلان فريضة الحج فيها على الناس، على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ بعد بناء البيت العتيق، فأذن، فبلغ صوتُه أنحاءَ الأرض، وأسمع النطف في الأصلاب والأجنة في الأرحام، وأجابوا النداء: «لبيك اللهم لبيك».

صلتها بما قبلها:

هناك تناسب وارتباط بين بداية هذه السورة، وخاتمة السورة السابقة، فقد ختم الله سورة الأنبياء ببيان اقتراب الساعة ووصف أهوالها في قوله: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وافتتح هذه السورة بقوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ، يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ﴾.

و في السورة المتقدمة بيان قصص أكثر من عشرة من الأنبياء تدور على ما قاموا به من إثبات توحيد الله، ونبذ الشرك، والإيمان بالبعث، وفي هذه السورة استدلال بخلق الإنسان بأطواره المتعددة وبإبداع السماوات والأرض على قدرة الله على إحياء البشر للبعث، وعلى وجوده تعالى ووحدانيته، ثم تنبيه

الأفكار على الالتفات لأحوال أهل القرى الظالمة التي أهلكها الله، والاتعاظ بها بسبب تكذيبهم الرسل.

مشتملاتها:

بالرغم من أن هذه السورة مدنية تضمنت الكلام عن فرضية الحج ومناسكه، وعن مشروعية القتال ومقومات النصر، فإنها تحدثت عن أمور مشابهة لموضوعات السور المكية من الإيمان بالله عزّ وجلّ وتوحيده، والبعث والاستدلال عليه، والجزاء على الأعمال.

افتتحت السورة بما يهز المشاعر، وينشر الرعب والخوف من أهوال الساعة، وشدائد يوم القيامة.

ثم انتقلت إلى بيان أدلة البعث، وإتيان القيامة، وبيان بعض مشاهدها من جعل الأبرار في دار النعيم، وزجّ الكفار في نار الجحيم، وإعلان خسارة المنافقين المضطربين الذين لا يعرف لهم قرار ولا اتجاه. ثم أبانت حرمة المسجد الحرام، وفرضية الحج ومنافعه، وحرماته وشعائره، ومناسكه وذبائحه، وأردفت ذلك بالحديث المقنع عن أسباب فرضية القتال، ومقومات النصر على الأعداء، مع تسلية الرسول ﷺ عما ناله من أذى قومه، وتكذيبهم له، والتعريف بحال أهل القرى الظالمة التي أهلكها الله، وجعل العاقبة للمتقين، وتحديد مهمة النبي ﷺ وهي الإنذار والتبشير، إنذار مكذبي القرآن بالنار، وتبشير المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالجنة والنعيم، وإظهار مدى فضل الله على المهاجرين وإثابتهم.

واقتضت الحكمة بعدئذٍ الكلام عن أدلة القدرة الإلهية من خلق الليل والنهار، والسماء والأرض، والإحياء والإماتة، والعلم الشامل لجميع مكنونات الكون، وتفرد الله تعالى بالحساب والفصل والحكم بين الناس. ثم بيان مدى تبرم الكفار بآيات الله، وإظهار الغضب على وجوههم، وتحديهم

بأن معبوداتهم من الأصنام وغيرها لا تستطيع خلق ذبابة، فضلاً عن خلق الإنسان، وأن منشأ شركهم إقفار قلوبهم من تقدير الله حق قدره، علماً بأن الله يرسل رسلاً من الملائكة ومن البشر لتبليغ الرسالة الإلهية على أتم وجه.

ثم عاد الكلام إلى بيان أحكام التشريع من أمر المؤمنين بفرائض جوهرية ثلاث: هي إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والجهاد في سبيل الله حق الجهاد، وأردف ذلك بالتذكير بسماحة الإسلام، وأن الدين يسر لا عسر، ثم أمرهم بالاعتصام بدين الله والقرآن والإسلام، وبيان أن الرسول شهيد على أمته يوم القيامة، وأن أمته تشهد على الأمم المتقدمة بتبليغ أنبيائهم لهم دعوة الله وتشريعه، وتلك مزية سامية لهذه الأمة.

فضلها:

قال العزيزي: وهي من أعاجيب السور، نزلت ليلاً ونهاراً، سفراً وحضراً، مكيَّاً ومدنياً، سلمياً وحربياً، محكماً ومتشابهاً.

الأمر بتقوى اللّه تعالى

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾

القراءات:

﴿سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (سكْرى، بسكْرى).

الإعراب:

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ ﴿يَوْمَ﴾ منصوب بتذهل ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ ما: موصولة أو مصدرية.

﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ في موضع رفع على أنه نائب فاعل، وهاء ﴿أَنَّهُۥ﴾ ضمير الشأن والحديث. و﴿مَن﴾: إما بمعنى الذي، و﴿تَوَلَّاهُ﴾: صلته، وهو وصلته مبتدأ، وقوله: ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ خبره، ودخلت الفاء؛ لأن الموصول يتضمن معنى الشرط والجزاء. ومن وصلته وخبره: خبر «أن» الأولى. وإما أن تكون ﴿مَن﴾ شرطية، و﴿تَوَلَّاهُ﴾: مجزوم بها، وجواب الشرط: ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾. ومن الشرطية وجوابها خبر «أن» الأولى. وأما فتح «أن» الثانية فهو على أنْ يكون خبر مبتدأ محذوف، تقديره: فشأنه أنه يضله، أي فشأنه الإضلال.

البلاغة:

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ تشبيه بليغ، حذف فيه أداة التشبيه والشبه، أي كالسكارى من شدة الهول.

﴿شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ استعارة، استعار لفظ الشيطان لكل طاغية عات متمرد على الله.

﴿يُضِلُّهُۥ﴾ ﴿وَيَهْدِيهِ﴾ بينهما طباق.

﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أسلوب تهكم.

المفردات اللغوية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أي ياأهل مكة وغيركم .﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ احذروا

عقابه، بأن تطيعوه. ﴿زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ تحريكها للأشياء، على الإسناد المجازي، والزلزلة: الحركة الشديدة للأرض، وقيل: تكون هذه الزلزلة حقيقة، ثم يكون بعدها طلوع الشمس من مغربها، وإضافتها إلى الساعة؛ لأنها من أشراطها. ﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ هائل، مزعج للناس، وهو نوع من العقاب. وقد علل أمر الناس بالتقوى بفظاعة الساعة، ليتصوروها بعقولهم، ويعلموا أن الأمان منها بالتدرع بلباس التقوى.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ الضمير للزلزلة. ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أي تذهل كل مرضعة (وهي الأنثى حال الإرضاع) عن رضيعها وتنساه، أي تذهلها الزلزلة، والذهول: الذهاب عن الأمر بدهشة بسبب مايطرأ من هم أو وجع أو غيره، والمقصود تصوير هولها والدلالة على ترك التعلق بأحب الأشياء. ﴿حَمْلَهَا﴾ جنينها. ﴿سُكَٰرَىٰ﴾ كأنهم سكارى من شدة الخوف. ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ على الحقيقة. ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ أي يرهقهم هوله ويذهب عقولهم وتمييزهم، فهم يخافونه.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فيقولون: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، وينكرون البعث وإحياء من صار تراباً. ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ في جداله وعامة أحواله. ﴿كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ متمرد عاتٍ، متجرد للفساد.

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ قضي على الشيطان. ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ اتبعه. ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ أي كتب عليه إضلال من يتولاه؛ لأنه جبل عليه. ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي يدعوه إلى النار، ويحمله على مايؤدي إليه.

سبب النزول:

نزول الآيتين (١ - ٢):

روي أن هاتين الآيتين نزلتا ليلاً في غزوة بني المصطلق، فقرأهما رسول الله

ﷺ على الناس، فلم يُرَ باكياً أكثرمن تلك الليلة، وأصبح الناس بين باك وجالس حزين متفكر.

نزول الآية (٣):

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ قال: نزلت في النضر بن الحارث.

التفسير والبيان:

يأمر الله تعالى عباده بتقواه، ويخبرهم عما يستقبلون من أهوال القيامة وزلازلها وأحوال الآخرة، فيقول:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ أي ياأيها البشر قاطبة، احذروا عقاب ربكم، بطاعته وعدم عصيانه، فإن زلزلة القيامة أو حركتها الشديدة حين قيامها قبل قيام الناس من قبورهم شيء عظيم الهول، خطير الوقع. وذلك بدليل قوله تعالى﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ [الزلزلة: ٩٩/١-٢] وقوله: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/١٤-١٥] وقوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/٤-٦].

وأوصاف ذلك اليوم هي:

أ - ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ يوم تُذهِلُ الزلزلةُ كل مرضعة عن وليدها الرضيع. والذهول: الغفلة عن الشيء مع دهشة، والمرضعة: التي هي في حال الإرضاع، ملقمة ثديها الصبي. والمرضع: المستعدة للإرضاع أو التي من شأنها أن ترضع، وإن لم تباشر الإرضاع، في حال وصفها به، وقوله: ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أي إرضاعها أو عن الطفل الذي ترضعه.

٢ - ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي وتسقط الحامل جنينها من بطنها من شدة الهول والخوف والفزع.

قال الحسن البصري: تَذْهَل المرضعة عن ولدها لغير فطام، وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام.

٣ - ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ أي وترى الناس كالسكارى من الخوف، وهم في الحقيقة والواقع غير سكارى من الشراب، ولكن شدة العذاب أفقدتهم عقولهم وتمييزهم.

ومع هذا التحذير الشديد ينكر بعض الناس البعث ويجادل في المغيبات بغير علم، فيقول تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي وبعض الناس من يجادل في صفات الله وأفعاله، وقدرته على البعث وغيره بغير علم صحيح، ولا عقل رشيد، ويتبع في جداله بالباطل خطوات كل شيطان متمرد عاتٍ، فهو لا يجادل بالحق، وإنما يجادل بالباطل.

قيل كما بينا: نزلت في النضر بن الحارث، وكان جَدِلاً، يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، والله غير قادر على إحياء من بلي وصار تراباً.

والآية كما قال في الكشاف عامة في كل من تعاطى الجدال، فيما لا يجوز على الله، وما لا يجوز من الصفات والأفعال، ولا يرجع إلى علم، ولا يتّبع حجة ولا برهاناً صحيحاً، فهو يخبط خبط عشواء، غير فارق بين الحق والباطل. والآية بمفهومها تدل على جواز المجادلة الحقة، وهي المجادلة مع العلم، المرادة بقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٦/١٢٥]. أما المجادلة الباطلة فهي المراد من قوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [الزخرف: ٤٣/٥٨].

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ أي قضي على من اتبع الشيطان، وجعله ولياً ناصراً له أن يوقعه في الضلال، وأن ولايته له لم تثمر إلا الإضلال عن طريق الجنة، والهداية إلى النار، وإيصاله إلى جهنم. والمقصود أن اتباع الشيطان يؤدي إلى الضلال في الدنيا، وإلى عذاب النار في الآخرة، وكأنه تعالى قال: قضي على من يتبع الشيطان أن الشيطان يضله عن الجنة، ويهديه إلى النار، وهذا وعيد لمتبع الشيطان.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - وجوب التحلي بالتقوى وهي التزام الأوامر الإلهية، واجتناب النواهي، لاتقاء أهوال يوم القيامة ذات الخطر الشديد.

٢ً - إن وقع الساعة وتأثير القيامة على النفس شديد الأثر، حتى لتكون زلزلتها مذهلة (شاغلة) الأم الحنون عن طفلها الرضيع، ومسقطة الجنين من بطن أمه، وجاعلة الناس كأنهم سكارى من شدة الخوف، وما هم في الحقيقة سكارى من الشراب.

٣ً - إن المشرك بالله هو الذي يجادل بالباطل وبغير علم صحيح في صفات الله وأفعاله، وقدرته على البعث، والإحياء بعد الإماتة، وهو في جداله يتبع كل شيطان متمرد، ومن يتبع الشياطين ويتولاهم فإنهم يوقعونه في الحيرة والضلال في النار، ويأخذون بيده إلى عذاب جهنم في الآخرة. وهذا يدل على تحريم المجادلة الباطلة القائمة على الجهل، وعلى الزجر من الله تعالى على اتباع خطوات الشيطان.

أما المجادلة بالحق وهي القائمة على العلم، فهي جائزة غير ممنوعة.

الاستدلال بخلق الإنسان والنبات على البعث

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾

الإعراب:

﴿بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ ﴿شَيْئًا﴾: منصوب بالمصدر قبله، على قول البصريين؛ لأنه الأقرب، وبـ ﴿يَعْلَمَ﴾ على قول الكوفيين؛ لأنه الأول.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ﴾ ذا: إما مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف، تقديره: الأمر كذلك، وإما منصوب على تقدير فعل، تقديره: فَعَل الله ذلك بأنه الحق. وقال البيضاوي: وهو مبتدأ، وخبره: ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾.

البلاغة:

﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ بينهما طباق السلب.

﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ استعارة تبعية، شبه الأرض بنائم، ثم يتحرك بنزول المطر عليه.

المفردات اللغوية:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أي يا أهل مكة وأمثالكم. ﴿رَيْبٍ﴾ شك. ﴿مِّنَ الْبَعْثِ﴾

من إمكانه وكونه مقدوراً. ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾ أي فانظروا في بدء خلقكم وأصلكم آدم، فإنه يزيح ريبكم. ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ أي خلق آدم منه، وخلق الأغذية التي يتكون منها المني. ﴿نُّطْفَةٍ﴾ مني: وهو ما يخرج عند اللذة من صلب الرجل، سمي نطفة لقلته، مأخوذ من النَّطْف: أي الصب أو القطر. ﴿عَلَقَةٍ﴾ قطعة من دم جامد. ﴿مُّضْغَةٍ﴾ قطعة من اللحم، قدر ما يمضغ. ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ مصوَّرة معالم الخلقة أو غير مصوَّرة، أو مسوَّاة لا نقص فيها ولا عيب، أي تامة الخلق، وغير مسوَّاة. ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ بهذا التدرج في الخلقة كمال قدرتنا وحكمتنا، لتستدلوا بها في ابتداء الخلق على إعادته. ﴿وَنُقِرُّ﴾ أي نبقي، وهو كلام مستأنف. ﴿مَا نَشَآءُ﴾ أن نقرّه. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو وقت الوضع، وأدناه بعد ستة أشهر، وغالبه تسعة أشهر، وأقصاه في رأي أهل الخبرة سنة. ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ عطفاً على ﴿لِّنُبَيِّنَ﴾، أي نخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً. و﴿طِفْلًا﴾: حال أجريت على تأويل كل واحد، أو الدلالة على اسم الجنس فيكون للواحد والجمع. ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ أي ثم نعمركم لتبلغوا الكمال في القوة والعقل وهو ما بين الثلاثين إلى الأربعين سنة، والأشد: كمال القوة والعقل والتمييز، وهو جمع شدة، كالأنعم جمع نعمة، وقال الزمخشري: هو من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد، كالأسدة والقتود والأباطيل وغير ذلك.

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ يموت قبل بلوغ الأشد. ﴿أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أدناه وأردؤه من الهرم والخرف. ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ ليعود كهيئته الأولى في أوان الطفولة من سخافة العقل وقلة الفهم، فينسى ما علمه، وينكر من عرفه. قال عكرمة: من قرأ القرآن لم يصر بهذه الحالة. والآية استدلال ثانٍ على إمكان البعث بما يعتري الإنسان في أطواره من الأمور المختلفة والأحوال المتضادة، فإن من قدر على ذلك قدر على نظائره.

﴿هَامِدَةً﴾ يابسة ميتة لا نبات فيها. ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ تحركت بالنبات. ﴿وَرَبَتْ﴾

ارتفعت وزادت وانتفخت بالماء والنبات. ﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ أي أنبتت من كل صنف حسن رائق. و﴿مِن﴾: زائدة ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي المذكور من بدء خلق الإنسان إلى آخر إحياء الأرض. ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ بسبب أن الله. ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ الثابت في نفسه، الدائم الذي يحق ثبوته، أي لأن الله هو الحق. ﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أي أنه يقدر على إحيائها، وإلا لما أَحْيى النطفة والأرض الميتة ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ لأن قدرته لذاته، فمن قدر على إحياء بعض الأموات لزم اقتداره على إحياء كلها. ﴿لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ لا شك. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ بمقتضى وعده الذي لا يقبل الخلف.

المناسبة:

بعد أن حكى الله تعالى عن المشركين الجدل بغير علم في قضية البعث والحشر والنشر، وذمَّهم على ذلك، أورد تعالى الأدلة على إثبات البعث بخلق الإنسان، وخلق النبات، فقال هنا عن الأول: ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ الآية، وقال في آيات أخرى: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ﴾ [يس: ٣٦/ ٧٩]. ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٥١] وقال عن الثاني: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ﴾ [الحج: ٢٢/ ٥].

التفسير والبيان:

بعد أن ذكر الله تعالى موقف المنكر للبعث، ذكر الدليل على قدرته على المعاد بما يشاهد من بدئه الخلق، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ أي يا أيها البشر المنكرون للبعث، إن كنتم في شك من إمكان البعث ومجيئه، يوم القيامة، فانظروا إلى بدء خلقكم، فمن قدر على البدء قدر على الإعادة بدليل المراحل والأدوار السبعة التي يمر بها الإنسان وهي:

أ - ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي خلقنا أصلكم آدم من التراب، وخلقنا الأغذية التي يتكون منها المني من النبات المتولد من الماء والتراب.

٢ - ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي ثم صار التوالد المعتاد بواسطة المني المتولد من الغذاء الناشئ من التراب.

٣ - ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ أي ثم تتحول بإذن الله النطفة بعد أربعين يوماً إلى قطعة دم مكثف أو جامد، أو علقة حمراء.

٤ - ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ ثم تصبح العلقة قطعة لحم، وتلك القطعة إما أن تتم منها أحوال الخلق، فتصير تامة الصورة والحواس والتخطيط لمعالم الجسد، وإما ألا تتم، وتسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط أو بعده، أو تبقى ناقصة الصور والحواس والتخطيطات وتتم ولادتها، قال الرازي: فيجب أن تحمل ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ على من سيصير إنساناً؛ لأنه تعالى قال في أول الآية: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾ وذلك يبعد حمل قوله: ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ على السقط.

والخلاصة: أن المخلقة هي القطعة المسوّاة التي لا نقص فيها ولا عيب أي التامة الخلقة، وغير المخلقة: هي القطعة غير المسوّاة التي فيها عيب.

﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي خلقناكم على هذا النحو من التدرج لنبين لكم كمال قدرتنا وحكمتنا، لتستدلوا بها على إمكان البعث، فإن من قدر على خلق البشر من تراب أولاً، ثم من نطفة ثانياً - ولا تناسب بين الماء والتراب - وقدر على أن يجعل النطفة علقة - وبينهما تباين ظاهر - ثم يجعل العلقة مضغة، والمضغة عظاماً، قدر على إعادة ما بدأه، بل هذا أهون، كما قال الزمخشري رحمه الله تعالى.

٥ - ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي ثم نخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً

ضعافاً في البدن والعقل والحواس، ثم ينمو كل طفل ويعطيه الله القوة شيئاً فشيئاً.

٦ - ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ ثم تتكامل قواكم البدنية والعقلية، حتى تصلوا إلى حد الكمال في عنفوان الشباب.

٧ - ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أي ومنكم من يموت قبل بلوغ الأشد أو في حال الشباب والقوة، ومنكم من يعيش حتى يصل إلى سن الشيخوخة والْهَرَم، وضعف القوة والعقل والفهم، والْخَرَف، حتى يعود إلى ما كان عليه حال الطفولة، ضعيفاً، سخيف العقل، قليل الفهم، ينسى ما كان يعلمه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ [يس: ٣٦/٦٨] . والخلاصة: أن تدرج الخلق في مراحله المذكورة، وطروء الموت وعوارض الأحوال على الإنسان دليل قاطع على وجود الخالق القادر المهيمن، الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه في القياس والعقل، كما قال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٣٠/٥٤] .

ثم ذكر الله تعالى الدليل الثاني على إمكان البعث بخلق النبات المشابه لخلق الإنسان فقال:

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أي وإذا تأملت أيها الإنسان ترى الأرض (١) ميتة يابسة لا نبات فيها ولا زرع، فإذا أنزلنا عليها ماء المطر أو غيره، تحركت

(١) خاطب تعالى الناس أولاً بصيغة الجمع، فقال: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾ ثم خاطب بصيغة الواحد، للتنويع فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ﴾ فانفصل اللفظ عن اللفظ، ولكن المعنى متصل، للاحتجاج به على منكري البعث.

بالنبات وحييت بعد موتها، وازدادت وارتفعت وانتفخت بالماء والنبات، ثم أنبتت من كل صنف من النبات والزرع، ذي منظر حسن وبهاء ورونق وطيب ريح، لاختلاف ألوان الثمار والزروع، وطعومها، وروائحها، وأشكالها، ومنافعها، فمن قدر على إحياء الأرض الميتة الهامدة التي لا ينبت فيها شيء، قادر على إحياء الموتى. ونتائج ما ذكر هي الأمور الخمسة التالية:

١ - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي ذلك المذكور الذي بينته لكم من خلق الإنسان والحيوان والنبات، وانتقال كل مخلوق من حال إلى حال، بسبب أن الله هو الحق الموجود الثابت الذي لا شك فيه، ولا يحول ولا يزول، الخالق المدبر الفعال لما يشاء. وأما ما عداه من جميع المخلوقات فضعيف عاجز لا يقدر على فعل شيء مما ذكر. وهذا دال على وجود الصانع المتفرد بالخلق.

٢ - ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي وبأنه الإله القادر على إحياء الموتى، كما أحيى الإنسان والحيوان والنبات، فأنبت من الأرض الميتة ما فيه الحياة، وهذا تنبيه على أن من لم يعجزه إيجاد هذه الأشياء، فكيف يعجزه إعادة الأموات؟! ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٩].

٣ - ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي وبأنه تعالى القادر على كل شيء، فمن كان قادراً على ما ذكر وعلى جميع الممكنات، فهو قادر على إعادة الأجساد بعد الفناء، وعالم بكل المعلومات: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٧٩].

٤ - ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي ولتعلموا أن من قدر على إحياء الموتى أو إعادتهم أحياء قادر على الإتيان بيوم القيامة، فالساعة كائنة لا شك فيها ولا مرية، كما وعدكم بها. فقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ معطوف على قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ من حيث اللفظ، وليس عطفاً في المعنى، فلا بد من إضمار فعل يتضمنه، أي وليعلموا أن الساعة آتية.

هـ - ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ أي ولتتيقنوا أن الله سيبعث أهل القبور، أي يعيدهم بعدما صاروا في قبورهم رمماً، ويوجدهم مرة أخرى أحياء، ليوم المحشر والحساب، والثواب والعقاب.

والخلاصة: أن بيان مراتب خلق الإنسان والحيوان، والنبات، دليل على أنه سبحانه قادر على كل الممكنات، وعالم بكل المعلومات، مما يثبت كون الإعادة ممكنة، وأن المعاد مقدور عليه.

فقه الحياة أو الأحكام:

الغاية من التنزيل القرآني إثبات ثلاثة أمور أساسية في العقيدة، وهي توحيد الله، واتصافه بصفات الكمال، وتنزيهه عن كل نقص، وإثبات البعث والحياة الأخروية، وما فيها من ثواب وعقاب، وإثبات الوحي والنبوة ورسالات الأنبياء بالمعجزة الخارقة للعادة، لذا تكرر في القرآن التركيز على هذه الأصول، وجاءت الآيات هنا للاستدلال على الأمر الثاني.

أ - استدل الله سبحانه وتعالى على إمكان حدوث البعث والقيامة وإحياء الموتى بإحياء الإنسان والحيوان والنبات بعد الموت والعدم، فمن خلق أصل الإنسان من تراب، ثم من ماء منشؤه الغذاء الناتج من التراب، ثم رعاه حتى خلقه في أحسن تقويم، ثم أعاده إلى الضعف، قادر على إعادة خلقه وإيجاده وتكوينه كما قال: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٨٢].

ولقد أوضحت السنة أطوار الخلق، جاء في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق: «إن أحدَكم يُجمع خَلْقُه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون عَلَقة مثلَ ذلك، ثم يكون مضغةً مثلَ ذلك، ثم يُرسَل الملَك، فينفُخُ فيه الروحَ، ويؤمرُ بأربع كلمات: بكَتْب رِزْقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد» وفي رواية: «يُجْمَعُ خَلْق أحدِكم في بطن

أمه أربعين يوماً نطفةً، ثم أربعين يوماً علقة، ثم أربعين يوماً مُضغة، ثم يُبْعث الملك، فينفخ فيه الروح» أي إن أطوار الجنين الأولى أربعة أشهر، قال ابن عباس: وفي العشر بعد الأشهر الأربعة يُنفخ فيه الروح، فذلك عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشر.

ويلاحظ أن الخلق والتصوير للملَك نسبة مجازية لا حقيقية، وأن النفخ سبب يخلق الله به الروح والحياة، وأن الخلق بقدرة الله واختراعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ٧/ ١١] .﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٤٠/ ٦٤] وللآية هنا: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾. وتكون الحياة في المادة المنوية عند التقائها ببويضة المرأة حياة نباتية خلوية.

ولم يختلف العلماء أن نفخ الروح الحركية في الجنين يكون بعد مئة وعشرين يوماً، أي بعد تمام أربعة أشهر، ودخول الشهر الخامس.

لذا ليست النطفة بشيء يقيناً، كما قال القرطبي، ولا يتعلق بها حكم إذا ألقتها المرأة إذا لم تجتمع في الرحم، كما لو كانت في صلب الرجل، فإذا طرحته علقة، فقد تحققنا أن النطفة قد استقرت واجتمعت واستحالت إلى أول أحوال وجود الولد، فيكون وضع العلقة فما فوقها من المضغة وضع حمل، تبرأ به الرحم، وتنقضي به العدّة، ويثبت به لها حكم أم الولد. وهذا مذهب مالك وأصحابه.

وقال الشافعي: لا اعتبار بإسقاط العلقة، وإنما الاعتبار بظهور الصورة والتخطيط، أي بإلقاء المضغة المخلقة دون الأربعة أشهر [(١)]. قال ابن زيد: المخلَّقة: التي خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين.

وقال مالك رضي الله عنه: ما طرحته المرأة من مضغة أو علقة أو ما يعلم

(١) تفسير القرطبي: ١٢/ ٨

أنه ولد إذا ضرب بطنها ففيه الغُرّة [١]. وقال الشافعي رضي الله عنه: لا شيء فيه حتى يتبين من خَلْقه شيء. وقال مالك: إذا سقط الجنين فلم يستهلّ صارخاً ففيه الغُرَّة. فإذا استهل صارخاً فقال هو والشافعي فيه الدية كاملة.

وذكر القاضي إسماعيل أن عدة المرأة تنقضي بالسقط الموضوع؛ لأنه حمل، والله تعالى يقول: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦٥/ ٤] . وقال ابن العربي: ولا يرتبط به شيء من الأحكام، إلا أن يكون مخلّقاً؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [٢].

٢ً - إن في مراحل خلق الإنسان المذكورة لدليلاً واضحاً وبياناً قاطعاً يدل على كمال قدرة الله تعالى.

وفي رعاية الله للإنسان بولادته طفلاً، ثم اكتمال جسده وعقله وقوته في سن الشباب نعمة تستحق الشكر والتقدير وعرفان حق الخالق.

ثم في الرد إلى الشيخوخة والهرم دون خرف أو مع الخرف عبرة وعظة تدل على إطلاق تصرف الله في خلقه، وكان النبي ﷺ - فيما رواه النسائي عن سعد - يدعو فيقول: «اللهم إني أعوذُ بك من البُخْل، وأعوذ بك من الجبْن، وأعوذ بك أن أُردّ إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر».

٣ً - وهناك دليل أقوى على البعث وهو خلق النبات من الأرض الميتة إذا أنزل الله عليها الماء، فتخرج منه الزروع والثمار ذات المنظر أو اللون الحسن، وذات الرائحة العبقة، والطعم الشهي.

---

(١) الغرة: دية الجنين، وهي ما بلغ عوضه نصف عشر الدية، أي خمسين ديناراً.

(٢) أحكام القرآن: ٣/ ١٢٦١

٤ - إن خلق الإنسان والنبات حاصل بالله، وهو السبب في حصوله، ولولاه لم يتصور وجوده، فإن الله هو الحق، أي الثابت الموجود، وأنه قادر على إحياء الموتى وعلى كل مقدور، وأنه حكيم لا يخلف ميعاده، وقد وعد الساعة والبعث، فلا بد أن يفي بما وعد، وأنه عالم بكل شيء، وقادر على جمع ذرات الإنسان المتفرقة في أنحاء الأرض أو قيعان البحار أو أجواف الحيوانات، أو في أي مكان.

أحوال الناس

الجدال بالباطل والإيمان المضطرب وجزاء المؤمنين الصالحين

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾

القراءات:

﴿لِيُضِلَّ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (ليَضِل).

﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ﴾:

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (لبيس، ولبيس).

الإعراب:

﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ حال من ضمير ﴿يُجَٰدِلُ﴾ عائد على ﴿مَن﴾ والإضافة في تقدير أو نية الانفصال، أي ثانياً عطفه، ولذلك لم يكتسب التعريف بالإضافة.

﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ مَنْ: فيه أربعة أوجه:

الأول - أنه منصوب بـ ﴿يَدْعُواْ﴾ واللام في غير موضعها، أي يدعو من لَضَرُّه أقربُ من نفعه، فقدمت اللام إلى (من) و﴿ضَرُّهُۥٓ﴾: مبتدأ، و﴿أَقْرَبُ﴾: خبره. وهذا قول الكوفيين.

والثاني - أن مفعول ﴿يَدْعُواْ﴾ محذوف، واللام في موضعها، أي يدعو إليها أي ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ فمن: مبتدأ، وخبره: ﴿أَقْرَبُ﴾ والجملة صلة (من). و﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾: خبر ثانٍ لـ: (مَنْ). وهو قول المبرد.

والثالث - أن ﴿يَدْعُواْ﴾ بمعنى يقول، وما بعده: مبتدأ وخبر، أي يقول لمن ضرُّه عندكم أقرب من نفعه هو إلهي، فخبر المبتدأ محذوف، أي يقول الكافر: الصنم الذي تعدونه من جملة الضرر: إلهي.

والرابع - أن ﴿يَدْعُواْ﴾ تكرار للأول، لطول الكلام، مثل ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٨].

البلاغة:

﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ كناية عن التكبر والخيلاء.

﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ مجاز مرسل، علاقته السببية؛ لأن اليد هي التي تفعل الخير أو الشر.

﴿مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ استعارة تمثيلية، شبه المنافقين وما هم فيه من اضطراب في دينهم بمن يقف على طرف هاوية يريد العبادة.

﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ مقابلة بديعة.

﴿يَضُرُّهُۥ﴾ و﴿يَنفَعُهُۥ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿هُدًى﴾ هو النظر الصحيح الموصل إلى المعرفة. ﴿كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ الوحي المظهر للحق.

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾ متكبراً عن الإيمان، معرضاً عن القرآن كفراً وتعظماً، ولاوياً عنقه، والعِطْف: الجانب عن يمين أو شمال. ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي عن دينه، وليضل: علة للجدال. ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ عذاب وهوان وذل، فقتل يوم بدر أي أبو جهل المجادل. ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي الإحراق بالنار. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ عبر بهما دون غيرهما؛ لأن أكثر الأفعال تزاول بهما، وهو وارد بطريق الالتفات، أو إرادة القول، أي يقال له يوم القيامة: ذلك الخزي والتعذيب بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصي. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي ليس بذي ظلم لأحد، فيعذبهم بغير ذنب، وإنما هو مجازيهم على أعمالهم، والمبالغة في (ظلام) لكثرة العبيد.

﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أي على طَرَف من الدين لا ثبات له فيه، وهذا تشبيه حال المنافقين بحال من يقف على حرف جبل في عدم ثباته، أو كالذي يكون على طرف الجيش، فإن أحس بظفر قَرَّ، وإلا فَرَّ، فهو على شك وضعف في العبادة. ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ﴾ صحة وسلامة في نفسه وماله. ﴿فِتْنَةٌ﴾ محنة، وسقم في نفسه وماله. ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي رجع إلى الكفر وارتد.

﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا﴾ ضيعها بفوات ما أمله منها، وبذهاب عصمته لارتداده. ﴿وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ بالكفر وحبوط عمله .﴿ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ البيِّن، إذ لا خسران مثله.

﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي يعبد جماداً أو صنماً لا يضر بنفسه إن لم يعبده ولا ينفع إن عبده .﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ أي ذلك الدعاء (العبادة) هو الضلال البعيد عن المقصد والحق.

﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ أي يقول، واللام زائدة: إن من ضرره بعبادته أقرب من نفعه، إن نفع بتخيله، هو إلهي. والضرر: هو استحقاق القتل في الدنيا والعذاب في الآخرة، والنفع: هو الشفاعة والتوسل بها إلى الله تعالى .﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ الناصر أي لبئس هو الناصر .﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾ الصاحب هو والمعاشر.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من الفروض والنوافل .﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ من إثابة الموحد الصالح، وإكرام من يطيعه، وعقاب المشرك، وإهانة من يعصيه.

سبب النزول:

نزول الآية (٨):

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ﴾ نزلت في أبي جهل، أنذره الله بالخزي (الذل والهوان) في الدنيا، فقتل يوم بدر، أو نزلت في النضر بن الحارث الذي قتل أيضاً يوم بدر، ومعظم المفسرين على هذا كالآية الأولى.

نزول الآية (١١):

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ﴾: أخرج البخاري عن ابن عباس قال: كان الرجل يقدُم المدينة، فيسلم، فإن ولدت امرأته غلاماً، ونتجت خيله قال:

هذا دين صالح؛ وإن لم تلد امرأته ولداً ذكراً، ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء، فأنزل الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾.

وأخرج ابن مردويه من طريق عطية عن ابن مسعود قال: أسلم رجل من اليهود، فذهب بصره وماله وولده، فتشاءم بالإسلام، فقال: لم أصب من ديني هذا خيراً، ذهب بصري ومالي، ومات ولدي، فنزلت: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ الآية.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى في الآية المتقدمة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣﴾ [الحج: ٢٢/٣] حال الأتباع الجهال المقلّدين الذين يتبعون أهل الكفر والمعاصي والشياطين، ذكر هنا حال المتبوعين، الدعاة إلى الكفر والضلال، رؤساء الشر والابتداع.

وبعد بيان حال هؤلاء المجادلين في توحيد الله بلا حجة ولا برهان صحيح، أبان تعالى حال المنافقين مضطربي الإيمان، الذين لم تستقر عقيدتهم، من جماعة الأعراب القادمين إلى المدينة بقصد المنفعة المادية.

وبعد كشف حال عبادة المنافقين وحال معبوديهم من الأصنام والأوثان، أوضح الله تعالى صفة عبادة المؤمنين وصفة معبودهم، فعبادة الأولين خطأ غير صواب، ومعبودهم لا يضر ولا ينفع، أما عبادة المؤمنين فهي حق وحقيقة، ومعبودهم يعطيهم أعظم المنافع وهو الجنة.

التفسير والبيان:

تضمنت هذه الآيات أحوال ثلاث فئات من الناس، بعد بيان حال فئة هم الضُّلال الجهال المقلدون في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣﴾ [الحج: ٢٢/٣].

أما الفئة الأولى هنا فهم الدعاة إلى الضلال رؤساء الكفر والبدع، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾ أي وبعض الناس من يجادل في توحيد الله وأفعاله وصفاته، بلا عقل صحيح، ولا نقل صريح، بل بمجرد الرأي والهوى.

﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي أنه يجادل وهو مستكبر عن الحق وقبوله إذا دُعي إليه، كما قال تعالى حكاية عن قول لقمان لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ٣١/١٨] أي تميله عنهم استكباراً عليهم، وهدفه أو عاقبته صدُّ الناس المؤمنين عن دين الله الذي فيه خيرهم. واللام في قوله: ﴿لِيُضِلَّ﴾ إما لام العاقبة؛ لأنه لا يقصد ذلك، أي ليصير مآله ممن يضل عن سبيل الله، وإما لام التعليل، قال الزمخشري: تعليل للمجادلة، ولما أدّى جداله إلى الضلال، جعل كأنه غرضه.

ثم ذكر تعالى عقابه، فقال:

﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي أن عقابه في الدنيا هو الخزي أي الهوان والذل، وقد قتل يوم بدر، وعقابه في الآخرة الزجّ به في عذاب النار المحرقة أو الإحراق في النار.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾ أي والسبب فيما مني به من خزي الدنيا وعذاب الآخرة هو ما قدَّم من الكفر والمعاصي، وقد فعل الله به ذلك عدلاً في معاقبته الفجار وإثابته الصالحين؛ لأن الله لا يظلم عباده. أو يقال له هذا تقريعاً وتوبيخاً، كقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان: ٤٤/ ٤٧-٥٠] . ونظير آية العدل: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٥٣/ ٣١] .

والخلاصة: أن هذا العقاب حق وعدل بسبب جرم الكفر والإثم الفاحش.

وأما الفئة الثانية أهل الضلالة الأشقياء: فهم أهل الشك والنفاق والمصلحة والمنفعة المادية، وهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ أي وبعض الناس يعبد الله على شك وطرف من الدين لا في القلب، كمن يقف على حافة وادٍ، أو على طرف الجيش ليفر عند الإحساس بالهزيمة، فهو مضطرب الإيمان، غير مطمئن القلب، غير واثق بهذا الدين، ولا صادق النية، ولا مخلص في العبادة، وهم صنف من المنافقين.

﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾ أي فإن أصابه خير مادي من غنيمة ومال، وزيادة نتاج في الولد ونسل الحيوان، رضي عن هذا الدين. واطمأن إليه. وإن أصابه مرض أو لم تلد امرأته، ولا ماشيته، أي أحس بنقص في المال أو الأنفس، أو هلاك أو جدب في الثمرات والغلات، ارتد ورجع كافراً، وهذا هو النفاق بعينه.

﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي ضيع الدنيا والآخرة، فلا هو حصل من الدنيا على شيء من عز وكرامة وغنيمة، ولا استفاد من ثواب الآخرة، لأنه كفر بالله العظيم، فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة، وذلك هو الخسران البيِّن الذي لا خسران مثله، أو هي الخسارة العظيمة والصفقة الخاسرة.

وتأكيداً لعظم تلك الخسارة قال تعالى:

﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾ أي يعبد من غير الله آلهة من الأصنام والأنداد، يستغيث بها، ويستنصرها، ويسترزقها، وهي لا تضره إن لم يعبدها، ولا تنفعه في الآخرة إن عبدها.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ أي ذلك الارتداد، وعبادة تلك الأصنام، هو الضلال الموغل في الضلالة، البعيد جداً عن طريق الصواب.

ثم زاد الأمر تأكيداً فقال:

﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ أي يدعو (تكراراً للأول) لمن ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها، وأما في الآخرة فضرره محقق متيقن، لبئس الناصر هو، ولبئس الصاحب هو. أو يقول الكافر حينما يتحقق من تضرره بعبادته هذا المعبود الخاسر الذي أدخله النار: لبئس هذا المولى والناصر، ولبئس هذا العشير والصاحب.

وأما الفئة الثالثة: وهم الأبرار السعداء فهم الذين آمنوا بقلوبهم، وصدقوا إيمانهم بأفعالهم، كما قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي إن الله تعالى يكافئ المؤمنين الصادقي الإيمان، الذين عملوا الصالحات، أي الطاعات والقربات، وتركوا المنكرات، بإدخالهم روضات الجنات التي تجري من تحت أشجارها الأنهار.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ بإكرام أهل الطاعة وإثابتهم، وإهانة أهل المعصية وحرمانهم من فضله، يفعل وفق مراده ومشيئته المطلقة، فلا رادّ لقضائه، ولا معقّب لحكمه، يدخل المؤمنين الجنة، ويدخل الكافرين النار.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - تكرر نزول الآيات في النضر بن الحارث، فهو في جداله في الآية المتقدمة [٣] يريد إنكار البعث، وفي هذه الآية [٨] يريد إنكار النبوة وإنكار نزول القرآن من جهة الله. وقد قيل: نزلت فيه بضع عشرة آية. وكان من قوله: إن الملائكة بنات الله، وهذا جدال في الله تعالى. ووصف هنا بأنه أعرض عن

القرآن والحق، ولوى عنقه مَرَحاً وتعظماً وتكبراً، وكانت عاقبته أنه يجادل فيضل عن دين الله تعالى.

وعقابه في الدنيا الهوان والذل مما يجري له من الذكر القبيح على ألسنة المؤمنين إلى يوم القيامة، وقتل يوم بدر، ويغشى في الآخرة نار جهنم، جزاء وفاقاً للكفر والمعصية، ولا يظلم ربك أحداً. وفيه دليل على أن الله لا يعذب الأطفال بكفر آبائهم.

ودليل أيضاً على أن العقاب بسبب عمل الإنسان وفعله، فإذا عاقبه بغير فعله كان ذلك محض الظلم. وهو على خلاف النص.

٢ً - يجب أن يكون الإيمان في القلب كالجبال الراسيات، لا يتأثر بحدوث ضرر، ولا بزوال نفع، أما المنافقون الماديون الذين ينتظرون حدوث النفع المادي من مال أو غنيمة، ويستاؤون بما يتعرضون له من نقص في المال والثمرات، فهم الذين خسروا الدنيا، فلا حَظَّ لهم في غنيمة ولا ثناء، وخسروا الآخرة بأن لا ثواب لهم فيها، بل لهم العقاب الدائم بسبب ردتهم ورجوعهم إلى الكفر.

والراجع إلى الكفر يعبد الصنم الذي لا ينفع ولا يضر، ويدعو من ضرره أدنى من نفعه في الآخرة؛ لأنه بعبادته دخل النار، ولم ير منه نفعاً أصلاً. أو يقول الكافر: لمن ضره أقرب من نفعه في قول المسلمين: هو معبودي وإلهي، لبئس المولى في التناصر، ولبئس المعاشر والصاحب والخليل.

٣ً - يثيب الله من يشاء، ويعذب من يشاء، فللمؤمنين الجنة بحكم وعده الصدق وبفضله، وللكافرين النار بما سبق من عدله، لا أن فعل الرب معلل بفعل العبد.

٤ً - ما أروع هذه المقارنة والموازنة في الآيات بين حال المشركين وحال

المنافقين، وحال المؤمنين في الآخرة! فالعاقل هو الذي ينحاز آلياً لصف الإيمان ليبرأ في عالم الآخرة، والجاهل الغبي أو المعاند أو المتلاعب هو الذي يبقى في عكر العقيدة ومفاسدها وخبائثها، فيتلقى جزاءه عدلاً، ولا ظلم في الحساب.

حال اليائس من نصرة الرسول وإنزال الآيات البينات

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

القراءات:

﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾:

وقرأ ورش، وأبو عمرو، وابن عامر (ثُمَّ لِيَقْطَع).

الإعراب:

﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ حال منصوب، و﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ صفة، أي ومثل ذلك الإنزال أنزلنا القرآن كله آيات واضحات.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي﴾ معطوف على هاء: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ أي أن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة، فمن كان يظن خلاف ذلك ويتوقعه من غيظه ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي فليمدد حبلاً إلى سقف بيته يشده فيه وفي عنقه، ثم ليختنق به، بأن يقطع أنفاسه

من الأرض، والمراد: فليستقص في إزالة غيظه أو جزعه، بأن يفعل كل ما يفعله الممتلئ غضباً أو غيظاً، حتى يمد حبلاً إلى سماء بيته، فيختنق. وليس هذا دعوة إلى الانتحار، وإنما كما يقول المثل العامي: اشرب البحر، للدلالة على عدم الفائدة من الفعل.

﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ أي فليتصور في نفسه، هل يُذهبن كيدُه في عدم نصرة النبي ﷺ غيظه، والمعنى: فليختنق غيظاً منها، فلابد منها.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي مثل إنزالنا الآية السابقة ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي القرآن الباقي ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ ظاهرات واضحات ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ هداه، أي ولأن الله يهدي به أو يثبِّت على الهدى من يريد هدايته أو ثباته، أنزله كذلك مبيناً.

المناسبة:

بعد بيان حال المشركين المجادلين بالباطل، والمنافقين، والمؤمنين، بيَّن الله تعالى حال أمرين: هما نصرته رسول الله ﷺ في الدنيا والآخرة؛ ليبأس المجادلون، وإنزاله القرآن آيات واضحات ترشد إلى الحق والصواب.

التفسير والبيان:

من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ في الدنيا والآخرة، فليمدد بحبل إلى سقف بيته، ثم ليختنق به، ثم ليتأمل ويتصور في نفسه: هل يُذهب فعله الذي فعله غيظه من نصرة رسول الله ﷺ؟ كلا.

وسمي الاختناق قطعاً؛ لأن المختنق يقطع حياته، وسمي فعله وهو نصب المشنقة كيداً استهزاء؛ لأنه لم يَكِدْ به محسوده، وإنما كاد به نفسه، أو لأنه كالكيد، حيث لم يقدر على غيره.

وقال أبو جعفر النحاس: من أحسن ما قيل في هذه الآية أن المعنى: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ، وأنه يتهيأ له أن يقطع النصر الذي أوتيه، فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء، ثم ليقطع النصر إن تهيأ له، ثم لينظر هل يُذهبن كيدُه وحيلتُه ما يغيظه من نصر النبي ﷺ؟. والفائدة في الكلام أنه إذا لم يتهيأ له الكيد والحيلة بأن يفعل مثل هذا، لم يصل إلى قطع النصر.

وعلى كلا المعنيين، إن الله ناصر دينه وكتابه ورسوله لا محالة، فليفعل أهل الغيظ ما شاؤوا.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي ومثل ذلك الإنزال للآية المتقدمة أنزلنا القرآن كله آيات واضحات الدلالة على معانيها، ليتعظ بها المعتبر.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ أي ولأن الله يهدي به ويوفق الذين يعلم أنهم يؤمنون، ومستعدون للإيمان بما أنزل، ويريد الله هدايتهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآية الأولى على حسم الموقف بين النبي ﷺ وبين معاديه، فالله تعالى لا محالة ناصر رسوله، ومؤيد دينه وكتابه ودعوته، ومحبط مكائد الأعادي، وقاطع أطماعهم، ورادٌّ كيدهم في نحورهم، فلا أمل لهم بعدئذ في إحباط دعوة الإسلام، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف: ٦١/٩] وقال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٤٠/٥١] .

والله تعالى أيضاً مؤيد رسوله ﷺ بوحيه، وبما أنزله عليه من الآيات البينات الواضحات، ليفهمها الناس، أي القرآن، وكذلك ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ قال القرطبي: علق وجود الهداية بإرادته، فهو الهادي لا هادي

سواه. وقال الزمخشري والبيضاوي: ولأن الله يهدي به الذين يعلم أنهم مؤمنون، أو يثبِّت الذين آمنوا على الهدى.

الفصل الإلهي بين الأمم وخضوع كل ما في الكون لعزة الله

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾

القراءات:

﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾:

وقرأ نافع، وحمزة وقفاً (والصَّابين).

الإعراب:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾ الخبر: إما محذوف، وإما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ لأنها فيها معنى الجزاء، فحمل الخبر على المعنى.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ إما معطوف على ﴿مَّن﴾ في قوله تعالى: ﴿يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لأن السجود بمعنى الانقياد، وكل مخلوق منقاد تحت قدرة الله تعالى، وإما مبتدأ وخبره: إما ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي من الناس الذين هم الناس على الحقيقة، وهم الصالحون المتقون، وإما محذوف، وهو مثاب، أي

وكثير من الناس ثبت له الثواب، دل عليه خبر مقابله وهو قوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾.

البلاغة:

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ هم اليهود ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ هم فرقة بين اليهود والنصارى، أو قوم يعبدون الملائكة، ويقرؤون الزبور ﴿وَٱلْمَجُوسَ﴾ أتباع المتنبئ، قوم يعبدون الشمس والقمر والنار ويقولون: إن هناك إلهين اثنين للخير والشر وهما النور والظلمة .﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾ عبدة الأصنام والأوثان ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ يقضي بينهم لإظهار المحق من المبطل، فيدخل المؤمنين الجنة، ويدخل غيرهم النار ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من عملهم ﴿شَهِيدٌ﴾ عالم به علم مشاهدة، مراقب لما يتعلق به.

﴿يَسْجُدُ لَهُۥ﴾ يخضع له بما يراد منه، وهو السجود بالتسخير والانقياد لإرادته تعالى، وهناك سجود بالاختيار خاص بالإنسان .﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة، فهو فاعل فعل مضمر، أو هو مبتدأ دل عليه قسيمه المقابل له بعده، وخبره: حق له الثواب، وهم المؤمنون بما هو أكثر من الخضوع في سجود الصلاة ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي وكثير منهم ثبت له العذاب، وهم الكافرون؛ لأنهم أبَوْا السجود والخضوع لله بشرط الإيمان ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ أي ومن يجعله شقياً لما علم منه من اكتساب الشقاوة فما له أحد يكرمه ويسعده ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ من الإهانة والإكرام.

المناسبة:

هناك ارتباط عام وارتباط خاص بين هذه الآيات وما قبلها، أما الارتباط

العام: فبعد أن ذكر تعالى أحوال المشركين والمنافقين والمؤمنين، أبان هنا أن الله يقضي بينهم جميعاً ليبين المحق من المبطل، وأما الارتباط الخاص، فبعد أن ذكر تعالى في الآية السابقة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ﴾ أتبعه في الآية الأولى ببيان من يهديه ومن لا يهديه.

ثم أردفه في الآية الثانية ببيان أنه ما كان ينبغي لأهل الأديان المختلفة أن يختلفوا؛ لأن جميع العوالم خاضعة لسلطانه وقدرته، وساجدة لعظمته طوعاً أو كرهاً.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ إن الله تعالى يقضي بين أهل الأديان المختلفة من المؤمنين بالله ورسله، واليهود، والنصارى، والمجوس، والمشركين الذين يعبدون مع الله غيره، ويحكم بينهم بالعدل، فيدخل من آمن به الجنة، ومن كفر به النار، فإنه تعالى شهيد على أعمالهم، حفيظ لأقوالهم وأفعالهم، عليم بسرائرهم، وما تكنُّ ضمائرهم.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ﴾ أي ألم تعلم أن الله تعالى يخضع ويسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً، وسجود كل شيء بما يختص به، فيسجد له من في السماوات: وهو الملائكة، ومن في الأرض وهم الإنس والجن، والشمس والقمر والنجوم من العوالم العلوية، والشجر والدوابّ (الحيوانات كلها) من العالم السفلي، وكثير من الناس حقَّ له الثواب أو يسجد لله طوعاً مختاراً متعبداً بذلك، أي ثبت وتقرر، وكثير حق عليه العقاب، ممن امتنع وأبى واستكبر. وقد نص على هذه الأشياء؛ لأنها قد عبدت من دون الله، فأبان تعالى أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة منقادة لله تعالى.

ومن يهنه الله فيشقيه، أو من يهنه بالشقاء والكفر لسوء استعداده للإيمان، لا يقدر أحد على دفع الهوان عنه، ولا يسعده أحد؛ لأن الأمر بيده تعالى، يوفق من يشاء ويخذل من يريد.

إن الله تعالى يفعل في عباده ما يشاء من الإهانة والإكرام، لا رادّ لقضائه، ولا معقّب لحكمه.

ونظير الآية كثير، مثل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل: ١٦/٤٨].

ومثل ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ١٧/٤٤].

وأما إطلاق المشيئة لله تعالى فيوضحه ما رواه ابن أبي حاتم عن علي: أنه قيل لعلي: «إن ههنا رجلاً يتكلم في المشيئة، فقال له علي: يا عبد الله، خلقك الله كما يشاء، أو كما شئت؟ قال: بل كما شاء، قال: فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء، قال: فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء، قال: فيدخلك حيث شئت أو حيث شاء؟ قال: بل حيث يشاء، قال: والله، لو قلت غير ذلك، لضربتُ الذي فيه عيناك بالسيف» [1].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآية الأولى على أن الله تعالى يقضي بالعدل بين أهل الأديان المختلفة، وهم المؤمنون بالله وبرسوله ﷺ، واليهود: وهم المنتسبون إلى ملة موسى عليه السلام، والصابئون: وهم قوم يعبدون النجوم، والنصارى: وهم المنتسبون إلى ملة عيسى، والمجوس: وهم عبدة النيران القائلون بأن للعالم أصلين: نور وظلمة، والمشركون: وهم العرب ونحوهم عبدة الأوثان. هذه الفرق الست: خمسة منها للشيطان، وواحدة منها للرحمن. وإنه تعالى يقضي ويحكم بينهم، فللكافرين النار، وللمؤمنين الجنة، إن الله تعالى شهيد على أعمال خلقه وحركاتهم وأقوالهم.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/٢١١

ودلت الآية الثانية على أن القلب والعقل يرى أن جميع مافي العوالم العلوية والسفلية من الكواكب والجمادات والنباتات والإنسان والحيوان يسجد لله تعالى سجود تذلل وانقياد لتدبير الله عز وجل في جميع الأحوال من ضعف وقوة، وصحة وسقم، وحسن وقبح، وسجود خضوع لعظمته وسلطانه وجبروته.

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة، اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله، أُمر ابنُ آدم بالسجود، فسجد، فله الجنة، وأُمرت بالسجود فأبيت، فلي النار».

ومن أهانه الله بالشقاء والكفر لسوء استعداده لا يقدر أحد على دفع الهوان عنه، والذين حق عليهم العذاب، ليس لهم أحد يقدر على إزالة ذلك الهوان عنهم، فيكون مكرماً لهم.

وإن الله تعالى هو الذي يصح منه الإكرام والهوان يوم القيامة بالثواب والعقاب. والمراد من بيان إطلاق المشيئة لله أن مصير الكافرين إلى النار فلا اعتراض لأحد عليه.

جزاء الكافرين والمؤمنين

﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾

القراءات:

﴿هَٰذَانِ﴾:

وقرأ ابن كثير (هذانّ).

﴿رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾: قرئ:

١- (رؤوسهِم الحميم) وهي قراءة أبي عمرو.

٢- (رؤوسهُمُ الحميم) وهي قراءة وحمزة، والكسائي، وخلف.

٣- (رؤوسهِمُ الحميم) وهي قراءة السبعة.

﴿وَلُؤۡلُؤٗا﴾: قرئ:

١- (ولؤلُؤاً) وهي قراءة نافع، وحفص.

٢- (ولُولُؤٍ) وهي قراءة السوسي.

٣- (ولؤلؤٍ) وهي قراءة الباقين.

﴿صِرَٰطِ﴾:

وقرأ قنبل (سراط).

الإعراب:

﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ﴾: حال من ضمير ﴿لَهُمۡ﴾ أو خبر ثانٍ.

﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ۝٢٠﴾: ﴿مَا﴾: نائب فاعل، ﴿وَٱلۡجُلُودُ﴾: معطوف عليه، وهاء ﴿بِهِۦ﴾ عائدة على ﴿ٱلۡحَمِيمُ﴾. والجملة: حال من ﴿ٱلۡحَمِيمُ﴾ أو من ضمير «هم».

﴿مِنْ غَمٍّ﴾ في موضع نصب؛ لأنه بدل من قوله: ﴿مِنْهَا﴾ أي: كلما أرادوا أن يخرجوا من غم أعيدوا فيها.

﴿وَذُوقُوا عَذَابَ﴾ على حذف القول، أي: ويقال لهم: ذوقُوا عذاب الحريق، وهذا كثير في كلام العرب.

﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ صفة مفعول محذوف.

﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ إما منصوب بتقدير فعل، أي ويعطون لؤلؤاً، لدلالة ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ عليه في أول الكلام. وإما معطوف على موضع الجار والمجرور من قوله: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ كأن يقال: مررت بزيدٍ وعَمْراً. وعلى قراءة الجر يكون معطوفاً على ﴿أَسَاوِرَ﴾ أو على الذهب بأن يرصع اللؤلؤ بالذهب.

البلاغة:

﴿اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ أي في دين ربهم، فهو على حذف مضاف. وقوله: ﴿هَذَانِ﴾ للفظ، و﴿اخْتَصَمُوا﴾ للمعنى.

﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ استعارة عن إحاطة النار بهم كإحاطة الثوب بلابسه.

المفردات اللغوية:

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾ الخصم: من يعارض غيره في الرأي. وقد وصف به الفريق أو الفوج، فكأنه قيل: هذان فوجان أو فريقان مختصمان متنازعان، وقوله: ﴿هَذَانِ﴾ للفظ، و﴿اخْتَصَمُوا﴾ للمعنى، والمراد بهما: المؤمنون والكافرون. والخصم: يطلق على الواحد والجماعة. ﴿اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ أي في دينه أو في ذاته وصفاته ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ﴾ أي قدِّرت لهم ثياب يلبسونها، والمراد: نيران تحيط بهم إحاطة الثياب ﴿الْحَمِيمُ﴾ الماء البالغ نهاية الحرارة

﴿يُصْهَرُ بِهِۦ﴾ يذاب ﴿مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ أي يؤثر من فرط حرارته في باطنهم تأثيره في ظاهرهم، فيذاب به أحشاؤهم، كما يذاب أو يشوي به جلودهم ﴿مَّقَٰمِعُ﴾ مضارب أو سياط حديد يجلدون بها، جمع مِقْمعة.

﴿أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا﴾ أي من النار ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ حزن شديد يلحقهم بها ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ ردوا إليها بالمقامع ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي ويقال لهم: ذوقوا العذاب البالغ نهاية الإحراق، أو العذاب المحرق.

﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ جمع أسورة، وهي جمع سِوار، أي فالأساور جمع الجمع، وهي حلية تلبسها النساء في معاصمها ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ هو ما يستخرج من البحر من جوف الصدف ﴿حَرِيرٌ﴾ هو المحرم لبسه على الرجال في الدنيا .﴿وَهُدُوٓاْ﴾ أرشدوا ﴿إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وهو كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، أو هو قولهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٧٤] أو كلام أهل الجنة مع بعضهم بعضاً ﴿صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي الطريق المحمود، وهو الإسلام أو طريق الجنة، أو آداب المعاشرة والاجتماع. والأصح أنه طريق الله الحميد أي المحمود نفسه أو عاقبته وهو الجنة.

سبب النزول:

نزول الآية (١٩):

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾: أخرج الشيخان وغيرهما عن أبي ذر قال: نزلت هذه الآية: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ﴾ في حمزة وعبيدة وعلي بن أبي طالب، وعتبة وشيبة والوليد بن عتبة. أي الفريقين اللذين قاما بالمبارزة في بداية معركة بدر.

وأخرج الحاكم عن علي قال: فينا نزلت هذه الآية، وفي مبارزتنا يوم بدر: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْحَرِيقِ﴾.

وأخرج الحاكم من وجه آخر عن علي قال: نزلت في الذين بارزوا يوم بدر: حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس: أنها نزلت في أهل الكتاب قالوا للمؤمنين: نحن أولى بالله منكم، وأقدم كتاباً، ونبينا قبل نبيكم، فقال المؤمنون: نحن أحق بالله، آمنا بمحمد وبنبيكم، وبما أنزل الله من كتاب.

المناسبة:

بعد بيان أهل الفرق الستة وقضاء الله بينهم بالعدل، ذكر هنا تصنيفهم إلى فريقين: فريق الإيمان، وفريق الكفر، ثم محاورتهم فيما بينهم في الأهدى طريقاً، ومآل كل من الفريقين إلى الجحيم أو إلى النعيم.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن خصومة فريقين اختصموا في دين الله وذاته وصفاته فيقول: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ أي إن أهل الأديان المختلفة الستة المتقدم بيانهم هم فريقان متميزان: فريق المؤمنين، وفريق الكافرين الذين هم أتباع الديانات الخمس المتقدمة، تنازعوا وتجادلوا في شأن ربهم وفي دينه، وكل منهم يعتقد أنه على حق، وأن خصمه على الباطل ويبني على أساس ذلك جهاده وسلوكه وفكره.

والحق أن مصير الفريقين واضح، أما الفريق الأول وهم الكافرون فجزاؤهم: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي فالكافرون تحيط بهم النار إحاطة شاملة، وقد مثّل ذلك بأنه فصلت لهم مقطعات من نار تحيط بهم كإحاطة الثوب بلابسه، مما يومئ بشدة عذابهم واحتقار شأنهم، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١/٧] وقال سبحانه ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٥٠].

﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ، يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾ أي يصب على رؤوسهم الماء البالغ درجة الغليان الذي يذيب ما في بطونهم من أحشاء، ويشوي جلودهم، فيحرق الباطن والظاهر.

روى ابن جرير والترمذي وابن أبي حاتم وعبد بن حميد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الحميم ليصبُّ على رُؤوسهم، فينفذ الجمجمة، حتى يخلص إلى جوفه، فيَسْلِت ما في جوفه، حتى يبلغ قدميه، وهو الصَّهْر، ثم يُعاد كما كان».

﴿وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾ أي لهم مضارب أو سياط من حديد، يضربون بها على وجوههم ورؤوسهم وأعضائهم وأجسادهم. أخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «لو أن مقمعاً من حديد وضع في الأرض، فاجتمع له الثقلان، ما أقاموه من الأرض». وأخرج عن أبي سعيد أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «لو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت، ثم عاد كما كان، ولو أن دلواً من غَسّاق يهراق في الدنيا لأنتن أهلَ الدنيا».

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ﴾ أي كلما حاولوا الهرب من جهنم بسبب شدة العذاب والغم، أي الحزن الشديد، أعيدوا فيها كما كانوا، ويقال لهم: ذوقوا العذاب المحرق، وعذاب هذه النار المحرقة. قال الفضيل بن عياض: والله ما طمعوا في الخروج، إن الأرجل لمقيدة، وإن الأيدي لموثقة، ولكن يرفعهم لهبها، وتردهم مقامعها.

وقوله: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ كقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٣٢/ ٢٠] ومعنى الكلام: أنهم يهانون بالعذاب قولاً وعملاً.

وبعد بيان سوء حال الكافرين وماهم فيه من العذاب والنكال، والحريق والأغلال، ذكر تعالى حسن أهل الجنة، فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي إن الله يدخل المؤمنين الذين يعملون الصالحات أي الطاعات والقربات، ويتجنبون المنكرات جنات عالية رفيعة تجري الأنهار من تحت أشجارها وجوانبها وقصورها، يوجهونها حيث أرادوا.

﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗا﴾ أي وحليتهم التي يلبسونها أساور الذهب في أيديهم أو تكون مرصعة باللؤلؤ، ويؤتون لؤلؤاً يزينون به هاماتهم ورؤوسهم، كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء» واللؤلؤ كما تقدم: هو ما يستخرج من البحر من جوف الصَّدَف.

﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ أي ويَرْتَدُون الحرير الذي كان محرماً لباسه على الرجال في الدنيا، في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم، ويؤكدها آية أخرى: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٣٣] .

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ أي أرشدوا إلى القول الطيب، وهو كلمة التوحيد أو قوله تعالى حين دخول الجنة: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤﴾ [الزمر: ٣٩/ ٧٤] . أو إلى تحية الملائكة لهم بالسلام، وهذا في مقابل أهل النار الذين يُقَرَّعون ويوبَّخون ويقال لهم: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾.

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ أي وأرشدوا إلى الطريق المحمود أو إلى المكان الذي يحمدون فيه ربهم على نعمه وأفضاله، أو إلى السلوك الحسن المرضي ربهم في أقوالهم وأفعالهم، والأصح: إلى طريق الله الحميد أي المحمود نفسه أو عاقبته وهو الجنة.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه حال المؤمنين وحال الكافرين في الآخرة، أما الكافرون من الفِرق الخمس الذين تقدم ذكرهم، فخيطت وسويت لهم ثياب شاملة من نار، أي أنها تحيط بهم إحاطة كاملة، ويصب على رؤوسهم الماء الحار المغلي بنار جهنم، يذيب أحشاء بطونهم وشحومها، ويشوي الجلود أو يحرقها، فإن الجلود لا تذاب، فيضم في كل شيء ما يليق به، ويضربون ويدفعون بمضارب ثقيلة من حديد.

وإذا حاولوا الخروج من النار حين تفور بهم، فتُلقي من فيها إلى أعلى أبوابها، فتعيدهم خزنة النار إليها بالمقامع، ويقولون لهم: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي المحرِق. والذوق: مماسَّة يحصل معها إدراك الطعم، والمراد به إدراكهم الألم.

وأما المؤمنون فلهم ألوان عديدة من النعم، منها أنهم يحلون بأساور الذهب، ويحلون لؤلؤاً يزينون به تيجانهم، قال القشيري: والمراد ترصيع السوار باللؤلؤ، ولا يَبْعُد أن يكون في الجنة سوار من لؤلؤ مُصْمَت، أي الذي لا يخالطه غيره. قال القرطبي: وهو ظاهر القرآن ونصه.

وجميع ما يلبسونه وينتفعون به من فُرُشهم ولباسهم وستورهم حرير، وهو أعلى مما في الدنيا بكثير.

وأرشدوا إلى طيب القول، قال ابن عباس: يريد لا إله إلا الله، والحمد لله، كما أرشدوا إلى صراط الله وهو في الدنيا دينه وهو الإسلام، وفي الآخرة الطيب من القول: وهو الحمد لله؛ لأنهم يقولون غداً: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٧/ ٤٣] ، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٣٤] ؛ فليس في الجنة لغو ولا كذب، فما يقولونه فهو طيِّب القول. وقد هدوا في الجنة إلى صراط الله وهو الإسلام أو إلى طريق الجنة، إذ ليس في الجنة

شيء من مخالفة أمر الله. وقيل: الطيب من القول: ما يأتيهم من الله من البِشارات الحسنة.

أما في الدنيا فالحرير والذهب محرم استعمالهما حلية على الرجال، حلال للنساء، أما الانتفاع بآنية الذهب والفضة كالأكل والشرب فهو حرام مطلقاً على الرجال والنساء. روى النسائي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من لبِس الحرير في الدنيا، لم يَلْبَسه في الآخرة، ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة، ومن شرب في آنية الذهب والفضة، لم يشرب فيها في الآخرة». ثم قال رسول الله ﷺ: «لباسُ أهل الجنة وشرابُ أهل الجنة، وآنيةُ أهل الجنة».

والحرمان من ذلك: إنما هو في حال عدم وجود التوبة، بدليل حديث ابن عمر عن النبي ﷺ: «من شَرِب الخمر في الدنيا، ثم لم يتب منها حُرِمها في الآخرة».

فإذا لم تحدث التوبة، فيحرم مما ذكر عملاً بظاهر الحديث، وإن دخل الجنة، بدليل ما رواه أبو داود الطيالسي في مسنده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «من لبِس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة، ولم يلبسه هو». وكذلك «من شرب الخمر ولم يتب» و «من استعمل آنية الذهب والفضة» وليس ذلك بعقوبة؛ لأن الجنة ليست بدار عقوبة، ولا مؤاخذة فيها بوجه [١].

(١) تفسير القرطبي: ١٢/ ٣٠

المنع من المسجد الحرام

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

القراءات:

﴿سَوَآءً﴾:

قرأ حفص (سَوَاءً).

وقرأ الباقون (سواءٌ).

﴿وَٱلْبَادِۚ﴾:

وقرأ ورش، وأبو عمرو بإثبات الياء وصلاً، ووصلاً ووقفاً قرأ ابن كثير.

الإعراب:

﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الواو: إما واو عطف أو واو حال، فإن كانت للعطف عطف المضارع على الماضي حملاً على المعنى، على تقدير: إن الكافرين والصادّين. وإن كانت للحال، كان تقديره: إن الذين كفروا صادّين عن سبيل الله. وخبر ﴿إِنَّ﴾ مقدّر، أي معذّبون. والأصح هو الأول، قال البيضاوي: لا يريد به حالاً ولا استقبالاً، وإنما يريد استمرار الصدّ منهم، كقولهم: فلان يعطي ويمنع، ولذلك حسن عطفه على الماضي. وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١٣/ ٢٨].

﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ ﴿ٱلْعَٰكِفُ﴾: مبتدأ، ﴿وَٱلْبَادِۚ﴾: عطف

عليه، وسواءٌ على قراءة الرفع: خبر مقدم. وعلى قراءة النصب: منصوب على المصدر، على تقدير: سَوَّيْنا، أو على الحال من هاء ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ وهو عامل فيه، ورفع ﴿ٱلْعَٰكِفُ﴾ به.

﴿بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ حالان مترادفان، ومفعول ﴿يُرِدْ﴾: متروك ليتناول كل متناوَل كما قال الزمخشري، وهو الأولى كما قال الرازي.

البلاغة:

﴿ٱلْعَٰكِفُ﴾ ﴿وَٱلْبَادِ﴾ بينهما طباق، إذ العاكف: المقيم في المدينة، والباد: المقيم في البادية.

المفردات اللغوية:

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي ويمنعون عن دين الله وطاعته. والصد: المنع، والفعل يفيد استمرار المنع ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ مكة ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ﴾ منسكاً ومتعبداً ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ أي تساوى فيه المقيم الملازم والطارئ من البادية ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ عدول عن القصد والاستقامة، والباء زائدة للتأكيد، أي إلحاداً مثل ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٢٠] ﴿بِظُلْمٍ﴾ بغير حق، أي بسببه، بأن ارتكب منهياً، ولو شتم الخادم ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي يتلقى بعض العذاب المؤلم، وهو جواب الشرط لمن يُردْ، ويفهم خبر ﴿إِنَّ﴾ من قوله ﴿نُّذِقْهُ﴾ أي نذيقهم من عذاب أليم.

سبب النزول:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في أبي سفيان بن حرب وأصحابه حين صدوا رسول الله ﷺ وأصحابه عام الحديبية عن المسجد الحرام، وقد كره عليه الصلاة والسلام أن يقاتلهم، وكان محرماً بعمرة، ثم صالحوه على أن يعود في العام المقبل.

وقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾: روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: بعث النبي ﷺ عبد الله بن أُنيس مع رجلين: أحدهما مهاجر، والآخر من الأنصار، فافتخروا في الأنساب، فغضب عبد الله بن أنيس، فقتل الأنصاري ثم ارتد عن الإسلام، وهرب إلى مكة، فنزلت فيه: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ الآية.

المناسبة:

بعد بيان مآل الكفار والمؤمنين، عظم الله تعالى حرمة البيت الحرام، وعظم كفر المشركين الصادين عن الدخول إليه لأداء المناسك، مع ادعائهم أنهم حماته.

التفسير والبيان:

إن الذين كفروا بالله ورسوله، وهم مع كفرهم يصدون عن سبيل الله وعن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به في الأمر نفسه، فهم يمنعونهم من الدخول إليه، مع أن الله تعالى جعله للناس جميعاً لصلاتهم وعبادتهم، وطوافهم وأداء مناسكهم، يستوي في شأنه المقيم منهم فيه والطارئ عليه النائي عنه، من أهل البوادي وغيرهم.

ومن يرد فيه مراداً ما عادلاً عن القصد والاستقامة، ظالماً، أي يهم فيه بأمر فظيع من المعاصي الكبار، عامداً قاصداً أنه ظلم غير متأول، وهو التعمد، نذقه يوم القيامة من العذاب المؤلم.

قال مجاهد: ﴿بِظُلْمٍ﴾: يعمل فيه عملاً سيئاً. وقال ابن أبي حاتم: وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقب البادي في الشر إذا كان عازماً عليه، وإن لم يوقعه. وروى ابن أبي حاتم عن يعلى بن أمية أن رسول الله ﷺ قال: «احتكار الطعام بمكة إلحاد». وهذا بعض أمثلة الظلم، فإن هذا الإلحاد والظلم يجمع

جميع المعاصي من الكفر إلى الصغائر، فلعظم حرمة المكان توعد الله تعالى على نية السيئة فيه، ومن نوى سيئة، ولم يعملها، لم يحاسب عليها إلا في مكة.

والخلاصة: أن الآية عامة تشمل كل أنواع المعصية، ويختص الحرم بعقوبة من هم فيه بسيئة وإن لم يعملها، كما أن الله تعالى جعل الحرم مفتوحاً ومنسكاً لكل الناس، أي الذين يقع عليهم اسم الناس من غير فرق بين حاضر وباد، ومقيم وطارئ، ومكي وآفاقي.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآية على مايأتي:

١ً - حرية العبادة في الحرم المكي لجميع الناس، من أهل مكة وغيرهم، وهذا يومئ إلى أن من يمنع الناس من حج بيت الله الحرام، يكون من الذين كفروا؛ لأن الله تعالى ذكر فريضة الحج عقب هذه الآية.

٢ً - كل من يرتكب معصية في مكة عدواناً وظلماً، أو يعزم فيه على الشر، وإن لم يفعله، له يوم القيامة عذاب مؤلم شديد الألم أي فيعاقب الإنسان على ما ينويه من المعاصي بمكة، وإن لم يعمله. قال الإمام أحمد: أتى عبد الله بن عمر عبد الله بن الزبير، فقال: ياابن الزبير: إياك والإلحاد في حرم الله، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيلحد فيه رجل من قريش لو توزن ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت».

وقد استدل الحنفية بالآية على امتناع جواز بيع دور مكة وإجارتها، قائلين بأن المراد بالمسجد الحرام مكة، ومستدلين بما رواه ابن ماجه والدارقطني عن عَلْقمة بن نَضْلة قال: توفي رسول الله ﷺ، وأبو بكر وعمر، وما تُدعى رِباع مكة إلا السوائبُ، من احتاج سكَن، ومن استغنى أسكَن. وقَال عبد الله بن عمرو - فيما رواه عنه عبد الرزاق: لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها، وقال:

«من أكل من أجر بيوت مكة شيئاً، فإنما يأكل ناراً». وروى عبد الرزاق أيضاً عن ابن جريج قال: كان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم.

وذهب الشافعي رحمه الله إلى أن رباع مكة تملك وتورث وتؤجر، لحديث أسامة بن زيد في الصحيحين قال: قلت: يارسول الله، أتنزل غداً في دارك بمكة؟ فقال: «وهل ترك لنا عقيلٌ من رباع» ؟ وقال فيما رواه الجماعة (أحمد وأصحاب الكتب الستة) عن أسامة: «لا يرث الكافر المسلم، ولا المسلم الكافر» وثبت أن عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أمية داراً بمكة، فجعلها سجناً بأربعة آلاف درهم.

وتوسط الإمام أحمد فقال: تملك وتورث، ولا تؤجر، جمعاً بين الأدلة.

ومنشأ الخلاف: كيفية فتح مكة، هل كان فتحها عَنْوة؟ فتكون مغنومة، لكن النبي ﷺ لم يقسمها وأقرها لأهلها، ولمن جاء بعدهم؛ كما فعل عمر رضي الله عنه بأرض سواد العراق، فتبقى على ذلك لا تُباع ولا تُكْرى، ومن سبق إلى موضع كان أولى به. وبهذا قال مالك وأبو حنيفة والأوزاعي.

أو هل كان فتحها صلحاً؟ وإليه ذهب الشافعي، فتبقى ديارهم بأيديهم، ويتصرفون في أملاكهم كيف شاؤوا، واستدل بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ [الحج: ٢٢/ ٤٠] فأضافها إليهم. وقال ﷺ يوم فتح مكة فيما رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة: «من أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان، فهو آمن».

ويلاحظ أنه لم يؤاخذ الله تعالى أحداً على الهم بالمعصية إلا في المسجد الحرام لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ﴾ لأنه مكان تطهير النفس والتوبة والنقاء والتخلص من الذنوب بالكلية لله عز وجل.

تعيين مكان البيت الحرام والأمر بالحج إليه

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾

القراءات:

﴿بَوَّأْنَا﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (بوَّانا).

﴿بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾: قرئ:

١- (بيتيَ للطائفين) وهي قراءة نافع، وحفص.

٢- (بيتيْ للطائفين) وهي قراءة الباقين.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟﴾: قرئ:

١- (ثمَّ لِيَقضوا) وهي قراءة ورش، وقنبل، وأبي عمرو، وابن عامر.

٢- (ثمَّ لْيَقْضوا) وهي قراءة الباقين.

﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟﴾:

وقرأ ابن ذكوان (ولِيُوفوا، ولِيَطَّوَّفوا).

الإعراب:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ﴾ اللام: إما زائدة؛ لأن ﴿بَوَّأْنَا﴾ يتعدى إلى مفعولين، فإبراهيم هو المفعول الأول، و﴿مَكَانَ﴾: هو المفعول الثاني، وإما ألا تكون زائدة، ويكون ﴿بَوَّأْنَا﴾ محمولاً على معنى (جعلنا) فكأنه قال: جعلنا لإبراهيم مكان البيت: ظرف، والمفعول محذوف، تقديره: بوأنا لإبراهيم مكان البيت منزلاً.

﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ أن: إما مخففة من الثقيلة في موضع نصب، أي بأنه لا تشرك بي، وإما مفسّرة بمعنى «أيْ» وإما زائدة.

﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ﴾ ﴿رِجَالًا﴾: حال منصوب من واو ﴿يَأْتُوكَ﴾. و﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾: جارّ ومجرور في موضع نصب على الحال، أي يأتوك رجالاً وركباناً. و﴿يَأْتِينَ﴾: يعود إلى معنى ﴿كُلِّ﴾ وفعل غير العقلاء كفعل المؤنث، ودلت ﴿كُلِّ﴾ على العموم، فأتى الخبر على المعنى.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾: إما مجرور صفة للبيت العتيق، وإما مرفوع خبر مبتدأ محذوف، أي الأمر ذلك، مثل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ﴾ [الحج: ٢٢/ ٦٠] أي الأمر ذلك.

البلاغة:

﴿عَمِيقٍ﴾ ﴿الْعَتِيقِ﴾ ﴿سَحِيقٍ﴾ أي في الآية التالية سجع مستحسن في علم البديع.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا﴾ أي واذكر إذ عيناه وبيناه ﴿مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أي الكعبة ليبنيه، وكان قد رفع من زمن الطوفان في عهد نوح ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ من

الأوثان والأقذار لمن يطوف به ويصلي فيه ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ المقيمين به ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ المصلين، جمع راكع وساجد.

﴿وَأَذِّن﴾ ناد بالحج، أي بالدعوة إليه، فنادى على جبل أبي قبيس: يا أيها الناس، إن ربكم بنى بيتاً، وأوجب عليكم الحج إليه، فأجيبوا ربكم. والتفت بوجهه يميناً وشمالاً وشرقاً وغرباً، فأجابه كل من كتب له أن يحج من أصلاب الرجال وأرحام الأمهات: لبيك اللهم لبيك .﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ أي راجلين ماشين على الأقدام، جمع راجل، كتاجر وتجار وقائم وقيام، و﴿يَأْتُوكَ﴾: جواب الأمر ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي وركباناً على كل بعير مهزول، بأن أتعبه بعد السفر فهزل. والضامر: يطلق على الذكر والأنثى ﴿يَأْتِينَ﴾ أي الضوامر، أتى به جمعاً حملاً على المعنى ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي طريق بعيد.

﴿لِّيَشْهَدُوا۟﴾ ليحضروا ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ منافع دينية في الآخرة، ودنيوية بالتجارة ﴿فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ هي عشر ذي الحجة، أو يوم عرفة أو يوم النحر إلى آخر أيام التشريق - أيام عيد الأضحى ﴿بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الإبل والبقر والغنم التي تنحر في يوم العيد وما بعده من الهدايا والضحايا ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ من لحومها، أباح ذلك خلافاً لما كان عليه أهل الجاهلية من التحرج فيه، وهذا في المتطوع به، المستحب، دون الواجب ﴿ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ أي الذي أصابه بؤس أي شدة، والفقير: المحتاج، والأمر فيه للوجوب.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾ أي يزيلوا أوساخهم وشعثهم كطول الظفر والشعر، ونتف الإبط، والمراد هنا: قص الأشعار وتقليم الأظفار. ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ ما ينذرون به من البر في حجهم، ومن الهدايا والضحايا. والنذر: كل ما لزم الإنسان أو التزمه .﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي يطوفوا طواف الركن الذي به تمام التحلل أي طواف الإفاضة، فإنه قرينة قضاء التفث، وقيل: طواف الوداع. والعتيق: القديم؛ لأنه أول بيت وضع للناس.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٧):

﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾: أخرج ابن جرير عن مجاهد قال: كانوا لا يركبون، فأنزل الله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ فأمرهم بالزاد، ورخص لهم في الركوب والمتجر.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى موقف المشركين من الصد عن المسجد الحرام، أراد تعالى بيان مكانة البيت الحرام وتوبيخ أولئك المشركين على فعلهم، فإن أباهم إبراهيم عليه السلام هو الذي بناه، وأُمر بتطهيره للطائفين والمصلين، وأن يدعو الناس إلى الحج، للحصول على المنافع الدينية والدنيوية.

التفسير والبيان:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ﴾ أي واذكر يامحمد للناس وقت أن جعلنا لإبراهيم مكان البيت مباءة، أي مرجعاً يرجع إليه للعبادة، وأرشده إليه وأذن له في بنائه. والمراد بذكر الوقت ذكر ما وقع فيه من حادث عظيم، ليتذكر المشركون، ويقلعوا عن عبادة الأوثان إلى عبادة الله الواحد الديان.

وفي هذا تقريع وتوبيخ لمن أشرك بالله في بقعة أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له.

وفيه دليل على أن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق، وأنه لم يبن قبله بعد رفعه وطمس معالمه في أثناء طوفان نوح عليه السلام، كما ثبت في الصحيحين عن أبي ذرّ قلت: يارسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أي؟ قال: «بيت المقدس» قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة». وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ

مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٦] وقال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٥].

﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ﴾ أي وقلنا له: ابنه على اسمي وحدي، ولا تشرك بي شيئاً من خلقي في العبادة، وطهِّرْ بيتي من الشرك والأوثان والأصنام والأقذار أن تطرح حوله، واجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له، فالطائف به يخص العبادة بالله تعالى، لا يفعل ببقعة من الأرض سواها، والقائم في الصلاة أو الدعاء لله، والراكع الساجد لله تعالى فيها. وقد قرن الطواف بالصلاة؛ لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت، فالطواف عنده، والصلاة إليه، فالقائمون: هم المصلون، وذكر تعالى من أركان الصلاة أعظمها وهو القيام والركوع والسجود.

﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ﴾ أي نادِ في الناس بالحج، داعياً لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه، يأتوك راجلين ماشين، وراكبين على كل بعير ضامر مهزول، من كل طريق بعيد. والأذان والتأذين: الإعلام برفع الصوت على نحو ما يكون للصلاة. والمراد هنا: النداء في الناس بأن الله قد كتب عليهم الحج ودعاهم إلى أدائه.

روي أنه لما أمر إبراهيم عليه السلام بالأذان للحج قال: ياربِّ، وما يبلغ صوتي؟ قال: أذّن وعلي الإبلاغ، فصعِد إبراهيم خليل الله جبل أبي قُبَيْس وصاح: ياأيها الناس، إن الله قد أمركم بحج هذا البيت، ليثيبكم به الجنة، ويجيركم من عذاب النار، فحُجُّوا، فأجابه من كان في أصلاب الرجال وأرحام النساء، لبَّيْك اللهم لبَّيْك [1]. وهذا معجزة خارقة للعادة، فهو سبحانه قادر على إيصال صوت إبراهيم إلى من يشاء في أنحاء الأرض والسماء.

(١) تفسير القرطبي: ١٢/ ٣٨، وسيأتي تخريج الرواية.

وهذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبراهيم حيث قال في دعائه: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ١٤/٣٧] . فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحنُّ إلى رؤية الكعبة والطواف، والناسُ يقصدونها من سائر الجهات والأقطار.

وقد يستدل بقوله: ﴿رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ على أن الحج ماشياً لمن قدر عليه أفضل من الحج راكباً؛ لأنه قدَّمهم في الذِّكْر، فدل على الاهتمام بهم، وقوة هممهم، وشدة عزمهم. قال ابن عباس: ما آسى على شيء فاتني، إلا أني وددت أني كنت حججت ماشياً؛ لأن الله يقول: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾[1].

والذي عليه أكثر العلماء أن الحج راكباً أفضل، اقتداءً برسول الله ﷺ، فإنه حجَّ راكباً، مع كمال قوته ﷺ.

وإنما قال: ﴿يَأْتُوكَ﴾ مع أن الإتيان للبيت الحرام، إشارة إلى أنه الداعي والقدوة لهم بعد، وفيه تشريف إبراهيم.

ثم أبان تعالى سبب النداء إلى الحج وحكمته فقال:

﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ أي ادعهم إلى الحج ليحضروا منافع لهم دينية بأن يحظوا برضوان الله، ودنيوية بما يصيبون من منافع البدن والذبائح والتجارات، وما يكون في ذلك الاجتماع العظيم من التعارف. وهذا دليل على جواز الاتجار في الحج.

وليذكروا اسم الله أي حمده وشكره والثناء عليه بالتكبير والتسبيح، على ما رزقهم من بهيمة الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم، وذلك في أيام معلومات هي أيام النحر الثلاثة أو الأربعة وهو قول الصاحبين ومالك، وقيل: عشر

---

(١) رواه ابن سعد وابن أبي شيبة والبيهقي وجماعة عنه.

ذي الحجة وهو رأي أبي حنيفة والشافعي. وإذا كان ذكر اسم الله بمعنى الحمد والشكر فتكون ﴿عَلَىٰ﴾ للتعليل، ورأى الزمخشري أن ذكر اسم الله كناية عن الذبح والنحر؛ لأن أهل الإسلام لا ينفكّون عن ذكر اسمه إذا ذبحوا أو نحروا، وتكون ﴿عَلَىٰ﴾ للاستعلاء. وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي فيما يتقرَّب به إلى الله أن يذكر اسمه. واختير هذا الأسلوب ليشير إلى أن ذكر الله وحده دون شرك هو المقصود الأعظم وتوسيط الرزق للحث على الشكر والتقرب بتلك القربة والتهوين عليهم في الإنفاق.

ثم أمر الله تعالى بالأكل من تلك الذبائح أمر إباحة فقال:

﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ أي فاذكروا اسم الله على الذبائح، وكلوا من لحومها، وأطعموا البائس الذي أصابه بؤس أي شدة، الفقير المحتاج.

والأمر بالأكل من الذبائح كما ذكر؛ لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من نسائكهم. قال الزمخشري: ويجوز أن يكون ندباً، لما فيه من مساواة الفقراء ومواساتهم وإظهار التواضع، ومن هنا استحب الفقهاء أن يأكل الموسع من أضحيته مقدار الثلث. وثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه، أمر من كل بَدَنة ببَضْعة (قطعة من اللحم) فتطبخ، فأكل من لحمها، وحسا من مرقها. ومذهب الشافعي أن الأكل مستحب، والإطعام واجب، فإن أطعمها جميعها جاز وأجزأ. وقوله: ﴿فَكُلُوا۟﴾ التفات إليهم بالخطاب ليؤكد لهم إباحة الأكل من تلك الذبائح.

ثم أمر تعالى بالنظافة وإيفاء النذر والطواف، فقال:

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ هذه أوامر بواجبات ثلاثة على سبيل الإيجاب، أي ليزيلوا الأوساخ من على أجسادهم بقص الأظفار وحلق الأشعار ونحوه من الأغسال، وليوفوا

نذورهم التي نذروها تقرباً إلى الله تعالى من أعمال البر، والنذر: كل ما لزم الإنسان أو التزمه، وليطوفوا طواف الركن أو الإفاضة، وقيل: طواف الوداع، بالبيت العتيق أي القديم، فهو أقدم بيت للعبادة.

فقه الحياة أو الأحكام

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً- إن بناء الكعبة المشرفة أو البيت الحرام على يد إبراهيم الخليل عليه السلام بأمر من الله تعالى له هدفان:

الأول - إعلان وحدانية الله تعالى وإظهار التوحيد الخالص من شوائب الشرك.

الثاني - تطهير البيت من جميع الأصنام والأوثان والأقذار وكل مظاهر الكفر والبدع وجميع الأنجاس والدماء، كما قال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾ [الحج: ٢٢/٣٠] .

والأصح أن الخطاب في ذلك وما يأتي لإبراهيم، وليس لمحمد عليهما الصلاة والسلام.

٢ً- قوله: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ إعلام بفرضية الحج. وهذا يدل على أن الحج كان مفروضاً في زمن إبراهيم عليه السلام، فإن كانت الفرضية باقية لم تنسخ في عهد نبي بعده، كانت الأوامر به في شريعتنا مؤكدة لتلك الفرضية. وإن نسخت تلك الفرضية، كان وجوب الحج علينا بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٣/٩٧] . وذلك في عام الوفود في السنة التاسعة.

وأما آية: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ٢/١٩٦] النازلة في السنة

السادسة، فليست صريحة في الإيجاب؛ إذ يحتمل أن المراد وجوب إتمامها بعد الشروع فيهما، فيكون الشروع فيهما ليس واجباً.

وأما إن النبي ﷺ حج حجتين قبل الهجرة فهما نافلتان على ملة أبينا إبراهيم عليه السلام، ثم حج بعد الهجرة حجة الوداع في السنة العاشرة، وهي حجة الإسلام.

وأما إن النبي ﷺ لم يبادر بالحج سنة تسع عام الفرضية؛ لأن الوقت حينئذ كان زمن النسيء (تأخير أزمان الشهور) ولم يكن الزمن الحقيقي قد استقر حتى تعود عشر ذي الحجة إلى مركزها الصحيح من السنة، وقد علم النبي ﷺ أنها ستعود إلى مركزها الحقيقي في السنة العاشرة، فتأخر إليها كي يقع حجه في الوقت الحقيقي الذي فرض الله على الناس الحج فيه. وليس على أبي بكر الذي حج في السنة التاسعة ولا على غيره حرج في حجهم مادام أمر الزمان مختلطاً.

ونداء إبراهيم بالحج على جبل أبي قبيس وإسماع صوته إلى الآفاق معجزة، فالله قادر على إيصال صوت إبراهيم إلى من يشاء في أي مكان. أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت قال: ربّ قد فرغت، فقال: أذّن في الناس بالحج، قال: يا رب، وما يُبلغ صوتي؟ قال: تعال أذِّن، وعلي البلاغ، قال: ربّ كيف أقول؟ قال: قل: «يا أيها الناس، كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق» فسمعه أهل السماء والأرض، ألا ترى أنهم يجيبون من أقصى البلاد، يُلبُّون.

٣- قوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ وعد بإجابة الناس إلى حج البيت ما بين راجل وراكب. وفيه دليل على جواز كل من المشي والركوب إلى الحج، ولا خلاف في ذلك، وإنما الخلاف في الأفضل منهما:

فرأى بعض المالكية أن المشي أفضل، لما فيه من المشقة على النفس،

ولحديث ابن ماجه في سننه عن أبي سعيد الخدري قال: حجَّ النبي ﷺ وأصحابه مشاة من المدينة إلى مكة، ولقول ابن عباس المتقدم.

وذهب جمهور الفقهاء منهم الإمام مالك إلى أن الركوب أفضل، اقتداء بالنبي ﷺ، ولكثرة النفقة، ولتعظيم شعائر الحج بأهبة الركوب. وأما مجرد تقديم ﴿رِجَالًا﴾ على الركبان فلا يدل على الأفضلية، لأن العطف بالواو لا يقتضي الترتيب، ولجواز أن يكون تقديم الرجال على الركبان، للإشارة إلى مسارعة الناس في الامتثال، حتى إن الماشي ليكاد يسبق الراكب.

وترفع الأيدي عند رؤية البيت الحرام في مذهب أحمد وجماعة؛ لما روى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «ترفع الأيدي في سبعة مواطن: افتتاح الصلاة، واستقبال البيت، والصَّفَا والْمَرْوة، والموقفين [(١)]، والجمرتين».

٤ - دلّ قوله: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ على جواز التجارة في الحج؛ قال مجاهد: المنافع: التجارة وما يرضي الله من أمر الدنيا والآخرة. ونص الفقهاء على جواز التجارة للحجاج من غير كراهة إذا لم تكن هي المقصودة من السفر، بدليل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٨] والفضل: التجارة بلا خلاف.

وكلمة ﴿مَنَٰفِعَ﴾ تدل على حكمة الحج، وأنه شرع لما فيه من منافع عظيمة في الدين والدنيا، فمناسك الحج من أعظم مظاهر الخشية والإخلاص لله في الذكر والدعاء والعبادة، وهي تدل على التجرد من مفاتن الدنيا وزينتها، وتبعث على عدم التعلق بشهواتها وزخارفها. كما أنها بواعث على الرحمة والإحسان، والعدل والمساواة، والتعاون، إذ يتعاون الناس في أسفارهم،

(١) موقف عرفات والمشعر الحرام.

ويتراحمون، ويتعارفون في هذا المؤتمر الأكبر، ويكونون متساوين لا فرق بين حاكم ومحكوم، ولا بين غني وفقير. ثم إنه كان وما يزال الحج محققاً لمنافع معيشية لأهل الحجاز.

٥ - يرى المالكية أن ذبح الهدي لا يجوز ليلاً، للآية: ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ لأن الله جعل ظرف النحر هو الأيام لا الليالي. والحق أن اليوم يطلق على النهار، وعلى مجموع النهار والليل. وغير المالكية يرون كراهة الذبح ليلاً، لاحتمال الخطأ فيه بسبب الظلمة.

والأيام المعلومة في رأي الإمام مالك وأبي يوسف ومحمد: هي أيام النحر، وهي العيد واليومان بعده. وفي رأي أبي حنيفة والشافعي: هي عشر ذي الحجة، وهي معلومات؛ لأن شأن المسلمين الحرص على معرفتها.

وأيام النحر عند الحنفية والمالكية ثلاثة أيام: العاشر ويومان بعده، وعند الشافعي: إنها أربعة: العاشر وما بعده. والرأي الأول مروي عن جمع من الصحابة. والثاني بدليل ما روى البيهقي عن جبير بن مطعم أن النبي ﷺ قال: «وكل أيام التشريق ذبح» وهي ثلاثة بعد يوم النحر، لكن الإمام أحمد ضعّف هذا الحديث.

ووقت الذبح يوم النحر في رأي مالك: بعد صلاة الإمام وذبحه، وعند أبي حنيفة: بعد الفراغ من الصلاة دون ذبح، وفي رأي الشافعي: بعد دخول وقت الصلاة ومقدار خطبتين. قال ابن عبد البر: لا أعلم خلافاً بين العلماء في أن من ذبح قبل الصلاة، وكان من أهل المصر أنه غير مُضَحّ، لقوله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم عن البراء بن عازب: «من ذبح قبل الصلاة فتلك شاة لحم».

وأما أهل البوادي ومن لا إمام له: فمشهور مذهب مالك أنه يتحرى ذبح الإمام أو أقرب الأئمة إليه. وقال الحنفية: يجزيهم من بعد الفجر.

٦ - قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ يراد منه الإباحة، مثل قوله: ﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ﴾ [المائدة: ٥/ ٢] وقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجمعة: ٦٢/ ١٠] أو يراد منه الندب والاستحباب، فيستحب للرجل أن يأكل من هَدْيه وأضحيته، وأن يتصدق بالأكثر، مع تجويز الصدقة بالكل وأكل الكل عند المالكية. وذلك خلافاً لما كان عليه أهل الجاهلية من التحرج عن الأكل من الهدايا، فأباح النص الأكل منها أو ندب إليه لقصد مواساة الفقراء.

لكن جواز الأكل من الهدايا ليس عاماً في كل هدي، فإن دم الجزاء لا يجوز لصاحبه الأكل منه اتفاقاً، ودم التطوع يجوز الأكل منه اتفاقاً.

أما دم التمتع والقران: فقال الشافعية: إنه دم جبر، فلا يجوز لصاحبه الأكل منه. ورأى الحنفية أنه دم شكر، فأباحوا لصاحبه الأكل منه، عملاً بظاهر الآية، فإنها رتبت قضاء التفث على الذبح والطواف، ولا دم تترتب عليه هذه الأفعال إلا دم المتعة والقران، فإن سائر الدماء يجوز ذبحها قبل هذه الأفعال وبعدها، فدل ذلك على أن المراد في الآية دم المتعة والقران. وثبت أن النبي ﷺ أكل من البدن التي ساقها في حجة الوداع، وقد كان قارناً على الراجح عندهم. وإذا كان يجوز إطعام الأغنياء منها، جاز لصاحب الذبيحة أن يأكل منها، ولو كان غنياً.

ومشهور مذهب مالك رضي الله عنه أن صاحب الذبيحة لا يأكل من ثلاث من دماء الكفارات: جزاء الصيد، ونذر المساكين، وفدية الأذى، ويأكل مما سوى ذلك إذا بلغ مَحِلَّه، واجباً كان أو تطوعاً. وإذا أكل مما منع منه، يغرم في قول راجح للمالكية قدر ما أكل؛ لأن التعدي إنما وقع على اللحم، وفي قول آخر: يغرم هَدْياً كاملاً.

٧ - قوله تعالى: ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾ ظاهره وجوب إطعام

الفقراء من الهدايا، وبه أخذ الشافعي، وقال أبو حنيفة: إنه مندوب؛ لأنها دماء نُسُك، فتتحقق القربة فيها بإراقة الدم، أما إطعام الفقراء فهو مندوب. ويستحب عند أكثر العلماء أن يتصدق من أضحيته وهديه بالثلث، ويطعم الثلث، ويأكل هو وأهله الثلث. ولم يثبت هذا التقسيم عند مالك. والمسافر في رأي الجمهور يطالب بالأضحية كما يطالب بها الحاضر، لعموم الخطاب بها. ولا يطالب بها عند أبي حنيفة. كما لا يطالب عند مالك من المسافرين الحاج بمنى، فلم ير عليه أضحية.

٨ً - لا يجوز بيع شيء من الهدايا، لاقتصار النص على الأكل والطعام، ولما رواه البخاري ومسلم عن علي رضي الله عنه قال: «أمرني النبي ﷺ أن أقوم على بُدْنه، فقال: اقسم جلودها وجلالَها، ولا تعط الجازر منها شيئاً» فلا يجوز بيع شيء منها بالأولى.

٩ً - قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ دليل على وجوب التحلل الأصغر، وذلك بالحلق أو التقصير.

١٠ً - قوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ يدل على وجوب الوفاء بالنذر وإخراجه إن كان دماً أو هدياً أو غيره، ويدل ذلك على أن النذر لا يجوز أن يأكل منه وفاء بالنذر. وكذلك جزاء الصيد، وفدية الأذى؛ لأن المطلوب أن يأتي به كاملاً من غير نقص لحم ولا غيره، فإن أكل من ذلك، كان عليه هَدْي كامل.

ولا وفاء بنذر المعصية؛ لقوله ﷺ فيما رواه أحمد عن جابر: «لا وفاء لنذر في معصية الله» وقوله فيما رواه الجماعة (أحمد وأصحاب الكتب الستة) عن عائشة: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه».

١١ً - قوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ يدل على لزوم هذا الطواف، والمراد به طواف الإفاضة الذي هو من واجبات الحج. قال الطبري: لا خلاف بين المتأولين في ذلك.

أما القول بأنه طواف الوداع (الصَّدر) فهو بعيد؛ لأن الطواف الذي يلي قضاء التفث إنما هو طواف الإفاضة، فلا مناسبة هنا لطواف الوداع.

وللحج ثلاثة أطواف: طواف القدوم، وطواف الإفاضة، وطواف الوداع. أما طواف القدوم فهو سنة عند الجمهور، وواجب على الأصح عند المالكية، وعكسه طواف الوداع: مستحب عند المالكية، واجب عند الجمهور، وأما طواف الإفاضة فهو فرض وركن لا يتم الحج إلا به بالاتفاق، لقوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

تعظيم حرمات الله وشعائره

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥)﴾

القراءات:

﴿فَتَخْطَفُهُ﴾:

وقرأ نافع (فَتَخَطَّفُهُ).

﴿مَنسَكًا﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (مَنْسِكاً).

الإعراب:

﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي الأمر والشأن ذلك المذكور.

﴿مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ ﴿مِنَ﴾: لتبيين الجنس؛ لأنه أعم في النهي.

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ ﴿حُنَفَآءَ﴾: حال من ضمير ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟﴾ وهو عامله، وكذلك ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾.

﴿مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ القراءة المشهورة جرُّ ﴿ٱلْقُلُوبِ﴾ بالإضافة، وتقرأ برفع ﴿ٱلْقُلُوبِ﴾ بالمصدر؛ لأن ﴿تَقْوَى﴾ مصدر كالدعوى، فيرتفع به مابعده.

البلاغة:

﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ تأكيد بإعادة الفصل بالفعل، ويسمى الإطناب، للعناية بشأن كل منهما على حدة.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ تشبيه تمثيلي؛ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد، وكذا قوله: ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ تشبيه تمثيلي. والعطف فيه إما على قوله: ﴿خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أو على «تخطفه الطير».

﴿وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ جناس ناقص.

المفردات اللغوية:

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمر هكذا، ويستعمل للفصل بين كلامين، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٥٥] ﴿وَمَن يُعَظِّمْ﴾ التعظيم:

العلم بوجوب تكاليف الشرع والعمل بموجبه .﴿حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ جمع حرمة، والحرمة: الأحكام وسائر ما لايحل انتهاكه، عن زيد بن أسلم: الحرمات خمس: الكعبة الحرام، والمسجد الحرام، والبلد الحرام، والشهر الحرام، والمشعر الحرام. وقال المتكلمون: ولا تدخل النوافل في حرمات الله تعالى. ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي فالتعظيم خير ثواباً في الآخرة، للعلم بأنه يجب القيام بمراعاة الحرمات وحفظها.

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ أي أحل أكلها بعد الذبح .﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي إلا المتلو عليكم تحريمه في آية: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٥/٣] وهو ما حرّم منها لعارض كالموت وغيره، فلا تحرموا منها غير ما حرَّمه الله كالبحيرة والسائبة، والاستثناء منقطع، ويجوز أن يكون متصلاً ﴿ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ ﴿مِنَ﴾ للبيان، أي الذي هوالأوثان، كما تجتنب الأنجاس، وهو غاية المبالغة في النهي عن تعظيمها، والتنفير عن عبادتها. والرجس: القذر، أي اجتنبوا عبادة الأوثان.

والأوثان جمع وثن، وسمي الصنم وثناً؛ لأنه ينصب ويركز في مكانه لايبرح عنه، وقد يسمى الصنم تمثالاً إذا كان على صورة الحيوان التي يحيى بها.

﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ أي الشرك بالله في تلبيتكم، أو شهادة الزور، قال ﷺ فيما رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه عن خُرَيم بن فاتِك: «عَدَلَتْ شهادة الزور الإشراك بالله» ثلاث مرات، وتلا هذه الآية. والزور: الكذب والانحراف. وهو تعميم بعد تخصيص، فإن عبادة الأوثان رأس الزور، كأنه لما حث على تعظيم الحرمات، أتبعه بالنهي عن تعظيم الأوثان والافتراء على الله بأنه حكم بذلك.

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ مخلصين لله، مسلمين، عادلين عن كل دين سوى دينه، جمع حنيف: وهو المائل عن الدين الباطل إلى الدين الحق ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ تأكيد

لما قبله. ﴿خَرَّ﴾ سقط. ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ أي تأخذه بسرعة، والخطف: الاختلاس بسرعة. ﴿تَهْوِي﴾ تسقط. ﴿سَحِيقٍ﴾ بعيد، أي فهو لايُرجى خلاصه، فإن الشيطان قد طرح به في الضلالة. و﴿أَوْ﴾: للتخيير، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩] أو للتنويع، فإن من المشركين من لا خلاص له أصلاً، ومنهم من يمكن خلاصه بالتوبة، ولكن على بُعْد.

﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي الأمر ذلك المذكور. ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي دين الله أو فرائض الحج ومواضع نسكه، أو الهدايا؛ لأنها من معالم الحج، والشعائر: جمع شعيرة أي علامة، ويراد بها الهدايا، وتعظيمها أن تختار من النوع الحسن السمين الغالي الثمن وسميت شعائر لتعليمها بأنها هدي كالزينة أو الجرح البسيط.

﴿فَإِنَّهَا﴾ أي فإن تعظيم البدن التي تهدى للحرم بأن تستحسن وتستسمن. ﴿مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ أي فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب، فحذفت هذه المضافات. وذكر القلوب؛ لأنها منشأ التقوى والفجور.

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ كركوبها والحمل عليها ما لايضرها. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي وقت نحرها. ﴿مَحِلُّهَآ﴾ أي مكان حل نحرها. ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي عنده، والمراد: الحرم جميعه.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي ولكل أهل دين تقدموا ﴿منسكاً﴾ المراد هنا متعبداً أو قرباناً يتقربون به إلى الله تعالى وهو الذبح تقرباً إلى الله، فهو اسم مكان، والأصل في النسك والمنسك: العبادة مطلقاً، وشاع استعماله في أعمال الحج. ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ عند ذبحها. ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ انقادوا. ﴿ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ المطيعين الخاشعين المتواضعين. ﴿وَجِلَتْ﴾ خافت. ﴿مَآ أَصَابَهُمْ﴾ من البلايا. ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ في أوقاتها. ينفقون يتصدقون.

المناسبة:

الكلام مرتبط بما قبله بنحو واضح، فبعد أن أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام بالنداء للحج، أبان ثواب تعظيم أحكام الله وشرعه ومنها مناسك الحج، وإباحة ذبح الأنعام وأكلها إلا ما استثني تحريمه، ثم أتبعه بالنهي عن تعظيم الأوثان، والافتراء على الله، والكذب في أداء الشهادات، وهلاك من يشرك بالله، ثم أوضح كون تعظيم الشعائر من علائم التقوى ودعائمها، وأن محل نحرها هو الحرم المكي، كما أن لكل أمة أو جماعة مؤمنة ذبائح يتقربون بها إلى الله تعالى.

التفسير والبيان:

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي ذلك هو المأمور به من الطاعات في أداء المناسك وثوابها الجزيل، ومن يعظم أحكام الله بالعلم بوجوبها والعمل بموجبها، بأن يجتنب المعاصي والمحارم، ويلتزم بالأوامر، فله على ذلك ثواب جزيل، والثواب يكون على الأمرين معاً: فعل الطاعات، واجتناب المحظورات أو ترك المحرّمات.

والحرمات: جمع حرمة وهي بمعنى ما حرم الله من كل منهي عنه في الحج من الجدال والجماع والفسوق والصيد، وتعظيمها يكون باجتنابها. وقيل: الحرمات: جميع التكاليف الشرعية في الحج وغيره، وقيل: هي مناسك الحج خاصة، وقيل: إنها حرمات خمس: المسجد الحرام (الكعبة) والبيت الحرام، والمشعر الحرام، والبلد الحرام، والشهر الحرام. وتعظيمها باجتناب المعاصي، ومنها الاعتداءات فيها.

وضمير ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ راجع إلى التعظيم المفهوم من ﴿يُعَظِّمْ﴾ أي أن تعظيم هذه الأشياء سبب للمثوبة المضمونة عند الله تعالى، وعلى هذا لا يكون ﴿خَيْرٌ﴾ أفعل تفضيل.

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي وأبيح لكم أيها الناس ذبح الأنعام وأكلها إلا ما استثني وتلي عليكم في آية المائدة وغيرها، وهو الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به.. الخ ولم يحرم عليكم ما حرمه أهل الجاهلية من البَحيرة والسائبة والوصيلة والحامي. فلا يراد من قوله ﴿يُتْلَىٰ﴾ ما ينزل في المستقبل، كما هو ظاهر الفعل المضارع، بل المراد: ما سبق نزوله، ويكون التعبير بالمضارع للتنبيه على أن ذلك المتلو ينبغي استحضاره والالتفات إليه.

والاستثناء متصل إن أريد من المستثنى: المحرم من خصوص الأنعام، وهو منقطع إن أريد به ما يشمل الدم ولحم الخنزير وغيرهما، والراجح الأول والجملة معترضة لدفع الإيهام بأن تعظيم الحرمات يقضي باجتناب الأنعام، كما قضي باجتناب الصيد في الحرم وفي أداء المناسك في الحج والعمرة.

﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ أي تجنبوا القذر من الأصنام، وسميت رجساً تقبيحاً لها وتنفيراً منها، وابتعدوا عن عبادة الأوثان، فذلك رجس، والمراد من اجتنابها: اجتناب عبادتها وتعظيمها، وتأكيداً للأمر أوقع الاجتناب على ذاتها. والجملة مرتبطة بقوله: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ﴾ أي إذا كان تعظيم حرمات الله فيه الخير ورضا الله تعالى، وكان من تعظيمها اجتناب ما نهى الله عنه، فاجتنبوا الأوثان، ولا تعظموها، ولا تذبحوا لها كما كان يفعل أهل الجاهلية.

﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ، حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ أي وابتعدوا عن الكذب والباطل وشهادة الزور، فذلك كله يدخل تحت عبارة ﴿قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ والأحسن التعميم، حتى يشمل شهادة الزور، أخرج أحمد وأبو داود وغيرهما عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «عدلت شهادة الزور الإشراك بالله» ثلاثاً، وتلا هذه الآية.

وتمسكوا بهذه الأمور حنفاء لله، أي مخلصين له الدين، منحرفين عن الباطل، قصداً إلى الحق، دون إشراك بالله أحداً. والحنيف: المائل عن الديانات الباطلة إلى الدين الحق.

ثم ضرب للمشرك مثلاً في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى بجملة مستأنفة مقررة لوجوب اجتناب الشرك، فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ﴾ أي ومن أشرك مع الله إلهاً آخر، وعبد غيره، فقد خسر خسراناً عظيماً وهلك هلاكاً مبيناً، وهو في شركه شبيه بمن سقط من جو السماء، فتخاطفته الطيور، أي قطعته ومزقته في الهواء، وأخذ كل منها بقطعة منه، فتم هلاكه؛ أي هو كمن عصفت به الريح، فهوت به في مكان بعيد مهلك، لا يكون له منه خلاص ولا نجاة. والغرض من هذين التشبيهين التمثيليين تقبيح حال الشرك والتنفير منه.

ثم ذكر الله تعالى سبب تعظيم الشعائر فقال:

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ أي الأمر ذلك المذكور، ومن يعظم الهدايا (المواشي التي تذبح هدية للحرم) لأنها من معالم الحج، بأن يختارها جسيمة سمينة غالية الثمن، أو من يعظم أوامر الله ومناسك الحج، ومنها تعظيم الهدايا والبُدْن باستسمانها واستحسانها، كما قال ابن عباس، فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب، فحذفت هذه المضافات، ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها، كما ذكر في الكشاف. فقوله: ﴿فَإِنَّهَا﴾ عائد إلى حالة المعظم التي يدل عليها فعل ﴿وَمَن يُعَظِّمْ﴾ أو التعظيمة الواحدة. قال ابن العربي عن الشعائر: والصحيح أنها البدن.

روي أنه ﷺ أهدى مئة بَدَنة، فيها جَمَل لأبي جهل، في أنفه بُرَة من ذهب، أي حَلْقة من ذهب. وروى الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عمر قال: أهدى عمر نجيباً، فأُعطي بها ثلاث مئة دينار، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول

الله، إني أَهْديت نجيباً، فأعطيت بها ثلاث مئة دينار، أفأبيعها وأشتري بثمنها بُدْناً؟ قال: «لا، انحرها إياها». وكان ابن عمر يسوق البُدْن مجلَّلة بالقَبَاطي - ثياب مصرية غالية الثمن - فيتصدق بلحومها وجلالها.

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ أي لكم في البدن منافع دنيوية من لبنها وصوفها وأوبارها وأشعارها وركوبها، إلى أجل مسمى أي إلى أن تُنحر، ويتصدق بلحومها، ويؤكل منها.

ويجوز ركوبها، حتى بعد أن تسمى بدناً أو هدياً؛ لما ثبت في الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة قال: «اركبها» قال: إنها بدنة، قال: «اركبها ويحك» في الثانية أو الثالثة.

﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي ثم مكان حل نحر الهدي، وانتهاؤه عند البيت العتيق وهو الكعبة، أي الحرم جميعه، إذ الحرم كله في حكم البيت الحرام، كما قال تعالى: ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٥/ ٩٥] وقال: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ [الفتح: ٤٨/ ٢٥] . وعلى هذا يكون المعطوف بثم في الآية كلاماً تاماً أريد به بيان المكان الذي تذبح فيه الهدايا بعدما بين حكم تعظيمها والانتفاع بها إلى الأجل المعين.

وسبب تسميته بالبيت العتيق هو كما أخرج البخاري في تاريخه، والترمذي والحاكم وابن جرير وغيرهم عن عبد الله بن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سماه الله البيت العتيق؛ لأنه أعتقه من الجبابرة، فلم يظهر عليه جبار قط».

ثم أخبر الله تعالى عن مشروعية ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله في جميع الملل فقال:

و ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي جعلنا لأهل كل دين سلف ذِبْحاً

يذبحونه تقرباً إلى الله تعالى، وذلك ليس خاصاً بأمة محمد ﷺ وإنما هو في كل الملل. والصحيح كما قال ابن العربي أن المنسك: هو ما يرجع إلى العبادة والتقرب.

﴿لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ أي شرعنا لهم سنة ذبح الأنعام، لكي يذكروا اسم الله حين ذبحها، أي عند الشروع فيه، ويشكروه على نعمه التي أنعم بها عليهم.

ويؤيده ما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: أُتي رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين، فسمَّى وكبَّر، ووضع رِجْلَه على صفاحهما. وروى الإمام أحمد وابن ماجه عن زيد بن أرقم قال: قلت يا رسول الله، ما هذه الأضاحي؟ قال: «سنة أبيكم إبراهيم» قالوا: ما لنا منها؟ قال: «بكل شعرة حسنة» قال: فالصوف؟ قال: «بكل شعرة من الصوف حسنة».

﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ أي فإن معبودكم واحد، وإن تنوعت شرائع الأنبياء، ونسخ بعضها بعضاً، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لاشريك له، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٢٥]. وقوله: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ﴾ بمثابة العلة لما قبله من تخصيص اسمه الكريم بالذكر؛ لأن تفرده تعالى بالألوهية يقتضي ألا يذكر على الذبائح غير اسمه. وإنما قال: ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ ولم يقل: «فإلهكم واحد» لإفادة أنه تعالى واحد في ذاته وفي ألوهيته.

ومتى كان الإله واحداً فله أسلموا أي فيجب تخصيصه بالعبادة، والاستسلام له والانقياد له في جميع الأحكام. وقوله ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ مرتب بالفاء على الحكم بوحدانية الإله.

وبشر أيها النبي بالثواب الجزيل المخبتين، أي المتواضعين الخاشعين لله، من الخبْت وهو المطمئن المنخفض من الأرض. وسر تحول الخطاب للنبي ﷺ هو

إظهار عظمة الألوهية وقهرها في مقام الأمر والنهي للعباد، فلما انتهى أمر التكليف، وجه الخطاب للنبي ﷺ لتبليغه الناس وعد الله للعاملين المخلصين. وأوصافهم أربعة هي ما يأتي:

١ً - الخوف والخشوع عند ذكر الله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي إذا ذكر الله خافت منه قلوبهم.

٢ً - الصبر على المصائب: ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ أي الذين يصبرون على الآلام والمشقات في طاعة الله تعالى.

٣ً - إقامة الصلاة: ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي الذين يؤدون الصلاة في أوقاتها تامة الأركان والشرائط، مع الخشوع لله تعالى.

٤ً - الإنفاق مما رزقهم الله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي وينفقون من بعض ما آتاهم الله من طيب الرزق، على أهليهم وأقاربهم وفقرائهم ومحاويجهم، ويحسنون إلى الخلْق، مع محافظتهم على حدود الله تعالى.

وهذه بخلاف صفات المنافقين، فإنهم بالعكس من هذا كله.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٢] وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٢٣]

فقه الحياة أو الأحكام:

أفادت الآيات الأحكام التالية:

١ً - إن تعظيم حرمات الله أي أفعال الحج وغيرها من امتثال الأوامر

واجتناب النواهي خير عند الله من التهاون بشيء منها، وسبب للمثوبة والتكريم عند الله تعالى، فإن للأوامر حرمة المبادرة إلى الامتثال، وللنواهي حرمة الانكفاف والانزجار.

٢ً - إباحة الأكل من لحوم الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم، إلا المذكور في القرآن من المحرَّمات، وهي الميتة والموقوذة وأخواتها.

٣ً - يجب اجتناب عبادة الأصنام والأوثان، فإنها رجس أي شيء قذر، وهي نجسة نجاسة حكمية. والوَثَن: التمثال من خشب أو حديد أو ذهب أو فضة ونحوها، وكانت العرب تنصِبها وتعبدها. والنصارى تنصِب الصليب وتعبده وتعظمه، فهو كالتمثال أيضاً.

٤ً - ويجب أيضاً اجتناب قول الزور، والزور: الباطل والكذب، وهو يشمل خلط أهل الجاهلية في تلبيتهم وقولهم فيها: لبيك لاشريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، ويشمل أيضاً قولهم في البحائر والسوائب: إنها حرام، وإن تحريمها من الله، وكذلك يشمل شهادة الزور الباطلة.

ففي الآية وعيد على شهادة الزور، ولكن ليس في الآية ما يدل على تعزير شاهد الزور؛ لأنها اقتصرت على تحريم شهادة الزور. وإنما يعزر من قبيل المصلحة والسياسة الشرعية، التي للحاكم أن يسير على نهجها لحفظ الحقوق العامة، وردع أهل الفساد. وهذا رأي المالكية وأبي يوسف ومحمد، جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أكبر الكبائر: الإشراكُ بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور وقول الزور» وكان رسول الله ﷺ متكئاً، فجلس، فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت.

٥ً - يلزم الإخلاص في العبادة لله، والاستقامة على أمره، فقوله: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ معناه مستقيمين أو مسلمين مائلين إلى الحق، تاركين الدين الباطل.

٦ً - المشرك هالك حتماً، خاسر الآخرة، فهو يوم القيامة بمنزلة من لا يملك لنفسه نفعاً، ولا يدفع عن نفسه ضراً ولا عذاباً، فهو بمنزلة من خرَّ من السماء، فهو لا يقدر أن يدفع شيئاً عن نفسه، ونهايته الهلاك إما بأن تقطعه الطيور بمخالبها، أو تعصف به الريح، وتسقطه في مكان قفر بعيد لا نجاة له فيه.

٧ً - إن تعظيم شعائر الله (وهي الأنعام التي تساق هدياً للكعبة، كما روي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما، أو هي جميع مناسك الحج، والصحيح أنها البدن كما قال ابن العربي) من علائم التقوى ودعائمها. وتعظيمها يكون باختيارها سمينة حسنة غالية الأثمان. والتقوى: هي الخشية التي تبعث على اتباع الأوامر واجتناب النواهي. والإخلاص والتقوى والخشية غاية ما يتمنى المرء أن يدركه في هذه الدنيا، ليصل به إلى سعادة الآخرة.

وفي الآية حث على التقوى، وبعث للهمم على الاهتمام بأمرها.

٨ً - يجوز الانتفاع بالبدن بالركوب والحلب وأخذ الصوف وغيرها، إلى وقت الذبح، فقد فسر الشافعية الأجل المسمى في الآية بوقت نحر الهدي. وقالوا: إنما يجوز الانتفاع للحاجة، ولو لم يكن هناك اضطرار. ولا يجوز لغير حاجة، والأولى أن يتصدق بمنافعها، ولكن لا يضمن شيئاً من منافع الهدي إلا إذا أدى الركوب إلى الإنقاص البين لقيمتها، ودليلهم حديث أنس المتقدم المتفق عليه بين أحمد والشيخين: «اركبها ولو كانت بدنة» وحديث جابر فيما رواه أبو داود: «اركبوا الهدي المعروف حتى تجدوا ظهراً».

وفسر الحنفية الأجل المسمى في الآية بوقت تعيينها وتسميتها هدياً. ولا يجوز الانتفاع بها بعد السوق إلا في حالة الاضطرار، ودليلهم ما رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن جابر أنه سئل عن ركوب الهدي، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اركبْها بالمعروف إذا ألجئت إليها حتى تجد ظهراً»

فالجواز خاص بحالة الضرورة، فهو مقيد والمقيد يقضي على المطلق في حديث أنس، فإن لم تكن ضرورة وجب ضمان ما ينتفع به؛ لأنه صار حقاً للفقراء، فعليه أن يعوضهم مقدار قيمته.

والمشهور من مذهب المالكية أنه يكره الانتفاع بالبدن بركوبها ووبرها، ولو كان لبنها فاضلاً عن حاجة أولادها، وهذا قريب من مذهب الحنفية.

وذهب بعض العلماء إلى وجوب ركوب البدنة، لقوله ﷺ: «اركبها». وقد أخذ أحمد وإسحاق وأهل الظاهر بظاهر هذا الحديث. وهذا يغاير فعل النبي ﷺ؛ لأنه لم يركب هديه ولم يركبه غيره.

٩ً - إن شعائر الحج كلها من الوقوف بعرفة ورمي الجمار والسعي ينتهي إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق. وأما ذبح البدن والهدي فلا يصح إلا في الحرم؛ لأنه تعالى جعل محلها إلى البيت العتيق، قال عطاء: ينتهي إلى مكة.

١٠ً - الإخبار بجعل نسك الذبح لكل الأمم فيه تحريك النفوس إلى المسارعة إلى هذا البر، والاهتمام بهذه القربة، وفيه إشعار بأن أهل الجاهلية الذين كانوا يذبحون لأصنامهم، ويخلطون في التسمية على ذبائحهم، إنما كانوا يفعلون ذلك من عند أنفسهم، واتباعاً لمحض شهواتهم وأهوائهم، فإن شرائع الله كلها قد اتفقت على أن التقرب إنما يكون لله وحده، وباسمه وحده؛ إذ ليس للناس إلا إله واحد.

١١ً - الإله الواحد هو الرازق والمشرع والمكلِّف بالتكاليف الدينية، فتجب إطاعته، والانقياد لحكمه، وأن يكون الذبح له، وأن يذكر اسمه عند الذبح، وأن يخلص الذبح له لا لغيره أو مع غيره؛ لأنه رازق ذلك. وظاهر الآية: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ وجوب ذكر اسم الله على الذبيحة، ووجوب اعتقاد أن الله واحد، ووجوب الإسلام بمعنى الإخلاص لله في العمل.

١٢ً - للمخبتين المتواضعين الخاشعين من المؤمنين البشارة بالثواب الجزيل. وأوصافهم في الآية أربعة كما تقدم: وهي الخوف والخشوع عند ذكر الله لقوة يقينهم ومراعاتهم لربهم وكأنهم بين يديه، والصبر على المصائب ومشاق الطاعات، وإقامة الصلاة أهم التكاليف البدنية، والإنفاق مما رزقهم الله من فضله، وهذا يشمل الزكاة المفروضة التي هي أهم التكاليف المالية، وصدقة التطوع.

والخوف عند ذكر الله يحصل عند استحضار وعيد الله وعذابه، وفي حال أخرى يطمئن المؤمن الصادق بوعد الله، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ٢٨] فإذا ذكر وعد الله واستحضر رحمته وسعة عفوه، اطمأن قلبه، وسكن روعه، فلا يكون هناك تعارض بين الآيتين.

ويؤخذ من الآية أن التقوى والخشية والصبر على المكاره، والمحافظة على الصلاة، والرحمة بالفقراء والإحسان إليهم من أعظم موجبات نيل رضا الله تعالى.

التسمية عند ذبح البُدْن والأكل والإطعام منها

﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌۖ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾

الإعراب:

﴿وَٱلْبُدْنَ﴾ منصوب بفعل مقدر، تقديره: وجعلنا البدن، جعلناها لكم

فيها خير. و﴿خَيْرٌ﴾ مرفوع بالظرف ارتفاع الفاعل بفعله، تقديره: كائناً لكم فيها خير. و﴿صَوَآفَّ﴾ حال من هاء وألف ﴿عَلَيْهَا﴾ وهو ممنوع من الصرف؛ لأنه جُمِعَ بعد ألفه حرفان، أي مصطَفَّة.

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا﴾ قرئ ﴿يَنَالَ﴾ بالياء والتاء، فمن قرأ بالتذكير أراد معنى الجمع، ومن قرأ بالتاء بالتأنيث أراد معنى الجماعة، والفصل بين الفعل والفاعل بالمفعول يقوي التذكير ويزيده حسناً.

البلاغة:

﴿ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ بينهما طباق؛ لأن القانع: المتعفف، والمعتر: السائل.

﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ - في الآية السابقة - سجع مستحسن.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱلْبُدْنَ﴾ جمع بَدَنَة، وهي الإبل خاصة، ذكراً أو أنثى، لعظم بدنها، مثل ثمرة وثُمُر وثُمْر، ويشاركها البقرة في الحكم لا في الاسم؛ لقوله ﷺ فيما أخرجه الجماعة عن جابر: «البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة» .﴿شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ أعلام دينه .﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ نفع في الدنيا، وأجر في العقبى، أي لكم فيها منافع دينية ودنيوية .﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ عند نحرها أو ذبحها، بأن تقولوا: الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، اللهم منك وإليك .﴿صَوَآفَّ﴾ قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن، جمع صافّة وقرئ (صوافن) من صفن الفرس: إذا قام على ثلاث وطرف سنبك الرابعة؛ لأن البدنة تعقل إحدى يديها وتقوم على ثلاث. وقرئ أيضاً (صوافياً) بالتنوين و(صوافي) أي خوالص لوجه الله.

﴿وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ سقطت على الأرض بعد النحر، وهو وقت الأكل منها، وهو كناية عن الموت .﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ إن شئتم .﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ أي

المتعفف الذي يقنع بما يُعطى ولا يسأل ولا يتعرض، والمعتر: السائل أو المتعرض. ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾ أي مثل ما وصفنا من نحرها قياماً، سخرناها لكم مع عظمها وقوتها، بأن تنحر وتأخذوها منقادة.

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ أي لا يرفعان إليه. ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ أي يرفع إليه منكم العمل الصالح الخالص له، مع الإيمان. ﴿هَدَىٰكُمْ﴾ أرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه. ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الموحدين المخلصين لله.

سبب النزول:

نزول الآية (٣٧):

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج قال: كان أهل الجاهلية يضمخون البيت بلحوم الإبل ودمائها، فقال أصحاب النبي ﷺ: فنحن أحق أن نضمخ، فأنزل الله: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا﴾ الآية.

المناسبة:

بعد الترغيب والحث على التقرب إلى الله بالأنعام كلها، خص الله تعالى الإبل، لعظمها وكثرة منافعها.

التفسير والبيان:

يمتن الله تعالى على عباده بأن جعل البدن قربة عظيمة تهدى إلى بيته الحرام، بل هي أفضل ما يهدى إليه، فقال:

﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ أي جعلنا لكم الإبل ومثلها البقر من علائم دين الله، وأدلة طاعته، ففي ذبحها في الحرم ثواب كبير في الآخرة، ونفع عظيم بلحومها للفقراء في الدنيا، وبالركوب عليها، وأخذ لبنها.

والبدن تطلق في رأي أبي حنيفة وآخرين من التابعين والصحابة على الإبل والبقر، روى مسلم عن جابر رضي الله عنه أنه قال: كنا ننحر البدنة عن سبعة، فقيل: والبقرة؟ قال: وهل هي إلا من البدن. وقال ابن عمر رضي الله عنهما: لا نعلم البدن إلا من الإبل والبقر.

ومذهب الشافعية: أنه لا تطلق البدن في الحقيقة إلا على الإبل، وإطلاقها على البقر مجاز، فلو نذر بدنة لا تجزئه بقرة، وبدليل قوله تعالى: ﴿صَوَآفَّ﴾ و﴿وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا﴾ فنحر الحيوان قائماً لم يعهد إلا في الإبل خاصة، ويؤيده ما رواه أبو داود وغيره عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة» فإن العطف يقتضي المغايرة. وأما قول جابر وابن عمر المتقدم فيحمل على أنهما أرادا اتحاد الحكم فيهما. وهذا هو الظاهر والأصح لغة.

﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّ﴾ أي فاذكروا اسم الله على البدن عند نحرها وكونها قائمات صافات الأيدي والأرجل، بأن تقولوا: بسم الله والله أكبر، اللهم منك وإليك.

﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّ﴾ أي إذا سقطت على الأرض وزهقت روحها أو ماتت، فيباح لكم الأكل منها، وعليكم الإطعام منها للفقراء، سواء المتعفف عن السؤال، والسائل المتعرض، أي كلوا وأطعموا، وقوله: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ أمر إباحة، وقال مالك: يستحب ذلك، وقال بعض العلماء: يجب، والظاهر أنه لا يجب الأكل منها، فإن السلف متفقون على أنه لا يجب الأكل من شيء من الهدايا، وإنما ذلك لرفع التحرج عن الأكل من الهدايا الذي كان عليه أهل الجاهلية، فالمراد: إباحة الأكل أو الندب.

وأما قوله: ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّ﴾ فظاهره كما تقدم وجوب إطعام

الفقراء من الهدي، وبه أخذ الشافعي، فأوجب إطعام الفقراء منها، وذهب أبو حنيفة إلى أن الإطعام مندوب؛ لأنها دماء نُسُك، فتتحقق القربة منها بإراقة الدم، أما إطعام الفقراء فهو باقٍ على حكمه العام وهو الندب.

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي من أجل هذا المذكور من الخير في ذبح الأنعام والأكل منها وإطعام الفقراء أو مثل هذا التسخير، ذللناها لكم، مع عظمتها وقوتها، وجعلناها منقادة لكم، خاضعة لرغباتكم ومشيئتكم بالركوب والحلب والذبح، لكي تشكروا الله على نعمه، بالتقرب إليه، والإخلاص في العمل.

والخلاصة: أنها نعمة جليلة تستحق الشكر والحمد، فقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تعليل لما قبله. وكلمة «لعل» ليست للرجاء الذي هو توقع الأمر المحبوب؛ لأنه مستحيل على الله تعالى؛ لأنه ينبئ عن الجهل بعواقب الأمور، فتكون للتعليل بمعنى «كي». ونظير الآية قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٧١-٧٣].

ثم ذكر الله تعالى الهدف من ذبح الأنعام فقال:

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ أي إنما شرع الله لكم نحر هذه الهدايا والضحايا، لتذكروه عند ذبحها، ولن يصل إلى الله شيء من لحومها ولا من دمائها، ولكن يصله التقوى والإخلاص، وترفع إليه الأعمال الصالحة. وكان أهل الجاهلية إذا ذبحوها لآلهتهم، وضعوا عليها من لحوم قرابينهم، ونضحوا عليها من دمائها، وأراد المسلمون أن يفعلوا مثلهم، فنزلت الآية: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا﴾

ثم كرر تعالى ذكر تسخير الأنعام وتذليلها للناس؛ لأن في الإعادة تذكيراً

بالنعمة، الذي يبعث على شكرها، والثناء على الله من أجلها، والقيام بما يجب لعظمته وكبريائه، فقال:

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ أي من أجل هذا سخر لكم البدن وذللها، أو هكذا سخرها، لتعظموا الله وتشكروه على ما أرشدكم إليه لدينه وشرعه، وما يحبه ويرضاه، ونهاكم عما يكره، ويأبى مما هو ضارّ غير نافع.

ثم وعد المهديين الراشدين بقوله:

﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي وبشر يا محمد بالجنة المحسنين في عملهم، القائمين بحدود الله، المتبعين ماشرع لهم، الطائعين أوامره، المصدقين رسوله فيما أبلغهم، وجاءهم به من عند ربه عز وجل.

فقه الحياة أو الأحكام:

يؤخذ من الآيات ما يأتي:

أ - يدل الاقتصار على البدن مع جواز نحر الهدي من بقية الأنعام على أن البدن في الهدايا أفضل من غيرها من البقر والغنم، ولقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٥/٢].

وأما إطلاق البدنة على البعير، فمتفق عليه، وأما إطلاقها على البقرة ففيه قولان تقدما: قول لأبي حنيفة أنها تطلق، وقول للشافعي أنها لا تطلق، والأصح أنها لا تطلق عليها لغة، وإنما تطلق عليها شرعاً، بدليل الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن جابر بن عبد الله قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الأضاحي: البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة».

٢ً - يندب نحر الإبل وهي قائمة معقولة إحدى القوائم؛ لقوله تعالى: ﴿صَوَآفَّ﴾ ولا يجوز أن يؤكل منها بعد نحرها حتى تفارقها الحياة.

٣ً - قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّ﴾ أمر، ومقتضاه الوجوب، وقد أخذ بظاهره بعض الأئمة، فأوجبوا التسمية على الذبيحة، والأصح أنها مندوبة، والأمر مُؤَوَّل على الندب، أو على الشكر والثناء.

ولا يجوز نحر الهدايا والأضاحي قبل الفجر من يوم النحر بالإجماع، فإذا طلع الفجر حلَّ النحر بمنى، وليس على الحجاج انتظار نحر إمامهم؛ بخلاف الأضحية في سائر البلاد. والمنحر: مِنى لكل حاج، ومكة لكل معتمر، ولو نحر الحاج بمكة، والمعتمر بمنى لم يكن به بأس.

٤ً - ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ أمر معناه الندب، قال القرطبي: وكل العلماء قالوا: يستحب أن يأكل الإنسان من هديه، وفيه أجر وامتثال؛ إذ كان أهل الجاهلية لا يأكلون من هَدْيهم، كما تقدم.

وقال الشافعي: الأكل مستحب، والإطعام واجب في دماء التطوع، أما واجبات الدماء فلا يجوز أن يأكل منها شيئاً، كما تقدم.

وعلى هذا يكون ظاهر الأمر في الأكل إما الندب وإما الإباحة. وأما ظاهر الأمر في الإطعام فهو إما الوجوب كما قال الشافعي، وإما الندب كما قال أبو حنيفة.

٥ً - يجمع عند الذبح أو النحر بين التسمية، لقوله تعالى في الآية المتقدمة: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا﴾ وبين التكبير، لقوله هنا: ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ﴾. وكان ابن عمر رضي الله عنهما يجمع بينهما إذا نحر هديه، فيقول: بسم الله والله أكبر، وفي الحديث الصحيح عن أنس قال: ضحَّى رسول الله

ﷺ بكبشين أَمْلحين [١] أقرنين، ورأيته يذبحهما بيده، ورأيته واضعاً قدمه على صِفاحهما [٢]، وسمى وكبَّر.

وقد أوجب أبو ثور التسمية، واستحب بقية العلماء ذلك. وكره المالكية الصلاة على النبي ﷺ عند التسمية في الذبح، وقالوا: لا يذكر هنا إلا الله وحده. وأجازها الشافعي عند الذبح.

وذهب الجمهور إلى أن قول المضحي: اللهم تقبل مني، جائز، وكره ذلك أبو حنيفة، ويرد عليه الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها، وفيه: «ثم قال: باسم الله، اللهم تقبل من محمد وآل محمد ومن أمة محمد» ثم ضحّى به. وكره مالك قولهم: اللهم منك وإليك، وقال: هذه بدعة. وأجاز ذلك ابن حبيب من المالكية والحسن البصري، بدليل ما رواه أبو داود عن جابر بن عبد الله: أنه ﷺ قال عند الذبح: «اللهم منك ولك عن محمد وأمته، باسم الله والله أكبر» ثم ذبح. فلعل الإمام مالك لم يبلغه الخبر.

٦ً - لن يصل إلى الله لحوم الذبائح ولا دماؤها، وإنما يصل التقوى من عباده، فيقبله ويرفعه إليه ويسمعه. وقد امتن الله علينا بتذليل الإبل، وتمكيننا من تصريفها، وهي أعظم منا أبداناً، وأقوى أعضاءً، ليعلم العبد أن الأمور ليست على ماتظهر إلى العبد من التدبير. وإنما هي بحسب مايدبرها العزيز القدير، وليعلم الخلق أن الغالب هو الله وحده القاهر فوق عباده.

٧ً - في الآية: ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ دلالة على أن التقوى وشكر الله تعالى والإحسان في العمل لله جل شأنه من أهم المطالب الشرعية التي لا يجوز لأحد إغفالها.

---

(١) الأملح: الذي بياضه أكثر من سواده.

(٢) الصفاح: الجوانب، والمراد: الجانب الواحد من وجه الأضحية، وإنما ثني إشارة إلى أنه فعل ذلك في كل منهما.

ويحسن ذكر حكم الأضحية بإيجاز، ذهب أبو حنيفة والثوري، ومالك في قول ضعيف عنه إلى القول بوجوب الأضحية على من ملك نصاباً، وكان في رأي أبي حنيفة مقيماً غير مسافر؛ لما رواه أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة مرفوعاً: «من وجد سَعَةً، فلم يُضحِّ، فلا يقربنَّ مُصَلانا» [١]، وروى الترمذي عن ابن عمر قال: «أقام رسول الله ﷺ عشر سنين يضحي».

وقال الجمهور، وذلك على المشهور عند المالكية لغير الحاج بمنى: لا تجب الأضحية، بل هي سنة مستحبة؛ لما جاء في الحديث: «ليس في المالِ حقٌّ سوى الزكاةِ» [٢] ولأنه ﷺ ضحى عن أمته، فأسقط ذلك وجوبها عنهم، وقال: «إنها سنةُ أبيكم إبراهيم» وقال أبو سريحة: كنت جاراً لأبي بكر وعمر، فكانا لا يضحيان خشية أن يقتدي الناس بهما. وروى الجماعة إلا البخاري عن أم سلمة: «أن رسول الله ﷺ قال: إذا رأيتم هلال ذي الحجة، وأراد أحدكم أن يضحي، فليمسك عن شعره وأظفاره» ففيه تعليق الأضحية بالإرادة، والتعليق بالإرادة ينافي الوجوب. وروى أحمد والحاكم والدارقطني عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ثلاثٌ هُنَّ علي فرائضُ، وهن لكم تطوعٌ: الوِتْر، والنحرُ، وصلاة الضحى» [٣]. وروى الترمذي: «أمرت بالنحر، وهو لكم سنة».

---

(١) لكن فيه غرابة، واستنكره أحمد بن حنبل.

(٢) رواه ابن ماجه عن فاطمة بنت قيس، وهو ضعيف.

(٣) سكت عنه الحاكم، وفيه راوٍ ضعيف ضعفه النسائي والدارقطني.

دفاع الله عن المؤمنين وأسباب مشروعية القتال

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ (٣٩) ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ (٤١) ﴾

القراءات:

﴿يُدَٰفِعُ﴾ :

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (يَدْفَعُ).

﴿أُذِنَ﴾ : قرئ:

١- (أُذِنَ) وهي قراءة نافع، وأبي عمرو، وعاصم.

٢- (أَذِن) وهي قراءة الباقين.

﴿يُقَٰتَلُونَ﴾ : قرئ:

١- (يُقَاتَلون) وهي قراءة نافع، وابن عامر، وحفص.

٢- (يَقَاتِلون) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿دَفۡعُ﴾ :

وقرأ نافع (دِفاع).

﴿لَّهُدِّمَتْ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير (لَهُدِمَت).

الإعراب:

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ﴾ في موضع جر صفة لقوله ﴿لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ أي أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، الذين أخرجوا. ويكون قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ فصلاً بين الصفة والموصوف، مثل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/٧٦] أي: وإنه لقسم عظيم لو تعلمون.

﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ في موضع نصب؛ لأنه استثناء منقطع، أي لكن لقولهم: ربنا الله.

﴿بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ بدل بعض من الناس.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ﴾ إما في موضع جر، صفة أخرى لقوله: ﴿لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ وإما منصوب على البدل من ﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ وإما مرفوع على أنه خبر مبتدأ مقدر أي هم.

وقوله: ﴿إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ شرط وجزاء، وهما صلة الموصول.

البلاغة:

﴿خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ صيغة مبالغة على وزن فعَّال وفعول.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ فيه حذف لدلالة السياق عليه، أي أُذن بالقتال للذين يقاتلون.

﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ فيه تأكيد المدح بما يشبه الذم، أي لا ذنب لهم إلا هذا، على طريقة قول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

المفردات اللغوية:

﴿يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ أي يبالغ في الدفع مبالغة من يغالب فيه، وقرئ: (يدفع) أي غائلة المشركين. ﴿خَوَّانٍ﴾ في أمانته وأمانة الله أي كثير الخيانة ﴿كَفُورٍ﴾ لنعمته، وهم المشركون، والمعنى: أنه يعاقبهم، وصيغة المبالغة لبيان واقع المشركين.

﴿أُذِنَ﴾ رُخِّص ﴿لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ من قبل المشركين وهم المؤمنون، أي للمؤمنين أن يقاتلوا، والمأذون فيه وهو القتال محذوف لدلالته عليه، وقرئ بالبناء للمعلوم (يقاتِلون) أي عدوهم المشركين. ذكر جماعة من المفسرين: أن هذه أول آية نزلت في الجهاد بعدما نهي عنه في نيف وسبعين آية ﴿بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾ أي بسبب أنهم ظلموا بظلم الكافرين إياهم ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ وعد لهم بالنصر كما وعدهم بدفع أذى الكفار عنهم.

﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ يعني مكة ﴿بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ أي بغير موجب في الإخراج استحقوا به ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ﴾ أي بقولهم ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ وحده، وهذا القول حق، فالإخراج به إخراج بغير حق، ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ﴾ بتسليط المؤمنين منهم على الكافرين ﴿لَّهُدِّمَتۡ﴾ لخربت باستيلاء المشركين على أهل الملل، والقراءة بالتشديد للتكثير، وقرئ بالتخفيف ﴿صَوَٰمِعُ﴾ للرهبان وهي الأديرة، جمع صومعة ﴿وَبِيَعٌ﴾ كنائس للنصارى، جمع بيعة ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ كنائس اليهود، سميت بها؛ لأنها يصلى فيها، وقيل: أصلها: صلوتا بالعبرانية، فعرّبت ﴿وَمَسَٰجِدُ﴾ معابد للمسلمين، جمع مسجد، والأرض كلها جعلت للنبي ﷺ مسجداً، وتربتها طهوراً. ﴿يُذۡكَرُ

﴿فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ يذكر في المواضع الأربعة المذكورة، وتنقطع العبادة بخرابها ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ من ينصر دينه، وقد أنجز وعده، بأن سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم، وأورثهم أرضهم وديارهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ القوي: القادر على كل شيء، ومنه نصرهم، والعزيز: المنيع في سلطانه وقدرته، لا يغلبه غالب.

﴿إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بنصرهم على عدوهم ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي إليه مرجعها في الآخرة.

سبب النزول:

نزول الآية (٣٨):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ﴾: رُوي أنها نزلت بسبب المؤمنين لما كثروا بمكة، وآذاهم الكفار، وهاجر من هاجر إلى أرض الحبشة، وأراد بعض مؤمني مكة أن يقتل من أمكنه من الكفار، ويغتال ويغدِر ويحتال، فنزلت هذه الآية.

نزول الآية (٣٩):

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ الآية: أخرج أحمد والترمذي وحسنه والنسائي والحاكم وصححه وابن سعد عن ابن عباس قال: خرج النبي ﷺ من مكة، فقال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون! ليهلكُنَّ، فأنزل الله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى أن الكفار صدوا المؤمنين عن دين الله وعن دخول مكة، ثم بيَّن مناسك الحج وما فيه من منافع الدنيا والآخرة، أردف ذلك ببيان ما يزيل الصدّ، ويؤمن معه التمكن من الحج، وهو دفع الله غائلة المشركين،

والإذن بالقتال مع إيضاح الحكمة منه وأسباب مشروعيته، كالدفاع عن المقدسات، وحماية المستضعفين، وتمكين المؤمنين من عبادة الله تعالى.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي إن الله يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه، شر الأشرار، وكيد الفجار، ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم على أعدائهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٤٠/٥١] وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٦٥/٣] وقوله: ﴿يُدَٰفِعُ﴾ صيغة مفاعلة إما للمبالغة في الدفع، أو للدلالة على تكرره فقط؛ لأن صيغة المفاعلة تدل على تكرر الفعل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ أي إنه تعالى لا يحب خائن العهد والميثاق والأمانة، جاحد النعم الذي لا يعترف بها، والمراد أن المؤمنين هم أحباء الله، وأن الله سيعاقب أعداءهم، فهو تعليل للوعد وللوعيد؛ لأن نفي المحبة كناية عن البغض الموجب للعقاب. وخيانة الأمانة إما جميع الأمانات، وإما أمانة الله وهي أوامره ونواهيه.

وهذه الآية إما وعيد ضمناً، وبيان عاقبة الصادين عن المسجد الحرام الذين ذكرهم الله قبل آيات الحج، فتكون كلاماً متصلاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾. وإما وعد للمؤمنين الذين تعطشوا إلى رؤية الحرم المقدس بعد منع المشركين لهم، فتكون كلاماً متصلاً بما قبله مباشرة، فإنهم أخرجوا رسول الله من وطنه الذي تعلق قلبه به، حتى إنه نظر إليه حين خروجه من مكة وقال: «والله إنك لأحبُّ أرض الله إلي، وإنك لأحبُّ أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت».

والظاهر أن الآية وعد من الله عز وجل وبشارة للمؤمنين بنصر الله لهم وتمكينهم من عدوهم، وفي ضمنه وعيد شديد، وتهديد للمشركين بقهرهم وخذلانهم، وفيه تمهيد وتوطئة لمشروعية الجهاد.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ أي رُخِّص للمؤمنين المعتدى عليهم بالقتال بسبب ظلم المشركين إياهم، بإخراجهم من ديارهم وأموالهم، وإيذاء بعضهم بالضرب والشج، فكانوا يأتون النبي ﷺ بين مضروب ومشجوج في رأسه، ويشتكون إليه، فيأمرهم بالصبر، ويقول لهم: «إني لم أومر بقتالهم» حتى هاجر فنزلت هذه الآية في السنة الثانية من الهجرة.

وهي في رأي كثير من السلف كابن عباس وعائشة ومجاهد والضحاك وعروة بن الزبير وزيد بن أسلم ومقاتل وقتادة والزهري: أول آية نزلت في القتال بعد ما نهي عنه في نيف وسبعين آية، وهو الظاهر، ويؤيده سبب النزول المتقدم ذكره، وذكرت الآية بعد الوعد بالمدافعة والنصر.

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية: أول آية نزلت في القتال: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٠].

وفي الإكليل للحاكم: إن أول آية نزلت فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ٩/ ١١١].

فعلى القول الأول للأكثرين: يكون المقصود بالآية: ﴿أُذِنَ﴾ إباحة القتال ومشروعيته، والمأذون فيه هو القتال حقيقة، وحذف لدلالة السياق عليه، والمراد بهم المهاجرون، بدليل وصفهم بالإخراج من الديار بغير حق.

وعلى القول الثاني لبعضهم: يكون المراد حكاية الإذن الحاصل من قبل توطئة لبيان أسباب المشروعية.

وعلى قراءة المبني للمجهول ﴿يُقَـٰتَلُونَ﴾ يكون وصفهم بالقتال الواقع

عليهم فعلاً على حقيقته، سواء قيل: إنها أول آية نزلت في القتال أم لا؛ لأن قتال المشركين واضطهادهم لهم، كان حاصلاً على كل حال.

وعلى قراءة المبني للمعلوم (يقاتِلون) إذا قيل: إنها ليست أول آية نزلت في القتال يكون وصفهم بالقتال على حقيقته أيضاً، وأما إذا قيل: إنها أول آية نزلت في الجهاد فيكون وصفهم بالقتال إما على معنى أو على تقدير: إرادة القتال، أي يريدون قتال المشركين ويحرصون عليه، وإما على إرادة استحضار ما يكون منهم في المستقبل، أي ما سيعدون أنفسهم عليه من لقاء المشركين.

وعلى كل حال يكون المراد بالآية بيان سبب الإذن في القتال وهو دفع الظلم والإيذاء، فإن المشركين آذوا رسول الله ﷺ بأشد أنواع الإيذاء الأدبية والجسدية، فإنهم اتهموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون، ووضعوا التراب على رأسه، وألقوا سلا جزور على كتفيه وهو ساجد بين يدي ربه، وأغرت ثقيف سفهاءهم حتى رموه بالحجارة وأدموه واختضب نعلاه بالدم. وآذوا أيضاً أتباعه وأنصاره فعذبوهم بالضرب والجلد، والقتل، والإلقاء في حر الشمس في بطحاء مكة، ووضعوا الحجارة على صدورهم، وحاولوا فتنتهم عن دينهم، فلم يزدهم التعذيب إلا إصراراً على التمسك بعقيدتهم، فلا يصدر عنهم إلا القول: أحد أحد.

ولستُ أبالي حين أُقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

ثم وعد الله تعالى هؤلاء المعذبين المستضعفين بالنصر فقال:

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ أي إن الله وحده هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكنه يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته، وهو حينئذ معهم يؤيدهم بنصره، وقد فعل، فأعزهم وأهلك أعداءهم. هذا رأي ابن كثير [1]. ويكون المقصود تنبيه المسلمين إلى أن الدنيا دار ابتلاء واختبار،

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٢٥

وأنهم مدعوون للجهاد والكفاح، وإثبات الكفاءة والذات، وأن الجزاء مرتبط بالعمل. وذهب كثير من المفسرين إلى أن هذا وعد بالنصر، وتأكيد للوعد في الآية المتقدمة بالدفاع عن المؤمنين، وتصريح بأن الوعد السابق لا يراد منه مجرد تخليصهم من أيدي أعدائهم، بل نصرهم عليهم.

وإنما تأخر تشريع القتال إلى ما بعد الهجرة وإلى الوقت المناسب؛ لأن المؤمنين في مكة كانوا قلة، وكان المشركون أكثر عدداً، فلو أمر المسلمون - وهم أقل من العُشْر - بقتال المشركين، لشق عليهم.

ثم وصف الله تعالى حال هؤلاء المؤمنين بقوله:

﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ أي إن هؤلاء المؤمنين المعتدى عليهم هم الذين أخرجهم المشركون من مكة إلى المدينة بغير حق، وهم محمد ﷺ وأصحابه، وما كان لهم من إساءة إلى قومهم، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم عبدوا الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ﴾ [الممتحنة: ١/٦٠] وقال سبحانه في قصة أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨﴾ [البروج: ٨/٨٥].

هذا أول أسباب المشروعية وهو الطرد من الأوطان بغير حق، ثم ذكر تعالى سبباً آخر وهو الدفاع عن حرية العبادة في الأرض، وحماية الأماكن المقدسة، فقال:

﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لَّهُدِّمَتۡ﴾ هذه هي سنة التدافع من أجل الحفاظ على التوازن بين البشر، والقتال مشروع لحماية أماكن العبادة، وإقرار مبدأ حرية العبادة. والمعنى: لولا أنه تعالى يدفع بقوم عن قوم، ويكفّ شرور أناس من غيرهم، ولولا تشريع القتال دفاعاً عن الوجود والحرمات، لهدّمت مواطن العبادة، سواء كانت معابد للرهبان أو للنصارى أو لليهود أو للمسلمين، التي يذكر فيها اسم الله ذكراً كثيراً.

ويلاحظ وجود التنقل في بيان مواضع العبادة من الأقل إلى الأكثر، ومن الأضيق إلى الأوسع، فإن المساجد أكثر ارتياداً، وأصح عبادة وأسلم قصداً. وكذلك قدمت الصوامع والبيع في الكلام على المساجد؛ لأنها أقدم وجوداً. قال بعض العلماء: هذا ترقٍّ من الأقل إلى الأكثر إلى أن انتهى إلى المساجد، وهي أكثر عُمَّاراً، وأكثر عُبَّاداً، وهم ذوو القصد الصحيح (١).

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي وليؤيدنَّ الله بنصره الذين يقاتلون في سبيل إعلاء كلمة التوحيد ورفع لواء دينه، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨﴾ [محمد: ٤٧/٧-٨].

وهذا إخبار من الله عز وجل عن مغيبات المستقبل وعما ستكون عليه سيرة المهاجرين رضي الله عنهم إن مكنهم في الأرض، وبسط لهم في الدنيا، وكيف يقومون بأمر الدين (٢).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي إن الله هو القوي القادر على نصر أهل طاعته المجاهدين في سبيله، وهو المنيع الذي لا يقهر، ولا يغلبه غالب، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ۝١٧٣﴾ [الصافات: ٣٧/١٧١-١٧٣]. وقوله سبحانه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ۝٢١﴾ [المجادلة: ٥٨/٢١].

ثم وصف الله تعالى المهاجرين المؤمنين الجديرين بالنصر فقال:

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي إن هؤلاء المهاجرين الذين بوأهم الله السلطة على الناس، وأعطاهم النفوذ بين العالم إن مكنهم من

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/٢٢٦

(٢) الكشاف: ٢/٣٥٠

الأرض وأعطاهم السلطة، فإنهم يأتون بالأمور الأربعة: وهي إقامة الصلاة المفروضة على الوجه الأكمل، وإيتاء الزكاة الواجبة، والأمر بالمعروف (وهو ما أمر به شرعاً وحسن عقلاً) والنهي عن المنكر (وهو ما حظر شرعاً وقبح عقلاً) فدعوا إلى توحيد الله وإطاعته، ونهوا عن الشرك وقاوموا أهله. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٢٤/٥٥] .

﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي إن مرجع الأمور إلى حكمه تعالى وتقديره في الثواب والعقاب على ما عملوا، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ٧/١٢٨] وفيه تأكيد لما وعد تعالى من نصر أوليائه وإعلاء كلمتهم.

فمن تأمل النصر على الأعداء من اليهود وغيرهم، فليعمل بهذه الأوصاف الأربعة التي التزمها المهاجرون والمجاهدون الأولون.

ومجمل الآيات أنه إنما أحللت لهم القتال؛ لأنهم ظُلموا، ولم يكن لهم ذنب مع الناس إلا أن يعبدوا الله، وأنهم إذا ظهروا في الأرض أقاموا الصلاة.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات الكريمات إلى غرر الأحكام التالية:

١ً - وعد الله سبحانه وتعالى في الآية الأولى بالمدافعة عن المؤمنين، وبحفظهم وصونهم من شر الأشرار وكيد الفجار، وبنصرهم على أعدائهم، ثم نهى نهياً صريحاً عن الخيانة والغدر وكفران النعم.

٢ً - أباح الله تعالى القتال لمن يصلح له لدفع أذى الكفار واعتدائهم، ودفاعاً عن النفس وحق الحياة العزيزة الكريمة. قال الضحّاك: استأذن أصحاب رسول الله ﷺ في قتال الكفار إذ آذوهم بمكة، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾، فلما هاجر نزلت: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ

ظُلِمُواْ﴾ وهذا - كما يقول العلماء القدامى - ناسخ لكل مافي القرآن من إعراض وترك وصَفْح، وهي أول آية نزلت في القتال.

وكانت قريش قد اضطهدت المسلمين حتى فتنوهم عن دينهم، ونفَوهم عن بلادهم، فهم بين مفتون في دينه، ومعذَّب، وبين هارب في البلاد مغرَّب، فمنهم من فرَّ إلى أرض الحبشة، ومنهم من خرج إلى المدينة، ومنهم من صبر على الأذى [(١)]. والخلاصة: لقد أُذنوا بالقتال بسبب كونهم مظلومين، وكان مشركو مكة يؤذونهم أذىً شديداً، وكانوا يأتون رسول الله ﷺ من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه، فيقول لهم: اصبروا، فإني لم أومر بقتال، حتى هاجر، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعدما نهى عنه في نيف وسبعين آية [(٢)].

وفي هذه الآية دليل على أن الإباحة من الشرع، خلافاً للمعتزلة؛ لأن قوله: ﴿أُذِنَ﴾ معناه أبيح، وهو لفظ موضوع في اللغة لإباحة كل ممنوع.

٣ - إن من مظاهر ظلم المشركين للمؤمنين هو إخراجهم من أوطانهم، لا لشيء، لكن لقولهم: ربنا الله وحده، فإن أهل الأوثان أخرجوهم من ديارهم بتوحيدهم.

وفي هذه الآية دليل على جواز نسبة الفعل الموجود من الملْجَأ المكْرَه إلى الذي ألجأه وأكرهه؛ لأن الله تعالى نسب الإخراج إلى الكفار، كما في آية: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [التوبة: ٩/ ٤٠] .

٤ - ومن أسباب مشروعية القتال: الدفاع عن الحرمات وأماكن العبادات، فلولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي: ٣/ ١٢٨٥

(٢) تفسير الرازي: ٢٣/ ٣٩

لاستولى أهل الشرك على نواصي الأمور، وأشاعوا الفوضى، ودمروا مواضع العبادات، وتغلبوا على الحق في كل أمة.

وهذا يدل على أن الجهاد أمر قديم في الأمم، وبه صلحت الشرائع، وارتفعت به راية التوحيد، وظهرت بوادر الصلاح، ونواة التقدم والحضارة، وأرسيت معالم حرية الدين، وبرزت معالم الأخلاق القويمة والتهذيب البشري.

٥ً - تضمنت هذه الآية المنع من هدم كنائس أهل الذمة وبِيَعهم وبيوت نيرانهم، لكن لا يُتركون أن يُحدثوا ما لم يكن، ولا يزيدون في البنيان لا سعة ولا ارتفاعاً، ولا ينبغي للمسلمين أن يدخلوها ولا يصلوا فيها، ومتى أحدثوا زيادة وجب نقضها. وجاز أن ينقض المسجد ليعاد بنيانه؛ وقد فعله عثمان رضي الله عنه بمسجد النبي ﷺ.

٦ً - إن الله تعالى القوي القادر، العزيز المنيع الجليل الشريف ينصر في حكمه وشرعه من ينصر دينه ونبيه، والله لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، بل كل شيء ذليل لديه، فقير إليه، ومن كان القوي العزيز ناصره فهو المنصور، وعدوه هو المقهور.

٧ً - إن المسلمين في جهادهم دعاة بناء ومجد وحضارة، وإصلاح وتقويم، فهم إن كانت السلطة لهم في الدنيا لازموا أوصافاً أربعة: هي إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف الذي هو خير، والنهي عن المنكر الذي هو شر محض.

قال سهيل بن عبد الله: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على السلطان وعلى العلماء الذين يأتونه. وليس على الناس أن يأمروا السلطان؛ لأن ذلك لازم له، واجب عليه، ولا يأمروا العلماء، فإن الحجة قد وجبت عليهم.

٨ - في قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ دلالة على أن الذي تقدم ذكره من سلطنتهم وملكهم كائن لا محالة، وأن الأمور ترجع إلى الله تعالى بالعاقبة، فإنه سبحانه هو الذي لا يزول ملكه أبداً.

الاعتبار بهلاك الأمم السابقة

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ﴿٤٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾

القراءات:

﴿فَكَأَيِّن﴾:

وقرأ ابن كثير (فكائِن).

﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾:

وقرأ أبو عمرو (أهلكتُها).

﴿وَبِئۡرٖ﴾:

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (وبير).

﴿تَعُدُّونَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وخلف (يَعُدُّون).

الإعراب:

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾: الكاف في موضع نصب بفعل مقدر يفسره الظاهر، وتقديره: وكأين من قرية أهلكناها، وهذا إذا جعلت ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ خبراً. فإن جعلتها صفة لـ ﴿قَرْيَةٍ﴾ لم يجز أن تكون مفسرة لفعل مقدر؛ لأن الصفة لا تعمل فيما قبل الموصوف.

﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ معطوف بالجر على قوله ﴿قَرْيَةٍ﴾ وتقديره: وكم من بئر معطلة، وقيل: هو معطوف على ﴿عُرُوشِهَا﴾.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ تسلية له ﷺ بأن قومه إن كذبوه فهو ليس وحده منفرداً في التكذيب، فإن هؤلاء قد كذبوا رسلهم قبل قومه. ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ تأنيث قوم باعتبار المعنى. ﴿وَعَادٌ﴾ قوم هود. ﴿وَثَمُودُ﴾ قوم صالح. ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ قوم شعيب. ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ كذبه القبط، لا قومه بنو إسرائيل، لذا غيِّر فيه النظم، وبُني الفعل للمفعول؛ لأن قومه لم يكذبوه، وإنما كذبه القبط، ولأن تكذيبه كان أشنع. ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أمهلتهم بتأخير العقاب لهم. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بالعذاب أي أهلكتهم. ﴿نَكِيرِ﴾ إنكاري عليهم، بتغيير النعمة محنة، والحياة هلاكاً، والعمارة خراباً. والاستفهام بـ ﴿فَكَيْفَ﴾ للتقرير، أي هو واقع موقعه، ويراد به التعجب.

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي كم من قرية أهلكتها، أي بإهلاك أهلها. ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي أهلها بكفرهم. ﴿خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة. ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ سقوفها، أي ساقطة حيطانها على سقوفها أو خالية. ﴿وَبِئْرٍ

مُّعَطَّلَةٍ﴾ أي وكم من بئر معطلة، أي متروكة بموت أهلها عطفاً على ﴿قَرْيَةٍ﴾ .﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ رفيع أي مرفوع خالٍ، بموت أهله، أو مجصص مبني بالشِّيد أي الجصّ، أخليناه عن ساكنيه، وذلك يقوي أن معنى ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ خالية مع بقاء عروشها.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي كفار مكة، وهو حثّ لهم أن يسافروا، ليروا مصارع المهلكين، فيعتبروا. ﴿يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ أي يدركون ما يجب أن يعقل، وما حصل لهم من الاستبصار والاستدلال بما نزل بالمكذبين قبلهم .﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ما يجب أن يسمع من الوحي، والتذكير بحال من يشاهد آثارهم .﴿فَإِنَّهَا﴾ الضمير عائد للقصة أو مبهم يفسره الإبصار، أي أن الضمير ضمير الشأن والقصة، وهو يجيء مذكراً ومؤنثاً .﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي تعمى عن الاعتبار، أي ليس الخلل في مشاعرهم، وإنما في سوء استعمال عقولهم باتباع الهوى والانهماك في التقليد. وذكر الصدور للتأكيد.

قال ابن عباس ومقاتل: لما نزلت: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ﴾ قال ابن أم مكتوم: يا رسول الله، أنا في الدنيا أعمى، أفأكون في الآخرة أعمى؟ فنزلت: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ المتوعد به .﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ بإنزال العذاب، لامتناع الخلف في خبره، فيصيبهم ما أوعدهم به ولو بعد حين، ولكنه صبور لا يعجل بالعقوبة .﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ﴾ من أيام الآخرة بسبب العذاب .﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ في الدنيا، وهو بيان لتناهي صبره وتأنيه.

نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث، لقوله: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٧٠] وقيل: نزلت في أبي جهل بن هشام، لقوله:

﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٢].

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي من أهل قرية، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه في الإعراب. ﴿أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ أمهلتها كما أمهلتكم. ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ مثلكم. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب أي أخذت أهلها. ﴿الْمَصِيرُ﴾ المرجع، أي وإلى حكمي مرجع الجميع.

المناسبة:

بعد أن بين الله تعالى أن المشركين الكفار أخرجوا المؤمنين من ديارهم بغير حق، وأذن في مقاتلتهم، وضمن للرسول والمؤمنين النصرة عليهم، أردفه بما يجري مجرى التسلية للرسول ﷺ في الصبر على ما هم عليه من إيذائه وإيذاء المؤمنين بالتكذيب وغيره، ممن خالفه من قومه.

التفسير والبيان:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ أي إن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون، فلست فريداً في هذا ولا بدعاً من الرسل، وإنما هي سنة الأمم الغابرة، فقد كذبت قبلهم قوم نوح، وعاد قوم هود، وثمود قوم صالح، وقوم إبراهيم ولوط، وأصحاب مدين قوم شعيب، وكذب القبط الذين أرسل إليهم موسى، مع ما جاءهم به أنبياؤهم من الآيات البينات والدلائل الواضحات، فأنظرت العذاب عن الكافرين وأخرتهم إلى الوقت المعلوم عندي، ثم أخذتهم بالعذاب والعقوبة وأهلكتهم، فانظر كيف كان إنكاري عليهم بتدميرهم ومعاقبتي لهم؟!

ويلاحظ أنه لم يقل: وقوم موسى؛ لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل، وإنما كذبه غير قومه وهم القبط، وفرعون وقومه.

وما جرى على المثيل يجري على مثيله، فإني سأفعل بالمكذبين من قومك مثلما فعلت بأمثالهم، وإن أمهلتهم، فإني منجز وعدي فيهم: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [البروج: ٨٥/١٢] فلا تتعجل العذاب.

ذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه: أنا ربكم الأعلى، وبين إهلاك الله أربعون سنة. وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله ليُملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

هذه هي سنة التكذيب، وأما العقاب فهو كما قال تعالى:

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ أي كم من قرية أهلكتها، وهي ظالمة أي مكذبة لرسلها، والمراد أهلها، فأصبحت ديارهم ساقطة حيطانها على سقوفها، أي قد خربت منازلها، وتعطلت حواضرها، أو أصبحت خالية من أهلها مع بقاء عروشها على حالها وسلامتها.

وكم من بئر معطلة أي لا يستقى منها، ولا يردها أحد بعد كثرة وارديها، والازدحام عليها، وكم من قصر مشيد دمّر أو بقي بعد فناء أهله؟! والمشيد: المجصص: المبيض بالجص، أو المرفوع البنيان.

والمعنى الإجمالي للآية: كم قرية أهلكناها، وكم بئر عطلناها عن سقاتها، وقصر مشيد أخليناه عن ساكنيه، فترك ذلك، لدلالة ﴿مُّعَطَّلَةٍ﴾ عليه؟! وذلك كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ [الأنبياء: ٢١/١١].

ثم لفت أنظارهم إلى ضرورة العبرة بما حدث وشاهدوا فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ هذا حثّ على السفر، والاتعاظ بالفكر، والتأمل بالبصيرة، أي هلا يسافر هؤلاء في البلاد، فيتأملوا بما حدث من مصارع القوم، وينظروا بأعينهم ما وقع، ويشاهدوا آثارهم، ويفكروا بعقولهم في النتائج، ويسمعوا الأخبار بآذانهم، ليقفوا على الحقائق ويطلعوا على الأسباب، ويدركوا الأسرار، فيعتبروا بما شاهدوا ورأوا، ويقلعوا عما هم فيه من شرك وتكذيب لرسول الله، وينيبوا إلى ربهم الذي خلقهم، وأقام لهم الأدلة والبراهين في الكون على وجوده ووحدانيته.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي ولكنهم لم يفكروا ولم يعتبروا ولم ينظروا، لا لأنهم قوم عُمْي البصر، وإنما هم عُمْي البصائر، فليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، وإن كانت أبصارهم سليمة، فإنهم عطلوا قدراتهم الفكرية وعقولهم، فلم يتفحصوا حقائق الأمور، ولم ينفذوا إلى العبر.

ذكر الرازي أن الآية تدل على أن العقل هو العلم، وأن محل العلم هو القلب؛ لأن المقصود من قوله: ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ العلم، وقوله: ﴿يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ كالدلالة على أن القلب آلة لهذا التعقل [١]. وأضاف العقل إلى القلب؛ لأنه محله، كما أن السمع محله الأذن.

وبعد أن أبان تعالى ما هم عليه من التكذيب، ذكر أنهم قوم طائشون، حمقى، يستهزئون بحلول العذاب، فقال:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ أي يتعجل وقوعَ العذاب الذي تنذرهم به هؤلاء

(١) تفسير الرازي: ٢٣/ ٤٥

الكفار الملحدون المكذبون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢/٨] وقال سبحانه: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦/٣٨].

﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ أي والعذاب آتٍ حالّ لا بد منه، فإن الله لا يخلف وعده الذي وعدهم به، وهو إقامة الساعة، والانتقام من أعدائه، والإكرام لأوليائه، وما وَعَدَه إياهم ليصيبنهم ولو بعد حين.

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي إن الله تعالى حليم لا يعجل، ومن حلمه واستقصاره المدد الطوال أن يوماً واحداً عنده كألف سنة مما تعدون، أي إن يوماً من أيام العذاب عند ربك، التي تحل بهم في الآخرة يعادل لشدة عذابه ألف سنة من أيام الدنيا، فأين هم من عذاب ربك؟ وإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه، لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لا يفوته شيء، وإن أجّل وأنظر وأملى.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ [السجدة: ٥/٣٢].

والخلاصة: أنهم لو عرفوا حال عذاب الآخرة، وأنه بهذا الوصف لما استعجلوه، فاقتضت حكمته الإمهال.

وتأكيداً للإنظار والإمهال، وإن طال الأمد، قال تعالى:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ أي وكثيراً من القرى أملى الله لها، وأخّر عنها العذاب وإهلاكها، مع أنها مستمرة في ظلمها وهو الكفر والمعصية، فاغتروا بذلك التأخير، ثم أخذتها بأن أنزلت العذاب بها، أي بأهلها، فتأخير العذاب من باب الإمهال، لا

الإهمال، كما جاء في الحديث الصحيح: «إن الله ليُملي للظالم، حتى إذا أَخَذَه، لم يُفْلِتْه».

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - إن نجاح النبي محمد ﷺ في رسالته متوقف أولاً على الصبر على أذى قومه، لذا علمه ربه دروس الصبر، فكانت هذه الآيات تسلية له وتعزية، فقد كان قبله أنبياء كذِّبوا، ذكر الله سبعة منهم، فصبروا إلى أن أهلك الله المكذبين، فما عليه إلا أن يقتدي بهم ويصبر.

٢ً - من حكمته تعالى وحلمه أنه كان يؤخر العقوبة عن أولئك الكفار المكذبين رسلهم، الملحدين الجاحدين ربهم، ثم يعاقبهم، فتكون عقوبتهم عبرة للمعتبر، مدعاة للنظر والتأمل: كيف كان تغييره ما كانوا فيه من النعم بالعذاب والهلاك.

وكذلك يفعل بالمكذبين من قريش؛ إذ ما جرى على النظير يجري على نظيره عقلاً وعادة وعدلاً.

٣ً - تدل هذه الآية ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ على أنه سبحانه يفعل بقوم النبي ﷺ كل ما فعل بالأقوام الآخرين الغابرين إلا عذاب الاستئصال، فإنه لا يفعله بقوم محمد ﷺ، وإن كان قد مكّنهم من قتل أعدائهم وثبّتهم.

قال الحسن البصري: السبب في تأخر عذاب الاستئصال عن هذه الأمة أن ذلك العذاب مشروط بأمرين:

أحدهما - أن عند الله حداً من الكفر من بلغه عذّبه، ومن لم يبلغه لم يعذبه.

والثاني - أن الله لا يعذب قوماً حتى يعلم أن أحداً منهم لا يؤمن. فأما إذا

حصل الشرطان: وهو أن يبلغوا ذلك الحد من الكفر، ويعلم الله أن أحداً منهم لا يؤمن، فحينئذ يأمر الأنبياء، فيدعون على أممهم، فيستجيب الله دعاءهم، فيعذبهم بعذاب الاستئصال، وهو المراد من قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ أي من إجابة القوم، وقوله لنوح: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾. وإذا عذبهم فإنه ينجي المؤمنين؛ لقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ أي بالعذاب، نجينا هوداً [١].

٤ - كثير من أهل القرى أهلكهم الله، حال استمرارهم على الظلم وهو الكفر، فتصبح بيوتهم خاوية على عروشها، أي ساقطة أو خالية من أهلها، كما تصبح آبارهم معطلة عن واردها وسقاتها، وقصورهم المرفوعة البنيان خربة أو خالية من سكانها، فتحل الوحشة محل الأنس، والإقفار بعد العمران.

وفي ذلك موعظة وعبرة وتذكرة، وتحذير من مغبَّة المعصية، وسوء عاقبة المخالفة لأوامر الله تعالى ونواهيه.

٥ - قوله: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ حثّ واضح على الاعتبار بآثار الأمم البائدة التي أهلكها الله بكفرها وظلمها، فإذا اعتبر الناس بذلك كانوا منتفعين بحق بحواسهم وإدراكاتهم وعقولهم، وإن لم يعتبروا كانوا معطلين لتلك الطاقات والنعم، فاستحقوا العقاب.

ومن كان في الدنيا أعمى بقلبه عن الإسلام، فهو في الآخرة في النار.

٦ - لو عرف الناس حال عذاب الآخرة، وأن يوم العذاب فيه لشدته كألف سنة من سني الدنيا، لما استعجلوه، فإن الله لا يخلف وعده في إنزال

---

(١) تفسير الرازي: ٢٣/٤٣

العذاب، قال الزجاج: استعجلوا العذاب فأعلمهم الله أنه لا يفوته شيء، وقد نزل بهم في الدنيا يوم بدر.

وقال عكرمة: أعلمهم الله إذا استعجلوا بالعذاب في أيام قصيرة، أنه يأتيهم به في أيام طويلة.

وقال الفرّاء: هذا وعيد لهم بامتداد عذابهم في الآخرة.

والخلاصة: أن الآية ردّ على المشركين الذين استعجلوا العذاب تكذيباً واستهزاء، لعدم إيمانهم بيوم القيامة، وإعلام قاطع بوقوع العذاب.

٧ً - كثير من أهل القرى أمهلهم الله تعالى مع عتوهم، ثم أخذهم بالعذاب، وإلى الله المصير، أي إليه المرجع والمآب في الحكم والقضاء.

تحديد مهمة النبي ﷺ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾

القراءات:

﴿مُعَٰجِزِينَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (مُعَجِّزِين).

البلاغة:

يوجد مقابلة بين ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وبين ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أهل مكة وغيرهم. ﴿نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ بيّن الإنذار: وهو التخويف، وأنا أيضاً بشير المؤمنين، واقتصر على الإنذار مع عموم الخطاب بقوله: ﴿لَكُمْ﴾ ومع ذكر الفريقين: المؤمنين والكافرين؛ لأن صدر الكلام ومساقه للمشركين. وإنما ذكر المؤمنين وثوابهم زيادة في غيظ أعدائهم المشركين.

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لما بدر منهم من الذنوب. ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هو الجنة، والكريم من كل نوع: ما يجمع فضائله. ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾ القرآن بالرد والإبطال والطعن بأنها سحر وشعر وأساطير. ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ أي مسابقين مغالبين لنا أي يظنون أن يفوتونا بإنكار البعث والعقاب، وقرئ (مُعَجِّزِيْنَ) أي مثبطين غيرهم عن الإيمان. ﴿الْجَحِيمِ﴾ النار الموقدة.

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى استعجال المشركين العذاب تكذيباً له واستهزاء به؛ لأنهم لا يؤمنون بيوم القيامة، أردف ذلك بإيضاح وظيفة الرسول ﷺ وهي الإنذار والتخويف، وأنه بعث للإنذار، فاستهزاؤهم بذلك لا يمنعه منه.

التفسير والبيان:

يأمر الله تعالى نبيه ﷺ بأن يقول للكفار حين طلبوا منه وقوع العذاب واستعجلوه به: يا أيها المشركون المستعجلون مجيء العذاب إنما أرسلني الله إليكم نذيراً لكم بين يدي عذاب شديد، وليس إلي من حسابكم شيء، بل أمركم إلى الله: إن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء أخره عنكم، وإن شاء تاب على من يتوب إليه، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار، كما قال: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ١٣/٤١].

ومهمتي كما تشمل الإنذار تتضمن التبشير، وهذا مضمون الأمرين:

١ - ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠)﴾ أي فالذين آمنت قلوبهم، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم لهم مغفرة لما سلف من سيئاتهم، وثواب حسن ولو على القليل من حسناتهم، وجنة عرضها السماوات والأرض، فالرزق الكريم هو الجنة التي وصفها الله سبحانه بقوله﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٧١] ووصفها الرسول ﷺ فيما رواه أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

٢ - ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١)﴾ أي والذين جهدوا في إبطال آياتنا، وردّ دعوة الدين، والتكذيب بها، وثبطوا الناس عن متابعة النبي ﷺ، ظناً منهم أنهم يُعجزوننا ويتفلتون من أمرنا وبعثنا لهم وأننا لا نقدر عليهم، فهم أهل النار الحارة الموجعة، الشديد عذابها ونكالها، المقيمون فيها على الدوام، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨)﴾ [النحل: ١٦/٨٨] . وقد شبههم بالصاحب من حيث الدوام.

فقه الحياة أو الأحكام:

يؤخذ من الآيات ما يأتي:

١ً - إن وظيفة الرسول ﷺ هي الإنذار والتبشير، إنذار من عصاه بالنار وتبشير من أطاعه بالجنة.

٢ً - للمؤمنين الذين يعملون الصالحات أي الطاعات والقربات الجنة والمغفرة للذنوب والرضوان.

٣ً - للكافرين المعاندين الظانين ألا بعث وأن الله لا يقدر عليهم النار المستعرة التي يخلدون فيها على الدوام.

إحكام الوحي وصونه عن الشياطين
قصة الغرانيق

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾

القراءات:

﴿نَبِيٍّ﴾:

وقرأ نافع (نبيء).

﴿صِرَٰطٍ﴾:

وقرأ قنبل (سراط).

الإعراب:

﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: الضمير في ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ يعود إلى الألف واللام في قوله: ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ﴾. وهذا يدل على أن الألف واللام في حكم الأسماء؛ لأن الحروف لا حظَّ لها في الضمير ألبتة، وتقديره: فويل للذين قست قلوبهم،

ولهذا التقدير عاد الضمير. ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ أي كائن مستقر لله، وهو ناصب للظرف.

البلاغة:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ جناس اشتقاق.

﴿فَيَنسَخُ﴾ ﴿يُحْكِمُ﴾ بينهما طباق. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر، والأصل (وإنهم) قضاء عليهم بالظلم والمعاداة.

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ في قوله ﴿عَقِيمٍ﴾ استعارة، شبه يوم القيامة الذي لا ليل بعده ولا نهار بالمرأة العقيم التي لا تلد، لانقضاء الزمان، بعكس ما قبله من الأيام التي تعقبها الليالي، فهي بمنزلة الولدان لليالي.

المفردات اللغوية:

﴿رَّسُولٍ﴾ هو نبي أمر بالتبليغ، أو في الأصح من بعثه الله بشريعة مجددة يدعو الناس إليها، والنبي: أعم من الرسول، فهو من لم يؤمر بالتبليغ، أو في الأصح من بعثه الله بتقرير شرع سابق، كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهم السلام، ولذلك شبه النبي ﷺ علماء أمته بهم، ويدل عليه أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن الأنبياء فقال: مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، قيل: فكم الرسل منهم؟ قال: ثلاث مئة وثلاثة عشر جماً غفيراً.

﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ قرأ ﴿أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ قراءته، وألقى الشيطان ما ليس من المقروء الموحى به مما يرضاه المرسل إليهم ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ﴾ يبطل ويزيل ﴿يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يثبتها ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال الناس وبإلقاء الشيطان ما ذكر ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله بهم، فإنه يفعل ما يشاء.

﴿فِتْنَةً﴾ أي محنة وابتلاء واختباراً ﴿مَّرَضٌ﴾ شك ونفاق ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ هم الكفار الذي قست قلوبهم عن قبول الحق ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ عداوة شديدة وبعد عن الحق، وخلاف طويل مع النبي ﷺ والمؤمنين.

﴿الْعِلْمَ﴾ التوحيد والقرآن أو أهل العلم المجردون عن التعصب والعناد ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أن القرآن هو الحق النازل من عند الله ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي بالقرآن أو بالله ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ تطمئن أو تنقاد وتخشى وتخضع ﴿صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو الطريق القويم وهو دين الإسلام، أو النظر الصحيح الذي يوصلهم إلى الحق.

﴿مِرْيَةٍ﴾ شك ﴿مِّنْهُ﴾ أي القرآن ﴿السَّاعَةُ﴾ القيامة أو الموت، أو أشراط الساعة ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ يوم منفرد عن سائر الأيام لشدته، والمراد به يوم حرب يقتلون فيه، كيوم بدر؛ لأن أولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كالعُقُم، أو لأنه لا خير فيه كالريح العقيم التي لا تأتي بخير، أو هو يوم القيامة لا ليل بعده.

﴿الْمُلْكُ﴾ السلطان والتصرف ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة، والتنوين فيه ينوب عن الجملة التي دلت عليها الغاية، أي يوم تزول مريتهم ﴿لِّلَّهِ﴾ وحده ﴿يَحْكُمُ﴾ يقضي بين الكافرين والمؤمنين ﴿مُّهِينٌ﴾ شديد مذل بسبب كفرهم. ويلاحظ أن إدخال الفاء في خبر الذين الثاني: ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ دون الأول: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ تنبيه على أن إثابة المؤمنين بالجنات تفضل من الله تعالى، وأن عقاب الكفار مسبب عن أعمالهم، ولذلك قال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ ولم يقل: في عذاب.

سبب النزول:

ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق، ورجوع كثير من مهاجرة الحبشة

إلى مكة، ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا. وذكروا روايات مختلفة، كلها من طرق مرسلة، وليست مسندة من وجه صحيح كما قال ابن كثير [١].
منها ما رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن جبير: أن النبي ﷺ جلس في نادٍ من أندية قومه، كثير أهله، فتمنى يومئذ ألا يأتيه من الله شيء، فينفروا عنه يومئذ، فأنزل الله عليه: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ فقرأ، حتى إذا بلغ إلى قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠﴾ ألقى الشيطان كلمتين: تلك الغَرَانيق [٢] العُلا، وإن شفاعتهن لترتجى.

فتكلم بها، ثم مضى بقراءة السورة كلها، ثم سجد في آخر السورة، وسجد القوم جميعاً معه، وقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم، فسجد وسجدوا، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ الآية.

ورفع الوليد بن المغيرة تراباً إلى جبهته وسجد عليه، وكان شيخاً كبيراً، فلما أمسى النبي ﷺ أتاه جبريل، فعرض عليه السورة، فلما بلغ الكلمتين قال: ما جئتك بهاتين، فأوحى الله إليه: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝٧٣ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥﴾ [الإسراء: ١٧/٧٣-٧٥] فما زال مغموماً حتى نزلت: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾.

قال ابن العربي وعياض: إن هذه الروايات باطلة لا أصل لها [٣]. وقال

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٢٩

(٢) تلك الغرانيق إما الأصنام وإما إشارة إلى الملائكة أي هم الشفعاء، لا الأصنام؛ لأن الكفار كانوا يعتقدون أن الأوثان والملائكة بنات الله، كما حكى الله عنهم.

(٣) انظر أحكام القرآن لابن العربي: ٣/ ١٢٨٨ - ١٢٩٠، تفسير القرطبي: ١٢/ ٨٢

الرازي [(١)]: أما أهل التحقيق فقد قالوا: هذه الرواية باطلة موضوعة، واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول.

أما القرآن فوجوه منها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٠/١٥] وقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٥٣/٣-٤] وقوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٤٤-٤٦] فلو أنه قرأ عقيب آية النجم المذكورة: تلك الغرانيق العلا، لنسب الكذب إلى الله تعالى في الحال، وذلك لا يقوله مسلم.

وأما السنة: فهي ما روي عن محمد بن إسحاق بن خزيمة: أنه سئل عن هذه القصة، فقال: هذا وضع من الزنادقة. وقال البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل. وأيضاً: فقد روى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قرأ سورة النجم، وسجد فيها المسلمون والمشركون، والإنس والجن، وليس فيه حديث الغرانيق.

وأما المعقول فمن وجوه: منها: أن من جوز على الرسول ﷺ تعظيم الأوثان، فقد كفر؛ لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه كان في نفي الأوثان.

قال الرازي: وأقوى الوجوه: أنا لو جوزنا ذلك ارتفع الأمان عن شرعه، أي شرع الله، وجوزنا في كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك، ويبطل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٥/٦٧] فإنه لا فرق في العقل بين النقصان عن الوحي وبين الزيادة فيه. فبهذا عرفنا على سبيل الإجمال أن هذه القصة موضوعة.

---

(١) تفسير الرازي: ٢٣/ ٥٠

التفسير والبيان:

تبين من الكلام السابق في سبب النزول أن قصة الغرانيق موضوعة مكذوبة وضعها الزنادقة، لذا يجب تفسير الآيات على نحو آخر، خلافاً لما عليه كثير من المفسرين. ولا خلاف أن إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة، بها وقعت الفتنة، ثم اختلف الناس في صورة هذا الإلقاء، لكن المقطوع به أن النبي ﷺ عملاً بدلالة الآيات السابقة الدالة على عصمته، وأنه لا ينطق عن الهوى أنه لم يجار الشيطان فيما ألقاه، ولم يردد على لسانه ما وسوس به. وأحسن تأويل للآيات كما قال القرطبي: هو أن النبي ﷺ كان كما أمره ربه يرتل القرآن ترتيلاً، ويفصِّل الآي تفصيلاً في قراءته، كما روى الثقات عنه، فيمكن ترصُّد الشيطان لتلك السكتات، ودسّه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات، محاكياً نغمة النبي ﷺ، بحيث يسمعه من دنا إليه من الكفار، فظنّوها من قول النبي ﷺ وأشاعوها، ولم يقدح ذلك عند المسلمين، لحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله، وتحققهم من حال النبي ﷺ في ذمّ الأوثان وعَيْبها ما عُرف عنه [١].

وعلى هذا يكون معنى الآية: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ أي وما أرسلنا يامحمد قبلك رسولاً ولا نبياً إلا إذا قرأ وتلا كلام الله، ألقى الشيطان في قراءته وتلاوته بعض الأقاويل والأباطيل. وقوله ﴿مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ دليل على تغاير الرسول والنبي، والفرق بينهما كما في الكشاف: أن الرسول من الأنبياء من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه، والنبي غير الرسول: من لم ينزل عليه كتاب، وإنما أمر أن يدعو الناس إلى شريعة من قبله. وقد ذكرت في المفردات التعريف المشهور والأصح للرسول والنبي وعدد الرسل والأنبياء.

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ أي فيزيل الله

(١) تفسير القرطبي: ١٢/ ٨٢ - ٨٣

ما وسوس به الشيطان من الكلمات والخرافات التي تعلّق بها بعض الكفار، ثم يجعل آياته محكمة محصَّنة مثبَّتةً، لا تقبل التشويه والتزييف أو الزيادة أو النقصان.

وهذا يشبه محاولات بعض القساوسة اليوم دسّ بعض الأكاذيب والشبهات في مبادئ الإسلام وتعاليمه، وقلب الحقائق، وتزييف الوقائع، وتأويل بعض الآيات على وجه غير صحيح، ثم تتبدد تلك المساعي الخبيثة، وتدحض تلك المفتريات على يد بعض العلماء الأثبات من المسلمين أو من غيرهم، وتدفن تلك الآراء المدسوسة في النشرات والكتب المدرسية وغيرها.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي والله عليم بكل شيء، وبما أوحى إلى نبيه، وبما يكون من الأمور والحوادث، لا تخفى عليه خافية، حكيم في تقديره وخلقه وأمره وأفعاله، له الحكمة التامة، والحجة البالغة، فيجازي المفتري بافترائه، ويظهر الحق للمؤمنين، وتتبدد الظلمة في نفوس المنافقين، وهذا ما أبانه الله تعالى في موقف الفريقين، فقال:

١ - ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أي ليجعل ما يوسوس به الشيطان فتنة أي ابتلاء واختباراً للمنافقين الذين في قلوبهم شك وشرك وكفر ونفاق، وللمشركين أو اليهود المعاندين قساة القلوب، حين فرحوا بإلقاء الشيطان بعض الكلمات، واعتقدوا أنه صحيح من عند الله، وإنما كان من الشيطان.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي وإن هؤلاء الظالمين أنفسهم من المنافقين والكفار لفي مخالفة وعصيان، ومشاقة لله تعالى ولرسوله ﷺ، وعناد بعيد من الحق والصواب.

٢ - ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ أي ولكي يعلم أهل العلم النافع الذين يفرقون به بين

الحق والباطل، والمؤمنون بالله ورسوله أن ما أوحيناه إليك هو الحق الثابت الصحيح من ربك الذي أنزله بعلمه وحفظه، وصانه أن يختلط به غيره، فيصدقوا به وينقادوا له، وتخضع له قلوبهم، وتذل وتخشع له نفوسهم، وتعمل بأحكامه وآدابه وشريعته، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ، لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١/٤١-٤٢].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي وإن الله لمرشد المؤمنين بالله ورسوله إلى طريق قويم في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه بتأويل سليم للمتشابه في الدين، وتفصيل واضح للمجمل منه، وفي الآخرة يهديهم الطريق الصحيح الموصل إلى درجات الجنان، ويصرفهم عن دركات النيران.

ومصير الفريق الأول ما قال تعالى:

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ أي ولا يزال الكفار في شك وريب من هذا القرآن أو من الرسول، فضمير ﴿مِّنْهُ﴾ راجع إلى القرآن أو الرسول ﷺ، أو لا يزال الكفار في ريب منه أي مما ألقى الشيطان في قلوبهم حين قراءة القرآن عليهم، حتى تأتيهم الساعة، أي يوم القيامة أو مقدماتها أو الموت، بغتة أي فجأة من غير أن يشعروا، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم، أي يوم القيامة أو يوم حرب مدمرة كيوم بدر. وجعل الساعة غاية لكفرهم وأنهم يؤمنون عند أشراط الساعة على وجه الإلجاء. وإنما وصف يوم القيامة بالعقيم لأنه لا يأتي بعده ليل، ووصف يوم الحرب بالعقيم لأن أولاد النساء يقتلون فيه، فيصرن كأنهن عقم لم يلدن، أو لأن المقاتلين يقال لهم: أبناء الحرب، فإذا قُتلوا وصف هذا اليوم بأنه عقيم، على سبيل المجاز. قال ابن كثير: القول الأول هو الصحيح، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به، ولهذا قال: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾.

والمراد بالآية أن الكفار ما يزالون على كفرهم لا يؤمنون حتى يهلكوا.
﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي السلطان والتصرف يوم القيامة يوم الجزاء والثواب والعقاب لله الواحد القهار، يقضي بينهم بالحق، وهو الحكم العدل جل شأنه، كما قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: ١/ ٤] وقال عز وجل: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٦].

ونتيجة الحكم تظهر ببيان جزاء كل من الفريقين، فقال تعالى:

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي فالذين آمنت قلوبهم وصدقوا بالله ورسوله وبالقرآن، وعملوا بمقتضى ما علموا من الأعمال الصالحة بإطاعة أوامره تعالى واجتناب نواهيه، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم، لهم جنات النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾ أي والذين كفرت قلوبهم بالحق وجحدته، وكذبوا بالقرآن وبالرسول، وخالفوا الرسل، واستكبروا عن اتباعهم، فأولئك لهم عند ربهم عذاب مذلّ مخزٍ، مقابل استكبارهم عن الحق، وإبائهم النظر في آيات القرآن، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٤٠/ ٦٠] أي صاغرين.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - هذه إيناس أخر من الله تعالى لرسوله ﷺ بعد قوله المتقدم: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ أي فلا تحزن ولا تتألم لما يردده الكفار على لسان الشيطان، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء.

٢ً - الآية تدل على إحكام الوحي وحفظ كتاب الله تعالى وحراسته من أقاويل الشيطان وأباطيله وخرافاته، فإنه إذا ألقى شيئاً من الكلام في ثنايا آيات القرآن الكريم أو حديث النبي ﷺ في نفسه، فيبطل الله ما ألقى الشيطان، ويحكم آياته ويثبتها.

فقوله تعالى ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ و﴿أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ أي قرأ وتلا، وقراءته. وروى البخاري عن ابن عباس في ذلك: إذا حدَّث - أي النبي - ألقى الشيطان في حديثه، فيبطل الله ما يلقي الشيطان. والمعنى: أن النبي ﷺ كان إذا حدّث نفسه، ألقى الشيطان في حديثه على جهة الحيلة، فيقول: لو سألت الله عز وجل أن يغنّمك ليتسع المسلمون؛ ويعلم الله عز وجل أن الصلاح في غير ذلك، فيبطل ما يلقي الشيطان، أي أن المراد حديث النفس. قال النحاس: وهذا من أحسن ما قيل في الآية وأعلاه وأجله.

٣ً - إن في إلقاء الشيطان حكمة وهو أن يجعل فتنة أي ابتلاء واختباراً لفئتين هما المنافقون والمشركون، وهم الظالمون أنفسهم، والظالمون أي الكافرون لفي خلاف وعصيان ومشاقة لله عز وجل ولرسوله ﷺ.

٤ً - قال الثعلبي في آية ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ﴾: وفي الآية دليل على أن الأنبياء يجوز عليهم السهو والغلط بوسواس الشيطان، أو عند شغل القلب حتى يغلط، ثم يُنَبَّه ويرجع إلى الصحيح؛ وهو معنى قوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾.

ولكن إنما يكون الغلط على حسب ما يغلط أحدنا، فأما ما ينسب إليه من قولهم: تلك الغرانيق العلا، فكذب على النبي ﷺ؛ لأن فيه تعظيم الأصنام، ولا يجوز ذلك على الأنبياء، كما لا يجوز أن يقرأ بعض القرآن، ثم ينشد شعراً، ويقول: غلِطت وظننته قرآناً.

٥ً - وحكمة أخرى لإلقاء الشيطان هي أن يعلم المؤمنون أن الذي أحكم

من آيات القرآن هو الحق الصحيح الثابت من الله، فيؤمنوا به، وتخشع وتسكن قلوبهم، وإن الله يهدي المؤمنين إلى صراط مستقيم، أي يثبِّتهم على الهداية.

٦ً - سيظل الكفار في شك من القرآن أو من الدين؛ وهو الصراط المستقيم، أو من الرسول، أو مما ألقى الشيطان على لسان محمد ﷺ، وهو لم يقله، فيقولون: ما باله ذكر الأصنام بخير، ثم ارتدّ عنها؟ ويستمر الشك إلى وقت مجيء زمن الإيمان القسري أو الملجئ فجأة وهو إما يوم القيامة وإما الموت، وإما يوم الحرب كبدر، وذلك يوم عقيم. وقد تبين لدينا أن الراجح في تفسير اليوم العقيم هو يوم القيامة، قال الضحاك: عذاب يوم لا ليلة له، وهو يوم القيامة. قال الرازي: وهذا القول أولى؛ لأنه لا يجوز أن يقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ﴾ ويكون المراد يوم بدر؛ لأن من المعلوم أنهم في مرية بعد يوم بدر. ولا يكون هناك تكرار بينه وبين قوله ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ لأن الساعة من مقدمات القيامة، واليوم العقيم هو ذلك اليوم نفسه، كما أن في الأول ذكر الساعة، وفي الثاني ذكر عذاب ذلك اليوم. ويحتمل أن يكون المراد بالساعة: وقت موت كل أحد، وبعذاب يوم عقيم: القيامة [١].

٧ً - الملك والسلطان لله وحده يوم القيامة، دون منازع، فهو الذي يقضي بالمجازاة بين العباد، ويكون قرار حكمه أن المؤمنين الذين يعملون الصالحات في جنات النعيم، وأن الكافرين المكذبين بآيات القرآن في عذاب مهين. وقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ من أقوى ما يدل على أن اليوم العقيم هو يوم القيامة.

---

(١) تفسير الرازي: ٥٦/٢٣

وعده الكريم بالنصر والجنة للمهاجرين المقاتلين دفاعاً عن النفس

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠)﴾

القراءات:

﴿قُتِلُوا﴾:

وقرأ ابن عامر (قُتِّلُوا).

﴿لَهُوَ﴾:

وقرأ قالون، وأبو عمرو، والكسائي (لَهْو).

﴿مُّدْخَلًا﴾:

وقرأ نافع (مَدْخلاً).

الإعراب:

﴿وَمَنْ عَاقَبَ﴾: ﴿وَمَنْ﴾: مبتدأ مرفوع، بمعنى الذي، وصلته: ﴿عَاقَبَ﴾ وخبره: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾. وليست ﴿وَمَنْ﴾ ههنا شرطية؛ لأنه لا لام فيها، كما في قوله تعالى: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨].

المفردات اللغوية:

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي تركوا أوطانهم في طاعة الله من مكة إلى المدينة. ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ في الجهاد. ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ هو الجنة. ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أفضل المعطين، فإنه يرزق بغير حساب.

﴿مُدْخَلًا﴾ أي إدخالاً، أو موضعاً يدخلونه ويرضونه وهو الجنة. ﴿لَعَلِيمٌ﴾ بنياتهم وبأحوالهم. ﴿حَلِيمٌ﴾ عن عقابهم، فلا يعاجلهم في العقوبة.

﴿ذَلِكَ﴾ أي الأمر ذلك، أو ذلك الذي قصصناه عليك. ﴿وَمَنْ عَاقَبَ﴾ جازى من المؤمنين. أي جازى الظالم بمثل ظلمه. ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ ظلماً من المشركين، أي قاتلهم كما قاتلوه في الشهر الحرام، ولم يزد في الاقتصاص. وإنما سمي الابتداء بالعقاب الذي هو الجزاء عقاباً للازدواج والمشاكلة، أو لأنه سببه. ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ منهم، أي ظلم بإخراجه من منزله. ﴿لَعَفُوٌّ﴾ عن المؤمنين. ﴿غَفُورٌ﴾ لهم عن قتالهم في الشهر الحرام. وفيه تعريض بالحث على العفو والمغفرة، فإنه تعالى مع كمال قدرته يعفو ويغفر، فغيره بذلك أولى، وفيه أيضاً تنبيه على أنه قادر على العقوبة؛ إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده.

سبب النزول:

نزول الآية (٦٠):

﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ﴾: أخرج ابن أبي حاتم وابن جرير عن مقاتل أنها نزلت في سرية بعثها النبي ﷺ، فلقوا المشركين لليلتين من المحرم، فقال المشركون بعضهم لبعض: قاتلوا أصحاب محمد، فإنهم يحرمون القتال في الشهر الحرام، فناشدهم الصحابة، وذكروهم بالله أن لا يتعرضوا لقتالهم،

فإنهم لا يستحلون القتال في الشهر الحرام، فأبى المشركون ذلك، وقاتلوهم، وبغوا عليهم، فقاتلهم المسلمون، ونصروا عليهم، فنزلت هذه الآية.

وروى مجاهد أيضاً أنها نزلت في طوائف خرجوا من مكة إلى المدينة للهجرة، فتبعهم المشركون فقاتلوهم.

وظاهر الكلام للعموم.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى أن الملك له يوم القيامة، وأنه يحكم بين عباده المؤمنين والكافرين، وأنه يدخل المؤمنين الجنات، أتبعه بذكر وعده الكريم للمهاجرين المجاهدين، وأفردهم بالذكر تفخيماً لشأنهم. ثم ذكر وعداً كريماً آخر لمن قاتل مبغياً عليه دفاعاً عن نفسه، بأن اضطر إلى الهجرة ومفارقة الوطن، وابتدئ بالقتال.

التفسير والبيان:

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾﴾ أي والذين خرجوا مهاجرين في سبيل الله، وتركوا أوطانهم وديارهم ابتغاء مرضاة الله، وطلباً لما عنده، ثم قتلوا في الجهاد، أو ماتوا حتف أنفهم من غير قتال على فرشهم، فقد حصلوا على الأجر الجزيل، والثناء الجميل، وليمنحنهم الله الجنة، وليرزقنهم من فضله منها، إن الله خير المعطين الرازقين، يعطي من يشاء بغير حساب، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٤/ ١٠٠] .

وهذا الرزق الحسن كما قال تعالى:

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ أي ليدخلن هؤلاء المهاجرين المجاهدين في سبيله موضعاً كريماً يرضونه وهو الجنة، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/٨٨-٨٩] أي يحصل له الراحة والرزق وجنة النعيم. وإن الله لعليم بمن يهاجر ويجاهد في سبيله، وبمن يستحق ذلك، فهو عليم بالنيات والمقاصد والأحوال، وحليم أي يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب بهجرتهم إليه وتوكلهم عليه، ولا يعاجل هؤلاء المكذبين بالعقوبة، ليترك لهم الفرصة للتوبة والإنابة والإيمان بالله تعالى.

﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ﴾ أي ذلك الأمر الذي قصصنا عليك من إنجاز الوعد للمهاجرين الذين قتلوا أو ماتوا، ومن قوتل ظلماً، وجازى من المؤمنين من اعتدى عليه من المشركين، ثم بُغي عليه بإلجائه إلى الهجرة ومفارقة الوطن، وابتدائه بالقتال، لينصرنه الله نصراً مؤزراً، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي إن الله ليصفح عن المؤمنين ويغفر لهم خطأهم إذا تركوا ما هو الأجدر بهم وهو العفو والمغفرة عن المسيء. وفيه حث على العفو عن الجاني، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٤٢/٤٣] وقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [الشورى: ٤٢/٤٠] وقال: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ﴾ [البقرة: ٢/٢٣٧] وفيه دلالة على أنه سبحانه بذكر العفو والمغفرة قادر على العقوبة؛ لأنه لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده، كما بينا.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على مزية صنفين من الناس: المهاجرين، والمقاتلين دفاعاً عن أنفسهم.

أما المهاجرون: فهم الذين تركوا ديارهم وأوطانهم وأموالهم، وفارقوا

مكة إلى المدينة، حباً في طاعة الله تعالى، وابتغاء رضوانه، فلهم من الله الفضل العظيم، والعطاء العميم، والرزق الحسن وهو الجنة، سواء قتلوا في الجهاد أو ماتوا من غير قتال. وأكد تعالى ذلك بقوله: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ أي الجنان. والله عليم بنياتهم، حليم عن عقابهم.

أما من قتل في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فإنه شهيد حي عند ربه يرزق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٩] .

وأما من توفي في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر فقد تضمنت هذه الآية الكريمة إجراء الرزق عليه، وعظيم إحسان الله إليه.

روي عن أنس أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المقتول في سبيل الله، والمتوفى في سبيل الله بغير قتل، هما في الأجر شريكان» [1].

وأما المقاتلون المدافعون عن أنفسهم: فإن الله وعدهم بالنصر في الدنيا، لبغي الكفار عليهم، وإن الله عفا عن المؤمنين ذنوبهم وقتالهم في الشهر الحرام، وستر ذلك عليهم.

وسمي جزاء العقوبة عقوبة في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ لاستواء الفعلين في الصورة، مثل: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤٠] ومثل: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٤] .

---

(١) روى النسائي حديثاً في معناه عن العرباض بن سارية.

من دلائل قدرة الله تعالى

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ٦٣ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٦٥ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦﴾

القراءات:

﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر (وأن ما تَدعون).

﴿لَرَءُوفٞ﴾:

وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وخلف (لرؤف).

الإعراب:

﴿فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ تصبح: مرفوع لا منصوب، محمول على معنى ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ ومعناه: انتبه يا ابن آدم! أنزل الله من السماء ماء، ولو صرح بقوله: انتبه، لم يجز فيه إلا الرفع، فكذلك ما هو بمعناه.

البلاغة:

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم﴾ الآية: امتنان بتعداد النعم، والاستفهام للتقرير.

﴿يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بينهما طباق.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ صيغة مبالغة أي مبالغ في الجحود.

المفردات اللغوية:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ﴾ أي ذلك النصر بسبب أنه قادر على أن يدخل كلاً من الليل والنهار في الآخر، بأن يزيد به، وقادر على تغليب بعض الأمور على بعض. ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ يسمع أقوال عباده المؤمنين والكفار، بصير بما يصدر عنهم من أفعال.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي ذلك الوصف بكمال القدرة والعلم، والنصر أيضاً، بسبب أن الله هو الثابت في نفسه، الواجب لذاته وحده، فإن وجوب وجوده، ووحدته يقتضيان أن يكون مبدأ لكل ما يوجد سواه، عالماً بذاته وبما عداه، أو الثابت الألوهية، ولا يصلح لها إلا من كان قادراً عالماً. ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ إلهاً من الأصنام. ﴿هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ الزائل، المعدوم في حد ذاته، أو باطل الألوهية. ﴿ٱلْعَلِيُّ﴾ العالي على الأشياء بقدرته. ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ عن أن يكون له شريك، ولا شيء أعلى منه شأناً، وأكبر منه سلطاناً، وهو الذي يصغر كل شيء سواه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي ألم تعلم أن الله أنزل مطراً من السماء وهو استفهام تقرير، ولذلك رفع ﴿فَتُصْبِحُ﴾ عطف على ﴿أَنزَلَ﴾ إذ لو نصب جواباً للاستفهام، لدل على نفي الاخضرار، كما في قولك: ألم تر أني جئتك فتكرمني، فإن نصبت فأنت نافٍ لتكريمه، وإن رفعته فأنت مثبت للتكريم، والمقصود إثباته. وإنما عدل بـ (تصبح) المضارع عن صيغة الماضي، للدلالة على بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان. ﴿لَطِيفٌ﴾ بعباده يصل علمه أو لطفه إلى كل ما جل ودق ومنه إخراج النبات. ﴿خَبِيرٌ﴾ بالتدابير الظاهرة والباطنة، وبما في قلوب العباد، ومنه قلقهم عند تأخير المطر.

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ خلقاً وملكاً. ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ في ذاته عن كل شيء. ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ المستوجب للحمد بصفاته وأفعاله.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ألم تعلم أن الله جعل جميع ما في الأرض مذللة لكم، معدَّة لمنافعكم. ﴿وَٱلۡفُلۡكَ﴾ السفن. عطف على ﴿مَّا﴾ أو على اسم ﴿أَنَّ﴾. ﴿تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ للركوب والحمل، والجملة: حال من ﴿وَٱلۡفُلۡكَ﴾، أو خبر. ﴿وَٱلۡفُلۡكُ﴾ على قراءة الرفع على الابتداء. ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾ بإذنه. ﴿أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ من أن تقع أو لئلا تقع، بأن خلقها على صورة متينة مستمسكة. ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ﴾ أي إلا بمشيئته، وذلك يوم القيامة، وفيه رد على القول باستمساكها بذاتها. ﴿رَّحِيمٌ﴾ بتسخير ما في الأرض، وإمساك السماء، والتهيئة لعباده أسباب الاستدلال، وفتح أبواب المنافع عليهم، ودفع أنواع المضارّ عنهم.

﴿أَحۡيَاكُمۡ﴾ بالإنشاء بعد أن كنتم جماداً: عناصر ونطفاً. ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾ عند انتهاء آجالكم. ﴿ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ﴾ في الآخرة عند البعث. ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ﴾ لجحود للنعم مع ظهورها، تارك توحيد الله تعالى.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى عظيم قدرته على تحقيق النصر للمؤمنين، أتى بأنواع من الدلائل على قدرته البالغة، من إيلاج الليل في النهار وبالعكس وخلقه لهما وتصرفه فيهما وعلمه بما يجري فيهما، وإنزال المطر لإنبات النبات، وخلقه السماوات والأرض وملكه لهما، وتسخيره ما في الأرض والفلك، وإمساك السماء من الوقوع على الأرض، والإحياء والإماتة ثم الإحياء.

التفسير والبيان:

أورد الله تعالى في هذه الآيات أنواعاً من الدلائل على قدرته البالغة وعلمه

الشامل، ومن كان قادراً على كل شيء، عالماً بكل شيء، كان قادراً على النصر، فقال:

أ - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ أي ذلك النصر المذكور بسبب أنه قادر على كل شيء، فهو يولج ويدخل الليل في النهار ويولج ويدخل النهار في الليل، بمعنى زيادة أحدهما على حساب الآخر، فيزيد في أحدهما من الساعات ما ينقص من الآخر، فتارة يطول الليل ويقصر النهار كما في الشتاء، وتارة يطول النهار ويقصر الليل كما في الصيف، فالقادر على ذلك قادر قطعاً على نصرة المظلوم، وإثابة الطائع، ومجازاة العاصي.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي وذلك بسبب أن الله سميع لكل دعاء أو قول، بصير بكل عمل أو حال، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وهذا يعني أن الله تعالى هو الخالق المتصرف في خلقه بما يشاء، الحاكم الذي لا معقب لحكمه، كما قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران: ٣/٢٦-٢٧].

وعلة هذه القدرة الفائقة ما قال:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي ذلك الوصف المتقدم من القدرة الكاملة والعلم التام لله تعالى لأجل أن الله هو الحق، أي الموجود الثابت الواجب لذاته، بلا مثيل ولا شريك، بمعنى أنه هو مصدر الوجود، وأنه الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له؛ لأنه ذو السلطان العظيم، وكل شيء فقير إليه، ذليل لديه، وأن ما يعبدون من دونه

من الآلهة من الأصنام والأنداد والأوثان، وكل ما عبد من غير الله هو باطل، لا يقدر على صنع شيء، ولا يملك ضراً ولا نفعاً؛ لأنه عاجز ضعيف، ومصنوع مخلوق لربه القادر.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي ولأن الله تعالى المتعالي على كل شيء بقدرته وعظمته، الكبير عن أن يكون له شريك، إذ هو العظيم الذي لا أعظم منه، العلي الذي لاشيء أعلى منه شأناً، الكبير الذي لا أكبر منه، ولا أعز ولا أكبر منه سلطاناً، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥] وقال: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ١٣/ ٩] .

والمقصود: كيف يصح لعبدة الأصنام وأمثالها عبادة من لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً، ويتركون عبادةَ من بيده كل شيء، وهو القادر على كل شيء؟!

٢ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أي ألم تعلم أيها المخاطب أن الله يرسل الرياح، فتثير سحاباً، فيمطر على الأرض الجرُز التي لا نبات فيها، وهي هامدة يابسة، فتصبح زاهية نضرة، مخضرة بالنباتات والأزهار ذات الألوان البديعة، والأشكال الرائعة، بعد يبسها وجمودها، قال الخليل: المعنى انتبه! أنزل الله من السماء ماء، فكان كذا وكذا. وقوله: ﴿مُخْضَرَّةً﴾ أي ذات خضرة، على وزن مفعلة كمبْقِلة ومُسْبَعة، أي ذات بقل وسباع.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي إن الله رحيم لطيف بعباده، يدبر لهم أمر المعاش، واصل علمه أو فضله إلى كل شيء، عليم بما في أنحاء الأرض من الحب مهما صغر، خبير بمصالح خلقه ومنافعهم وأحوالهم، لا يخفى عليه خافية، فيحقق لهم المصلحة بتدبيره، كما قال تعالى حكاية عن لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي

ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان: ٣١/١٦] وقال سبحانه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ١٠/٦١].

٣ - ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ جميع ما في السماوات وما في الأرض لله سبحانه خلقاً وملكاً وعبيداً، أي جميع الأشياء هي مخلوقة له، مملوكة له، عبيد له، منقادة خاضعة لأمره، متصرف فيها كيف يشاء، وهو غني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، عبد لديه. وهذا دليل آخر على القدرة الإلهية الشاملة.

٤ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ألم تعلم أن الله ذلل لكم أيها البشر جميع ما في ظاهر الأرض وباطنها، من حيوان وجماد ومعدن وزروع وثمار، لينتفع بها الإنسان في مصالحه المختلفة، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ﴾ [الجاثية: ٤٥/١٣] أي من إحسانه وفضله وامتنانه.

﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي وسخر لكم السفن، جارية في البحار، لنقل الركاب والبضائع، بتسخيره وتسييره، متنقلة من بلد إلى بلد، ومن قطر إلى قطر، فيتم تبادل الحوائج والمنافع، ويتعايش الناس متعاونين، يحققون بها ما يحتاجون إليه ويريدون.

﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ أي ويحفظ السماء بما فيها من كواكب ونجوم بالجاذبية، وبتخصيص مدار ثابت خاص لكل منها، بمشيئته وإرادته، ولو شاء لأذن للسماء، فسقطت على الأرض، فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء من أن تقع على الأرض إلا بإذنه وأمره، وذلك يوم القيامة حيث تتساقط الكواكب وتتصدع السماوات، كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾﴾ [الانفطار:

٨٢/١-٢] ولولا هذا النظام الدقيق لاصطدمت الكواكب ببعضها، ودمرت الأرض بما عليها، لذا قال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي إن الله تعالى رؤوف رحيم بالناس على ظلمهم، فمتعهم بجمال السماء والأرض، وأرشدهم إلى الاستدلال بآيات الكون على وجوده ووحدانيته.

٥ً - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي وهو الذي أحياكم من العدم، وخلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً يذكر، ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم وأعماركم، والموت ستر ونعمة، ثم يحييكم بالبعث يوم القيامة. ويلاحظ اختيار الصيغ المناسبة للتعبير، فهو أولاً عبر بالماضي لأنه تم وحدث، ثم أشار إلى المرحلة المرتقبة وهو الموت، ثم الحياة الجديدة في عالم الآخرة.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ أي إن الإنسان جحود نعم الله تعالى، فلم يقدر تلك النعم، ويهتدي بها إلى عبادة الله وتوحيده، وهجر كل ما عداه من الآلهة المزعومة، وهو مثل قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ [العاديات: ١٠٠/٦].

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢/٢٨] وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ﴾ [الجاثية: ٤٥/٢٦].

فقه الحياة أو الأحكام:

موضوع الآيات الاستدلال على كمال قدرته تعالى وكمال علمه، وتلك الأدلة هي ما يأتي:

١ً - من آيات قدرة الله البالغة كونه خالقاً لليل والنهار، ومتصرفاً فيهما،

فوجب أن يكون قادراً عالماً بما يجري فيهما، وإذا كان قادراً عليماً، كان قادراً على نصر من شاء من عباده، يفعل ما يلائم الحكمة والمصلحة، فهو يسمع الأقوال، ويبصر الأفعال، فلا يعزب عنه مثقال ذرّة، ولا دبيب نملة إلا يعلمها ويسمعها ويبصرها.

٢ - ذلك الوصف المتقدم من قدرة الله على هذه الأمور لأجل أن الله هو الحق أي الموجود الواجب لذاته، الذي يمتنع عليه التغير والزوال، فيأتي بالوعد والوعيد. أو أنه ذو الحق، فدينه الحق، وعبادته حق، والمؤمنون بحق يستحقون منه النصر بحكم وعده الحق.

وأما الأصنام فلا استحقاق لها في العبادات، والله هو العالي على كل شيء بقدرته، والعالي عن الأشباه والأنداد، المقدس عما يقول الظالمون من الصفات التي لا تليق بجلاله. وهو الكبير المتعال أي الموصوف بالعظمة والجلال وكِبر الشأن، الكبير عن أن يكون له شريك.

٣ - ومن الأدلة على كمال قدرته إنزال المطر وإنبات النبات ذي الخضرة البديعة، السارّة لكل عين وقلب، ومن قدر على هذا قدر على إعادة الحياة بعد الموت؛ كما قال الله عز وجل: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٢٢/٥].

وقوله ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ عبارة عن استعجالها إثر نزول الماء بالنبات واستمرارها كذلك عادة.

وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ قال ابن عباس: خبير بما ينطوي عليه العبد من القنوط عند تأخير المطر. وهو لطيف بأرزاق عباده.

٤ - لله تعالى جميع ما في السماوات وما في الأرض خلقاً وملكاً وعبيداً، وكلٌّ محتاج إلى تدبيره وإتقانه، وإن الله لهو الغني الحميد، فلا يحتاج إلى شيء، وهو المحمود على كل حال، والكل منقاد له غير ممتنع من التصرف فيه، وهو

غني عن الأشياء كلها، وعن حمد الحامدين أيضاً؛ لأنه كامل لذاته، والكامل لذاته غني عن كل ما عداه في كل الأمور.

٥ - هناك نعم كثيرة من الله على عباده تدل أيضاً على قدرته ورحمته ولطفه، منها أنه سخر (ذلل) لعباده كل ما في الأرض مما يحتاجون إليه من الدواب والشجر والأنهار، كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢/ ٢٩] . وسخر لكم الفلك في حال جريها، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ٣١] وتسخير الفلك: بتسخير الماء والرياح لجريها.

وهو تعالى يمسك السماء لئلا تقع على الأرض، فيهلك الناس، إلا بإذن الله لها بالوقوع أو السقوط، فتقع بإرادته وتخليته، إن الله بالناس لرؤوف رحيم في هذه الأشياء التي سخرها لهم.

٦ - ومن دلائل القدرة الإلهية: الإحياء والإماتة، فالله هو الذي خلقنا بعد أن كنا نطفاً، ثم يميتنا عند انقضاء آجالنا، ثم يحيينا للحساب والثواب والعقاب، ولكن الإنسان لجحود لما ظهر من الآيات الدالة على قدرته ووحدانيته تعالى. قال ابن عباس: يريد الأسود بن عبد الأسد وأبا جهل بن هشام والعاص بن هشام، وجماعة من المشركين. والأولى - كما ذكر الرازي - تعميمه في كل المنكرين، وإنما قال ذلك؛ لأن الغالب على الإنسان كفران النعم، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٣]

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ زجر للإنسان عن الكفران، وبعث له على الشكر.

لكل أمة شريعة ومنهاج ملائمان

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

القراءات:

﴿مَنسَكًا﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (مَنْسِكاً).

البلاغة:

﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾ نهي يراد به النفي، أي لا ينبغي لهم منازعتك، فقد ظهر الحق وقامت أدلته.

المفردات اللغوية:

﴿مَنسَكًا﴾ شريعة ومنهاجاً ومتعبداً ﴿نَاسِكُوهُ﴾ عاملون به ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ أي لا ينبغي لهم أن ينازعوك في أمر الدين، ومنه أمر الذبيحة، إذ قالوا: ما قتل الله أحق أن تأكلوه مما قتلتم؛ لأنهم إما جهال وأهل عناد، أو لأن أمر دينك أظهر من أن يقبل النزاع ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي إلى دينه وتوحيده وعبادته ﴿هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريق إلى الحق سويّ أو دين قويم.

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ في أمر الدين، وقد ظهر الحق، ولزمت الحجة ﴿فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من المجادلة الباطلة وغيرها، فمجازيكم عليها، وهو وعيد فيه رفق.

﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ يفصل بين المؤمنين منكم والكافرين بالثواب والعقاب يوم القيامة، كما فصل في الدنيا بالحجج والآيات ﴿فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين، بأن يقول كل فريق خلاف قول الآخر.

﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾ استفهام تقرير ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ فلا يخفى عليه شيء ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ﴾ أي إن ما ذكر هو في اللوح المحفوظ مسجل فيه قبل حدوثه، فلا يهمنك أمرهم، مع علمنا به، وحفظنا له .﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إن علم ما ذكر والإحاطة به وإثباته في اللوح المحفوظ ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ سهل؛ لأن علمه مقتضى ذاته المتعلق بكل المعلومات على سواء.

سبب النزول:

قيل نزلت هذه الآية بسبب جدال الكفار في أمر الذبائح، وهم كفار خزاعة، قالوا للمسلمين: تأكلون ما ذبحتم، ولا تأكلون ما ذبح الله من الميتة، أو مالكم تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتله الله؟! فكان ما قتل الله أحق أن تأكلوه مما قتلتم أنتم بسكاكينكم، فنزلت الآية بسبب هذه المنازعة.

المناسبة:

بعد أن عدد الله تعالى نعمه، وأبان أنه رؤوف رحيم بعباده، وإن كان منهم من يكفر بالله ولا يشكر النعمة، أتبعه بذكر نعمه بما كَلَّف، فقال: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ﴾ أي لكل أمة شريعة خاصة، وفيه زجر من نازع النبي ﷺ، بتمسكهم بما شرعوا من الشرائع، ثم أمره بالثبات على دينه الحق، فالله يحكم بين العباد يوم المعاد.

التفسير والبيان:

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم منسكاً هم عاملون به، أي شريعة، ومتعبَّداً، ومنهاجاً صالحاً، يتلاءم مع مقتضيات الزمان والمكان، ومع سنة التدرج والتطور ونضوج العقل البشري، فأنزل التوراة على موسى بنحو من الشدة، لعلاج التمسك بالمادة، ثم أنزل الإنجيل متمماً لحكم التوراة مع علاج الروح وإشاعة المحبة، والعناية بجوهر الدين، لا بمجرد المظاهر والشكليات والطقوس، ثم أنزل القرآن حينما نضج العقل البشري، لإرساء معالم دستور الحق، والجمع بين العناية بالمادة والروح، والتركيز على معايير العلم، واستخدام العقل، فكان أول دين يضع أسس الحضارة الإنسانية الشاملة، وكان تشريعه وسطاً بين الشرائع، وكانت هذه الأديان صالحة للزمان الذي جاءت فيه.

﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ أي إذا كان هذا هو شأن التدرج في الشرائع، فلا ينبغي لمعاصريك يا محمد أن ينازعوك في أمر الدين، فلكل أمة شريعة خاصة تناسب الزمان الذي جاءت فيه، ثم جاء هذا القرآن ناسخاً تلك الشرائع التي لم تعد صالحة للعمل بها، وأدت دورها، وكانت مقصورة على أتباعها المتقدمين.

فلا تتأثر يا محمد بمنازعتهم لك، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق، واثبت على دينك ثباتاً لا يتزعزع ولا يلين. والمراد بذلك تهييج حمية الرسول ﷺ، والمبالغة في تثبيته على دينه.

﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي وادع هؤلاء المنازعين وغيرهم، أي ادعُ كل الناس إلى سبيل ربك ودينه الحق، فإنك على طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود، وهو سعادة الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [القصص: ٢٨/ ٨٧] .

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي فإن عدلوا عن هذه الأدلة إلى طريقة المراء والجدال بالباطل، بعد أن ظهر الحق، فقل لهم على سبيل التهديد والوعيد: الله عليم بما تعملون وبما أعمل، ومجازٍ كل واحد بعمله، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ١٠/٤١] وقوله سبحانه: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأحقاف: ٤٦/٨] لأنه ليس بعد إيضاح الأدلة إلا هذا اللون من الوعيد والتحذير، لذا قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أي الله يقضي بين المؤمنين منكم والكافرين يوم القيامة فيما اختلفتم فيه من أمر العقيدة والدين، بالجزاء الحاسم المتردد بين الجنة والنار، والثواب والعقاب، الأول لمن قبل، والثاني لمن رفض، فتعرفون حينئذ الحق من الباطل، والمحق من المبطل.

والخلاصة: إن الآيات آمرة باستمرار الدعوة إلى شرع الله ودينه، وعدم التمييز بين الناس، دون مبالاة بجدل المرائين وعرقلة المتخلفين، فإن الداعي على حق أبلج، كما قال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى: ٤٢/١٥].

ثم أخبر الله تعالى عن كمال علمه بخلقه وعلمه بالكائنات كلها قبل خلقها وبما يستحقه كل من المسيء والمحسن، فقال:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ أي لقد علمت أيها الرسول - والخطاب وإن كان معه، فالمراد سائر الناس - أن علم الله محيط بما في السماوات وما في

الأرض، فلا يعزب عنه مثقال ذرة فيهما، وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ. وكتابة كل ما هو كائن إلى يوم القيامة، وعلمه الشامل، وفصله بين عباده يوم القيامة يسير سهل عليه.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يلي:

١ً - لكل أمة من الأمم المتقدمة شريعة خاصة بها، صالحة لزمانها، أي أنه كانت الشرائع في كل عصر، ومن الخطأ البيِّن التمسك بما كان للأولين من شريعة التوراة والإنجيل؛ لأن القرآن نسخ ما قبله من الشرائع.

٢ً - إن خاصم الناس بالباطل، كمخاصمة مشركي مكة محمداً ﷺ، فليقل المؤمن: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من الكفر والتكذيب، وهذا أمرٌ من الله تعالى لنبيه بالإعراض عن مُماراة قومه، صيانة له عن الاشتغال بتعنتهم، ولا جواب لصاحب العناد، فإنهم إن أبوا إلا المجادلة بعد الاجتهاد بتسوية النزاع، فليدفعوا بأن الله أعلم بأعمالكم وبقبحها، وبما تستحقون عليها من الجزاء، فهو مجازيكم به. وهذا وعيد وإنذار، ولكن برفق ولين.

٣ً - الله تعالى هو الذي يحكم بين النبي ﷺ وقومه، وبين المؤمنين والكافرين فيما يختلفون فيه من أمر الدين، فيعرف حينئذ الحق من الباطل.

قال القرطبي: في هذه الآية أدب حسن علّمه الله عباده في الرد على من جادل تعنتاً ومِراء ألا يجاب ولا يناظر، ويُدفع بهذا القول الذي علمه الله لنبيه ﷺ.

٤ً - على النبي ﷺ والمؤمنين من بعده الدعوة إلى دين الله الحق، فإن هذا الدين طريق واضح مستقيم مؤد إلى المقصود، وعلى كل داعية إلى الله وتوحيده وعبادته ألا يعبأ بالعثرات، وألا يهتم بمراء المجادلين، ومحاولاتهم الوقوف في وجه الدعوة.

٥ - الله عليم بأحوال الناس وبما هم مختلفون فيه، وإن كل ما يجري في العالم هو مكتوب عند الله في أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ، وإن العلم الشامل بما في السماء والأرض، والفصل بين المختلفين يسير جداً على الله تعالى. ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشُه على الماء» وفي السنن من حديث جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: «أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن، فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة».

فما العباد عاملون قد علمه الله تعالى قبل ذلك على الوجه الذي يفعلونه، فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره، وهذا يعصي باختياره، وكتب ذلك عنده، وأحاط بكل شيء علماً، وهو سهل عليه.

بعض أباطيل المشركين وتحديهم بخلق ذبابة

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾

القراءات:

﴿يُنَزِّلْ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (يُنْزل).

﴿وَبِئْسَ﴾:

وقرأ ورش، والسوسي، ووقفاً حمزة (وبيس).

﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾:

وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وخلف (تَرْجِع الأمور).

الإعراب:

﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ﴾ ﴿ٱلنَّارُ﴾: إما خبر مبتدأ محذوف، وتقديره هي النار، و﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ﴾: استئناف كلام، وإما أن يكون مبتدأ، والجملة الفعلية: ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ﴾ خبره.

﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ منصوب على الحال ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ حال.

البلاغة:

﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ فيه استعارة، أي تستدل من وجوههم على المكروه وإرادة الفعل القبيح، مثل: عرفت في وجه فلان الشر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ تمثيل، أي مَثَل الكفار في عبادتهم لغير الله كمثل الأصنام التي لا تستطيع أن تخلق ذبابة واحدة. وقد سمي الذي جاء به ﴿مَثَلٌ﴾ تشبيهاً للصفة ببعض الأمثال.

المفردات اللغوية:

﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ أي المشركون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي الأصنام ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ

﴿سُلْطَانًا﴾ حجة وبرهاناً سمعياً يدل على جواز عبادته ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي حجة عقلية أنها آلهة، سواء أكان العلم من ضرورة العقل أو استدلاله ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ بالإشراك ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ أي ناصر ومعين يقرر مذهبهم أو يدفع عنهم العذاب.

﴿ءَايَاتُنَا﴾ من القرآن ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالة على العقائد الحقة والأحكام الإلهية ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ المستنكر من التجهم والانتفاخ، أو الإنكار لها، كالمكرم بمعنى الإكرام، أي أثره من الكراهة والعبوس ودلالة الغيظ والغضب، لفرط نكيرهم للحق، وهذا منتهى الجهالة. وإشعاراً بذلك وضع ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ موضع الضمير ﴿يَسْطُونَ﴾ أي يبطشون بهم من شدة الغيظ.

﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ من غيظكم على التالين، وبأكره إليكم من القرآن المتلو عليهم ﴿ٱلنَّارُ﴾ هو النار، كأنه جواب سائل قال: ما هو؟ ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بأن مصيرهم إليها ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ هي النار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أهل مكة وغيرهم ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ بُيِّن لكم حال مستغربة أو قصة رائعة أو جعل، ولذلك سماها مثلاً، تشبيهاً لها ببعض الأمثال، والمثل: الشبه .﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ للمثل أو لبيانه استماع تدبر وتفكر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي تعبدون غيره وهم الأصنام ﴿ذُبَابًا﴾ اسم جنس، يقع على المذكر والمؤنث، واحده: ذبابة وجمعه أذبَّة وذِبّان، مثل غراب وأغربة وغِربان، وسمي به لكثرة حركته. وقوله: ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ أي لا يقدرون على خلقه مع صغره؛ لأن ﴿لَن﴾ بما فيها من تأكيد النفي دالة على المنافاة بين المنفي والمنفي عنه ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ أي لخلقه، أي لا يقدرون على خلقه مجتمعين له متعاونين عليه، فكيف إذا كانوا منفردين؟!.

﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ من الطيب والزعفران الملطخين به ﴿لَّا

﴿يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾ لا يستردوه منه لعجزهم، فكيف يعبدون شركاء لله تعالى؟ هذا أمر مستغرب، عبر عنه بضرب المثل ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ العابد والمعبود.

﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ ما عظموه حق عظمته، إذ أشركوا به العاجز عن دفع الذباب عنه والانتصاف منه ﴿لَقَوِيٌّ﴾ قادر على خلق الممكنات بأسرها ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب ﴿يَصۡطَفِي﴾ يختار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ أي إن الله سميع لمقالتهم، مدرك للأشياء كلها، بصير بمن يتخذه رسولاً كجبريل وميكائيل وإبراهيم ومحمد وغيرهم عليهم السلام. ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ﴾ أي ما قدموا وما أخروا وما عملوا وماهم عاملون بعد ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أي إليه مرجع الأمور كلها؛ لأنه مالكها بالذات، لا يسأل عما يفعل من اصطفاء الرسل وغيره، وهم يسألون.

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى أنه العليم بكل شيء، بيَّن أن عبادة المشركين لغير الله تعالى لا تعتمد على دليل نقلي أو عقلي، وهم مع جهلهم وغباوتهم إذا أُرشدوا إلى الحق ودليله، وتلي عليهم القرآن، ظهر في وجوههم الغيظ والغضب، وهموا أن يبطشوا بمن يتلو ويذكّرهم، ولكن ما ينالهم من النار أعظم مما يحصل لهم من الغم حين تلاوة الآيات.

ولما بين أنهم يعبدون من دون الله مالا حجة لهم فيه ولا علم، ذكر ما يدل على إبطال قولهم وجهلهم بعظمة الإله، ثم انتقل من الإلهيات إلى النبوات، وأبان أنه يختار الرسل من الملائكة والناس ممن يعلم أنه الأكفأ والأوفق: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ٦/١٢٤] .

التفسير والبيان:

هذه بعض أباطيل المشركين الدالة على جهلهم وكفرهم وسخافتهم فيقول تعالى:

١ - ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الحج: ٧١/٢٢] أي ويعبد هؤلاء المشركون آلهة من غير الله، ليس لهم دليل نقلي ولا عقلي على عبادتها، فهو تعالى لم ينزل من السماء بجواز عبادتها حجة ولا برهاناً، وهو المقصود بالدليل النقلي السمعي، والمراد من قوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ وليس لهم دليل عقلي وهو المراد بقوله: ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وإذا لم يكن هناك دليل مقبول، فهو عن تقليد للآباء والأسلاف، أو عن جهل وشبهه، وكل ذلك باطل.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧/٢٣] . وفي الآية إشارة إلى أن الكافر قد يكون كافراً، وإن لم يعلم كونه كافراً، ودلالة على فساد التقليد القائم على الجهل.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي ليس للكافرين الظالمي أنفسهم من ناصر ينصرهم من الله فيما يحل بهم من العقاب أو العذاب.

٢ - ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ أي وإذا ذكرت للمشركين آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله، وأن لا إله إلا الله، وأن رسله الكرام حق وصدق، ظهرت على وجوههم دلالة الغيظ والغضب، وامتلأت قلوبهم حقداً ونفوراً.

﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي يكادون أو

يقاربون يبطشون بالذين يحتجون عليهم بدلائل القرآن الصحيحة، ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء. وهذا يدل على غليان قلوبهم بالكفر، وسيطرة الجهالة والعناد والكفر عليها، حتى أصبحوا ميئوساً من علاجهم، وصاروا متمردين على الأنبياء والمؤمنين.

﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي قل يامحمد لهؤلاء المشركين مقابلة لوعيدهم: ألا أخبركم بشر من غيظكم الذي ملأ قلوبكم؟ هو النار التي وعدها الله للكافرين، فعذابها ونكالها أشد وأشق وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، بل هو أعظم مما تنالون منهم فعلاً، إن نلتم بزعمكم وإرادتكم، وبئس المصير، أي وبئس النار موئلاً ومُقاماً لكم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/٦٦] .

ثم نبه الله تعالى على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها، وبيان حال هذه الأشباه والأمثال لله في زعمهم، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا﴾ أي ياأيها البشر قاطبة جعل مثل أي شبه لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به، فأنصتوا وتفهموا حال تلك المعبودات، وإذا فُهم حالها يكون حال عابديها أسوأ، فهم كالأصنام وأسوأ منها، وحالها هو:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ﴾ أي إن ما تعبدون من غير الله من الأصنام والأنداد لن يقدروا على خلق ذبابة واحدة، حتى ولو تعاون واجتمع لهذه المهمة جميع تلك المعبودات. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً قال: «ومن أظلم ممن ذهب يخلُق كخلْقي، فليخلقوا مثل خلقي ذُرة أو ذبابة أو حبة» ورواه الشيخان بلفظ آخر: «قال الله عز وجل: من أظلم مِمَّن ذَهَبَ يخلُق كخَلْقي، فَلْيَخلُقُوا ذُرَة، فليخلقوا شَعِيرة».

﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ أي كما أنهم عاجزون عن خلق ذبابة واحدة، هناك ماهو أبلغ من ذلك عاجزون من مقاومته والانتصار منه، فلو سلب الذباب شيئاً مما على الأصنام من الطيب، لا تقدر أن تستنقذه منه، علماً بأن الذباب أضعف مخلوقات الله، لذا قال: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ أي عجز الطالب وهو الإله المعبود من استنقاذ الشيء المسلوب من الذباب المطلوب، أو ضعف عابد الصنم، والصنم المعبود.

وهذا يدل على جهالتهم وغباوتهم؛ لأن العابد يتأمل عادة النفع أو دَفْع الضُّرِّ من المعبود، وعابد الصنم لا يحقق لنفسه شيئاً، مما يدل على حقارة الصنم وضعفه، وغباء عابده، فكيف يصح جعله مثلاً لله في العبادة. ثم قال تعالى مؤكداً عبثهم وجهلهم وعدم معرفتهم حق الله تعالى:

﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ أي ما عرفوا قدر الله وعظمته، وما عظموه حق التعظيم، حين عبدوا معه غيره، كهذه المخلوقات الجمادات التي لا تقاوم الذباب لضعفها.

والله هو القوي القادر الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء، العزيز الذي عز كل شيء فقهره وغلبه، فلا يغالب ولا يمانع، لعزته وعظمته وسلطانه، فهو الجدير بالعبادة والتعظيم.

ونظائر الآية كثير منها: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ﴾ [الروم: ٣٠/٢٧] ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ [البروج: ٨٥/ ١٢-١٣] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥١/ ٥٨].

ثم انتقل بيان الله تعالى من الإلهيات إلى النبوات فقال:

﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ أي أن الله يختار من الملائكة رسلاً لتبليغ الوحي إلى الأنبياء، ومن الناس لإبلاغ الرسالة إلى العباد، حسبما يشاء وعلى وفق ما يريد. قيل: إن الوليد بن المغيرة قال: أو أنزل عليه الذكر من بيننا؟ فنزلت الآية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ أي سميع لأقوال عباده، بصير بهم، عليم بمن يستحق اختياره للرسالة.

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ﴾ أي يعلم علماً تاماً بأحوال الملائكة والرسل والمكلفين، ما مضى منها، وما يأتي، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم، كما قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن: ٧٢/ ٢٦-٢٨].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أي وإليه يوم القيامة مرجع الأمور كلها، فلا أمر ولا نهي لأحد سواه.

وهذا إشارة إلى القدرة التامة، والتفرد بالألوهية والحكم. وقوله ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ﴾ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ يتضمن مجموعهما الزجر عن الإقدام على المعصية.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - إن عبدة الأوثان مثل كفار قريش يعبدون من غير الله آلهة، ليس لهم دليل سمعي نقلي أو عقلي، لذا توعدهم ربهم بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي ناصر ومعين.

٢ً - إن تأصل الكفر والعناد والاستكبار في نفوس أولئك الكفرة، جعلهم في أشد حالات الغضب والعبوس والحقد إذا تليت عليهم آيات القرآن، ويكادون يبادرون إلى البطش الشديد بمن يحتج عليهم بدلائل القرآن، ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء.

٣ً - أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقابل وعيدهم بقوله: هل أخبركم بما هو أسوأ أو أشنع وأكره من تخويفكم المؤمنين وبطشكم بهم ومن هذا القرآن الذي تسمعون؟ إنه نار جهنم وعذابها ونكالها، وعدها الله الذين كفروا يوم القيامة، وبئس المصير، أي الموضع الذي يصيرون إليه وهو النار. فهذا وعيد لهم على سطواتهم بالذين يتلون القرآن.

٤ً - ضرب الله مثلاً لحال الكفار وأصنامهم؛ لأن حجج الله تعالى عليهم بضرب الأمثال أقرب إلى أفهامهم، وهو في الحقيقة ليس مثلاً، وإنما هو لما في صفتهم وحالهم من الاستغراب والتعجب سمي مثلاً، تشبيهاً لتلك الصفة ببعض الأمثال السائرة.

والمعنى: ضربوا لله مثلاً فاستمعوا قولهم؛ يعني أن الكفار جعلوا لله مثلاً بعبادتهم غيره؛ فكأنه قال: جعلوا لي شبيهاً في عبادتي، فاستمعوا خبر هذا التشبيه. فالكفار هم ضاربو المثل.

أو أن المعنى: يا أيها الناس، هذا مَثَل من عبد آلهة لم تستطع أن تخلق ذباباً، وإن سلبها الذباب شيئاً لم تستطع أن تستنقذه منه، أي أن الله هو ضارب المثل.

والأدق في المعنى: ضرب الله عز وجل ما يعبد من دونه مثلاً، أي بيَّن الله لكم شبهاً ولمعبودكم، فالمثل يشمل العابد والمعبود.

٥ً - المثل: هو أن الذين تعبدون من دون الله وهي الأوثان التي كانت حول الكعبة، وعددها ثلاث مئة وستون صنماً، لن يقدروا أن يخلقوا ذبابة

واحدة، ولن يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم أمام ذبابة إذا أراد أن يأخذ شيئاً مما عليها - على الأوثان - من الطيب والزعفران الذي كانوا يطلون به أصنامهم.

لقد ضعف وعجز الطالب وهو الآلهة، والمطلوب: وهو الذباب، أو عابد الصنم والصنم المعبود، فالطالب: يطلب إلى هذا الصنم بالتقرب إليه، والصنم: المطلوب إليه.

٦ً - ما عظَّم هؤلاء المشركون الله حق عظمته، حيث جعلوا هذه الأصنام العاجزة شركاء له، وهو القادر القهار، القوي العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع، ومن يجرؤ على مغالبته؟!.

٧ً - الاختيار المطلق لله عز وجل في اصطفاء الملائكة يتوسطون لإبلاغ الوحي إلى الأنبياء، وفي اصطفاء الرسل من البشر لتبليغ الرسالة إلى الناس. والمراد بالآية: إن الله اصطفى محمداً ﷺ لتبليغ الرسالة؛ فليس بعثه محمداً أمراً بِدْعِياً.

إن الله سميع لأقوال عباده، بصير بمن يختاره من خلقه لرسالته. وهو سبحانه عليم بكل ما قدموا وما خلفوا، وإليه وحده مرجع الأمور كلها، فيجازي العباد على أعمالهم.

أوامر التشريع والأحكام

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)﴾

الإعراب:

﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿مِلَّةَ﴾: إما منصوب بفعل مقدر، أي اتبعوا ملة أبيكم، وإما منصوب على البدل من موضع الجار والمجرور، وهو قوله: ﴿فِي الدِّينِ﴾ لأنه منصوب بجعل. وإما منصوب بنزع الخافض وهو الكاف، أي كملة أبيكم إبراهيم، أي وسع عليكم في الدين كملة إبراهيم، وهذا بعيد. ويجوز نصبه على الإغراء أو على الاختصاص. و﴿إِبْرَاهِيمَ﴾: عطف بيان.

﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ ﴿هُوَ﴾: يراد به الله تعالى، أو يراد به إبراهيم .﴿وَفِي هَٰذَا﴾: أي سماكم المسلمين في هذا القرآن، وفاعل ﴿سَمَّاكُمُ﴾ ضمير يعود على الله أو على إبراهيم.

البلاغة:

﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ مجاز مرسل، من إطلاق الجزء على الكل، أي صلوا باعتبار الركوع والسجود من أهم أركان الصلاة.

﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ فيه ذكر العام بعد الخاص للعناية بشأن الخاص، ثم ذكر الأعم.

المفردات اللغوية:

﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ أي صلوا. ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ وحّدوه وتعبَّدوه بسائر ما تعبدكم به. ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ أي افعلوا ما هو خير وأصلح فيما تأتون وتذرون، كنوافل الطاعات، وصلة الأرحام، ومكارم الأخلاق. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي افعلوا هذه كلها، وأنتم راجون الفلاح، غير متيقنين له. والآية آية سجدة عند الشافعية، لظاهر ما فيها من الأمر بالسجود، ولقوله ﷺ: «فضلت سورة الحج بسجدتين، من لم يسجدهما، فلا يقرأهما».

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ﴾ أي في سبيله ومن أجله أعداء دينه. ﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾ أي جهاداً حقاً خالصاً لوجهه، وأضيف الحق إلى الجهاد مبالغة، كقولك: هو حق عالم. وأضيف الجهاد إلى الضمير اتساعاً، أو لأنه مختص بالله. والجهاد: استفراغ الوسع في مجاهدة العدو، وهو ثلاثة أنواع: مجاهدة العدو الظاهر كالكفار، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس والهوى، وهذه أعظمها، فقد أخرج البيهقي وغيره عن جابر قال: «قدم على رسول الله ﷺ قوم غزاة، فقال: قدمتم خير مَقْدَم، قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قيل: وما الجهاد الأكبر؟ قال: مجاهدة العبد هواه». وروي عنه ﷺ أنه رجع من غزوة تبوك، فقال: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» [١].

﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ اختاركم لدينه ولنصرته، وفيه تنبيه على مقتضي الجهاد والداعي إليه. ﴿حَرَجٍ﴾ ضيق وعسر ومشقة، بتكليفكم ما يشق عليكم، بأن سهله عند الضرورات، كقصر الصلاة الرباعية، والتيمم، وأكل الميتة، والفطر للمريض والمسافر. وفيه إشارة إلى أنه لا عذر لأحد في ترك التكليف، فهو إما عزيمة، وإما رخصة، قال ﷺ فيما رواه ابن ماجه عن أبي هريرة: «إذا أمرتكم بشيء فائتوا منه ما استطعتم».

(١) انظر تخريج الحديث ودرجة ضعفه في كشف الخفا.

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي شريعته، وإنما جعل أباً للمسلمين؛ لأنه أبو رسول الله ﷺ، وهو كالأب لأمته، من حيث إنه سبب لحياتهم الأبدية، أو لأن أكثر العرب كانوا من ذريته، فغلِّبوا على غيرهم.

﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل القرآن في الكتب المتقدمة. ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ أي القرآن. ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ﴾ الضمير يعود إلى الله، بدليل قراءة: (الله سماكم) أو لإبراهيم، لقوله المتقدم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾. ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ متعلق بسماكم. ﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ يوم القيامة بأنه بلّغكم، فيدل على قبول شهادته لنفسه، اعتماداً على عصمته. ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بتبليغ الرسل إليهم، أي تكونوا أنتم شهداء على الناس أن رسلهم بلَّغوهم.

﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي فتقربوا إلى الله بأنواع الطاعات، لما خصكم بأنواع الفضل والشرف. ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي وثقوا به في مجامع أموركم، ولا تطلبوا الإعانة والنصرة إلا منه. ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصركم ومتولي أموركم. ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ هو؛ إذ لا مثل له في الولاية والنصرة، بل لا مولى ولا ناصر سواه في الحقيقة.

المناسبة:

بعد أن تكلم الله تعالى في الإلهيات، ثم في النبوات، أتبعه بالكلام في الشرائع والأحكام من نواحٍ أربع هي:

١ً - تعيين المأمور: وهم المكلفون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٢ً - وأقسام المأمور به: وهي أربعة: الصلاة، وعبادة الله وحده، وفعل الخير، والجهاد.

٣ً - وما يوجب قبول تلك الأوامر: وهو ثلاثة: الاجتباء، وكون التكاليف والشرائع هي شريعة إبراهيم عليه السلام، وتسميتكم مسلمين في القرآن وسائر الكتب المتقدمة عليه.

٤ - تأكيد ذلك التكليف بالأمر بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والاعتصام بالله تعالى، أي الاستعانة به.

التفسير والبيان:

هذه أوامر تكليفية إلهية يراد بها توثيق الصلة بالله تعالى، وتهذيب النفس، وجهاد الأعداء، وإقامة صرح العدالة الاجتماعية في شرع الله ودينه، فقال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ أي ياأيها الذين صدقوا بالله ورسوله، وآمنوا باليوم الآخر صلوا صلاتكم المفروضة المشتملة على الركوع (الانحناء لله عز وجل) والسجود (الخضوع بأشرف أجزاء الإنسان وهو الوجه لله تعالى) واعبدوه بسائر ما تعبدكم به كمناسك الحج والصيام ونحوها، وتحروا فعل الخير الذي يرضي ربكم ويقربكم منه من أداء نوافل الطاعات، وصلة الأرحام، ومكارم الأخلاق، وهذا يشمل كل فضيلة في الإسلام، وفعل الخيرات عام للتكاليف جميعها، يشمل ما يصلح علاقة العبد بالرب، وما يصلح علاقات الناس بعضهم مع بعض. لذا جمعت الآية أسمى درجات التهذيب النفسي والاجتماعي، فكل ما أمر الله به خير، لذا قال معللاً ذلك الأمر بقوله:

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي لتفلحوا أو افعلوا هذا راجين الفوز والفلاح بما عند الله من الثواب والرضوان. والفلاح: الظفر بنعيم الآخرة.

وتأكيداً لإعداد الذات المؤمنه وتهذيبها، وصوناً للجماعة المؤمنة من كيد أعدائها أمر الله بالجهاد، فقال:

﴿وَجَـٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ أي وجاهدوا في سبيل نصرة دين الله،

ومن أجل إرضاء الله، جهاداً حقاً خالصاً لوجهه الكريم، لا يشوبه رياء، ولا يثني عنه لوم لائم، فالجهاد في الله: معناه الجهاد في سبيله ومن أجل دينه، والأولى أن يحمل الجهاد على المعنى العام الذي يشمل جميع أنواعه.

والجهاد أنواع ثلاثة كما بينا: جهاد النفس والهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار المعتدين والمنافقين المرجفين. ويكون الجهاد الأخير بالأموال والألسن والأنفس، أخرج أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «جاهِدُوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم» وجهاد اللسان يكون بالحجة والبيان والإعلام، والجهاد بالنفس بحمل السلاح يكون للمعتدين، وهو فرض كفاية على المسلمين، يجزئ فيه قيام بعضهم به متى حققوا المطلوب، وإلا فعلى حسب رأي الحاكم ولو بالنفير العام.

وجهاد النفس أصل لجهاد العدو الظاهر، فهو الجهاد الأكبر كما وصفه الرسول ﷺ في الحديث المتقدم، ولهذا كان فرض عين على كل مسلم. وكذلك جهاد أهل الظلم والبدع فريضة على كل مكلف على قدر طاقته، كما قال رسول الله ﷺ - فيما يرويه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه -: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

ونظير الآية: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/٥١-٥٢].

والآية محكمة غير منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ٦٤/١٦] فليس المقصود بقوله: ﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾ الغاية القصوى التي تتجاوز الوسع وحد الاستطاعة، وإنما المراد الإخلاص لإعلاء دين الله، وتأييد شرعه، والتدرع بالقوة والعزيمة والصبر، والترفع عن المطامع المادية كالغنيمة أو غيرها من شهوات الدنيا.

وإضافة ﴿حَقَّ﴾ إلى (جهاد) في قوله تعالى: ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ من إضافة الصفة للموصوف، كما بينا، وإضافة (جهاد) للضمير في قوله: ﴿جِهَادِهِۦ﴾ يراد بها اختصاص المضاف بالمضاف إليه، وهو جعل الجهاد مطلوباً لله ومن أجل دينه.

ثم ذكر الله تعالى علة الأمر بالجهاد وهي ثلاثة أنواع:

أ - ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ أي لأن الله أيتها الأمة اختاركم من بين سائر الأمم للقيام بهذه المهمة، وفضلكم وشرفكم، وخصكم بأكرم رسول، وأكمل شرع، ولكنه غير شاق، لذا قال:

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي لم يجعل الدين ضيقاً حرجاً شاقاً، وإنما جعله سهلاً يسيراً، فلم يكلفكم مالا تطيقون، وما ألزمكم بشيء يشق عليكم، وهذا تأكيد لوجوب الجهاد، والحفاظ على الدين الذي اختاركم لحمايته. والآية كالجواب عن سؤال يذكر، وهو أن التكليف والاجتباء تشريف من الله للعبد، لكنه شديد شاق على النفس؟ فأجاب الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

لكن المشقة المرفوعة في التكاليف الشرعية: هي المشقة الزائدة غير المعتادة التي تصل إلى حد الحرج. أما المشقة المعتادة المألوفة فهي غير مرفوعة من التكاليف، بل لا يتحقق التكليف إلا بها؛ لأن التكليف هو إلزام مافيه كلفة ومشقة، ولا يخلو عنها أي تكليف، لكنه سهل يسير على النفس، تطيق تحمله دون انزعاج.

ومظاهر التيسير ودفع الحرج والمشقة عامة شاملة العبادات والمطعومات والمعاملات. ففي العبادات: يجوز قصر الصلاة الرباعية في السفر، فتصلى ثنتين، والصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وفي الخوف يصليها بعض الأئمة ركعة، كما ورد به الحديث، وتصلى رجالاً وركباناً، مستقبلي

القبلة وغير مستقبليها، وكذا النافلة في السفر تصلى إلى القبلة وغيرها. ويسقط القيام في الصلاة لعذر المرض، فيصلي المريض جالساً أو مضطجعاً أو على جنب أو بالإيماء.

ويجوز في صيام رمضان الإفطار لعذر لكل من المسافر والمريض والشيخ الهرم، والحامل والمرضع.

وفي المطعومات: يجوز الأكل والشرب من المحرَّمات المحظورات للضرورة، كالميتة والدم ولحم الخنزير وغير ذلك.

وفي المعاملات: يجوز بعض التصرفات للحاجة أو للضرورة.

وهكذا تشرع الرخص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات، لهذا قال ﷺ فيما رواه أحمد عن جابر: «بُعِثْتُ بالحنيفية السَّمْحة» وقال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما أميرين إلى اليمن فيما أخرجه البخاري ومسلم: «بشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا».

والآيات في هذا المعنى كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٥] وقوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٦] وقوله عز وجل: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ٦٤/ ١٦] .

٢ - ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي اتبعوا أو الزموا ملتكم التي هي كملة أبيكم إبراهيم عليه السلام في حنيفيتها وسماحتها وبعدها عن الشرك. والمراد بالملة: الأحكام الأصلية الاعتقادية، فهي واحدة في شريعتنا وشريعة إبراهيم عليه السلام، بل هي واحدة في جميع الشرائع؛ قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ٤٢/ ١٣] وقال تعالى: ﴿وَمَآ

أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٢٥] وقال النبي ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد: «الأنبياء أولاد عَلات» أي أن إيمانهم واحد، وشرائعهم مختلفة.

وسبب تخصيص إبراهيم عليه السلام بالذكر هو التشابه في السماحة والتوحيد بين الملتين، وكون أكثر العرب من نسل إبراهيم عليه السلام، فهم يحبونه، والحب مدعاة التمسك بشريعته وشريعة محمد ﷺ التي هي شريعة أبيهم إبراهيم عليه السلام، وبما أن إبراهيم هو أبو رسول الله ﷺ، فكان أباً لأمته؛ لأن أمة الرسول في حكم أولاده.

ونظير الآية قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦١] .

٣ - ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا﴾ أي إن الله - وقيل: إبراهيم -، هو الذي سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة، وفي القرآن. قال ابن كثير مرجحاً المعنى الأول بعود الضمير إلى الله: وهذا هو الصواب؛ لأنه تعالى قال: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾. وفي قراءة: (الله سَمّاكم).

وأما دليل من قال بعود الضمير إلى إبراهيم عليه السلام: فهو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٨] .

﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي إنما جعلناكم هكذا أمة وسطاً عدولاً خياراً مشهوداً بعدالتكم عند جميع الأمم، ليكون الرسول محمد ﷺ شهيداً عليكم يوم القيامة بتبليغه ما أرسل به إليكم أي أنه قد بلغكم، ولتكونوا شهداء على الناس في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم.

واللام في قوله: ﴿لِيَكُونَ﴾ إما لام العاقبة، وهي متعلقة بقوله:

﴿سَمَّىٰكُمُ﴾ وإما لام التعليل، وتكون (على) في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بمعنى اللام، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣/٥] وتكون شهادة الرسول لهم: أن يزكيهم عند الله يوم القيامة، ويشهد بعدالتهم إذا شهدوا على الأمم السابقة.

والراجح أنه لا داعي لوصف اللام بما ذكر، ويكون قبول شهادة الرسول ﷺ على الأمة علة في الحكم وهو تسميتها أمة مسلمة.

وقبول شهادة النبي ﷺ وشهادة أمته يوم القيامة فيه تشريف للنبي ﷺ وتشريف لأمته، فإن الله تعالى يصدّق قوله على أمته في دعوى تبليغه إياها، ويجعل أمته أهلاً للشهادة على سائر الأمم.

وإنما قبلت شهادتهم على الأمم؛ لأنهم لم يفرقوا بين أحد من الرسل، وعلموا أخبارهم من القرآن الكريم. ورد أنه يؤتى بالأمم وأنبيائهم، فيقال للأنبياء: هل بلّغتم أممكم؟ فيقولون: نعم بلغناهم، فينكرون، فيؤتى بهذه الأمة، فيشهدون أنهم قد بلغوا، فتقول الأمم لهم: من أين عرفتم؟ فيقولون: عرفنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق.

ومقابلة لهذه النعمة العظيمة على الأمة ووجوب شكرها، طلب الله منها دوام عبادته والاعتصام به، فقال:

﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي فقابلوا هذه النعمة الجليلة بالقيام بشكرها، فأَدُّوا حقَّ الله عليكم بطاعته فيما افترض وأوجب، وترك ما حرم، ومن أهم ذلك إقامة الصلاة أي أداؤها تامة الأركان والشروط بخشوع كامل وخضوع تام لله، فهي صلة بينكم وبين ربكم، وإيتاء الزكاة التي هي طهرة للنفس والمال، وإحسان واجب إلى خلق الله المستحقين، وهي دليل التعاون والتضامن والإخاء، واستعينوا بالله والجؤوا إليه في جميع أموركم. والاعتصام بالله: هو الثقة به، والالتجاء إليه، والاستعانة بقوته

العظمى على دفع كل مكروه، وهو ناصركم على من يعاديكم. والمولى: هو الحافظ والناصر والمالك والخالق.

﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ أي نعم المولى المتولي أموركم، ونعم الناصر، العظيم النصرة، الكامل المعونة، هو أي الله تعالى. وهو المخصوص بالمدح.

فقه الحياة أو الأحكام:

ظاهر هذه الآيات التي ختمت بها سورة الحج أنها جمعت أنواع التكاليف الدينية والاعتقادية والاجتماعية، وأحاطت بفروع الشريعة، وعنيت بأمر الصلاة لأنها عماد الدين، ولم تكتف بطلبها في عموم العبادات.

ودلت على ما يأتي:

أ - وجوب أربعة أمور: هي الصلاة المشتملة على أهم أركانها وهو الركوع والسجود، وعبادة الله دون غيره، وفعل الركوع والسجود وسائر الطاعات على وجه العبادة، وفعل الخير كصلة الرحم ومكارم الأخلاق. وقد اختلف العلماء في قوله: ﴿وَٱسْجُدُواْ﴾ أهو سجود الصلاة أم سجود التلاوة؟ فقال الشافعية والحنابلة: هذه سجدة تلاوة؛ لأنه يمكن حمل اللفظ على حقيقته مع عدم صارف يصرفه إلى معنى آخر، ومعنى السجود: وضع الجبهة على الأرض، ولما أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن مردويه والبيهقي في سننه عن عُقْبة بن عامر عن النبي ﷺ: «فُضِّلت سورة الحج بسجدتين، فمن لم يَسْجُدْهما فلا يقرأهما». وأخرج أبو داود وابن ماجه والدارقطني والحاكم عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن، منها ثلاث في المفصَّل، وفي الحج سجدتان.

وذهب الحنفية والمالكية إلى أن هذه الآية ليست آية سجدة؛ لأن اقتران السجود بالركوع دليل على أن المراد به سجود الصلاة، كما في قوله تعالى:

﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٣/٤٣] . ولما روي عن أُبَي بن كعب رضي الله عنه أنه عدَّ السجدات التي سمعها من رسول الله ﷺ، وعدَّ في الحج سجدة واحدة. وأما حديثا عقبة وعمرو فضعيفان.

ويكون المراد بالآية على هذا الرأي الصلاة المفروضة، وخص الركوع والسجود تشريفاً للصلاة، وهو ما سرت عليه في التفسير والاستنباط.

٢ً - وجوب عبادة الرب تعالى، أي امتثال أوامره.

٣ً - الندب إلى فعل الخير فيما عدا الواجبات التي صح وجوبها شرعاً.

٤ً - وجوب الجهاد بأنواعه الثلاثة: جهاد الهوى والنفس وجهاد الشيطان ومطاردة وساوسه، وجهاد أهل الظلم والبدع، وهي كلها فرض عين على كل فرد مسلم. روى الترمذي وابن حبان عن فضالة بن عبيد أن النبي ﷺ قال: «المجاهد: من جاهد نفسه لله عز وجل». وروى أحمد وابن ماجه والطبراني والبيهقي عن أبي أمامة عن النبي ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر» وقد ذكرت حديث: «من رأى منكم منكراً...».

وجهاد الكفار والمنافقين بالحجة والبيان، وبالسيف والسنان واجب أيضاً، وهو فرض كفاية على جماعة المسلمين، يجزي فيه قيام بعضهم إذا تحقق المقصود، وطرد العدو، وتم دفعه عن بقية المسلمين وأموالهم وأعراضهم وبلادهم، فإن لم يتحقق ذلك كان فرض عين على كل واحد من القادرين على القتال. وهذا حينما كان الاعتماد على العنصر البشري في الحروب أمراً ضرورياً وأساسياً، أما اليوم حيث تطورت وسائل القتال، فلا يصح حشد المسلمين في جبهة واحدة مثلاً لحصادهم بقنبلة واحدة أو بغيرها من الوسائل الحربية الفتاكة الحديثة، وإنما ينظر الحاكم فيما يحقق المصلحة، وتقتضيه الحاجة، بعد الأخذ بوسائل الإعداد الحديثة المكافئة لما هو موجود عند الأعداء.

٥ - علة التكليف بالتكاليف السابقة ثلاثة أمور:

أ - الاجتباء أي الاصطفاء والاختيار للدفاع عن الدين والتزام أمره، وهذا تأكيد للأمر بالمجاهدة، أي وجب عليكم أن تجاهدوا؛ لأن الله اختاركم له. وزيادة في التأكيد والترغيب رفع الله الحرج، أي الضيق والعسر عن الناس في المطالب الشرعية، وهذا عام في كثير من الأحكام، وهو مما خص به هذه الأمة. قال قتادة: أُعطيت هذه الأمة ثلاثاً لم يُعطها إلا نبي: كان يقال للنبي اذهب فلا حرج عليك، وقيل لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾. والنبي شهيد على أمته، وقيل لهذه الأمة: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٣]. ويقال للنبي: سل تُعْطَه، وقيل لهذه الأمة: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٤٠/ ٦٠].

فرفع الحرج من الأسس التي قام عليها التشريع الإسلامي، قال العلماء: رفع الحرج إنما هو لمن استقام على منهاج الشرع، وأما السلابة والسُّرَّاق وأصحاب الحدود، فعليهم الحرج، وهم جاعلوه على أنفسهم بمفارقتهم الدين.

ب - كون ملتنا كملة أبينا إبراهيم عليه السلام، وهو أبو العرب قاطبة.

جـ - تسمية الله لنا بالمسلمين في الكتب المتقدمة وفي القرآن.

٦ - تقبل شهادة الرسول ﷺ على الأمة بتبليغه إياهم أحكام شرع الله، وقبول شهادته علة لعدالة الحكم وهو التسمية بالمسلمين، وكذلك قبول شهادة أمته على الأمم الأخرى أن رسلهم قد بلغتهم علة في تسميتها مسلمة كذلك، وقبول الشهادتين تشريف للنبي ﷺ ولأمته.

٧ً - إن قبول شهادة الأمة المسلمة على الأمم الأخرى نعمة عظمى تستوجب الشكر بأداء الفرائض واجتناب النواهي المحظورات، ومن أهم ذلك إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله، أي الثقة به، والاستعانة بقوته الجبارة على دفع السوء؛ لأنه مالكنا وخالقنا، وحافظنا وحامينا، وناصرنا على أعدائنا.

تم الجزء السابع عشر ولله الحمد



بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

الجزء الثامن عشر



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المؤمنون

مكية، وهي مئة وثمان عشرة آية

تسميتها وفضلها:

سميت سورة «المؤمنون» لافتتاحها بقول الله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١﴾ ثم ذكر أوصاف المؤمنين السبعة وجزاءهم العظيم في الآخرة وهو ميراث الفردوس.

روى الإمام أحمد والترمذي والنسائي والحاكم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي، يُسمع عند وجهه كَدِويّ النحل، فلبثنا ساعة، فاستقبل القبلة، ورفع يديه وقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارضَ عنا وأرضنا، ثم قال: لقد أُنزل علي عشر آيات من أقامهن[1] دخل الجنة ثم قرأ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١﴾ حتى ختم العشر».

وروى النسائي في تفسيره عن يزيد بن بابنوس قال: قلنا لعائشة أم المؤمنين: كيف كان خُلُق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خلُق رسول الله ﷺ

(١) من أقامهن: أي من أقام عليهن ولم يخالف ما فيهن؛ كما تقول: فلان يقوم بعمله.

القرآن، فقرأت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ - حتى انتهت إلى - ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ قالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ.

مناسبة السورة لما قبلها:

تظهر صلة هذه السورة بسورة الحج من نواحٍ هي:

١ - ختمت سورة الحج بجملة من الأوامر الجامعة لخيري الدنيا والآخرة، منها قوله تعالى: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وهو مجمل فصّل في فاتحة هذه السورة، فذكر تعالى خصال الخير التي من فعلها فقد أفلح، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ الآيات العشر.

٢ - ذكر في أول سورة الحج قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ الآية لإثبات البعث والنشور، ثم زاد هنا بياناً ضافياً في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣﴾ الآيات. فما أُجمل أو أوجز هناك، فصل وأُطنب هنا.

٣ - في كل من السورتين أدلة على وجود الخالق ووحدانيته.

٤ - في السورتين أيضاً ذكرت قصص بعض الأنبياء المتقدمين للعبرة والعظة، في كل زمن وعصر ولكل فرد وجيل.

ما اشتملت عليه السورة:

تضمنت السورة الكلام على أصول الدين من وجود الخالق وتوحيده وإثبات الرسالة والبعث.

وابتدأت بالإشادة بخصال المؤمنين المصدقين بالله ورسوله التي استحقوا بها ميراث الفردوس الأعلى في الجنان.

ثم أبانت الأدلة على وجود الله تعالى والقدرة الإلهية والوحدانية من خلق الإنسان مروراً بأطواره المتعددة، وخلق السماوات البديعة، وإنزال الماء منها لإنبات الجنات أو البساتين التي تزهو بالنخيل والأعناب، والزيتون والرمان، والفواكه الكثيرة، وإيجاد الأنعام ذات المنافع العديدة للإنسان، وتسخير السفن لحمل الركاب والبضائع.

ثم أوردت قصص بعض الأنبياء والمرسلين كنوح وهود وموسى وهارون وعيسى وأمه مريم، لتكون نماذج للعبرة والعظة عبر الأجيال، وتسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من أذى المشركين من قريش، مع توبيخهم ووعيدهم على استكبارهم عن الحق، ووصفهم النبي ﷺ بالجنون وغيره، وعدم إيمانهم برسالته، وإخبارهم بما يلقونه من العذاب والنكال يوم القيامة، وإقناعهم بالأدلة والبراهين على حدوث البعث والنشور.

وفي خلال ذلك أوضحت بعض الآيات يسر التكليف وسماحته وعدم المطالبة إلا بما فيه الوسع والقدرة، والتذكير بما أنعم الله به على الإنسان من نعم الحواس والمشاعر، والإنكار الشديد على نسبة الولد والشريك إلى الله تعالى.

ثم طمأنت الآيات النبي ﷺ عن نجاته من القوم الظالمين، ووضعت له أسلوب الدعوة إلى الله تعالى، وعرفته طريق الاعتصام بالله من همزات الشياطين.

وعرضت السورة في خاتمتها لموقف الحساب الرهيب وأهواله وشدائده، وما فيه من معايير النجاة والخسران، من ثقل الموازين وخفتها، وقسمة الناس إلى فريقين: سعداء وأشقياء، وعدم إفادة الأنساب في شيء، وتمني الكفار العودة لدار الدنيا ليعملوا صالحاً، وتذكيرهم بسخريتهم وضحكهم من المؤمنين، وسؤالهم عن مدة لبثهم في الدنيا، وتوبيخهم على إنكار البعث،

وإعلان تفرد الإله الملك القاهر بالحساب ومحاورته أهل النار، وبيان خسارة من عبد مع الله إلهاً آخر، ونجاة أهل الإيمان والعمل الصالح، وإفاضة رحمة الله عليهم ومغفرته لهم.

خصال المؤمنين

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾

القراءات:

﴿لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ﴾:

وقرأ ابن كثير (لأمانتهم).

﴿صَلَوَٰتِهِمْ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (صلاتهم).

الإعراب:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ انتظمت الجملة أقسام الكلم الثلاثة التي هي الاسم والفعل والحرف، فإن ﴿قَدْ﴾ حرف، و﴿أَفْلَحَ﴾ فعل، و﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ اسم.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ جملة معطوفة على ما قبلها، أي يؤدون الزكاة. وقيل: أي الذين لأجل الطهارة وتزكية النفس عاملون الخير، كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ وتفسير القرآن بعضه ببعض أولى، لكن الظاهر الأول لأن الغالب في القرآن اقتران الزكاة بالصلاة.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾ إنما جمع (أمانات) جمع (أمانة) مع أنها مصدر، والمصادر لا تجمع؛ لأنها تدل على الجنس؛ لأنها مختلفة الأنواع، وحينئذ يجوز تثنيتها وجمعها، والأمانة هنا مختلفة، لاشتمالها على سائر العبادات وغيرها من المأمورات.

البلاغة:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ ﴿قَدْ﴾: لإفادة التحقيق، والإخبار بصيغة الماضي لإفادة الثبوت والتحقق.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ الآيات، تفصيل بعد إجمال.

﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿خَٰشِعُونَ﴾ ﴿مُعْرِضُونَ﴾ ﴿فَٰعِلُونَ﴾ ﴿حَٰفِظُونَ﴾ ﴿ٱلْعَادُونَ﴾ سجع لطيف غير متكلف.

﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ استعارة لاستحقاقهم الفردوس من أعمالهم.

المفردات اللغوية:

﴿قَدْ﴾ للتحقيق وهي تثبت المتوقع، كما أن (لما) تنفيه، وتدل على ثباته إذا دخلت على الماضي، فتقرّبه من الحال ﴿أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فازوا بأمانيهم، و﴿أَفْلَحَ﴾: فاز وظفر بالمراد، و﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: جمع مؤمن: وهو المصدّق بالله وبما أنزل على رسوله من التوحيد والنبوة والبعث والجزاء. ﴿خَٰشِعُونَ﴾

متواضعون خاضعون متذللون لله خائفون منه ﴿ٱللَّغْوِ﴾ مالا خير فيه من الكلام، ومالا يعني من قول أو فعل ﴿مُعْرِضُونَ﴾ أقام الإعراض مقام الترك ليدل على بعدهم عنه رأساً، مباشرة وتسبباً وميلاً وحضوراً ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ وصفهم بذلك بعد وصفهم بالخشوع في الصلاة، ليدل على أنهم بلغوا الغاية في القيام بالطاعات البدنية والمالية وتجنب المحرّمات وما يخل بالمروءة. والمراد بالزكاة هنا المعنى وهو التزكية، فجعل المزكين فاعلين له، لأن التزكية مصدر، ويقال لمحدثه فاعل، فهو فاعل الحدث، كالضارب فاعل الضرب، والقاتل فاعل القتل. ويجوز أن يراد بالزكاة العين، أي القدر الذي يخرجه المزكي من النصاب إلى الفقير، بتقدير مضاف محذوف وهو الأداء.

﴿لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ﴾ أي يحفظون فروجهم عن الحرام، والفرج: سوأة الرجل والمرأة وحفظه: التعفف عن الحرام ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ أي من زوجاتهم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾ أي السراري حينما كان الرق شائعاً، أما اليوم فقد انتهى من العالم ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ في إتيانهن، والضمير يعود لحافظون أو لمن دل عليه الاستثناء.

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي طلب غير ذلك من الزوجات والسراري كالاستمناء باليد (العادة السرية) في إتيانهن ﴿ٱلْعَادُونَ﴾ المتجاوزون إلى مالا يحل لهم، أو المتناهون في العدوان وتجاوز الحدود الشرعية.

﴿لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ﴾ جمع أمانة: وهي كل ما يؤتمن الإنسان عليه من الله كالتكاليف الشرعية، أو من الناس كودائع الأموال ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ العهد: كل ما التزمه الإنسان نحو ربه وأمره به كالصلاة والنذر وغيرهما، ونحو الناس من قول وفعل كالعقود والوعود والعطاء. وكلمة ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ مفرد مضاف فيعم ﴿رَٰعُونَ﴾ قائمون بحفظها وإصلاحها، والرعي: الحفظ، والراعي: الذي يحفظ الشيء ويصلحه.

﴿صَلَوَاتِهِمْ﴾ جمع صلاة، وهي مثل ﴿لِأَمَانَاتِهِمْ﴾ تشمل المفرد والجمع ﴿يُحَافِظُونَ﴾ يواظبون عليها، ويؤدونها في أوقاتها ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الجامعون لهذه الصفات ﴿الْوَارِثُونَ﴾ لا غيرهم، أي هم الأحقّاء بأن يسموا ورّاثاً دون غيرهم ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ بيان لما يرثونه، وتقييد الوراثة بعد إطلاقها تفخيم لها وتأكيد، وهي مستعارة لاستحقاقهم الفردوس من أعمالهم. و﴿الْفِرْدَوْسَ﴾: أعلى الجنة ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ماكثون أبداً. وأنث الضمير لأنه اسم للجنة، أو لطبقتها العليا. وفيه إشارة إلى المعاد، ويناسبه ذكر المبدأ بعده.

سبب النزول:

نزول الآية (٢):

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾: روي أنه ﷺ كان يصلي رافعاً بصره إلى السماء، فلما نزلت رمى ببصره نحو مسجده، وأنه رأى رجلاً يعبث بلحيته، فقال: «لو خشع قلب هذا، لخشعت جوارحه»[١]. أخرج الحاكم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء، فنزلت: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ فطاطأ رأسه. وأخرج ابن مردويه بلفظ: كان يلتفت في الصلاة. وأخرجه سعيد بن منصور عن ابن سيرين مرسلاً بلفظ: كان يقلب بصره، فنزلت. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن سيرين مرسلاً: كان الصحابة يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة، فنزلت.

التفسير والبيان:

يبشر الله تعالى بالفلاح والفوز المؤمنين المتصفين بسبع صفات، ويحكم لهم بذلك، فيقول:

(١) تفسير البيضاوي: ص ٤٥١.

١ً - ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ أي قد فازوا وسعدوا، لاتصافهم بصفة الإيمان أي التصديق بالله ورسله واليوم الآخر.

٢ً - ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ أي خائفون ساكنون، والخشوع: خشوع القلب، وهو الخضوع والتذلل مع الخوف وسكون الجوارح. قال الحسن البصري: كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم، وخفضوا الجناح.

والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون له راحة وقرة عين، كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنسائي عن أنس: «حُبِّب إلي الطيب، والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة». وروى الإمام أحمد أيضاً عن رجل من أسلم أن رسول الله ﷺ قال: «يا بلال، أرحنا بالصلاة».

والخشوع واجب ضروري لتعقل معاني الصلاة، ومناجاة الرب تعالى، وتذكر الله والخوف من وعيده، وتدبر آيات القرآن وتفهم معانيها، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤﴾ [محمد: ٤٧/ ٢٤] وحينئذ يتخلص غالباً من وساوس الشيطان ومحاولة شغل الفكر وصرف المصلي عن صلاته، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٠٥] . لكن جمهور العلماء لم يشترطوا الخشوع في الصلاة للخروج من عهدة التكليف، وإنما هو شرط لتحصيل الثواب عند الله تعالى.

٣ً - ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ أي الذين يتركون رأساً كل ما كان حراماً أو مكروهاً، أو مباحاً لا خير فيه، ولا يعني الإنسان ولا حاجة له فيه. وذلك يشمل الكذب والهزل والسب وجميع المعاصي ومالا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٧٢] .

ومع الأسف الشديد استبد اللهو في عصرنا في أفعال وأقوال كثير من الناس برؤية التلفاز، وقراءة المجلات غير النافعة واللعب بالأوراق، واللهو، والعبث، وضياع الوقت فيما لا يجدي، مع أن الوقت من ذهب، لذا وصفت أمتنا بالتخلف لإهدار قيمة الوقت بين أفراد شعبها.

٤ - ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ قال ابن كثير: الأكثرون على أن المراد بالزكاة هاهنا زكاة الأموال، مع أن هذه الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة، والظاهر أن التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات النصُب والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة، قال تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦/١٤١] . وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة ههنا زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٩١/٩-١٠] وكقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ، ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٤١/٦-٧] على أحد القولين في تفسيرهما. وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال، فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل: هو الذي يفعل هذا، والله أعلم.

وقال الرازي: وقول الأكثرين إنه الحق الواجب في الأموال خاصة، وهذا هو الأقرب؛ لأن هذه اللفظة قد اختصت في الشرع بهذا المعنى(١).

٥ - ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾﴾ أي والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام، فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنىً وفعل قوم لوط، ولا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم بالعقد، أو بملك اليمين، أي ما ملكت أيمانهم

(١) تفسير ابن كثير: ٣/٢٣٨، وما بعدها، تفسير الرازي: ٢٣/٨٠

من السراري - في الماضي حيث كان الرق قائماً - فمن اقتصر على الحلال، فلا لوم عليه ولا حرج.

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾ أي فمن طلب غير ذلك من الزوجات والإماء، فأولئك هم المتناهون في العدوان، المتجاوزون حدود الله. وهذا يدل على تحريم المتعة والاستمناء باليد.

٦ - ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾ أي والذين يحفظون حرمة الأمانة وقدسية العهد، فإذا ائتُمنوا لم يخونوا، بل يؤدون الأمانة إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك، فأداء الأمانة والوفاء بالعهد صفة أهل الإيمان، أما الخيانة والغدر وخلف الوعد وعدم الوفاء بمقتضى العقد بيعاً أو إجارة أو شركة أو غيرها، فهي صفة أهل النفاق الذين قال فيهم رسول الله ﷺ - فيما يرويه الشيخان والترمذي والنسائي عن أبي هريرة: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان» وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٧] .

والأمانة والعهد يشملان جميع ما ائتمن الإنسان عليه من ربه أو من الناس، كالتكاليف الشرعية، والودائع، وتنفيذ العقود.

٧ - ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ أي والذين يواظبون على الصلاة ويؤدونها في أوقاتها، مع استكمال أركانها وشروطها. جاء في الصحيحين عن ابن مسعود قال: «سألت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، أي العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها، قلت: ثم أي؟ قال: برّ الوالدين، قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله».

وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة، واختتمها بالصلاة، فدل على أفضليتها، كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد وابن ماجه

والحاكم والبيهقي عن ثوبان: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الصلاة إلا مؤمن». أي الزموا الاستقامة بالمحافظة على إيفاء الحقوق ورعاية الحدود، والرضى بالقضاء، ولن تُحْصُوا ثواب الاستقامة.

ثم رتب الله تعالى الجزاء الحسن على هذه الأفعال، فقال:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا﴾ أي أولئك البعيدون في درجات الكمال المتصفون بهذه الصفات الحميدة هم المستحقون النزول في جنات الفردوس، الماكثون فيها أبداً على الدوام، ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سألتم الله الجنة، فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن». وقيل: الفردوس هي الجنة، وهي رومية أو فارسية عُرِّبت.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم: ٦٣/١٩] وقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف: ٧٢/٤٣]. وهذا قانون الله من حيث العدل أن الجنة جزاء العمل الحسن في الدنيا، ومجموع الأخذ بهذه الصفات السبع محقق لهذا الفوز في عالم الآخرة. ثم نزل بعد هذه الآيات فرض الوضوء والصوم والحج، فدخل معهن. والآية عامة في الرجال والنساء.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدتنا الآيات إلى وجوب الاتصاف بالصفات السبع التالية، والقيام بالأفعال الآتية المستوجبة الخلود في الفردوس الأعلى من الجنان وهي:

١ - الإيمان: وهو التصديق بالله ورسله واليوم الآخر.

٢ - الخشوع في الصلاة: وهو الخضوع والتذلل لله والخوف من الله تعالى،

ومحله القلب، فإذا خشع خشعت الجوارح كلها لخشوعه، إذ هو مَلِكُها. روى الترمذي عن أبي ذرّ قال: قال النبي ﷺ: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة، فإن الرحمة تواجهه، فلا يحركن الحصى». فالسكون دليل الاطمئنان، واستيقاظ الذهن، والاتجاه نحو الله تعالى، وبه يحصل جوهر الصلاة، وتتحقق غايتها المنشودة الصحيحة.

وهو من فرائض الصلاة على الصحيح، وأساس قبولها، والظفر بثواب الله تعالى.

٣ً - الإعراض عن اللغو: أي الباطل، وهو الشرك والمعاصي كلها، وكل مالا حاجة فيه ومالا يعني الإنسان، وإن كان مباحاً.

٤ً - أداء الزكاة المالية المفروضة، وتزكية النفس من الدنس والمعصية، وتطهيرها من أمراض القلب كالحقد والحسد والكراهية والبغضاء ونحوها.

٥ً - حفظ الفرج، والتعفف من الحرام كالزنى وفعل قوم لوط، والإعراض عن الشهوات. وذلك يدل على تحريم المتعة (الزواج المؤقت بمدة زمنية محدودة، قصيرة أو طويلة) لأن المرأة المستمتع بها ليست زوجة بالفعل، بدليل أنهما لا يتوارثان بالإجماع، فلا تحل للرجل، لكن يدرأ الحد للشبهة.

ويدل أيضاً على تحريم الاستمناء، ويستأنس له بحديث رواه الإمام الحسن ابن عرفة في جزئه المشهور عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا يجمعهم مع العاملين، ويدخلهم النار أول الداخلين، إلا أن يتوبوا، ومن تاب تاب الله عليه: الناكح يده، والفاعل والمفعول به، ومدمن الخمر، والضارب والديه حتى يستغيثا، والمؤذي جيرانه حتى يلعنوه، والناكح حليلة جاره»[1].

---

(١) حديث غريب، وفي إسناده من لا يعرف لجهالته.

وتحريم الاستمناء هو مذهب جماهير العلماء، لظاهر الآية التي حصرت إباحة الاستمتاع بالنساء بالزواج وملك اليمين. ونقل عن الإمام أحمد جوازه للضرورة أو الحاجة الملحة، أي لمرة واحدة مثلاً دون تكرار، إذا استبدت به الشهوة، وطغت عليه، بشروط ثلاثة: أن يخاف الزنى، وألا يملك مهر امرأة حرة، وأن يكون بيده، لا بيد امرأة أجنبية، ولا بيد ذكر مثله.

ومن تجاوز الحلال ووقع في الحرام كالزنى وفعل قوم لوط، فهو معتد متجاوز حدود الله، ويجب عليه الحد لعدوانه، إلا أن يكون جاهلاً التحريم كمن أسلم حديثاً، أو متأولاً، كما قال القرطبي.

٦ - أداء الأمانة ورعاية العهد والعقد: ومعنى الأمانة أو العهد يجمع كل ما يُحَمَّله الإنسان من أمر دينه ودنياه، قولاً وفعلاً، وهذا يشمل معاشرة الناس والوعود وغير ذلك. والأمانة أعم من العهد، وكل عهد فهو أمانة فيما فيه قول أو فعل أو معتقد.

٧ - المحافظة على الصلاة: بإقامتها والمبادرة إليها أوائل أوقاتها، وإتمام ركوعها وسجودها.

فمن عمل بما ذكر في هذه الآيات، فهم الوارثون الذين يرثون فراديس الجنان، وينزلون فيها منزلاً كريماً، ويخلدون فيها على الدوام والبقاء. ويدخل في الأمانات جميع الواجبات من الأفعال والتروك، فصارت الآيات شاملة العبادات الواجبة كالصوم والحج والطهارة.

من أدلة وجود اللّه وقدرته

- ١ -

خلق الإنسان

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾

القراءات:

﴿عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ﴾:

وقرأ ابن عامر (عَظْماً، العَظْم).

﴿أَنشَأْنَـٰهُ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (أنشاناه).

الإعراب:

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ النطفة وعلقة: مفعولا ﴿خَلَقْنَا﴾ المتعدي هنا إلى مفعولين؛ لأنه بمعنى: صيرنا، ولو كان بمعنى: أحدث لتعدى إلى مفعول واحد.

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ أحسن إما بدل من ﴿ٱللَّهُ﴾ ولا يجوز أن يكون وصفاً؛ لأن إضافته إلى ما بعده في نية الانفصال لا الاتصال؛ لأنه في تقدير: أحسن من الخالقين، كما تقول: زيد أفضل القوم، أي منهم، فلا

يستفيد المضاف من المضاف إليه تعريفاً، فوجب أن يكون بدلاً، لا وصفاً. وإما خبر مبتدأ محذوف، أي هو أحسن الخالقين، وقوّى هذا التقدير أنه موضع مدح وثناء.

البلاغة:

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾﴾ نزلوا منزلة المنكرين، فهم لا ينكرون الموت، ولكن غفلتهم عنه، وفقدهم العمل الصالح من علامات الإنكار، وأكد الخبر بمؤكدين (إن واللام).

﴿طِينٍ﴾ ﴿مَّكِينٍ﴾ ﴿ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ سجع سائغ مقبول لا تكلف فيه.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أصل الإنسان وهو آدم أو الجنس فإنهم خلقوا من سلالات جعلت نطفاً ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ خلاصة سلت من بين التراب، من سللت الشيء من الشيء، أي استخرجته منه ﴿مِّن طِينٍ﴾ من: بيانية، أو متعلق بمحذوف لأنه صفة لسلالة ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ﴾ أي جعلنا نسله - نسل آدم، فحذف المضاف ﴿نُطْفَةً﴾ منياً، أي بأن خلقناه منها أو ثم جعلنا السلالة نطفة ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ مستقر حصين أو متمكن، يعني الرحم .﴿عَلَقَةً﴾ هي الدم الجامد ﴿مُضْغَةً﴾ أي صيرناها مضغة وهي قطعة لحم، قدر ما يمضغ. وخلقنا في المواضع الثلاثة بمعنى: صيرنا ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ بنفخ الروح فيه ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ تعالى شأنه في قدرته وحكمته وتقدس ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ المقدرين تقديراً، فحذف مميز ﴿أَحْسَنُ﴾ وهو خلقاً، لدلالة ﴿ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ عليه.

﴿لَمَيِّتُونَ﴾ لصائرون إلى الموت لا محالة ﴿تُبْعَثُونَ﴾ للحساب والجزاء.

سبب النزول:

نزول الآية (١٢):

أخرج ابن أبي حاتم عن عمر قال: وافقت ربي في أربع، نزلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ الآية، فقلت أنا: «فتبارك الله أحسن الخالقين».

المناسبة:

بعد أن أمر الله تعالى بالعبادات، أورد ما يدل على معرفة الإله الخالق المعبود، وذكر أربعة أنواع من دلائل وجوده وقدرته تعالى، واتصافه بصفات الجلال والوحدانية. وتلك الأدلة: هي خلق الإنسان، وخلق السماوات السبع، وإنزال الماء من السماء، وخلق الحيوانات لمنافع.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين، وهو آدم عليه السلام، خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون، ويبين تقلبه في أدوار تسعة للخلقة وهي:

أ - ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ أي لقد خلقنا أي أوجدنا الإنسان، وقلبناه في أدوار الخلقة وأطوار الفطرة، والمراد به جنس الإنسان وأصله من خلاصة سلت من طين لا كدر فيه، أو أول أفراده وهو آدم عليه السلام. وهذا دليل كافٍ على قدرة الله تعالى ووحدانيته واتصافه بكل صفات الكمال.

والراجح أن المراد بالإنسان هنا آدم عليه السلام؛ لأنه استل من الطين، وخلق منه، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٠].

٢ - ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ أي ثم جعلنا نسله أو جنس الإنسان نطفة من مني في أصلاب الذكور، ثم قذفت إلى أرحام الإناث، فصار في حرز مستقر متمكن حصين، ابتداء من الحمل إلى الولادة. وذلك كقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾ [السجدة: ٣٢/٧-٨] أي من ماء ضعيف، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات: ٧٧/ ٢٠-٢٣] .

٣ - ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي ثم حولنا النطفة عن صفاتها إلى صفة العلقة: وهي الدم الجامد. أو صيرنا النطفة وهي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل (وهو ظهره) وترائب المرأة (وهي عظام صدرها مابين الترقوة إلى السُّرّة) صيرناها علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة.

٤ - ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ أي ثم صيرنا الدم الجامد مضغة أي قطعة لحم، بمقدار ما يمضغ، وهي قطعة كبضعة لحم، لا شكل فيها ولا تخطيط. وسمي التحويل خلقاً؛ لأنه سبحانه يفني بعض الصفات، ويخلق صفات أخرى، وكأنه تعالى يخلق فيها أجزاء زائدة.

٥ - ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ أي صيرناها عظاماً يعني شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها.

٦ - ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ أي غطينا العظام بما يستره ويشده ويقويه وهو اللحم؛ لأن اللحم يستر العظم، فجعل كالكسوة لها.

٧ - ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ أي خلقاً مبايناً للخلق الأول، بأن نفخنا فيه الروح، فتحرك، وصار خلقاً آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب.

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ أي تعالى شأنه في قدرته وحكمته، وتنزه وتقدس الله أحسن المقدِّرين المصورين.

روى ابن أبي حاتم والطيالسي عن أنس قال: قال عمر: «وافقت ربي في أربع: قلت: يارسول الله، لو صلينا خلف المقام، فأنزل الله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾ [البقرة: ٢/١٢٥].

وقلت: يارسول الله، لو اتخذتَ على نسائك حجاباً، فإنه يدخل عليك البَرُّ والفاجر، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٥٣].

وقلت لأزواج النبي ﷺ: لتنتهُنَّ أو ليبدلنه الله أزواجاً خيراً منكن، فنزلت: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ [التحريم: ٦٦/٥].

ونزلت: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢﴾ الآية فقلت أنا: فتبارك الله أحسن الخالقين، فنزلت: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾.

٨ - ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ١٥﴾[1] أي ثم إنكم بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت.

٩ - ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ١٦﴾ أي ثم تبعثون من قبوركم للنشأة الآخرة للحساب والجزاء ثواباً وعقاباً، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٢٠] يعني يوم المعاد.

وفي هاتين الآيتين جعل الله سبحانه الإماتة التي هي إعدام الحياة، والبعث الذي هو إعادة الحياة بعد الإفناء والإعدام دليلين على قدرته بعد الإنشاء والاختراع.

(١) وقرئ «لمائتون» والفرق بين الميت والمائت: أن الميت كالحي صفة ثابتة، وأما المائت فيدل على الحدوث، تقول: زيد ميت الآن، ومائت غداً.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على خلق الإنسان، وخلْقُه ومروره في المراحل التسع المذكورة دليل واضح على وجود الله تعالى ووحدانيته وقدرته العظمى.

فقد بدأ الله تعالى خلق آدم عليه السلام من طين أو تراب، ثم جعل ابن آدم مخلوقاً من نطفة (مني) يلتقي مع مني المرأة، فيبدأ تخلق الجنين، ثم تتحول النطفة إلى علقة (دم متخثر) ثم تصبح مضغة (قطعة لحم) ثم تصير عظاماً، ثم تكسى العظام باللحم الذي تظهر فيه ملامح الإنسان، ثم يصير خلقاً جديداً مبايناً للخلق الأول بنفخ الروح الحركية فيه بعد أن كان جماداً.

فتبارك وتعالى الله أحسن الخالقين وأتقن الصانعين، لهذا الإبداع والإنشاء العظيم: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٦/١٧] .

وبعد هذه المراحل السبع، وولادة الإنسان، وتمتعه بالحياة المقدرة له، أي بعد الخلق والحياة تحدث نهاية الإنسان بالموت، ثم يأتي البعث بعد الموت، وكلٌ من الخلْق الأول (النشأة الأولى) ثم الإماتة (إعدام الحياة) ثم البعث (إعادة ما أفني وأعدم) دليل قاطع على قدرة الله تعالى.

والآيات صريحة في أن الله وحده هو الخالق، وهو المحيي، وهو المميت، وهو الباعث، والله هو الحق، ووعده بالبعث حق، والجنة حق، والنار حق. وذلك كله لإثبات البعث الذي ينكره المشركون والملحدون الماديون الذين يرون أن الدنيا هي نهاية المطاف، وألا حياة أخرى بعدئذ، وإنكارهم الحياة الآخرة وإنكار وجود الله أو وحدانيته هو مذهب المادية، وعقيدة الجاهلية، وأسّ الكفر وعماده.

أما أهل الإيمان فهم الذين يشكرون ربهم الخالق الذي أنعم عليهم بنعمة الإيجاد والإحياء والرزق، وهم الذين يبادرون إلى أداء التكاليف التي كلف

الله بها عباده بعد أن أصبحوا قادرين على تحمل التكليف، ثم لابد من مجيء يوم القيامة والبعث بعد الموت لتسلم الجائزة الكبرى على العمل الصالح، ومجازاة المؤمنين بالجنة، وعقوبة الكافرين بالنار.

روى ابن أبي شيبة في مسنده أن ابن عباس استنبط شيئاً من هذه الآية، فقال لعمر حين سأل مشيخة الصحابة عن ليلة القدر، فقالوا: الله أعلم؛ فقال عمر: ما تقول يا ابن عباس؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى خلق السماوات سبعاً، والأرضِين سبعاً، وخلق ابن آدم من سبع، وجعل رزقه في سبع، فأُراها في ليلة سبع وعشرين، فقال عمر رضي الله عنه: أعجزكم أن تأتوا بمثل ما أتى هذا الغلام الذي لم تجتمع شؤون رأسه.

أراد ابن عباس بقوله: «خلق ابن آدم من سبع» مراحل خلق الإنسان المفهومة من هذه الآية، وبقوله: «وجعل رزقه في سبع» قوله: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾﴾ السبع منها لابن آدم، والأب: العشب للأنعام، والقضب: البقول، وقيل هو للأنعام.

- ٢ -

خلق السماوات وإنزال الأمطار وتسخير الأنعام

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

القراءات:

﴿سَيْنَآءَ﴾ :

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (سِينَاء).

﴿تَنۢبُتُ﴾ :

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (تُنْبِت).

﴿نُّسْقِيكُم﴾ :

وقرأ نافع، وابن عامر (نَسقيكم).

الإعراب:

﴿وَشَجَرَةً﴾ معطوف بالنصب على ﴿جَنَّٰتٍ﴾ أي فأنشأنا لكم به جنات وشجرة تخرج من طور سيناء.

و ﴿سَيْنَآءَ﴾ ممنوع من الصرف للتأنيث ولزومه، أي للعلمية والتأنيث، أي تأنيث البقعة.

و ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ من قرأ بفتح التاء جعل الباء للتعدية، ومن قرأ بالضم جعله من أنبت، وفي الباء ثلاثة أوجه: التعدية، وتكون أنبت بمعنى نبت، أو تكون زائدة؛ لأن الفعل متعد بالهمزة، أو تكون للحال، ومفعوله محذوف، أي تنبت ما تنبت ومعه الدهن.

البلاغة:

﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ استعارة، شبهت السماوات بطبقات النعل؛ لأنه طورق بعضها فوق بعض، كمطارقة النعل، وكل شيء فوقه مثله، فهو طريقة.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ﴾ في تنكير ﴿ذَهَابٍۭ﴾ إيماء إلى كثرة طرقه، ومبالغة في الإبعاد به.

المفردات اللغوية:

﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ أي سبع سماوات، والطرائق: جمع طريقة؛ سميت بذلك لأنه طورق بعضها فوق بعض، مطارقة النعل، وكل ما فوقه مثله فهو طريقة، أو لأنها طرق الملائكة. وقيل: المراد بالطرائق: الأفلاك؛ لأنها طرائق الكواكب فيها مسيرها. والأول أصح، قال الخليل والزجاج: وهذا كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ [نوح: ٧١/ ١٥] وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦٥/ ١٢] الآية، أي فالطرائق والطباق بمعنى واحد.

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ﴾ أي المخلوقات التي منها السماوات السبع ﴿غَٰفِلِينَ﴾ مهملين أمرها، بل نحفظها من الزوال والاختلال، وندبر أمرها حتى تبلغ منتهى ما قدّر لها من الكمال، بحسب الحكمة والمشيئة الإلهية، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٢٢/ ٦٥] .

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ السماء هنا: السحاب ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي بمقدار معلوم، وهو مقدار كفايتهم ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي جعلناه ثابتاً مستقراً فيها ﴿ذَهَابٍۭ بِهِۦ﴾ أي على إزالته، إما بتغويره في الأرض بحيث يتعذر إخراجه، أو بتغيير صفة المائية إلى عنصر آخر ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ أي كما كنا قادرين على إنزاله، وحينئذ يموتون مع دوابهم عطشاً ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ هما أكثر فواكه العرب ﴿لَّكُمْ فِيهَا﴾ في الجنات ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي ومن الجنات تأكلون ثمارها وزروعها، صيفاً وشتاء.

﴿وَشَجَرَةً﴾ أي وأنشأنا شجرة هي شجرة الزيتون ﴿طُورِ سَيْنَآءَ﴾ جبل موسى بين مصر وأيلة، وقيل: إنه بفلسطين، فهو جبل الطور الذي ناجى فيه موسى ربه، ويسمى طور سينين أيضاً ﴿وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ معطوف على الدهن، أي إدام يصبغ فيه الخبز أي يغمس فيه للائتدام، وهو زيت الزيتون.

﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الإبل والبقر والغنم ﴿لَعِبْرَةً﴾ عظة تعتبرون بها ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾ أي اللبن ﴿مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ من الأصواف والأوبار والأشعار وغير ذلك ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي من الأنعام تأكلون، فتنتفعون بأعيانها ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي في البر والبحر.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى النوع الأول من دلائل قدرته وهو خلق الإنسان، أتبعه بذكر أنواع ثلاثة أخرى من تلك الدلائل وهي خلق السماوات السبع، وإنزال الماء من السماء وتأثيره في إنبات النبات، ومنافع الحيوانات وهي هنا أربعة أنواع: الانتفاع بالألبان، وبالصوف، وباللحوم، وبالركوب، وذلك كله مما يحتاج إليه الإنسان في بقائه.

التفسير والبيان:

خلق السماوات:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ أي تالله لقد خلقنا فوقكم يابني آدم سبع سماوات طباقاً، بعضها فوق بعض، وهي أيضاً مسارات الكواكب.

وكثيراً ما يقرن الله تعالى خلق السماوات والأرض، مع خلق الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٤٠/٥٧] وهكذا في أول سورة السجدة ﴿الٓمٓ ۝١﴾ التي كان رسول الله ﷺ يقرأ بها في صبيحة يوم الجمعة، في أولها خلق السماوات والأرض، ثم بيان خلق الإنسان، وفيها أمر المعاد والجزاء.

ونظير الآية كما تقدم: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥﴾ [نوح: ٧١/١٥] وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢﴾ [الطلاق: ٦٥/١٢].

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ أي وما كنا مهملين أمر جميع المخلوقات التي منها السماوات، بل نحفظها لكفالة بقائها واستمرارها، ونحن نعلم كل مايحدث فيها من صغير أو كبير، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٥٧/٤] وقال سبحانه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٦/٥٩].

المطر والنبات:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ أي وأنزلنا من السحاب

مطراً بقدر الحاجة والكفاية للشرب والسقي، لا كثيراً يفسد الأرض والعمران، ولا قليلاً لا يكفي الزرع والثمار، حتى إن الأراضي التي تحتاج ماءً كثيراً لزرعها، ولا تحتمل تربتها إنزال المطر عليها، يساق الماء إليها من بلاد أخرى، كأرض مصر التي يقال لها: الأرض الجرُز، يأتي حاملاً معه الطين الأحمر «الغِرْيَن» من بلاد الحبشة، فيستقر الطين فيها للزراعة فيه، فتغطى الرمال به، وهي ما يغلب في تلك الأرض.

وجعلنا الماء إذا نزل من السحاب يستقر في الأرض، وجعلنا في الأرض قابلية له، فيتغذى به ما فيها من الحب والنوى، ومنه تنبع الأنهار والآبار.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ أي ولو شئنا إزالته وتصريفه عنكم وتغويره لفعلنا، كما أنا قادرون على إنزاله. وكذلك لو شئنا لجعلناه ملحاً أُجاجاً لا ينتفع به في الشرب والسقي، ولو شئنا ألا يمطر السحاب لفعلنا، ولو شئنا أن يبقى على سطح الأرض لفعلنا، ولكن لرحمتنا ولطفنا بكم أسكناه في الأرض بمثابة خزانات، لتأخذوا منه عند الحاجة، وتسقوا به زرعكم وثماركم وأنفسكم ودوابكم، وتنتفعوا به بسائر وجوه الانتفاع من غسل وتطهر وتنظيف وتبرد ونحو ذلك.

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ أي فأخرجنا لكم بما أنزلنا من السماء جنات أي بساتين وحدائق ذات بهجة أي ذات منظر حسن، وفيها النخيل والأعناب، وهذا أغلب فواكه العرب.

﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي لكم في الجنات فواكه متنوعة كثيرة، من جميع الثمار، عدا النخيل والأعناب، وتأكلون من ثمار الجنات وتنتفعون بها، وترزقون وتتعيشون.

وقوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كأنه معطوف على شيء مقدر، تقديره: تنظرون إلى حسنه ونضجه، ومنه تأكلون.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ﴾ أي وأنشأنا لكم شجرة الزيتون التي تنبت في جبل الطور، وتأتي بالدهن وهو الزيت، وتتخذ إداماً ينتفع به الآكلون بالدهن والاصطباغ.

روى الإمام أحمد عن أبي أُسيد مالك بن ربيعة الساعدي الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُوا الزيتَ وادّهنوا به، فإنه من شجرة مباركة» ورواه الترمذي عن عمر رضي الله عنه.

أحوال الأنعام:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ أي وإن لكم أيها الناس في خلق الإبل والبقر والغنم وما فيها من المنافع لعظة تعتبرون بها ونعمة تستحق الشكر والتقدير والاستدلال على قدرة الله تعالى، بتحويل الدم المتولد من الغذاء في الغدد إلى لبن طيب سائغ شرابه، كامل التغذية. وتلك المنافع كثيرة ذكر منها هنا أربعة أنواع هي:

١ - ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ أي تشربون من ألبانها الخارجة من بين فرث ودم، وتتخذون منها السمن والجبن وغير ذلك، وتنتج لكم الحملان.

٢ - ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ أي وتستفيدون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، وتتخذون منها الملابس والفُرُش.

٣ - ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي وتأكلون من لحومها بعد ذبحها، فتنتفعون بها حية وبعد الذبح.

٤ - ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي وتركبون ظهورها وتحملون عليها الأحمال الثقال إلى البلاد والبقاع النائية، كما تنتفعون بالسفن، كما قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [النحل: ١٦/٧] وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا

لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٧١-٧٣].

والامتنان بهذه النعم الجليلة بقصد الإرشاد إلى الخالق، وتعرف قدرة الله تعالى.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - استنبط الإمام الرازي من الآية الأولى في خلق السماوات ستة أحكام هي:

أ - إنها دالة على وجود الإله الصانع، فإن تحول الأجسام من صفة إلى صفة أخرى مغايرة للأولى يدل على أنه لابد من محول ومغير.

ب - إنها تدل على فساد القول بالطبيعة؛ لأن الطبيعة تقضي ببقاء الأشياء على حالها وعدم تغيرها، فإذا تغيرت تلك الصفات، دل على احتياج الطبيعة إلى خالق وموجد.

جـ - تدل على أن المدبر قادر عالم؛ لأن الجاهل لا يصدر عنه هذه الأفعال العجيبة.

د - تدل على أنه تعالى عالم بكل المعلومات، قادر على كل الممكنات.

هـ - تدل على جواز الحشر والنشر؛ لأنه لما كان تعالى قادراً عالماً، وجب أن يكون قادراً على إعادة تركيب الأجزاء كما كانت.

و - إن معرفة الله تعالى يجب أن تكون استدلالية لا تقليدية، وإلا لكان ذكر هذه الدلائل عبثاً[١].

٢ - دلت الآية الثانية في إنزال المطر على نعمة عظمى تستحق التقدير هي الماء الذي هو حياة الأبدان ونماء الحيوان، فالماء في نفسه نعمة، وهو أيضاً سبب لحصول النعم من إنبات النبات، وسقي الإنسان والحيوان.

والمراد بماء السماء المنزل المختزن وغير المختزن: هو الماء العذب غير الأجاج المالح.

وإنزال الماء بقدر، أي على قدر مصلح موافق للحكمة والحاجة؛ لأنه لو كثر أهلك، كقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٢١] .

وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ أي الماء المختزن في الأرض: تهديد ووعيد، أي في قدرة الله إذهابه وتغويره، ويهلك الناس بالعطش وتهلك مواشيهم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك: ٦٧/ ٣٠] وغوراً: أي غائراً.

وكل ما نزل من ماء السماء مختزناً أو غير مختزن هو طاهر مطهر، يغتسل به ويتوضأ منه.

٣ - من آثار الماء جعله سبب النبات، فهو ينبت أشرف الثمار، وهي الرطب والأعناب، وينبت غير ذلك من الفواكه، ولا فرق في الفاكهة بين الطري واليابس.

وبالماء تنبت الأشجار، ومن أبرك الأشجار ما ذكر في الآية وهو شجرة

(١) تفسير الرازي: ٢٣/ ٨٨

الزيتون التي أنبتها الله في الأصل من جبل الطور في سيناء الذي بارك الله فيه، وطور سيناء: من أرض الشام، هو الجبل الذي كلم الله عليه موسىٰ عليه السلام. وإنما خص النخيل والأعناب بالذكر؛ لأنهما المعروفان المشهوران عند العرب كثيراً.

وزيت الزيتون يصلح للادهان به وللائتدام به، لذا كان المراد بالآية: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ تعداد نعمة الزيت على الإنسان، وبيان وجوه الانتفاع به، ففي الزيت شفاء لكثير من الأمراض الجلدية الظاهرة، والباطنية الداخلية، فيدهن به الجلد فتتقوى بصلة الشعر، ويؤكل مع الخبز إداماً، وكل إدام يؤتدم به فهو صِبْغ.

٤ - ذكر الله تعالى للأنعام (الإبل والبقر والغنم) أربع منافع: هي الانتفاع بالألبان، والانتفاع بالأصواف للباس والأثاث والفرش، وللبيع والاستفادة من الأثمان، والانتفاع من اللحوم بالأكل بعد الذبح، كالانتفاع بها حية، والانتفاع بالركوب على الإبل في البر والحمل عليها كالانتفاع بالفلك (السفن) في البحر، وهذا دليل على أن الركوب راجع إلى بعض الأنعام.

روي أن رجلاً ركب بقرة في الزمان الأول، فأنطقها الله تعالى معه، فقالت: إنا لم نخلق لهذا! وإنما خلقت للحرث (أي العمل الزراعي).

القصة الأولى - قصة نوح عليه السلام

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾

القراءات:

﴿إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾:

وقرأ الكسائي (إله غيرِه).

﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾:

وهي قراءة حفص، وقرأ الباقون: (من كلِّ زوجَين).

الإعراب:

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ ﴿غَيْرُهُۥٓ﴾: اسم ﴿مَا﴾، وما قبله: الخبر، و﴿مِّنْ﴾: زائدة. ﴿مُنزَلًا﴾ مصدر لفعل رباعي وهو (أنزل) وتقديره: أنزلني إنزالاً مباركاً، ويجوز أن يكون اسم مكان. وقرئ بفتح الميم (مَنْزِلاً) وهو مصدر لفعل ثلاثي وهو (نزل) ويجوز أن يكون أيضاً اسم مكان.

﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾: ﴿وَإِن﴾: مخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، وتقديره: وإنّه كنا لمبتلين. وذهب الكوفيون إلى أنّ ﴿وَإِن﴾ بمعنى (ما) واللام بمعنى (إلا) وتقديره: ما كنا مبتلين.

البلاغة:

﴿أَصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ استعارة، عبَّر عن الحفظ والرعاية أو الحراسة بالصنع على الأعين؛ لأن الحافظ للشيء يديم مراعاته في الأغلب بعينيه.

﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ كناية عن الشدة، مثل: حمي الوطيس. وقيل: المراد بالتنور وجه الأرض مجازاً.

﴿أَنزِلْنِى مُنزَلًا﴾ جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أطيعوا الله ووحدوه. ﴿تَتَّقُونَ﴾ تخافون عقوبته بعبادتكم غيره. ﴿ٱلْمَلَؤُا۟﴾ أشراف القوم، قالوا للعوام. ﴿يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ يطلب الفضل والسيادة عليكم، بأن يكون متبوعاً وأنتم أتباعه. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي لو شاء أن يعبد غيره وأن يرسل رسولاً لأنزل ملائكة بذلك، لا بشراً. ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي دعا إليه نوح من التوحيد. ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الأمم الماضية. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ أي ما نوح إلا رجل به حالة جنون وضعف عقل. ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ﴾ انتظروه واحتملوه. ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي إلى زمن لعله يفيق من جنونه، أو إلى زمن موته.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ أي قال نوح بعد يأسه من إيمانهم: ربِّ انصرني عليهم ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي بسبب تكذيبهم إياي، بأن تهلكهم. ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أي أمرناه إجابة لدعائه. ﴿أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ السفينة. ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ بحفظنا ورعايتنا. ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أي أمرنا وتعليمنا. ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بالركوب أو

نزول العذاب والإهلاك .﴿وَفَارَ﴾ نبع .﴿ٱلتَّنُّورُ﴾ أي مكان خبز الخباز أو وجه الأرض، وكان نبع الماء منه علامة لنوح عليه السلام .﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ أي أدخل في السفينة .﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ أي من كل صنفين: ذكر وأنثى من أنواع الحيوان الموجود وقتئذٍ .﴿ٱثْنَيْنِ﴾ ذكراً وأنثى، أي خذ معك على السفينة من كل نوع من أنواع الحيوان صنفاً من الذكور وصنفاً من الإناث، كالجمال والنوق، مزدوجين. وقراءة حفص ﴿مِن كُلٍّ﴾ أي من كل نوع زوجين. و﴿ٱثْنَيْنِ﴾: تأكيد وزيادة تأكيد.

﴿وَأَهْلَكَ﴾ أهل بيتك، أو من آمن معك .﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي إلا من قضي عليه القول من الله بهلاكه لكفره وهو زوجته وولده كنعان، بخلاف سام وحام ويافث، فأخذهم مع زوجاتهم الثلاثة. قيل: كانوا ستة رجال مع نسائهم، وقيل: جميع من كان في السفينة ثمانية وسبعون، نصفهم رجال، ونصفهم نساء. وقد عبّر بعلى في قوله: ﴿مَن سَبَقَ عَلَيْهِ﴾ لأن المقضي به ضارّ، كما عبّر باللام حيث كان المقضي به نافعاً في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠١].

﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ كفروا بترك إهلاكهم .﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ لا محالة، لظلمهم بالإشراك والمعاصي، ومن كان هذا شأنه لا يشفع له، ولا يشفع فيه .﴿ٱسْتَوَيْتَ﴾ اعتدلت وعلوت .﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين، والنجاة: هي من إهلاكهم.

﴿وَقُل﴾ عند نزولك من الفلك .﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ أي اجعل إنزالي أو مكانه إنزالاً أو مكاناً مباركاً، أي فيه الخير والبركة .﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ ثناء مطابق لدعائه، أمره به توسلاً إلى الإجابة. وإنما أفرده بالأمر مع شموله من آمن معه إظهاراً لفضله والاكتفاء بدعائه عن دعائهم .﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من فعل نوح والسفينة، وفعل قومه وإهلاكهم .﴿لَأَيَٰتٍ﴾ دلالات على قدرة

الله تعالى .﴿لَمُبْتَلِينَ﴾ مختبرين ممتحنين قوم نوح بإرساله إليهم ووعظه، أي معاملتهم معاملة من يختبر.

المناسبة:

الارتباط بين هذه الآيات وبين ما قبلها جارٍ على وفق العادة في سائر الآيات، بذكر قصص الأنبياء بعد بيان أدلة التوحيد، والقصد هو بيان كفران الناس بعد تعداد النعم المتلاحقة عليهم، وما حاق بهم من زوالها.

فبعد أن ذكر الله تعالى دلائل التوحيد من خلق الإنسان، والحيوان، والنبات، وخلق السماوات والأرض، وعدّد نعمه على عباده، ذكر هنا الحالات المماثلة لكفار مكة من المكذبين من الأمم السابقة، فذكر خمس قصص: هي قصة نوح، وقصة هود، وقصة صالح ولوط وشعيب، وقصة موسى وهارون وفرعون، وقصة عيسى وأمه.

التفسير والبيان:

يبين الله تعالى موقف نوح عليه السلام مع قومه حينما أنذرهم عذاب الله، وبأسه الشديد، وانتقامه ممن أشرك به، وخالف أمره، وكذب رسله، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

أي ولقد بعثنا نوحاً إلى قومه، فأمرهم بعبادة الله وحده لاشريك له، وقال لهم: ألا تتقون، أي ألا تخافون من الله في إشراككم به؟

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي فقال السادة والأكابر منهم: ما نوح إلا بشر مثلكم، ورجل منكم، يريد أن يترفع عليكم ويتعاظم بدعوى النبوة، وليس له ميزة في علم ولا خلق، فكيف يكون نبياً يوحى إليه دونكم وهو مثلكم؟!

وموانع نبوته هي:

١ - ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي ولو أراد الله أن يبعث نبياً، لبعث أحد الملائكة من عنده، لأداء رسالته، ولم يكن بشراً، فإن إنزال الملك أدعى للإيمان، وأدل على الصدق. وهذا ناشئ من تصورهم سمو الرسالة التي تقتضي جعلها في عنصر أسمى من البشر وهم الملائكة، وأنه لا يمكن تكليف البشر بالرسالة الإلهية.

٢ - ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي ما سمعنا ببعثة البشر في عهد الأسلاف والأجداد في الدهور الماضية. وهذا ناشئ من اعتمادهم في العقيدة على التقليد، وإصرارهم على الكفر والعناد.

٣ - ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ أي وما نوح إلا رجل مجنون فيما يزعمه أن الله أرسله إليكم، واختصه من بينكم بالوحي.

﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي انتظروا به ريب المنون، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه، أو ييأس فيرجع إلى دينكم، أو يفيق من جنونه. وهذا مجرد مكابرة، فهم عرفوا نوحاً برجحان عقله، واتزان قوله، واستقامة سيرته.

ولما يئس نوح من إجابة دعوته، وصبر على قومه ألف سنة إلا خمسين، فلم يؤمن معه إلا القليل، أوحى الله إليه أن يدعو ربه لنصره عليهم فقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾ أي قال نوح: ربِّ انصرني على هؤلاء القوم، وأهلكهم بسبب تكذيبهم إياي، كما جاء في آية أخرى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ٥٤/١٠] ، وقوله أيضاً: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٧١/٢٦] .

فأجاب الله دعاءه وأمره بصنع السفينة فقال:

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أي فأمرناه بأن يصنع السفينة بحفظنا ورعايتنا، وتعليمنا وإرشادنا كيفية الصنع.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ﴾ أي فإذا حان وقت قضائنا بالعذاب والهلاك، ونبَع الماء من وجه الأرض أو من التنور المخصص للخبز، فاحمل في السفينة فردين مزدوجين ذكراً وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك، واحمل فيها أيضاً أهل بيتك، أو كل من آمن معك، وهذا المعنى هو الأرجح، إلا من سبق عليه القول من الله بالهلاك، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله كابنه وزوجته، وهو كنعان وأمه.

روي أنه قيل لنوح عليه السلام: إذا رأيت الماء يفور من التنور، فاركب أنت ومن معك في السفينة، فلما نبع الماء من التنور، أخبرته امرأته، فركب.

﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ أي ولا تسألني ولا تتشفع في الذين كفروا، ولا تأخذنك رأفة في قومك، فإني قد قضيت أنهم مغرقون، بسبب ما هم عليه من الكفر والطغيان، أي إن الغرق نازل بهم لا محالة.

ثم أمره الله أن يحمده ويثني عليه بعد ركوب السفينة:

﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ﴾ أي فإذا استقر بك وبمن معك من المؤمنين المقام في السفينة، فقل أنت وهم: الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين، أي أنقذنا من هؤلاء الكافرين المشركين الظلمة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان في السفينة ثمانون إنساناً، نوح وامرأته سوى التي غرقت، وثلاثة بنين: سام وحام ويافث، وثلاث نسوة لهم، واثنان وسبعون إنساناً، فكل الخلائق نسل من كان في السفينة.

ثم أمره أيضاً أن يدعوه بعد خروجه من السفينة دعاء مقروناً بالثناء فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٢٩﴾ أي وقل عند النزول من السفينة: ربِّ أنزلني إنزالاً مباركاً أو مكاناً مباركاً، يبارك لي فيه، وأعطى

الزيادة في خير الدارين، وأنت خير من أنزل عباده المنازل الطيبة؛ لأنك تحفظ من أنزلته في سائر أحواله، وتدفع عنه المكاره، بحسب ما تقتضيه الحكمة.

وهذا وما قبله تعليم لذكر الله عند ابتداء السير وانتهائه، قال قتادة: علَّمكم الله أن تقولوا عند ركوب السفينة: ب﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ١١/ ٤١] ، وعند ركوب الدابة: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ١٣] أي مطيقين، وعند النزول: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾ أي إن في هذا الصنيع وهو إنجاء المؤمنين، وإهلاك الكافرين لدلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاؤوا به عن الله تعالى، وإنا لمختبرون بهذه الآيات عبادنا، لننظر من يعتبر ويتذكر، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ [القمر: ٥٤/ ١٥] . وقيل: أي نعاملهم معاملة المختبرين.

وتقدمت القصة بتفصيل أكثر في سورة هود عليه السلام.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه القصة واضحة الدلالة كغيرها من القصص القرآني على أن نزول العذاب: عذاب الاستئصال والهلاك كان بسبب العناد والإصرار على الكفر، وملازمة الشرك والوثنية.

فهذا نوح عليه السلام مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين يدعوهم لعبادة الله وحده لاشريك له، وينذرهم بأس الله وانتقامه ممن أشرك به، وكذب رسله، قائلاً لهم: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي أفلا تخافون عذاب الله، وتتقون عقابه؟ وهو زجر ووعيد ليقلعوا عما هم عليه.

فما كان منهم إلا إنكار نبوته معتمدين على شبهات خمس هي:

الأولى - إنكار كون النبي أو الرسول بشراً مماثلاً لغيره في البشرية، ومساوياً لسائر الناس في القوة والفهم والعلم، والغنى والفقر، والصحة والمرض، والرسول لا بد أن يكون عظيماً عند الله تعالى، ومتصفاً بصفات تجعل له منزلة عليا ودرجة رفيعة وعزة سامية.

واتهموه بناء عليه بطلب الزعامة والرئاسة والترفع والسيادة عليهم.

الثانية - طلب أن يكون النبي مَلَكاً، فلو شاء الله إرشاد البشر، لوجب إرسال ملَك من الملائكة يحقق المقصود بنحو أفضل وأسرع وأنجع من بعثة البشر؛ لأن الملائكة لعلو شأنهم وشدة سطوتهم ينقاد الناس إليهم.

الثالثة - الخروج عن سنة الآباء والأسلاف، فهم لا يعرفون غير التقليد واتباع سلوك الآباء، فلما وجدوا في طريقة نوح عليه السلام خروجاً عن المألوف، حكموا ببطلان نبوته.

الرابعة - اتهامه من قبل الرؤساء بالجنون، للترويج على العوام، بسبب فعله أفعالاً على خلاف عاداتهم، ومن كان مجنوناً لا يصلح أن يكون رسولاً.

الخامسة - الصبر عليه وتركه لعاديات الزمان، فإنه إن كان نبياً حقاً، فالله ينصره ويقوي أمره، وحينئذٍ يتبعونه، وإن كان كاذباً فالله يخذله ويبطل أمره، فحينئذٍ نستريح منه.

ولم يجب الله تعالى عن هذه الشبه لسخافتها وسطحيتها، فإن جعل الرسول من جملة البشر أولى، لما بينه وبين غيره من الألفة والمؤانسة؛ وإن قصد الزعامة والسيادة يتنافى مع سمو الأنبياء، فهم منزهون عن هذه المقاصد الدنيوية الزائلة؛ وأما التقليد فهو دليل القصور العقلي، وتعطيل موهبة الفكر والرأي الحر؛ وأما اتهامه بالجنون فيناقضه أنهم كانوا يعلمون بداهةً كمال عقله ورجاحة رأيه؛ وأما التربص به إلى حين ففي غير صالحهم؛ لأنه إن ظهرت

الدلالة على نبوته بالمعجزة وجب عليهم قبول قوله في الحال، وإن لم يأت بمعجزة فلا يقبل قوله.

ولما تهاوت حججهم، وأصروا على كفرهم، أمر الله نوحاً بالدعاء عليهم والانتقام ممن لم يطعه، ولم يسمع رسالته، وأرسل له رسولاً يوحي إليه بصناعة السفينة، فإذا تم صنعها فليأخذ من كل الأصناف زوجين: ذكراً وأنثى، حفاظاً على أصول المخلوقات.

ثم أمره الله أولاً بأن يحمد الله هو ومن معه على النجاة وتخليصه من القوم الظالمين ومما أحاط بهم من الغرق، والحمد لله: كلمة كل شاكر لله.

وثانياً بأن ينزله مع المؤمنين إنزالاً مباركاً أو موضعاً طيباً مباركاً، يهيئ الله به خير الدارين.

وهذا تعليم من الله عزّ وجلّ لعباده إذا ركبوا وإذا نزلوا: أن يقولوا هذا: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ وكذلك إذا دخلوا بيوتهم وسلّموا على أهليهم، أو على الملائكة إذا لم يوجد الأهل.

والخلاصة وعبرة القصة: إن في أمر نوح والسفينة وإهلاك الكافرين لدلالات على كمال قدرة الله تعالى، وإنه ينصر أنبياءه، ويهلك أعداءهم، وإنه تعالى يختبر الأمم بإرسال الرسل إليهم ليظهر المطيع والعاصي.

القصة الثانية - قصة هود عليه السلام

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

القراءات:

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟﴾:

قرئ:

١- (أنِ اعبُدُوا) وهي قراءة أبي عمرو، وعاصم، وحمزة.

٢- (أنُ اعبدوا) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾:

وقرأ الكسائي (إله غيرِه).

﴿مِتُّمْ﴾:

قرئ:

١- (مِتُّم) وهي قراءة نافع، وحفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (مُتُّم) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ﴾ ﴿مَا﴾: خبرية.

﴿يَأْكُلُ مِمَّا﴾ ما: فيها وجهان: أن تكون مع الفعل بعدها في تأويل المصدر، أو تكون بمعنى الذي، فتفتقر إلى عائد، وتقديره: مما تشربونه، وحذف تخفيفاً. ﴿مُّخْرَجُونَ﴾ ﴿أَنَّكُمْ﴾: إما بدل من الأُولى، والتقدير: أيعدكم أن إخراجكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً، وإما تأكيد للأُولى، وإما في موضع رفع بالظرف، وهو ﴿إِذَا﴾ على قول الأخفش، وعامل ﴿إِذَا﴾ مقدر، تقديره: أيعدكم وقت موتكم وكنتم تراباً إخراجكم، فيكون الظرف وما رفع به خبر (أن). و﴿مُّخْرَجُونَ﴾: خبر أنكم الأولى.

﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ اسم لبُعْد، وهو فعل ماضٍ، فكان مبنياً، وفاعله مقدر، تقديره: هيهات إخراجكم، هيهات إخراجكم.

﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ أي عن قليل، وما: زائدة، وعن: تتعلق بفعل مقدر يفسره قوله: ﴿لَّيُصْبِحُنَّ﴾.

البلاغة:

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ بينهما طباق.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ تشبيه بليغ، أي كالغثاء في سرعة زواله، حذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أسلوب إطناب للذم وبيان أنواع القبائح.

﴿تَتَّقُونَ﴾، ﴿تَشْرَبُونَ﴾، ﴿لَّخَاسِرُونَ﴾، ﴿مُّخْرَجُونَ﴾، ﴿تُوعَدُونَ﴾ سجع لطيف.

المفردات اللغوية:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾ ﴿قَرْنًا﴾: قوماً أو أمة أو جماعة مجتمعة في زمان واحد، سموا بذلك لتقدمهم على من بعدهم تقدم القرن على الحيوان. والمراد بهم قوم هود، لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٧/ ٦٩] . ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ هو هود عليه السلام، وإنما جعل القرن موضع الإرسال ليدل على أنه لم يأتهم من مكان غير مكانهم، وإنما أوحي إليه وهو بين أظهرهم .﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي بأن اعبدوا الله، أو قلنا لهم على لسان الرسول: اعبدوا الله .﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عقابه فتؤمنوا.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ أشراف القوم ورؤساؤهم .﴿وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بالمصير إليها، أو لقاء ما فيها من الثواب والعقاب .﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾ نعمناهم، أي وسَّعنا عليهم وجعلناهم في ترف ونعيم .﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بكثرة الأموال والأولاد. ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ في الصفة والحال .﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ تقرير للمماثلة.

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ فيما يأمركم، أي والله لئن أطعتم، فيه قسم وشرط، وجواب أولهما، وهو مغنٍ عن جواب الثاني هو: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا﴾ أي إذا أطعتموه ﴿لَّخَاسِرُونَ﴾ مغبونون في آرائكم، حيث أذللتم أنفسكم لأمثالكم.

﴿وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ أي مجردة عن اللحوم والأعصاب .﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ من الأجداث أو من العدم تارة أخرى إلى الوجود، وأنكم هذه تأكيد الأولى لما طال الفصل .﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ اسم فعل ماض بمعنى مصدر

أي بَعُد بَعُد التصديق أو الصحة .﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ من الإخراج من القبور والبعث والحساب، واللام زائدة للبيان.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾ أي ما الحياة إلا حياتنا الدنيا .﴿وَنَحْيَا﴾ بحياة آبائنا، يموت بعضنا ويولد بعض .﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت .﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما الرسول .﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما يدعيه من الرسالة .﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين بالبعث بعد الموت.

﴿رَبِّ انصُرْنِي﴾ عليهم وانتقم لي منهم .﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ بسبب تكذيبهم إياي .﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ أي بعد زمان قليل .﴿لَّيُصْبِحُنَّ﴾ ليصيرن .﴿نَادِمِينَ﴾ على كفرهم وتكذيبهم .﴿الصَّيْحَةُ﴾: الصوت الشديد، وهي صيحة العذاب والهلاك، وهي صيحة جبريل، صاح عليهم صيحة هائلة تصدعت منها قلوبهم فماتوا .﴿بِالْحَقِّ﴾ بالوجه الثابت الذي لا دافع له .﴿غُثَاءً﴾ شبههم في دمارهم بغثاء السيل، وهو ما يحمله من الورق والعيدان اليابسة، وأصل الغثاء: نبت يبس، أي صيرناهم مثله في اليبس .﴿فَبُعْدًا﴾ من الرحمة وهلاكاً. ﴿لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ المكذبين.

المناسبة:

هذه هي القصة الثانية في هذه السورة، وهي قصة هود عليه السلام، في قول ابن عباس رضي الله عنهما وأكثر المفسرين؛ لقوله تعالى في سورة الأعراف حكاية لقول هود: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ ومجيء قصة هود عقيب قصة نوح في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء.

وقال بعضهم: المراد بهم صالح وثمود؛ لأن قومه الذين كذبوه هم الذين هلكوا بالصيحة، والعقاب المذكور هنا هو الصيحة، فالقصة هي قصة صالح عليه السلام.

التفسير والبيان:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي ثم أوجدنا من بعد قوم نوح الهلكى قوماً آخرين، هم عاد قوم هود عليه السلام، فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم، وقيل: المراد ثمود، لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ﴾. فأرسل الله تعالى فيهم رسولاً منهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فكذبوه وخالفوه وأبوا اتباعه لكونه بشراً مثلهم، فقال لهم: أفلا تتقون وتخافون عقاب الله بعبادتكم غيره من وثن أو صنم، فإن العبادة لا تنبغي إلا له، ولا يستحقها غيره؟!

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي قال أشراف قومه المتصفون بصفات ثلاث هي شر الصفات:

أولها - الكفر بالخالق وجحود وحدانيته.

ثانيها - الكفر بيوم القيامة والتكذيب بالبعث والجزاء والحساب، والمعاد الجثماني.

ثالثها - الانغماس في الحياة الدنيا التي أنعم الله بها عليهم، حتى بطِروا وجحدوا النعمة، وقالوا: ما هود الذي يدعي أنه رسول إلا بشر عادي مثلكم في الصفات والحال، لا ميزة له عليكم، فهو يأكل من طعامكم، ويشرب من شرابكم الذي تشربون منه، فكيف يدعي الفضل عليكم، ويزعم الرسالة من الله إليكم؟

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي وأقسموا لئن أظهرتم الطاعة لبشر مثلكم، واتبعتموه، إنكم حينئذ تخسرون عقولكم،

وتغبنون في آرائكم، وتضيعون مجدكم بترككم آلهتكم واتباعكم إياه من غير فضيلة له عليكم. وبشرية الرسول هي الشبهة الأولى لإنكار هؤلاء القوم. ثم ذكروا شبهة ثانية وهي الطعن في صحة الحشر والنشر، والطعن في نبوته القائمة على إثبات ذلك، فقالوا:

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي أيعدكم أنكم تخرجون وتبعثون من قبوركم أحياء بعد موتكم وصيرورتكم تراباً وعظاماً بالية؟! ثم قرنوا بالإنكار استبعادهم الشديد وقوع ما يدعيه بقولهم:

﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي بَعُد بَعُد ما توعدون به أيها القوم من حدوث البعث الجثماني وعودة الحياة مرة أخرى، للحساب والجزاء. ثم أكدوا إنكار البعث بقولهم:

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ أي ما الحياة إلا واحدة وهي حياة الدنيا، فبعض يموت، وبعض يحيا، وأنه لا إعادة ولا حشر ولا بعث. وبعد أن طعنوا في صحة الحشر، بنوا عليه الطعن في نبوة هود، فقالوا:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ أي ما هود الذي يدعي النبوة ويثبت البعث إلا مجرد رجل اختلق الكذب على الله، فيما جاءكم به من الرسالة والإنذار والإجبار بالمعاد، وما نحن له بمصدقين فيما يدّعي ويزعم.

ولم يجب الله تعالى عما أوردوه من الشبهتين المتقدمتين، أما كون الرسول بشراً فهو أدعى وألزم للمؤانسة، وتيسر الأخذ عنه، ومناقشته، وتكوين القناعة من أمثالهم عقلاً وفكراً ومحاكمة، فليست القضية مجرد إلزام بالقول، وأما استبعاد الحشر فلضعف عقولهم، وقصور ميزانهم؛ لأن العاقل يدرك أنه سبحانه لما كان قادراً على كل الممكنات، عالماً بكل المعلومات، وجب أن

يكون قادراً على الحشر والنشر، ولأن الإعادة أمر ضروري لإقامة صرح العدالة بين الناس، فلولا الإعادة لكان تسليط القوي على الضعيف في الدنيا ظلماً، ولا رادع له، ولا عقاب عليه، وهو غير لائق بالحكيم، لذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [طه: ٢٠/١٥].

ولما يئس هود من إيمان قومه بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فزع إلى ربه:

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾﴾ أي يا ربي انصرني على قومي نصراً مؤزراً بسبب تكذيبهم إياي في دعوتي لهم إلى الإيمان بك وتوحيدك وإثبات لقائك.

فأجاب الله دعاءه:

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أي قال تعالى مجيباً دعاءه: ليصيرن قومك بعد زمن قليل نادمين على ما فعلوا، وذلك حين ظهور علامات الهلاك لهم، فيحصل منهم الحسرة والندامة على ترك قبول دعوتك لهم إلى الإيمان بالله والتوحيد، وعلى مخالفتك وتكذيبك ومعاندتهم إياك.

ثم كان الجزاء والعذاب، فقال تعالى:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ أي أهلكوا وماتوا بصيحة جبريل الرهيبة بهم، وهي صوت شديد مرعب أدى إلى الصعقة والموت، فأصبحوا بسبب كفرهم وتكذيبهم رسولهم صرعى هلكى، كغثاء السيل: وهو الشيء الحقير التافه الذي لا ينتفع بشيء منه، قال ابن كثير: والظاهر أنه اجتمعت عليهم الصيحة، مع الريح الصرصر العاصفة القوية الباردة.

﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي بعداً من الرحمة وهلاكاً، وسحقاً وتدميراً للقوم الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم وطغيانهم وعصيان رسولهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/٧٦].

وفي هذا غاية المهانة والذلة لهم، وإظهار قدرة الله عليهم، وإنذار السامعين أمثالهم من تكذيب رسولهم بأن يصيبهم من العذاب مثل ما أصابهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

العبرة واضحة من هذه القصة، فهي إنذار مخالفي الرسول ﷺ، وبيان عاقبة الكافرين الظالمين الذين ينكرون وحدانية الله، ولا يصدقون بيوم القيامة، ويعاندون رسول الله ﷺ.

وواضح من الآيات أن هوداً عليه السلام أمر قومه بعبادة الله وحده لا شريك له؛ إذ لا يستحق العبادة سواه، وحذرهم من الكفر، وخوفهم من عقاب الله وعذابه.

أما القوم فكانوا أغبياء إذ صدقوا رؤساءهم وزعماءهم الذين كفروا بربهم وكذبوا بالبعث ولقاء الله، وانغمسوا في نعم الحياة المادية التي أنعم الله بها عليهم، وصدوهم عن الإيمان، معتمدين على شبهتين:

الأولى - بشرية الرسل وعدم تميزهم عن سائر البشر بميزة تقتضي اتباعهم.

الثانية - إنكار البعث والحشر والنشر والحساب والجزاء.

ورتبوا على ذلك إنكار نبوة هود عليه السلام، وبالغوا في إنكار البعث، وأعلنوا كبقية الماديين الملحدين أن الحياة في الدنيا هي الحياة الوحيدة، أو لا حياة إلا هذه الحياة، وأن البشر سلسلة يموت بعضهم، ويحيا بعضهم، وأن رسولهم هود رجل مفترٍ كذاب فيما يدعيه من الرسالة وما يزعمه من البعث والجزاء.

وكانت النتيجة الحتمية المطابقة للعدل هي هلاك القوم وتدميرهم بصيحة جبريل عليه السلام مع الريح الصرصر العاتية، صاح بهم جبريل صيحة

واحدة مع الريح التي أهلكهم الله تعالى بها، فماتوا عن آخرهم، وجعلوا هَلْكى هامدين كغثاء السيل: وهو ما يحمله من بالي الشجر من الأعشاب والقصب مما يبس وتفتَّت، فبعداً أي هلاكاً لهم، وبعداً لهم عن رحمة الله، بظلمهم وكفرهم وعنادهم وطغيانهم.

القصة الثالثة

قصص صالح ولوط وشعيب وغيرهم عليهم السلام

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾

القراءات:

﴿أَنشَأْنَا﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (أنشانا).

﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾:

وقرأ السوسي، وورش، وحمزة وقفاً (يستاخرون).

﴿رُسُلَنَا﴾:

وقرأ أبو عمرو (رُسْلنا).

الإعراب:

﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ لم يقل: تستأخر، مثل: تسبق، وإنما ذكر الضمير بعد تأنيثه رعاية للمعنى.

﴿تَتْرَا﴾ في موضع نصب على الحال من (الرسل) أي أرسلنا رسلنا متواترين. و﴿تَتْرَا﴾ أصلها وَتْرى من المواترة، فأبدل من الواو تاءً، كتراث وتهمة وتخمة، ويقرأ بتنوين وغير تنوين، فمن قرأ بالتنوين جعل ألفها للإلحاق بجعفر، وألف الإلحاق قليلة في المصادر، فجعلها بعضهم بدلاً عن التنوين. ومن لم ينون، جعل ألفها للتأنيث كالدَّعوى والعدوى، وهو ممنوع من الصرف للتأنيث ولزومه.

المفردات اللغوية:

﴿قُرُونًا﴾ قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم .﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ بأن تموت قبله .﴿وَمَا يَسْتَئْخِرُونَ﴾ عنه.

﴿تَتْرَا﴾ متواترين، واحداً بعد واحد، من الوتر وهو الفرد، والألف للتأنيث؛ لأن الرسل جماعة، أي جعلناهم متتابعين، بين كل اثنين زمان طويل .﴿أَرْسَلْنَا﴾ ﴿رَسُولُهَا﴾ هذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [المائدة: ٥/ ٣٢] وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٠١] فمرة يضيف الرسل إليه تعالى، ومرة إلى أممهم؛ لأن الإضافة تكون بالملابسة، والرسول ملابس المرسِل، والمرسل إليهم جميعاً، وأضاف الرسول عند الإرسال إلى المرسل في قوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ وعند المجيء إلى المرسل إليهم في قوله: ﴿رَسُولُهَا﴾ لأن الإرسال الذي هو مبدأ الأمر منه تعالى، والمجيء الذي هو منتهاه إلى القوم.

﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ في الإهلاك .﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ لم يبق منهم إلا حكايات يسمر بها، أي جعلناهم أخباراً يسمر بها ويتعجب منها. والأحاديث: اسم جمع للحديث في رأي الزمخشري، أو جمع أحدوثة وهي ما يتحدث به تلهياً وتعجباً، كالأضحوكة والألعوبة والأعجوبة، وهو المراد هنا. والجمهور على أن الأحاديث في غير هذا الموضع جمع حديث، ومنه أحاديث رسول الله ﷺ، وقد جمعت العرب ألفاظاً على أفاعيل كأباطيل وأقاطيع.

المناسبة:

هذه هي القصة الثالثة في هذه السورة، وهي مجموع قصص ذات هدف واحد، والله تعالى يقص القصص في القرآن تارة مفصلة، كالقصتين السابقتين، وأخرى مجملة كما هنا، والمراد بهذه القصص قصة لوط وصالح وشعيب وأيوب ويوسف عليهم السلام.

التفسير والبيان:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ أي ثم أوجدنا من بعد هلاك قوم عاد أمماً وخلائق وأقواماً آخرين، كقوم صالح ولوط وشعيب وأيوب ويوسف وغيرهم عليهم السلام، ليقوموا مقام من تقدمهم في عمارة الدنيا.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي ما تتقدم أمة مهلَكة من تلك الأمم وقتها المقدَّر لهلاكها أبداً، أو المؤقت لعذابها إن لم يؤمنوا، ولا يتأخرون عنه. والمعنى أن وقت الهلاك محدد لا يتقدم ولا يتأخر، فلا تتعجلوا العذاب، فكل شيء عنده تعالى بمقدار، وهذا مرتبط بأجل الإنسان، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ١٦/٦١].

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ﴾ أي ثم بعثنا رسلاً آخرين في كل أمة، يتبع بعضهم بعضاً، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾ [النحل: ١٦/٣٦].

﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ﴾ أي كلما جاء الرسول أمة بتكليفهم بالشرائع والأحكام كذبه جمهورهم وأكثرهم، سالكين في تكذيب أنبيائهم مسلك من تقدم ذكره ممن أهلكه الله بالغرق والصيحة، كقوله تعالى: ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس: ٣٦/٣٠].

﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ أي بالهلاك، والمعنى: أتبعنا بعضهم بالهلاك إثر بعض، حين كذبوا رسلهم، كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧/١٧].

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي وجعلناهم أخباراً وأحاديث للناس، جمع أحدوثة وهي ما يتحدث به، يتحدثون بها تلهياً وتعجباً، كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ١٩/٣٤].

﴿فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي هلاكاً وتدميراً وبعداً عن رحمة الله لقوم لا يصدقون به ولا برسوله. وهذا وارد على سبيل الدعاء، والذم، والتوبيخ، والوعيد الشديد لكل كافر. وهو دليل على أنهم كما أهلكوا عاجلاً، فهلاكهم بالتعذيب آجلاً على التأبيد مترقب.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه الآيات واضحة الدلالة على المقصود منها، وهي أن أجل الهلاك والعذاب محدد بميقات معين، لا يتقدم عنه ولا يتأخر. وأن رحمة الله وحكمته وعدله اقتضت إرسال الرسل في كل الأمم ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥/٤].

ولكن أكثر الناس وجمهورهم يكذبون الرسل ويخالفونهم فيما جاؤوا به، فتكون النتيجة إهلاك بعضهم إثر بعض، وجعلهم أحدوثة (وهي ما يتحدث به) يقص الناس أخبارهم في مجالس السمر، لأنها مدعاة للتعجب.

ثم ختمت الآيات بالإنذار والوعيد الشديد بالهلاك والدمار لكل قوم لا يصدقون بوجود الله وتوحيده وإرسال رسله، فإن الكافرين كما أهلكوا في الدنيا، يكون هلاكهم بالتعذيب في الآخرة أمراً منتظراً مؤكداً حصوله.

القصة الرابعة - قصة موسى وهارون عليهما السلام

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾

البلاغة:

﴿عَالِينَ﴾ ﴿ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ سجع لطيف.

المفردات اللغوية:

﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بالآيات التسع كاليد والعصا، وهي المذكورة في سورة الأعراف ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ حجة بينة واضحة ملزمة للخصم، والمراد بالسلطان المبين: إما الآيات أنفسها، أي هي آيات وحجة بينة، وإما العصا لأنها كانت أمَّ الآيات وأولاها، وقد تعلقت بها معجزات شتى من انقلابها حية، وتلقفها ما أفكته السحرة، وانفلاق البحر، وانفجار العيون من الحجر، بضربهما بها، وكونها حارساً، وشمعة، وشجرة خضراء مثمرة، ودلواً، ورشاءً، فجعلت كأنها ليست بعض الآيات، لخصائصها ومزاياها وفضلها، فلذلك عطفت عليها، كقوله تعالى ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٢/ ٩٨] عطفاً على الملائكة، مع أنهما منهم.

ومثل وغير: يوصف بهما الاثنان والجمع، والمذكر والمؤنث، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ٤/ ١٤٠] ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦٥/ ١٢]. ويقال أيضاً: هما مثلاه، وهم أمثاله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٩٤].

﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ عن الإيمان بالله وبالآيات، والمتابعة ﴿عَالِينَ﴾ متكبرين قاهرين بني إسرائيل بالظلم ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا﴾[١] ثنّى البشر؛ لأنه يطلق للواحد، كقوله تعالى: ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧/١٩] كما يطلق للجمع، كقوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم: ٢٦/١٩] ولم يثن المثل؛ لأنه في حكم المصدر، فيوصف به الاثنان والجمع والمذكر والمؤنث.

﴿وَقَوۡمُهُمَا﴾يعني بني إسرائيل ﴿عَٰبِدُونَ﴾ خادمون مطيعون، خاضعون منقادون ﴿مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ﴾ بالغرق في البحر الأحمر ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ لعل بني إسرائيل يهتدون إلى المعارف والأحكام. ولا يجوز عود الضمير إلى فرعون وقومه؛ لأن التوراة نزلت بعد إغراقهم.

المناسبة:

هذه هي القصة الرابعة في هذه السورة، ويلاحظ فيها وحدة الموضوع والهدف وشبهة إنكار النبوة، فموضوعها: وصف حال المتكبرين السادة الأشراف الملأ من قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وأيوب ويوسف، وفرعون وملئه، وتكذيبهم رسلهم الذين جاؤوهم بالحق وبالبينات والمعجزات الواضحات الدالة على صدقهم. والهدف: هو العبرة والعظة حتى لا يستبد الكفار بآرائهم، ويمعنوا في العناد والكفر، فيستحقوا مثل عقاب من تقدمهم.

وأما شبهة إنكار النبوة من المنكرين في هذه القصص فهي واحدة وهي وحدة البشرية أو قياس حال الأنبياء على أحوالهم، لما بينهم من المماثلة في الحقيقة، وهي شبهة زائفة باطلة؛ لأن النفوس البشرية، وإن اشتركت في

(١) لفظ البشر يطلق على الواحد والجمع، كما قال تعالى في إطلاقه على الواحد: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧/١٩] ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ﴾ [المؤمنون: ٤٧/٢٣] . ومثال إطلاقه على الجمع قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم: ٢٦/١٩] ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١/٧٤] .

أصل القوى والإدراك، فإنها متباينة فيهما، فالناس يتفاوتون في طاقات المواهب والأفكار والمدارك، وفي الاستعدادات الفطرية، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١٨/١١٠].

التفسير والبيان:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي ثم أرسلنا بعد الرسل المتقدمين موسى وأخاه هارون إلى فرعون وأشراف قومه وأتباعهم من الأقباط بالآيات والحجج الدامغة والبراهين القاطعة، ولكن هؤلاء القوم استكبروا عن اتباعهما والانقياد لأمرهما؛ لكونهما بشرين، كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر، وكانوا قوماً متكبرين، كما قال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: ٧٩/١٧-١٩] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٢٨/٤].

والآيات كما قال ابن عباس رضي الله عنهما هي الآيات التسع وهي العصا، واليد، والجراد، والقُمّل، والضفادع، والدم، وانفلاق البحر، والسنون، ونقص الثمرات.

ودلت الآية على أن النبوة كانت مشتركة بين موسى وهارون، وكذلك كانت المعجزات واحدة، فمعجزات موسى عليه السلام هي معجزات هارون عليه السلام.

وكانت صفة فرعون وقومه أمرين: أحدهما - الاستكبار والأنفة، والثاني - أنهم كانوا قوماً عالين، أي رفيعي الحال في أمور الدنيا أو في الكثرة والقوة، أي على جانب من الحضارة والعلم، والعز والسلطان، بدليل الواقع التاريخي.

وكانت شبهتهم هي قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾؟ أي قال فرعون وملؤه (أشراف قومه): كيف ننقاد لأمر موسى وأخيه هارون، وقومهما بنو إسرائيل خدمنا وعبيدنا المنقادون لأوامرنا؟!

أي أن الرسالة تتنافى مع البشرية، وأن قوم موسى وهارون أتباع أذلة لفرعون وقومه، وهكذا شأن الماديين لا يؤمنون بالقوى المعنوية، ويقيسون عزة النبوة وتبليغ الوحي عن الله على الرياسة أو الزعامة الدنيوية المعتمدة على الجاه والمال.

وهذا المعنى ذاته شبيه بما قالته قريش: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣/٣١] . ولم يتنبهوا إلى أن معيار الاصطفاء للنبوة أو الرسالة إنما هو السمو في الفضائل والصفات التي ينعم الله بها عليهم ويؤهلهم لتلقي الوحي وتبليغه إلى البشر. وكان مآل غطرسة فرعون وقومه أمرين: التكذيب بنبوة موسى، وإنزال التوراة على موسى، أما الأول فهو قوله تعالى:

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾ أي كذب فرعون وقومه موسى وهارون، فأهلكهم الله بالغرق في يوم واحد أجمعين في بحر القُلْزُم (البحر الأحمر) كما أهلك المستكبرين المتقدمين من الأمم بتكذيبهم رسلهم.

وأما الثاني فهو قوله سبحانه:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي لقد أنزلنا على موسى التوراة المشتملة على الأحكام والأوامر والنواهي، بعد إغراق فرعون وقومه، رجاء أن يهتدي بها بنو إسرائيل إلى الحق، بامتثال ما فيها من المعارف والأحكام، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القصص: ٢٨/٤٣] .

قال ابن كثير: وبعد أن أنزل الله التوراة، لم يهلك أمة بعامة، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين(١).

فقه الحياة أو الأحكام:

في قصة موسى وهارون مع فرعون عبرة بالغة وعظة مؤثرة، فلقد بعث الله تعالى موسى وأخاه هارون إلى فرعون وقومه، مؤيدين بالمعجزات والأدلة الواضحة القاطعة الدالة على صدقهما، فدَعَوَاه وملأه إلى الإقرار بوجود الله وتوحيده، فاستكبروا وتعالوا عن اتباعهما والانقياد لدعوتهما، لكونهما بشرين.

فكان حصاد التكذيب أمرين: إهلاك فرعون وقومه بالغرق في يوم واحد أجمعين في البحر الأحمر، وإنزال التوراة على موسى في الطور، فيها هدى ونور، وتشريع وأحكام، وخص موسى بالذكر هنا؛ لأن هارون كان خليفة في قومه، وإيتاء التوراة كان لكليهما، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٤٨] .

القصة الخامسة

قصة عيسى وأمه مريم عليهما السلام

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾

القراءات:

﴿رَبْوَةٍ﴾: قرئ:

١- (رَبْوة) وهي قراءة ابن عامر، وعاصم.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٤٥

٢- (رُبْوة) وهي قراءة الباقين.

البلاغة:

﴿وَمَعِينٍ﴾ مع فواصل الآيات السابقة، ﴿عَالِينَ﴾ ﴿ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ سجع مستحسن.

المفردات اللغوية:

﴿ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ عيسى عليه السلام ﴿ءَايَةً﴾ حجة وبرهاناً على قدرة الله تعالى، ولم يقل: آيتين؛ لأن الآية فيهما واحدة، وهي ولادتها إياه من غير مسيس رجل ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ﴾ جعلنا مأواهما ومنزلهما ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ هي المكان المرتفع من الأرض، وهو أرض بيت المقدس أو فلسطين أو الرملة، أو دمشق، فإن قراها على الرُّبى ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي ذات استقرار فيها، يستقر عليها ساكنوها؛ لأجل ما فيها من الثمار والزروع ﴿وَمَعِينٍ﴾ ماء جار ظاهر للناس.

المناسبة:

سبق إيراد قصة عيسى وأمه مفصلة في سورتي آل عمران ومريم، ووردت هنا بإيجاز يقتضيه المقام، وهو الاستدلال على عظيم قدرة الله تعالى على ما يشاء، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى، وانتهى بذلك عصر المعجزات لانتهاء النبوة.

التفسير والبيان:

وجعلنا عيسى وأمه آية للناس دالة على قدرتنا؛ إذ خلقناه من غير أب. وقد جعلهما الله تعالى آية واحدة وهي ولادتها إياه من غير رجل، لاشتراكهما في هذا الأمر العجيب الخارق للعادة. وهو دليل على القدرة الإلهية القادرة على كل شيء، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٩١] .

وجعلنا مأواهما في مكان مرتفع من الأرض، صالح لاستقرار السكان، ذي ثمار وزروع وخصب، وماء جارٍ ظاهر للعيون لا ينضب، وهو - كما قال قتادة - بيت المقدس، وهو الظاهر، وقيل: هو الرملة من فلسطين، كما روي عن أبي هريرة، وقال مقاتل والضحاك: هي غوطة دمشق؛ إذ هي ذات الثمار والمياه.

قال ابن كثير: وأقرب الأقوال في ذلك: مارواه العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: المعين: الماء الجاري، وهو النهر الذي قال الله تعالى عنه: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ١٩/ ٢٤] وكذا قال قتادة والضحاك: إلى ربوة ذات قرار ومعين: هو بيت المقدس، فهذا - والله أعلم - هو الأظهر؛ لأنه المذكور في الآية الأخرى، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وهذا أولى ما يفسر به، ثم الأحاديث الصحيحة، ثم الآثار[(١)].

فقه الحياة أو الأحكام:

إن خلق عيسى عليه السلام من غير أب هو معجزة، وآية دالة على عظمة القدرة الإلهية.

وهو إعداد له ليكون نبياً، وقد ظهرت علائم نبوته بالنطق وهو في المهد طفل رضيع.

ومقتضى الإعداد للنبوة أن يكفله الله ويحميه، وينعم عليه بالنعم التي تعينه على تحمل أعباء النبوة، ومن تلك النعم الوفيرة: الإيواء في مكان صحي، ومنزل مريح، محاط بالخيرات من كل جوانبه، يفيض بالثمار والزروع والمياه الغزيرة المتدفقة، لتوفير سبل الحياة الكريمة.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٤٦

وسبب الإيواء أن مريم أم عيسى فرت بابنها عيسى إلى الربوة، وبقيت بها اثنتي عشرة سنة. وقد ذهب بهما ابن عمها يوسف النجار، ثم رجعت إلى أهلها، بعد أن مات ملكهم.

مبادئ التشريع في الحياة

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

القراءات:

﴿وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ﴾:

قرئ:

١- (وأنَّ هذه) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو.

٢- (وأنْ هذه) وهي قراءة ابن عامر.

٣- (وإنَّ هذه) وهي قراءة الباقين.

﴿لَدَيْهِمْ﴾:

وقرأ حمزة (لديهُم).

﴿أَيَحْسَبُونَ﴾:

قرئ:

١- (أَيَحْسَبُون) وهي قراءة ابن عامر، وعاصم، وحمزة.

٢- (أيَحْسِبُون) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾: ﴿وَإِنَّ﴾ بالكسر على الابتداء والاستئناف. وتقرأ بالفتح على النصب أو الجر، فالنصب بتقدير حذف حرف الجر، أي وبأن هذه، أو بفعل مقدر تقديره: واعلموا أن هذه أمتكم. والجر: بالعطف على (ما) في قوله: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾. و﴿أُمَّةً﴾: منصوب على الحال، أي هذه أمتكم مجتمعة، ويقرأ بالرفع: إما بدل من ﴿أُمَّتُكُمۡ﴾ التي هي خبر ﴿وَإِنَّ﴾، وإما خبر بعد خبر، وإما خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هي أمة واحدة.

﴿زُبُرٗا﴾ حال من فاعل ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾.

﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا﴾ (ما): بمعنى الذي في موضع نصب؛ لأنها اسم (أن) وخبرها

﴿نُسَارِعُ لَهُمۡ﴾ به، فحذف (به) وهو حذف وقع في الصلة وفي الخبر.

البلاغة:

﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ﴾ استعارة، شبه ما هم فيه من الجهالة والضلالة بالماء الذي يغمر الإنسان برمته.

﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم﴾ استفهام إنكاري.

﴿نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ حذف (به) أي نسارع لهم به في الخيرات، وحذف لطول الكلام.

﴿فَٱتَّقُونِ﴾ ﴿فَرِحُونَ﴾ ﴿حِينٍ﴾ ﴿وَبَنِينَ﴾ سجع مقبول لا تكلف فيه.

المفردات اللغوية:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ نداء وخطاب لجميع الأنبياء، ولكن ليس دفعة واحدة؛ لأنهم أرسلوا في أزمنة مختلفة، بل على معنى أن كلاًّ منهم خوطب به في زمانه، فيشمل الخطاب عيسى عليه السلام، للتنبيه على أن تهيئة أسباب التنعم لم تكن له خاصة، وإنما إباحة الطيبات للأنبياء شرع قديم، وللاحتجاج على الرهبانية في رفض الطيبات. ﴿ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ ما يستطاب ويستلذ من المباحات في المآكل والفواكه. ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا﴾ من فرض ونفل. ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فأجازيكم عليه.

﴿وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ﴾ ملة الإسلام .﴿أُمَّتُكُمْ﴾ ملتكم ودينكم وشريعتكم أيها المخاطبون، يجب أن تكونوا عليها .﴿فَٱتَّقُونِ﴾ فاحذرون .﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟﴾ أي الأتباع أي قطعوا ومزقوا .﴿أَمْرَهُم﴾ دينهم .﴿زُبُرًا﴾ قطعاً وأحزاباً متخالفين، كاليهود والنصارى وغيرهم، جمع زبور .﴿حِزْبٍۭ﴾ جماعة وأمة .﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ عندهم من الدين .﴿فَرِحُونَ﴾ مسرورون، معجبون، معتقدون أنهم على الحق. ﴿فَذَرْهُمْ﴾ اترك كفار مكة، ودعهم .﴿فِى غَمْرَتِهِمْ﴾ في ضلالتهم وجهالتهم، شبهها بالماء الذي يغمر القامة؛ لأنهم مغمورون فيها .﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى حين موتهم أو قتلهم .﴿أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ﴾ أن ما نعطيهم ونجعله مدداً لهم .﴿مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ في الدنيا.

﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ نعجل لهم به، وهو خبر أن، والراجع ضمير محذوف، والمعنى: أيحسبون أن الذي نمدهم به نسارع لهم به فيما فيه خيرهم وإكرامهم .﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أن ذلك استدراج لهم، وإنما هم كالبهائم، لا فطنة عندهم ولا شعور ليتأملوا، فيعلموا أن ذلك الإمداد استدراج، لا مسارعة في الخير.

المناسبة:

بعد بيان قصص بعض الأنبياء المتقدمين، أوصى الله تعالى بجملة من المبادئ في الحياة هي الأكل من الحلال، والعمل بصالح الأعمال، وإدراك أن الملة واحدة وأن الدين الحق واحد، ولكن الأمم فرقت دينها شيعاً، وهم في حيرة وعمى يظنون أن إفاضة النعم عليهم، لرضا الله عليهم، ولكنها في الحقيقة استدراج، لا مسارعة في الخيرات.

التفسير والبيان:

أ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾﴾ هذا أمر من الله تعالى عباده المرسلين عليهم السلام بالأكل من الحلال، والقيام بصالح الأعمال، شكراً للنعمة. وهذا دليل على أن الحلال عون على العمل الصالح وسابق عليه، ثم ذكر تعالى علة هذا الأمر، فقال: ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ أي إني مطلع على جميع أعمالكم، لا يخفى علي شيء منها، وأنا مجازيكم عليها.

ومن أمثلة الحلال أن عيسى عليه السلام كان يأكل من غزل أمه، وأن داود عليه السلام كان يأكل من كسب يده، كما ثبت في الصحيح، فيعمل الدروع المسردة (أي ذات الحلق من الحديد) بيده معجزة له وأمراً خارقاً للعادة، وفي صحيح مسلم: «وما من نبي إلا رعى الغنم، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: نعم، وأنا كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة».

أخرج مسلم وأحمد والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾﴾، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: ٢/١٧٢] ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، ومطعمُه

حرام، ومشربُه حرام، وملبسُه حرام، وغُذِّي بالحرام، يمدُّ يديه إلى السماء، يا ربُّ، يا ربُّ، فأنى يستجاب له».

وأخرج أحمد وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم عن أم عبد الله أخت شداد بن أوس رضي الله عنها أنها بعثت إلى النبي ﷺ بقدَح لبن حين فطره، وهو صائم، فرد إليها رسولها وقال: من أين لك هذا؟ فقالت: من شاة لي، ثم ردّه وقال: ومن أين هذه الشاة؟ فقالت: اشتريتها بمالي، فأخذه، فلما كان من الغد جاءته وقالت: يا رسول الله، لم رددته؟ فقال ﷺ: «أُمِرَتِ الرُّسل ألا يأكلوا إلا طيباً، ولا يعملوا إلا صالحاً».

٢ - ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾ أي وإن دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد، وملة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لاشريك له. وهذا يدل على أن الأديان متحدة في أصولها المتعلقة بتوحيد الله ومعرفته. أما اختلاف الفروع من شرائع وأحكام بحسب اختلاف الأزمان والأحوال، فلا بأس به ولا يسمى اختلافاً في الدين.

ومرجع أعمال الأنبياء جميعاً إلى الله تعالى، فأنا ربكم المتفرد بالربوبية، فاحذروا عقابي، ولا تخالفوا أمري، أي والحال أني أنا ربكم.

٣ - ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ أي إن أتباع الأنبياء فرقوا أمر دينهم وقطعوه ومزقوه، وجعلوه قطعاً، وصاروا فرقاً وأحزاباً وجماعات، كل حزب يفرحون بما هم فيه من الضلال، ويعجبون بما هم عليه، معتقدين أنه الحق الصراح، ويحسبون أنهم مهتدون.

وهذا ذم واضح للتفرق والتشتت، وتوبيخ ووعيد، لذا قال الله تعالى متهدداً لهم ومتوعداً:

﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤﴾ أي دعهم واتركهم في جهالتهم

وضلالهم إلى حين موتهم أو قتلهم ورؤيتهم مقدمات العذاب وبوادره، كما قال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧﴾ [الطارق: ٨٦/ ١٧] ، وقال سبحانه: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٣﴾ [الحجر: ١٥/ ٣] .

٤ - ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦﴾ أي أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد، لكرامتهم علينا، ومعزتهم عندنا؟ كلا، ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾ [سبأ: ٣٤/ ٣٥] .

لقد أخطؤوا في ذلك، وخاب رجاؤهم، بل إنما نفعل ذلك استدراجاً وإنظاراً وإملاءً لهم، لهذا قال تعالى: ﴿بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ أي لا يحسون أنما نفعل ذلك بهم استدراجاً وأخذاً بأيديهم إلى العذاب إذا لم يتوبوا، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [التوبة: ٩/ ٥٥] ، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٧٨] ، وقال عزّ وجلّ: ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٤ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ٤٥﴾ [القلم: ٦٨/ ٤٤-٤٥] .

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ﴾ الآية: مَكر والله بالقوم في أموالهم وأولادهم، يا ابن آدم، فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحبّ ومن لا يحبّ، ولا يعطي الدِّين إلا من أحب، فمن أعطاه الله الدِّين فقد أحبَّه، والذي نفس محمد بيده، لا يُسلم عبد حتى يُسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه، قالوا: وما بوائقه يا رسول

الله؟ قال: غَشْمه وظلمه، ولا يكسب عبد مالاً من حرام، فينفق منه، فيبارك له فيه، ولا يتصدق به، فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث».

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - إن الأنبياء كما يجب اتفاقهم على أكل الحلال والأعمال الصالحة، فكذلك هم متفقون على التوحيد، وعلى اتقاء معصية الله تعالى.

والدين الذي لا خلاف فيه: معرفة ذات الله تعالى وصفاته، أي إثبات وجود الله وتوحيده، أما الاختلاف في الشرائع والأحكام العملية الفرعية، فلا يسمى اختلافاً في الدين.

٢ً - سوّى الله تعالى بين النبيين والمؤمنين في الخطاب بوجوب أكل الحلال وتجنب الحرام، ثم شمل الكل في الوعيد الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾. وإذا كان هذا مع الأنبياء، فما ظنُّ كل الناس بأنفسهم؟!

٣ً - الطيبات هي الحلالات، وإن لأكل الحلال أثراً ملموساً في حياة الإنسان الدنيوية والأخروية، ففي الدنيا يبارك الله تعالى لمن أكل الحلال في جسده وصحته ورزقه وأولاده وأمواله. وفي الآخرة يمتعه الله بالجنان. أما آكل الحرام أو السحت فإنما يأكل ما يؤدي به إلى نار جهنم.

٤ً - اتفقت الرسل جميعاً على الدعوة لعبادة الله الواحد الأحد، وكان أصل الدين واحداً بالدعوة إلى التوحيد وفضائل الأعمال، وما نشاهد من اختلاف وخصام بين أتباع الأديان، فإنما هو من اختلاف الأمم والجماعات فيما بينهم بحسب أهوائهم وعقولهم، وهو خروج عن أصل وحدة الدين الحق.

فمن تمسك بالحق المتمثل بالقرآن، ولم يصر على ما توارثه من عقائد محرفة ومشوهة، وسار على نهج خاتم النبيين ﷺ، كان من الفائزين الناجين.

٥ً - إن الافتراق المحذر منه في الآية إنما هو في أصول الدين وقواعده، لا في الفروع والجزئيات العملية، فذلك لا يوجب النار؛ لقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ [المائدة: ٥/٤٨] ، ويؤيد الآية حديث خرَّجه أبو داود عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «ألا إنّ من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة».

٦ً - إن الكرامة والمكانة للعبد عند الله ليست بالمال والولد، ولكن بالتقوى والعمل الصالح.

٧ً - لقد أخطأ أصحاب الأموال والثروات في الجاهلية وغيرها حينما ظنوا أن الإمداد بالمال والولد دليل على رضا الله تعالى، وإنما هو على العكس استدراج (أخذ قليلاً قليلاً) إلى مهاوي النار، أخرج أحمد والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان عن عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قال: «إذا رأيت الله تعالى يعطي العبد من الدنيا ما يحب، وهو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك منه استدراج».

لهذا شبَّه الله تعالى حالهم حين سَتَر الجهل والحيرة عقولهم بحال من غمره الماء، فقال: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ أي فذر هؤلاء الجاهلين يتيهون في جهالتهم، ولا يضيق صدرك بتأخير العذاب عنهم، فلكل شيء وقت معلوم.

والخلاصة: أن هذا الإمداد للكفار ليس إلا استدراجاً لهم إلى المعاصي، واستجراراً إلى زيادة الإثم، وهم يحسبونه مسارعة لهم في الخيرات إكراماً لهم، وتعجيلاً للثواب قبل وقته.

صفات المسارعين في الخيرات

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

الإعراب:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، و﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، و﴿يُسَٰرِعُونَ﴾: جملة فعلية: خبر المبتدأ، والمبتدأ وخبره في موضع رفع؛ لأنه خبر ﴿إِنَّ﴾.

البلاغة:

﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بينهما طباق.

﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ استعارة، شبه الكتاب بمن له لسان ينطق، مبالغة في وصفه بإظهار البيان وإعلان الأحكام.

﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ جناس اشتقاق.

﴿مُّشْفِقُونَ﴾ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿يُشْرِكُونَ﴾ ﴿سَٰبِقُونَ﴾ سجع محكم.

المفردات اللغوية:

﴿خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾ خوف من عقابه أو عذابه. ﴿مُّشْفِقُونَ﴾ حذرون، والإشفاق: نهاية الخوف، وليس هذا هو المراد، وإنما المراد لازمه وأثره وهو دوام الطاعة.

﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ المنصوبة والمنزلة، أي الآيات الكونية في الأنفس والسماوات والأرض، والآيات المنزلة وهي القرآن. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون. ﴿لَا يُشْرِكُونَ﴾ شركاً جلياً ولا خفياً. ﴿يُؤْتُونَ﴾ يعطون. ﴿مَآ ءَاتَوا﴾ ما أعطوا من الصدقات والأعمال الصالحة. ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أي خائفة ألا تقبل منهم. ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ أي بأنهم راجعون إلى الله؛ لأن مرجعهم إليه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يرغبون في الطاعات أشد الرغبة، فيبادرونها. ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ فاعلون السبق لأجلها، أو سابقون الناس لأجلها. ﴿وُسْعَهَاۖ﴾ ما يسع الإنسان فعله دون مشقة ولا حرج. ﴿كِتَٰبٌ﴾ هو صحيفة الأعمال. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق لا يوجد فيه ما يخالف الواقع.

المناسبة:

بعد أن ذم الله تعالى الذين فرقوا دينهم بقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ﴾ أردف بعده صفات من يسارع حقيقة في الخيرات، وهي أربع صفات: خشية الله، والإيمان بآيات ربهم، ونفي الشريك لله تعالى، ويؤدون حقوق الله تعالى كالزكاة والكفارة، وحقوق الآدميين كالودائع والديون، وقلوبهم خائفة ألا يُتَقَبَّل ذلك منهم.

التفسير والبيان:

هذه صفات المسارعين في الخيرات:

١ - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي إن الذين هم من خوفهم من عذاب ربهم دائمون في طاعته، فالمراد من الإشفاق أثره وهو الدوام في الطاعة. أو أن المراد خائفون من الله، ويكون الجمع بين الخشية والإشفاق للتأكيد.

٢ - ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي والذين هم بآيات الله

الكونية والقرآنية المنزلة يصدقون تصديقاً تاماً لا شك فيه. والآيات الكونية: هي آيات الله المخلوقة الدالة على وجوده بالنظر والفكر، كإبداع السماوات والأرض وخلق النفس الإنسانية. والآيات المنزلة في القرآن، مثل الإخبار عن مريم: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ [التحريم: ١٢/٦٦] ، أي أيقنت أن ما كان إنما هو عن قدر الله وقضائه، ومثل ماشرعه الله، فهو إن كان أمراً فهو مما يحبه ويرضاه، وإن كان نهياً فهو مما يكرهه ويأباه، وإن كان خيراً فهو حق.

٣ - ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله، الأحد الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً، وأنه لا نظير له ولا كفء له.

ويلاحظ أن الصفة الثانية: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ هي الإيمان بالتوحيد ونفي الشريك لله تعالى، وهو توحيد الربوبية، والصفة الثالثة هي توحيد الألوهية والعبادة ونفي الشرك الخفي، وهو أن يكون مخلصاً في العبادة، بأن تكون لوجه الله تعالى وطلب رضوانه.

ولم يقتصر على الصفة الثانية؛ لأن كثيراً من المشركين يعترفون بتوحيد الربوبية، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥/٣١] ، ولا يعترفون بتوحيد الألوهية والعبادة، فعبدوا الأصنام والأوثان ومعبودات أخرى.

٤ - ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أي والذين يعطون العطاء، وهم وجلون خائفون ألا يتقبل منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الإعطاء، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط؛ روى الإمام أحمد والترمذي وابن أبي حاتم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ هو الذي

يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عزّ وجلّ؟ قال: «لا يا بنت أبي بكر، يا بنت الصدّيق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله عزّ وجلّ».

وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ أي لأنهم أو من أجل أنهم.

والإيتاء لا يقتصر على العطاء المادي من زكاة أو صدقة، وإنما يشمل كل حق يلزم إيتاؤه، سواء كان ذلك من حقوق الله تعالى، كالزكاة والكفارة وغيرهما، أو من حقوق الآدميين، كالودائع والديون والعدل بين الناس؛ لأن من يؤدي الواجب من عبادة أو غيرها، وهو وَجِل من التقصير والإخلال بنقصان أو غيره، فإنه يكون مجتهداً في أن يوفّيها حقها في الأداء.

وترتيب هذه الصفات في نهاية الحسن؛ لأن الصفة الأولى دلت على حصول الخوف الشديد الموجب للاحتراز عما لا ينبغي، والصفة الثانية دلت على أصل الإيمان والتعمق فيه، والصفة الثالثة دلت على ترك الرياء في الطاعات، والصفة الرابعة دلت على الإتيان بالطاعات مع الخوف من التقصير، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي أولئك الذين يبادرون في الطاعات لئلا تفوتهم، ويتعجلون في الدنيا وجوه النفع والإكرام؛ كما قال تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأَٓخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٨] ، وقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأَٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٢٧] ، وهم لأجل الطاعات سابقون الناس إلى الثواب، وينالون الثمرة في الدنيا قبل الآخرة، لا أولئك الكفار الذين أمددناهم بالمال والبنين، فظنوا خطأً أن ذلك إكرام لهم.

والخلاصة: أن السعادة ليست هي سعادة الدنيا، وإنما سعادة الآخرة بالعمل الطيب، وإيتاء الصدقات، مع الخوف والخشية.

وبعد بيان كيفية أعمال المؤمنين المخلصين، ذكر الله تعالى حكمين من أحكام أعمال العباد:

الأول - ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي إن منهاج شرعنا ألا نكلف نفساً إلا قدر طاقتها، وهذا إخبار عن عدله في شرعه، ورحمته بالعباد، وهو أيضاً يريد به التحريض على ما وصف به الصالحين وتسهيله على النفوس.

والثاني - ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي ولدينا كتاب الأعمال أو صحائف الأعمال، وقيل: اللوح المحفوظ، يبين بدقة وصدق لا يخالف الواقع أعمال الناس في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: ٢٩/٤٥] ، وقال سبحانه: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩/١٨] ، فالأظهر أن المراد بالكتاب كتاب إحصاء الأعمال.

ثم بيّن الله تعالى فضله على عباده في الحساب بعد بيان يسر التكليف فقال: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي وهم لا يبخسون في الجزاء من الخير شيئاً، بل يثابون على ما قدموا من الأعمال القليلة والكثيرة، ولا يزاد في عقابهم، فهم لا يظلمون بزيادة عقاب أو نقصان ثواب، بل يعفو الله عن كثير من السيئات.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ - إن ميزان قبول الأعمال يعتمد على الصفات الأربع، وهي: الخوف من عذاب الله، والإيمان بآيات الله، وإخلاص العبادة لله ونفي الشرك الخفي، وأداء الواجبات مع الاجتهاد في إيفائها حقها.

٢ - نبهت الآيات على خاتمة الإنسان وهي الرجوع إلى لقاء الله تعالى، جاء في صحيح البخاري: «وإنما الأعمال بالخواتيم».

٣ً - إن المؤمنين المتصفين بالصفات المتقدمة هم الذين يبادرون في الطاعات، كي ينالوا بذلك أعلى الدرجات والغُرُفات. وأما قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ فقال القرطبي: أحسن ما قيل فيه: إنهم يسبقون إلى أوقاتها. ودل بهذا أن الصلاة في أول الوقت أفضل. وكل من تقدم في شيء فهو سابق إليه، وكل من تأخر عنه فقد سبقه وقته. فاللام في ﴿لَهَا﴾ على هذا القول بمعنى إلى، كما قال تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝﴾ [الزلزلة: ٩٩/ ٥] ، أي أوحى إليها[1]. وقال الزمخشري والرازي: المعنى وهم من أجل الخيرات سابقون. وهذا ما جرينا عليه في التفسير. ويجوز أن يكون معنى ﴿وَهُمْ لَهَا﴾ بمعنى: أنت لها وهي لك.

٤ً - إن الذي وصف الله به الصالحين غير خارج عن حد الوسع والطاقة. وهذا ناسخ لجميع ما ورد في الشرع من تكليف لا يطاق. والآية تقرر مبدأً عاماً في التكليف وهو التيسير ودفع الحرج، كما في آية البقرة: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٦] .

٥ً - أظهر ما قيل في قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾: أنه أراد كتاب إحصاء الأعمال الذي ترفعه الملائكة. وأضافه إلى نفسه؛ لأن الملائكة كتبت فيه أعمال العباد بأمره، فهو ينطق بالحق.

وفي هذا تهديد وتأييس من الْحَيْف والظلم.

٦ً - إن الجزاء على الأعمال لا ظلم فيه بزيادة عقاب أو نقصان ثواب، فلا يظلم ربك أحداً من حقه، ولا يحطه عن درجته، بل إن فضل الله واسع، ورحمته وسعت كل شيء، فإنه يعفو ويصفح عن كثير من السيئات لعباده المؤمنين.

(١) تفسير القرطبي: ١٢/ ١٣٣

إنكار أعمال الكفار ومشركي قريش وأسبابها

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾

القراءات:

﴿تَهْجُرُونَ﴾:

وقرأ نافع (تُهْجِرُون).

﴿خَرْجًا فَخَرَاجُ﴾:

قرئ:

١- (خَرْجاً فَخَرْج) وهي قراءة ابن عامر.

٢- (خَرَاجاً فَخَراج) وهي قراءة حمزة، والكسائي.

٣- (خَرْجاً فَخَراج) وهي قراءة الباقين.

﴿صِرَٰطٍ﴾: ﴿ٱلصِّرَٰطِ﴾

وقرأ قنبل (سراط)، (صراط).

الإعراب:

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ و﴿سَٰمِرًا﴾ منصوبان على الحال. و﴿بِهِۦ﴾ من صلة (سامر). وقال ﴿سَٰمِرًا﴾ بصيغة الإفراد بعد قوله ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ لأن ﴿سَٰمِرًا﴾ في معنى (سُمَّار) فهو اسم جمع، كالجامل والباقر: اسم لجماعة الجمال والبقر. و﴿تَهْجُرُونَ﴾ من هَجَر يهجُر هَجْراً وهُجراناً، والمراد: تهجرون آياتي وما يتلى عليكم من كتابي. وقرئ بضم التاء (تُهجرون): من (أهجر): إذا هذى، والهجر: الهذيان فيما لا خير فيه من الكلام.

﴿ٱسْتَكَانُوا۟﴾ أصله: استكونوا بوزن استفعلوا، من الكون، فنقلت فتحة الواو إلى الكاف، فتحركت في الأصل، وانفتح ما قبلها الآن، فقلبت ألفاً.

البلاغة:

﴿أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ جناس اشتقاق.

﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ استعارة تمثيلية، شبه إعراضهم عن الحق بالراجع القهقرى إلى الخلف.

المفردات اللغوية:

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي الكفار ﴿فِى غَمْرَةٍ﴾ في غفلة غامرة لها وجهالة ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ من كتاب الحفظة، أو مما وصف به هؤلاء، أو من القرآن ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي أعمال خبيثة متجاوزة لما وصفوا به أو أدنى مما هم عليه من الشرك أو غير ذلك ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ معتادون فعلها، فيعذبون عليها.

﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائية يبتدأ بعدها الكلام، وهو الجملة الشرطية هنا ﴿مُتْرَفِيهِم﴾ متنعميهم وهم أغنياؤهم ورؤساؤهم ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾ يعني القتل يوم بدر، أو الجوع حين دعا عليهم الرسول ﷺ، فقال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف» فقحطوا حتى أكلوا الكلاب والجيف والعظام المحترقة ﴿يَجْـَٔرُونَ﴾ يصيحون ويضجون، وقد فاجؤوا الصراخ بالاستغاثة، وهو جواب الشرط.

﴿لَا تُنصَرُونَ﴾ لا تمنعون منا، أو لا يلحقكم نصر ومعونة من جهتنا ولا ينصركم أحد، وقوله: ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ تعليل للنهي، أي لا تجأروا فإنه لا ينفعكم ﴿ءَايَـٰتِى﴾ القرآن ﴿تَنكِصُونَ﴾ ترجعون وراءكم، والمراد: تُعرضون مدبرين عن سماع الآيات وتصديقها والعمل بها ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ عن الإيمان ﴿بِهِۦ﴾ أي بالتكذيب أو بالبيت الحرام بأنهم أهله وقوامه، وأنهم في أمن بخلاف سائر الناس في مواطنهم، والباء على هذا المعنى متعلقة بمستكبرين؛ لأنه بمعنى مكذبين ﴿سَـٰمِرًا﴾ أي جماعة سُمّاراً، وهم الذين يتحدثون بالليل حول البيت، يسمرون بذكر القرآن والطعن فيه ﴿تَهْجُرُونَ﴾ إذا كان من الثلاثي (هجر) أي بفتح التاء: أي تتركون القرآن من الهَجْر وهو القطيعة، وإذا كان من الرباعي (أهجر) أي بضم التاء: أي تقولون غير الحق في النبي والقرآن، من الهُجْر: وهو الهذيان والفحش.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ أي يتدبروا القرآن الدال على صدق النبي ﷺ، ليعلموا أنه الحق من ربهم، بإعجاز لفظه ووضوح مدلوله ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من الرسول والكتاب، أو من الأمن من عذاب الله، فلم يخافوا كما خاف آباؤهم الأقومون كإسماعيل وأعقابه، فآمنوا به وكتبه ورسله وأطاعوه ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾ بالأمانة والصدق، وحسن الخلق، وكمال العلم، مع عدم التعلم، إلى غير ذلك من صفات الأنبياء ﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ دعواه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي جنون، فلا يبالون بقوله، وكانوا يعلمون أنه أرجحهم عقلاً، وأتقنهم نظراً. والاستفهام للتقرير بالحق، من صدق النبي ﷺ، ومجيء الرسل للأمم الماضية، ومعرفة رسولهم بالصدق والأمانة، وأن لا جنون به ﴿بَلْ﴾ للانتقال ﴿جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي القرآن المشتمل على التوحيد وشرائع الإسلام. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ لأنه يخالف شهواتهم وأهواءهم، فلذلك أنكروه، وإنما قيد الحكم بالأكثر؛ لوجود أناس منهم تركوا الإيمان خشية توبيخ قومه، لا لكراهته للحق.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي لو اتبع القرآن ما يستهوون، بأن كان في الواقع آلهة شتى، أو ما يهوونه من الشريك والولد لله ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ أي خرجت عن نظامها المشاهد ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ القرآن الذي فيه ذِكْرهم وشرفهم وفخرهم ووعظهم.

﴿خَرْجًا﴾ أجراً أو جعلاً على أداء الرسالة ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي أجره وثوابه ورزقه خير وأبقى ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أفضل من أعطى وآجر.

﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريق قويم لا عوج فيه وهو دين الإسلام ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ بالبعث والثواب والعقاب ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ الطريق ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾ عادلون عن طريق الرشاد، فإن خوف الآخرة أقوى البواعث على طلب الحق وسلوك طريقه.

﴿ضُرٍّ﴾ جوع أصابهم بمكة سبع سنين ﴿لَّلَجُّوا۟﴾ تمادوا ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ ضلالتهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ يعني القتل يوم بدر أو الجوع ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ تواضعوا وخضعوا وذلوا ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ لا يرغبون إلى الله بالدعاء، بل أقاموا على عتوهم واستكبارهم ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائية ﴿ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ صاحب عذاب، هو يوم بدر بالقتل ﴿مُبْلِسُونَ﴾ متحيرون آيسون من كل خير.

سبب النزول:

نزول الآية (٦٧):

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: كانت قريش تسمر حول البيت، ولا تطوف به، ويفتخرون به، فأنزل الله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

نزول الآية (٧٦):

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾: أخرج النسائي والحاكم عن ابن عباس قال: جاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ، فقال: يامحمد، أنشدك بالله والرحم، قد أكلنا العِلْهز، يعني الوبر والدم، فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

وأخرج البيهقي في الدلائل بلفظ أن ثُمامة بن أثال الحنفي، لما أُتي به للنبي ﷺ، وهو أسير، خلَّى سبيله، وأسلم، فلحق بمكة، ثم رجع، فحال بين أهل مكة وبين الميرة من اليمامة، حتى أكلت قريش العلهز، فجاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ، فقال: ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ قال: بلى، قال: فقد قتلت الآباء بالسيف، والأبناء بالجوع، فنزلت.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى أن الدين يسر لا عسر، فلا تكليف إلا بقدر الطاقة، أردف ذلك بالإنكار على الكفار والمشركين من قريش، ووصفهم بأنهم في غمرة من هذا الذي بُيِّن في القرآن، أو من وصف المشفقين، وأن لهم أعمالاً أخرى أسوأ في الكفر والعصيان، كالشرك والطعن في القرآن، والاستهزاء بالنبي ﷺ، وإيذاء المؤمنين.

وبعد أن بين أنه لا ينصر أولئك الكفار، أتبعه بعلة ذلك، وهي أنه متى تليت عليهم آيات القرآن، أتوا بأمور ثلاثة: هي النفور والإعراض عن تلك الآيات وعن تاليها، والاستكبار بالبيت العتيق أو الحرم قائلين: «لا يظهر علينا أحد؛ لأنا أهل الحرم» والسمر بذكر القرآن والطعن فيه.

ولما زيّف طريقة القوم، أتبعه ببيان صحة ما جاء به الرسول ﷺ، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ ولكن الكفار تنكبوا عن هذا الطريق وعدلوا عنه، وقد أنذرهم ربهم بإحلال العذاب عليهم بالقتل يوم بدر، والجوع وغير ذلك، فما خضعوا ولا انقادوا لربهم، وتمادوا في ضلالهم، وهم متحيرون.

التفسير والبيان:

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أي بل قلوب الكفار والمشركين في غفلة وضلالة من هذا البيان الشافي في القرآن، ومن هدايته لأقوم الطرق، وإسعاده للناس في دنياهم وآخرتهم.

﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ أي ولهم أعمال سيئة منكرة غير ذلك أي غير الغفلة والجهل وهو الشرك والطعن في القرآن وإيذاء النبي ﷺ والمؤمنين، هم لها عاملون قطعاً في المستقبل. وإنما قال ذلك؛ لأن تلك الأعمال مثبتة في علم الله وفي اللوح المحفوظ ومكتوبة مسجلة عليهم سلفاً، لإحاطة علم الله بها، وعلم الله لا يتغير.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي حتى إذا أوقعنا مترفيهم (وهم المتنعمون البطرون في الدنيا) في العذاب الشديد والبأس والنقمة بهم، صرخوا واستغاثوا، كما قال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾﴾ [المزمل: ٧٣/١١-١٢] وقال سبحانه: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾﴾ [ص: ٣٨/٣].

﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي لا فائدة ولا جدوى من الصراخ، فلا يدفع عنكم ما يراد إنزاله بكم، وقد لزم الأمر ووجب العذاب، ولن تجدوا ناصراً ينصركم، ويحول بينكم وبين العقاب الأليم.

وأسباب حجب نصر الله لهم وإيقاع هذا الجزاء ثلاثة هي:

أ - ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي إنه متى تليت عليكم آيات القرآن نفرتم منها وأعرضتم عن سماعها وعمن يتلوها، كما يذهب الناكص (الراجع) على عقبيه، بالرجوع إلى ورائه. والمراد: أنهم يعرضون عن الحق، فإذا دعوا أبوا، وإن طلبوا امتنعوا.

٢ - ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ أي إنهم حال نكوصهم عن الحق وإبائهم إياه يكونون مستكبرين استكباراً عليه (أي على الحق) واحتقاراً له ولأهله.

وضمير ﴿بِهِۦ﴾ عائد إلى البيت العتيق أو الحرم، فإنهم كانوا يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه، وليسوا به، أو أنه عائد إلى القرآن أو إلى محمد ﷺ، فإنهم كانوا يصفون القرآن بأنه سحر أو شعر أو كِهانة، ويقولون عن النبي ﷺ: إنه ساحر أو شاعر أو كاهن أو كذاب أو مجنون، وكل ذلك باطل، فالقرآن حق، ومحمد نبي الحق، وليس الاستكبار من الحق.

٣ - ﴿سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ أي سماراً حول البيت، تتركون القرآن، أو تأتون بالهذيان، فتسمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه. وعلى هذا تتعلق كلمة ﴿بِهِۦ﴾ بـ: ﴿سَـٰمِرًا﴾.

وبعد أن وصف حالهم، أبان أن إقدامهم على هذه الأمور، لا بد من أن يكون لأحد أسباب أربعة هي:

أ - ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ أي أفلا يتفهم المشركون هذا القرآن العظيم؟ مع أنهم خصوا به، وهو معروف لهم بياناً وفصاحة وبلاغة ومضموناً سامياً، ولم

ينزل على رسول أكمل ولا أشرف منه، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا نعمة الله عليهم بقبولها، والقيام بشكرها وتفهمها، والعمل بمقتضاها.

٢ - ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي أم اعتقدوا أن مجيء الرسل أمر على خلاف العادة، مع أنهم عرفوا بالتواتر أن الرسل تتالت على الأمم، مؤيدة بالمعجزات، أفلا يدعوهم ذلك إلى تصديق هذا الرسول؟

٣ - ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أي ربما لم يكونوا عارفين رسولهم بخصاله العالية قبل النبوة؟ مع أنهم عرفوا أنه الصادق الأمين، وأنه يفر من الكذب والأخلاق الذميمة، فكيف كذبوه بعد أن اتفقوا على تسميته بالأمين؟

لهذا قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي ملك الحبشة: أيها الملك، إن الله بعث فينا رسولاً، نعرف نسبه وصدقه وأمانته. وقال المغيرة بن شعبة لنائب كسرى حين بارزهم مثل ذلك. وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل، حين سأله وأصحابه عن صفات النبي ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته، وكانوا بعد كفاراً لم يُسلموا، فاعترفوا باتصافه بالصدق.

٤ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي بل إنهم يقولون عن الرسول: إن به جنوناً لا يدري ما يقول، مع أنهم يعلمون أنه أرجح الناس عقلاً ورأياً.

ثم بيَّن الله تعالى السبب الحقيقي في عدم إيمانهم فقال:

﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ﴾ أي بل جاءهم الرسول الصادق الأمين بالحق الثابت الذي لا محيد عنه، وهو توحيد الله والتشريع المحقق للسعادة، لكن أكثرهم كارهون لهذا الحق، لتأصل الشرك في قلوبهم، وتمسكهم بتقليد الآباء والأجداد، وحفاظهم على المناصب ومراكز الزعامة والرياسة.

وإنما قال ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ لأن بعضاً منهم تركوا الإيمان أنفة واستعلاء، وتخوفاً من توبيخ القوم وتعييرهم، لا كراهة للحق، كما حكي عن أبي طالب.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ والحق: كل ما قابل الباطل، فهو الشيء الثابت والصواب والطريق المستقيم، فلو اتبع أهواء الناس لانقلب باطلاً، ولذهب ما يقوم به العالم، وقيل الحق: الإسلام لو اتبع أهواءهم وانقلب شركاً لجاء الله بالقيامة ولأهلك العالم، وعن قتادة: أن الحق هو الله، ومعناه: ولو كان الله إلهاً يتبع أهواءهم ويأمر بالشرك والمعاصي، لما كان إلهاً، ولكان شيطاناً.

والمعنى العام: أن الحق لا يتبع الهوى، بل الواجب على الإنسان ترك الهوى واتباع الحق، فإن اتباع الهوى يؤدي إلى الفساد العظيم، فلو جاء القرآن مؤيداً الشرك بالله والوثنية، شارعاً ما فيه الفوضى والانحراف كإباحة الظلم وترك العدل، وإقرار النهب والسلب والسرقة، وإباحة الزنى والقتل، وإهمال القيم الخلقية، لاختل نظام العالم ووقع التناقض، وتأخرت المدنية، وفسدت السماوات والأرض ومن فيهن، لفساد أهوائهم واختلافها، ولو أبيح العدوان لافتقد الأمن، ولو أبيح الظلم لدمرت المدنية، ولو أبيح الزنى لاختلطت الأنساب وتهدمت الأسر، وهكذا.

ومن أفكارهم وأقوالهم ما حكاه القرآن: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣/٣١] ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٣٢] ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٠٠] ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ [النساء: ٤/٥٣].

وضمير ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ إشارة إلى من يعقل من ملائكة السماوات وإنس الأرض وجِنّها. وأما مالا يعقل فهو تابع لما يعقل.

ثم شنع الله تعالى عليهم لإعراضهم عن معالم الحق والهدى والخير فقال: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ أي بل جئناهم بالقرآن الذي هو وعظهم أو فيه شرفهم وفخرهم وإعلاء سمعتهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٤٤] ولكنهم معرضون عن هذا الذكر الذي سطر لهم الخلود والمجد.

ثم أوضح إخلاص النبي ﷺ في دعوته، وأنه لا يطمع فيهم، حتى يكون ذلك سبباً للنفرة فقال:

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾ أي أتسألهم أجراً على تبليغ الرسالة والدعوة إلى الهداية ورفع الشأن حتى لا يؤمنوا بك، ويملّوك ويبغضوك؟ والمراد أن هذه التهمة بعيدة عنه، وأنه ﷺ لا يطلب عوضاً عن القيام بمهمته، فلا يجوز أن ينفروا عن قبول قوله. وإن ماعند الله من ثواب خير من ثواب الدنيا، والله أفضل من أعطى وآجر.

ونظير الآية كثير في القرآن مثل: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبأ: ٣٤/٤٧] ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص: ٣٨/٨٦] ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٤٢/٢٣].

والخلاصة: أنهم غير معذورين في عدم الاستجابة لدعوة النبي ﷺ، فقد أيده الله بدستور رفيع للحياة البشرية، وليس له مطمع مادي في مُلْك ولا مال ولا جاه.

ثم أبان الله تعالى صحة ما جاء به الرسول ﷺ فقال:

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ أي وإنك يامحمد لتدعو الناس قاطبة ومنهم هؤلاء المشركون من قريش إلى الطريق المستقيم، والدين القيم الصحيح، وسبيل العزة والكرامة، والخير والسداد والوسط، وهو الإسلام

العلاج الشافي لأدواء البشرية، وحل المشكلات الدينية والدنيوية، كما شهدت بذلك العقول السليمة، والدراسات الحيادية المجردة من أعداء الإسلام وعباقرة العلم والمعرفة.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ أي وإن المكذبين بالآخرة الذين لا يصدقون بالبعث بعد الموت لعادلون جائرون منحرفون عن هذا الطريق؛ لأن طريق الاستقامة واحدة، وما يخالفه فكثير.

﴿۞ وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أي إن هؤلاء الكفار لو أسبغنا عليهم واسع رحمتنا، وأزحنا عنهم الضر، وأفهمناهم القرآن، لما آمنوا به ولما انقادوا له، ولتمادوا في ضلالهم، ولاستمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم، وظلوا متحيرين مترددين، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٣] .

﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ أي ولقد ابتليناهم بالمصائب والشدائد، فما ردّهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة، بل استمروا على غيهم وضلالهم، وما خشعوا وما خضعوا لربّهم، وما دعوا ولا تذللوا، كما قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنعام: ٦/ ٤٣] .

ثم أخبر الله تعالى عن عاقبة أمرهم فقال:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾ أي حتى إذا جاءهم أمر الله، وجاءتهم الساعة بغتة، فنالهم من العذاب مالم يكونوا يحتسبون، أيسوا من كل خير ومن كل راحة، وانقطعت آمالهم، وخاب رجاؤهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١ً - إن للكفار أعمالاً قبيحة جداً في ميزان شرع الله ودينه، أَسْوَؤها الشرك، وهم في غفلة وعماية عن القرآن وهديه، وهم عاملون تلك الأعمال لا محالة؛ لأنها مثبَّتة في علم الله تعالى وفي حكم الله وفي اللوح المحفوظ، ولكن دون إجبار ولا إكراه، وإنما باختيار منهم.

٢ً - يعتاد الكافر إذا أصابه العذاب والبلاء في الدنيا أن يجأر بالشكوى ويضج ويستغيث، ولكن إذا داهمه العذاب في الآخرة لم ينفعه التضرع والجزع، ولا يجد ناصراً ينصره من بأس الله تعالى.

ومثال ذلك أن مترفي مكة تعرضوا للقتل يوم بدر، وللجوع الشديد، حين قال النبي ﷺ: «اللهم اشددْ وطأتك على مُضَر، اللهم اجعلها عليهم سنين كسِني يُوسُف» فابتلاهم الله بالقحط والجوع، حتى أكلوا العظام والميتة والكلاب والجيف، وهلكت الأموال والأولاد، كما تقدم بيانه.

٣ً - كانت أسباب تعذيب الكفار والمشركين ثلاثة: هي النفور عن القرآن والإعراض عن سماعه، والاستكبار بهذا التباعد عن الحق والافتخار بالبيت الحرام وأنهم أولياؤه، فكانوا يقولون: نحن أهل حرم الله تعالى، وما هم كذلك، والسمر بذكر القرآن وبالطعن فيه. وضمير ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ كما قال الجمهور: هو عائد على الحرم أو المسجد أو البلد الذي هو مكة، وإن لم يذكر سابقاً؛ لشهرته في الأمر.

٤ً - روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: إنما كُره السَّمَر حين نزلت هذه الآية: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ يعني أن الله تعالى ذم أقواماً يسمُرون في غير طاعة الله تعالى، إما في هَذَيان، وإما في إذاية.

وروى مسلم عن أبي بَرْزة قال: «كان النبي ﷺ يؤخر العشاء إلى ثلث الليل، ويكره النوم قبلها، والحديث بعدها». أما كراهية النوم قبلها فلئلا يعرّضها للفوات عن كل وقتها أو أفضل وقتها، وهذا مذهب مالك والشافعي. وأما كراهية الحديث بعدها، فلأن الصلاة قد كفرت خطاياه، فينام على سلامة، وقد ختم الكُتَّاب صحيفته بالعبادة، فإن سَمَر وتحدث، فيجعل خاتمتها اللغو والباطل، وليس هذا من فعل المؤمنين. وأيضاً السمر في الحديث والسهر يفوت عليه غالباً قيام آخر الليل، وربما ينام عن صلاة الضبح. روى أحمد حديثاً: «لا سمر بعد الصلاة» أي العشاء الآخرة.

روى جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والسَّمَر بعد هَدْأة الرجل، فإن أحدكم لا يدري ما يبث الله تعالى من خلقه، أغلِقوا الأبواب، وأَوكُوا السِّقاء، وخمروا الإناء، وأطفئوا المصابيح».

وهذه الكراهية إنما تختص بما لا يكون من قبيل القُرَب والأذكار وتعليم العلم، ومسامرة الأهل بالعلم وبتعليم المصالح وما شابه ذلك، فقد ورد عن النبي ﷺ وعن السلف ما يدل على جواز ذلك، بل على ندبه.

٥ً - إن إقدام الكفار على الأمور الثلاثة المتقدمة لأسباب أربعة: هي عدم تدبرهم القرآن أي عدم تفهمهم له، واعتقادهم أن مجيء الرسل على خلاف العادة، وتجاهلهم وإنكارهم خصال الرسول ﷺ قبل النبوة، فإنهم عرفوه وعرفوا أنه من أهل الصدق والأمانة، فكان في اتباعه النجاة والخير لولا العَنَت، ووصفهم له بأنه مجنون للاحتجاج في ترك الإيمان به.

مع أنه عليه الصلاة والسلام جاءهم بالحق، أي القرآن والتوحيد الحق والدِّين الحق، وأكثرهم كارهون للحق حسداً وبغياً وتقليداً.

٦ً - الحق فوق الأهواء والشهوات، ولو وافق الحق أهواء الكفار، لاختل نظام العالم؛ لأن شهوات الناس متخالفة متعارضة متضادة، لذا وجب اتباع سبيل الحق، والانقياد للحق، والتخلي عن الأهواء.

٧ً - القرآن الكريم شرف وفخر ومجد وعز للعرب، ومع ذلك فهم معرضون عنه وعن تعاليمه، وتلك هي الحماقة بعينها، والمكابرة.

٨ً - ليس للنبي ﷺ مطمع في أجر أو جُعل على تبليغ ما جاء به قومه من الرسالة، بل هو أسمى من طلب ذلك، لأنه يطلب رضا الله وفضله، وما يؤتيه الله له من الأجر على الطاعة والدعاء إلى دين الله خير من عَرَض الدنيا، وقد عرضوا عليه فعلاً أموالهم حتى يصبح أغناهم، فأبى ذلك أيما إباء ولم يجبهم إلى ذلك.

٩ً - إن دعوة النبي ﷺ دعوة إلى الاستقامة، وإلى الدين القويم، والمنهج الأعدل والأفضل، لكن الذين لا يصدقون بالبعث لعادلون عن الحق، جائرون منحرفون، حتى يصيروا إلى النار.

١٠ً - لو ردّ الله الكفار إلى الدنيا رحمة بهم، ولم يدخلهم النار وامتحنهم مرة أخرى، لتمادوا في طغيانهم، أي في معصيتهم، وظلوا يترددون في ضلالتهم.

ولو كشف الله ما بالكفار من ضُرّ، أي من قحط وجوع، لتمادوا في ضلالتهم أيضاً وتجاوزهم الحد، واستمروا يخبِطون في طغيانهم.

١١ً- لقد مرّ الكفار في تجربة واضحة، فحينما جاءهم العذاب بالجوع والأمراض والحاجة، ما خضعوا لربهم وما خشعوا له، وما تضرعوا بالدعاء لله عز وجل في الشدائد التي تصيبهم.

١٢ً- إن عاقبة أمر الكفار واضحة، فهم إذا تعرضوا لعذاب الله الشديد في الآخرة، أيسوا من كل خير، وتحيروا لا يدرون ما يصنعون، كالآيس من الفَرَج ومن كل خير، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ

وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٢٧-٢٩].

والخلاصة: يصرُّ المشركون على إشراكهم بالرغم من الإنذارات المتكررة وتوافر الأدلة على عظمة الله وقدرته وتحذيره من بأسه الشديد.

نعم الله العظمى على عباده

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾

البلاغة:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ امتنان، وأفرد السمع وجمع الأبصار تفنناً.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ التنكير للتقليل، و﴿مَّا﴾ لتأكيد القلة، والمعنى: شكراً قليلاً، وهو كناية عن عدم الشكر.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ استفهام بقصد التوبيخ والإنكار.

﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ طباق.

المفردات اللغوية:

﴿أَنشَأَ﴾ خلق ﴿السَّمْعَ﴾ الأسماع ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ لتتفكروا فيها وتستدلوا بها، وتحققوا منافع أخرى دينية ودنيوية ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ تشكرونها شكراً قليلاً؛ لأن الشكر الحقيقي استعمال الحواس فيما خلقت لأجله، والإذعان لمانحها

من غير إشراك، و﴿مَّا﴾ لتأكيد القلة ﴿ذَرَأَكُمْ﴾ خلقكم وبثكم ﴿تُحْشَرُونَ﴾ تبعثون وتجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم ﴿يُحْيِۦ﴾ ينفخ الروح ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ تعاقبهما بالسواد والبياض، والزيادة والنقصان، وذلك مختص بالله تعالى لا يقدر عليه غيره، كما يقال: يختلف إلى فلان، أي يتردد عليه، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ صنعه تعالى بالنظر والتأمل أن كل شيء منا، وأن قدرتنا تعم كل الممكنات وأن البعث من جملتها، فتعتبروا. وقرئ بالياء (يعقلون) على أن الخطاب السابق لتغليب المؤمنين.

المناسبة:

بعد أن بيّن الله تعالى إعراض المشركين عن تدبر القرآن وفهم أدلة وجود الله ووحدانيته وقدرته، أعقبه ببيان أوجه النعم العظمى على عباده، ليسترشدوا بها على وجود الله وقدرته. وتلك النعم هي الأسماع والأبصار والأفئدة وهي العقول والأفهام التي يذكرون بها الأشياء، ويعتبرون بما في الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله، وأنه الفاعل المختار لما يشاء.

التفسير والبيان:

امتن الله تعالى على عباده بنعم عظيمة دالة على قدرته وحكمته وعلمه وهي أربعة:

أ - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أي والله الذي خلق لكم الأسماع لسماع الأصوات، والأبصار لرؤية الأشياء، والعقول لفهم الأمور، وإدراك الحقائق المؤدية إلى تحقيق منافع الدنيا والآخرة. وخص هذه الثلاثة بالذكر؛ لأن الاستدلال على وجود الله وقدرته متوقف عليها.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي إن الشاكرين منهم قليل، فما أقل شكرهم لله على ما أنعم به عليهم، والمعنى أنهم لم يشكروا الله على نعمه العظيمة، كما يقال

لجحود النعمة: ما أقل شكر فلان! وذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣/١٢].

٢ - ﴿ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي والله الذي خلقكم وبثّكم بالتناسل في الأرض، لعمارتها وتحضرها، ووزعكم في أقطارها مع اختلاف الأجناس والألوان واللغات والصفات، ثم يوم القيامة تجمعون جميعاً لميقات يوم معلوم، فلا يترك صغيراً ولا كبيراً إلا أعاده كما بدأه، وله الحكم وحده.

٣ - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي وهو الذي وهبكم نعمة الحياة، لكن تلك النعمة غير خالدة، وإنما المقصود منها الانتقال إلى دار الثواب، وذلك بالإماتة بعد الإحياء، ثم بالإعادة أحياء مرة أخرى للجزاء.

٤ - ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي ولله وحده تسخير الليل والنهار، وجعل كل منهما يطلب الآخر، يتعاقبان، لا يفتران ولا يفترقان بنظام دقيق وزمان محدد؛ كما قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠/٣٦].

ثم حذر الله تعالى من ترك النظر في كل هذا فقال:

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تتفكرون في هذه الأشياء، أفلا تعقلون كنه قدرته ورُبوبيته ووحدانيته، وألا تدلكم عقولكم على العزيز العليم الذي قهر كل شيء، وخضع له كل شيء، لتعلموا أن الله حي موجود قادر؟! وفيه دلالة على الزجر والتهديد.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه الآيات تعريف عام بكثرة نعم الله عز وجل على عباده، فهو الذي وهبهم مفاتيح العلم والمعرفة، وأمدهم بالحواس التي تمكنهم من الاستدلال بها على كمال قدرته، وهو الذي أنشأهم وبثهم وخلقهم في الأرض لمهمة

سامية هي الإعمار والتنمية، ثم يجمعون يوم القيامة للجزاء العادل، وهو الذي منحهم حق الحياة التي يعقبها الموت، حتى لا يطغى الإنسان ويستبد، فالموت يكون نعمة وراحة كالحياة نفسها، وهو الذي أوجد بيئة الحياة السليمة بخلق الليل والنهار وجعلهما متعاقبين بنظام دقيق متلائم مع مرور الفصول الأربعة.

وشأن البصير العاقل أن يتعظ ويعتبر ويفهم ويفكر في بدائع الخلق، وعظم القدرة والربوبية والوحدانية، دون أن يكون له شريك من خلقه، وأنه قادر على البعث.

إنكار المشركين البعث وإثباته بالأدلة القاطعة

﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾

القراءات:

﴿أَءِذَا﴾، ﴿أَءِنَّا﴾:

قرئ:

١- (أئذا، إنا) وهي قراءة نافع، والكسائي.

٢- (إذا، أئنا) وهي قراءة ابن عامر.

٣- (أئذا، أئنا) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿مِتْنَا﴾: قرئ:

١- (مِتْنَا) وهي قراءة نافع، وحفص، وحمزة، والكسائي.

٢- (مُتْنَا) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

قرئ:

١- (تَذَكَّرون) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي.

٢- (تَذَّكَّرون) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾:

وقرأ أبو عمرو (سيقولون الله).

الإعراب:

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جوابه: قراءة من قرأ: (سيقولون الله) وأما قراءة ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ فليس بجواب قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإنما هو جوابه من جهة المعنى؛ لأن معنى قوله: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: لمن السماوات؟ فقيل في جوابه: ﴿لِلَّهِ﴾. ونظيره ما بعده وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فقال: لله، حملاً على المعنى. وهذا كثير في كلام العرب.

البلاغة:

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم تعلمون ذلك فأخبروني عنه، حذف جواب الشرط لدلالة اللفظ عليه.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ استفهام بغرض الإنكار والتوبيخ.

﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ طباق السلب.

المفردات اللغوية:

﴿بَلْ قَالُوا﴾ أي كفار مكة ﴿الْأَوَّلُونَ﴾ آباؤهم ومن تبعهم ﴿قَالُوا﴾ أي الأولون ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ استبعاداً ولم يتأملوا أنهم كانوا قبل ذلك أيضاً تراباً، فخلقوا ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أكاذيبهم التي كتبوها، جمع أُسطورة، كأُحدوثة وأُعجوبة ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ خالقها ومالكها، أي إن كنتم من أهل العلم أو من العالمين بذلك. وهذا استهانة بهم، وتقرير لفرط جهالتهم، وإلزام بما لا يمكن إنكاره ممن له شيء من العلم.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي إن العقل الصريح المجرد اضطرهم بأدنى نظر إلى الإقرار بأنه خالقها ﴿قُلْ﴾ بعد ما قالوه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون، فتعلموا أن القادر على الخلق ابتداءً قادر على الإحياء بعد الموت؟!

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ الكرسي، فإنها أعظم من ذلك ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ تحذرون عقابه، فلا تشركوا به بعض مخلوقاته، ولا تنكروا قدرته على بعض مقدوراته ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ملك كل شيء ﴿يُجِيرُ﴾ يغيث من يشاء ويحرسه ويمنعه من الغير ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ لا يغاث أحد ولا يمنع منه، ومعنى الجملتين: ﴿يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ يحمي ولا يحمى عليه، يقال: أجرت فلاناً على فلان: أي أغثته ومنعته منه ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ جواب السؤال من جهة المعنى، وهو: من له ما ذكر؟ ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ تُخْدَعُون، فتصرفون عن الرشد وطاعة الله وتوحيده، مع ظهور الأمر، وتظاهر الأدلة، أي كيف تخيل لكم أنه باطل؟! ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾ بالصدق ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في نفيه.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى أدلة التوحيد في الكون والأنفس، أعقبها ببيان إنكار

المشركين (عبدة الأوثان) البعث والحشر مع وضوح الأدلة، وتقليدهم الأولين في الاستبعاد والتكذيب. ثم رد عليهم بأدلة ثلاثة تثبت البعث من غير شك.

التفسير والبيان:

بالرغم من زجر المشركين وتهديدهم في الآيات السابقة على تعطيل عقولهم التي ترشدهم إلى الإقرار بتوحيد الله وقدرته على البعث، فإنهم رددوا مقالة السابقين البدائيين وهي:

﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾﴾ أي مع كل ما سبق، فإن هؤلاء المشركين أنكروا البعث واستبعدوه، وأعادوا مقالة أسلافهم الذين كذبوا رسلهم، تقليداً أعمى لهم دون برهان، وهذا تعيير بقولهم. وتفصيل تلك المقالة من وجهين:

الأول:

﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أي هل إذا متنا، وصرنا تراباً وعظاماً بالية، نعود إلى البعث والحياة؟ فهم يستبعدون وقوع ذلك بعد البلى، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ٧٩/١٠-١٤] وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٣٦/٧٧-٧٩].

والثاني:

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ﴾ أي إن هذا الوعد بالبعث الذي يخبر به محمد ﷺ قد وعد به قديماً الأنبياء السابقون، ثم لم يوجد ذلك مع طول العهد، وكأنهم لغباوتهم يظنون أن الإعادة تكون في دار الدنيا.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي ما هذا الوعد بالبعث إلا أكاذيب المتقدمين وأباطيلهم وترهاتهم، قد توارثناها دون وعي، ودون دليل مثبت لصحتها، كما يزعمون.

ثم رد الله تعالى عليهم لإثبات البعث ببراهين ثلاثة هي:

١ - ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ أي قل أيها النبي لمنكري الآخرة: من مالك الأرض الذي خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات وغير ذلك من المخلوقات إن كنتم من أهل العلم أو من العالمين بذلك؟ وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ استهانة بهم وتأكيد لجهلهم.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي سيعترفون بما دل عليه العقل بداهة بأن ذلك كله لله وحده ملكاً وخلقاً وتدبيراً، فإذا كان ذلك:

﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي قل لهم أفلا تتعظون وتتدبرون أن من خلق هذا ابتداء قادر على إعادته، وأنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرازق لا لغيره؟! وقوله هذا معناه الترغيب في التدبر ليعلموا بطلان ما هم عليه.

وهذا البرهان القاطع يصلح للرد على منكري الإعادة وعلى عبدة الأوثان المشركين العابدين مع الله غيره، المعترفين له بالربوبية، ولكنهم أشركوا معه في الألوهية، فعبدوا غيره، مع اعترافهم أن معبوداتهم لا يخلقون شيئاً ولا يملكون شيئاً، وإنما اعتقدوا أنهم يقربونهم إلى الله زُلْفَى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣٩/٣] .

٢ - ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ أي قل لهم أيضاً: من خالق السماوات وما فيها من الكواكب والملائكة، ومن خالق العرش العظيم الكبير الذي هو سقف المخلوقات، كما قال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٥] وكما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود

عن رسول الله ﷺ أنه قال: «شأنُ الله أعظم من ذلك، إن عرشه على سماواته هكذا» وأشار بيده مثل القبة، وفي الحديث الآخر: «ما سماواته السبع والأرضون السبع وما بينهن وما فيهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن الكرسي بما فيه بالنسبة إلى العرش كتلك الحلقة في تلك الفلاة».

فالعرش يجمع بين الصفتين: العظمة والكبر في الاتساع والعلو: ﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ والحسن والبهاء في الجمال، كما قال في آخر السورة: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ أي الحسن البهي.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي إنهم سيعترفون فوراً بأنه لله وحده، ولا جواب سواه.

﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟ أي إذا كنتم تعترفون بذلك، أفلا تخافون عقاب الله وتحذرون عذابه في عبادتكم معه غيره وإشراككم به؟!

وكما أن العالمين السفلي والعلوي ملك لله تعالى، فله أيضاً تدبير شؤونهما، كما قال:

٣ - ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي بيده الملك والتصريف والتدبير، كما قال: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦/١١] أي متصرف فيها.

﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي وهو السيد الأعظم الذي يغيث من يشاء ويحمي من يشاء، ولا يغيث ولا يحمي أحد منه أحداً، فلا يمانع ولا يخالف، وما شاء كان ومالم يشأ لم يكن، إن كنتم من أهل العلم بذلك.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي سيعترفون أن المالك المدبر هو الله لا غيره، فلا معقّب لحكمه، ولا رادّ لقضائه. وقرئ (الله) في هذا وما قبله، ولا فرق في المعنى؛ لأن قولك: من ربه، ولمن هو؟ في معنى واحد.

﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾؟ أي قل لهم مستغرباً وموبخاً: فأنى تُخدعون عن توحيده وطاعته، والخادع: هو الشيطان والهوى، أو فكيف تتقبل عقولكم عبادتكم مع الله غيره، مع اعترافكم وعلمكم بذلك وتصريحكم بأنه الخالق المالك المدبر؟.

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾ أي بل جئناهم بالقول الحق، والدليل الصدق، والإعلام الثابت بأنه لا إله إلا الله، وأقمنا الأدلة الصحيحة القاطعة على ذلك، وإنهم مع ذلك لكاذبون في إنكار الحق، وفي عبادتهم مع الله غيره، ولا دليل لهم عليها، كما قال في آخر السورة: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ فهؤلاء المشركون لا يفعلون ذلك عن دليل، وإنما اتباعاً لآبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال.

وفي هذا توعد وتهديد على ادعائهم أن لله ولداً وأن معه شريكاً، فنسبة الولد إليه محال، والشرك باطل.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يلي:

١ً - ليس للمشركين ومنكري الآخرة دليل عقلي مقبول، وكل ما لديهم من بضاعة هو ترداد أقوال المتقدمين، وتقليد الآباء والأسلاف.

٢ً - إنهم اعترفوا صراحة بأن الله تعالى هو مالك الأرض (العالم السفلي) ومالك السماء (العالم العلوي) ومدبر كل شيء، وبيده مقاليد كل شيء، وهو المتصرف في كل شيء، والقادر على كل شيء.

ومن كان هذا شأنه، ألا يكون هو المستحق وحده للعبادة، والقادر على الإحياء والبعث والإعادة؟!

ويكون ما أتى به القرآن من الأدلة المثبتة للوحدانية والقدرة والبعث هو الحق الثابت الذي لا مرية ولا شك فيه، وهو القول الصدق، لا ما تقوله الكفار من إثبات الشريك، ونفي البعث.

٣ - دلت هذه الآيات على جواز جدال الكفار، وإقامة الحجة عليهم، ونبّهت على أن من ابتدأ بالخلق والاختراع، والإيجاد والإبداع هو المستحق للألوهية والعبادة.

٤ - إن تذييل الآيات بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ يعد حملة شديدة على المشركين للإقلاع عما هم عليه من الشرك، فقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ معناه الترغيب في التدبر، ليعلموا بطلان ماهم عليه، وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ معناه الاستهانة بهم وتأكيد لفرط جهلهم، وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ معناه التنبيه على أن اتقاء عذاب الله لا يحصل إلا بترك عبادة الأوثان والاعتراف بجواز الإعادة، وقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ إثبات تناقضهم، إذ كيف تتقبل عقولهم عبادة أحد مع الله، مع اعترافهم الصريح بأن الله هو المالك الخالق المدبر.

نفي الولد والشريك لله تعالى

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾

القراءات:

﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾:

قرئ:

١- (عالمُ الغيب) وهي قراءة نافع، وحمزة، والكسائي.

٢- (عالمِ الغيب) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ بالجر بدل من ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ ويقرأ بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو عالم الغيب والشهادة.

البلاغة:

﴿مِن وَلَدٍ﴾ ﴿مِنْ إِلَٰهٍ﴾ ذكر حرف الجر الزائد تأكيد لنفي الولد والإله في الجملتين.

المفردات اللغوية:

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ لتقدسه عن مماثلة أحد ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ يساهم أو يشاركه في الألوهية ﴿إِذًا لَّذَهَبَ﴾ جواب شرط حذف لدلالة ما قبله عليه، أي لو كان معه آلهة، كما يقولون، لذهب كل واحد منهم بما خلقه، واستبدّ واستقل به، وامتاز ملكه عن ملك الآخرين، ووقع بينهم التحارب والتنازع، كما هو حال ملوك الدنيا، فدل الإجماع والاستقراء وبرهان العقل على إسناد جميع الممكنات إلى واحد واجب الوجود. ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ لغالب بعضهم بعضاً، كفعل ملوك الدنيا ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ تنزيهاً له ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي يصفونه به من الولد والشريك لما سبق من دليل فساده.

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي عالم بما غاب وبما شوهد، وهو دليل آخر

على نفي الشريك؛ لإجماع العقلاء على أنه تعالى هو المتفرد بذلك ﴿فَتَعَـٰلَىٰ﴾ تعاظم ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يشركونه معه.

المناسبة:

بعد إثبات البعث والجزاء بالأدلة القاطعة، والرد على منكري البعث وعبدة الأوثان أبان الله تعالى أن المشركين كاذبون مفترون في نسبة الولد إلى الله، واتخاذ شريك له.

التفسير والبيان:

ينفي الله تعالى وينزه نفسه عن أمرين: هما اتخاذ الولد واتخاذ الشريك فقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ أي ما جعل لنفسه ولداً، كما يزعم بعض المشركين حين قالوا: الملائكة بنات الله.

﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ﴾ أي وما وجد معه إله آخر يشاركه في الألوهية، لا قبل خلق العالم ولا بعدِ خلقه، كما يتصور الوثنيون باتخاذ الأصنام آلهة.

﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي لو قُدِّر تعدد الآلهة، لانفرد كل منهم بما خلق، واستقل بما أوجد، وتميز ملك كل واحد منهم عن ملك الآخر؛ لأن استمرار الشركة مستحيل، ولكان هم كل واحد منهم أن يغلب الآخر، ويطلب قهره والتسلط عليه، لتظهر قوة القوي على الضعيف، كما هو حال ملوك الدنيا، ولو حدث هذا التغالب والانقسام لاختل نظام الوجود، ولفسدت السماوات والأرض ومن فيهن.

إلا أن المشاهد أن الوجود منتظم متسق، وفي غاية النظام والكمال وارتباط كل من العالم السفلي بالعالم العلوي دون تصادم ولا اضطراب، كما قال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ﴾ [الملك: ٦٧/٣] ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٠] .

ولما ثبت كون التعدد في الآلهة مستحيلاً، وبطل قول الكفار في الأمرين معاً، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزه الله الحق الواحد الأحد عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك.

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي إنه سبحانه هو المختص بعلم الغيب والشهادة، أي بعلم ما غاب عن إدراك الخلق من الأشياء، ويعلم ما يشاهدونه وما يرونه ويبصرونه، فهو يعلم الأمرين معاً على حد سواء، وهذا دليل آخر على نفي الشريك؛ لأن غير الله وإن علم الشهادة أي الموجودات المرئيات أمامه، فلن يعلم معها الغيبيات غير المرئيات، وهذا دليل النقص، والله تعالى متصف بالكمال، فلا يكتمل النفع بعلم الشهادة وحدها، دون العلم بالغيب.

﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تقدس وتنزه عما يقول الجاحدون الظالمون الذين يشركون معه إلهاً آخر.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذا دليل عقلي لا يقبل الإنكار والطعن من أحد، فالله لم يتخذ ولداً كما زعم بعض الكفار، ولا كان معه إله فيما خلق، فلو كانت معه آلهة لانفرد كل إله بخلقه، كما هو مقتضى العادة، ولغالب بعضهم بعضاً، وطلب القوي الضعيف كالعادة بين الملوك، وحينئذ لا يستحق الضعيف المغلوب الألوهية.

وهذا كما يدل على نفي الشريك يدل على نفي الولد أيضاً؛ لأن الولد ينازع عادة الأب في الملك منازعة الشريك.

فتنزه الله عن أوصاف المشركين من الولد والشريك، وتقدس عما يقوله هؤلاء الظالمون والجاحدون.

وقد ذكر علماء الكلام هذا الدليل وسموه دليل التمانع: وهو أنه لو فرض صانعان خالقان فصاعداً، فأراد واحد تحريك جسم، والآخر أراد سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما، كانا عاجزين، والإله الواجب الوجود لا يكون عاجزاً، ويمتنع اجتماع مراديهما وتحقيق رغبتيهما في آن واحد للتضاد، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد، فيكون محالاً.

فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان الغالب هو الواجب الوجود المستحق الألوهية، والآخر المغلوب يكون ممكناً؛ لأنه لا يليق بصفة الواجب الوجود أن يكون مقهوراً.

إرشادات إلى النبي ﷺ

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾

الإعراب:

﴿قُل رَّبِّ﴾ أي يا ربِّ، وهو اعتراض بين الشرط وجوابه بالنداء.

البلاغة:

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ تأكيد بإن واللام؛ لإنكار المخاطبين وقوع العذاب الأخروي والدنيوي.

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ طباق معنوي؛ لأن المعنى: ادفع بالحسنة السيئة.

المفردات اللغوية:

﴿رَّبِّ إِمَّا﴾ أدغمت فيه نون إن الشرطية في ما الزائدة، أي إذا كان لابد من أن تريني؛ لأن ما والنون للتأكيد ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب في الدنيا والآخرة ﴿فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي معهم، فأهلك بهلاكهم؛ لأن شؤم الظلَمة قد يحيق بما وراءهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٥] . وإن تكرار كلمة ﴿رَّبِّ﴾ في بدء الجملتين لزيادة التضرع ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ أي بقدرتنا تعجيل العذاب، لكنا نؤخره؛ لأن بعضهم أو بعض ذرياتهم سيؤمنون، أو لأنا لا نعذبهم وأنت فيهم.

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ وهو الصفح والإحسان والإعراض عنهم ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أذاهم إياك ﴿بِمَا يَصِفُونَ﴾ يصفونك به أو يقولون ويكذبون، فإنا سنجازيهم عليه ﴿أَعُوذُ﴾ أعتصم ﴿هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ نزغاتهم ووساوسهم بالشر ﴿أَن يَحْضُرُونِ﴾ في أموري؛ لأنهم إنما يحضرون بسوء، أو يحومون حولي في بعض الأحوال.

المناسبة:

بعد أن ردّ الله تعالى على المشركين مزاعمهم من اتخاذ الولد والشريك وأبطل سوء اعتقادهم كإنكار البعث والجزاء، وجّه رسوله ﷺ إلى الدعاء والتضرع بالنجاة من عذابهم، ثم أرشده إلى مقابلة السيئة بالحسنة؛ لأن الإحسان يفيد أحياناً، ثم أمره أن يستعيذ من وساوس الشياطين في مختلف الأعمال.

التفسير والبيان:

يأمر الله تعالى نبيه ببعض الأدعية عند حلول النقم، فيقول:

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ أي إن كان لابد من أن تريني ما تعدهم من العذاب في الدنيا أو في الآخرة، فلا تجعلني فيهم، ونجني منهم ولا تعذبني بعذابهم؛ لأن العذاب قد يصيب غير أهله، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٥] روى الإمام أحمد والترمذي وصححه أن النبي ﷺ كان يقول: «وإذا أردتَ بقوم فتنة، فتوفني إليك غير مفتون».

وعن الحسن: أنه تعالى أخبر نبيه أن له في أمته نقمة، ولم يطلعه على وقتها، فأمره بهذا الدعاء.

والإرشاد إلى هذا الدعاء ليعظم أجره، وليكون دائماً ذاكراً ربَّه، ولتعليمنا ذلك.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ أي لو شئنا لأريناك ما نوقعه بهم من النقم والبلاء والمحن، ولكنا نؤخره لوقت معلوم؛ لأن بعضهم أو بعض ذرياتهم سيؤمن.

ثم علمه أسلوب الدعوة حتى يتحقق لها النجاح فقال:

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي قابل السيئة بالحسنة، وتحمل ما تتعرض له من أنواع أذى الكفار وتكذيبهم، وادفع بالخصلة التي هي أحسن، بالصفح والعفو، والصبر على الأذى، والكلام الجميل كالسلام، نحن على علم بحالهم وبما يصفوننا به من الشرك والتكذيب.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ، وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٤-٣٥] أي وما يُلْهَم هذه الوصية أو هذه الخصلة إلا الذين صبروا على أذى الناس، فعاملوهم بالجميل في مقابلة القبيح، وما

يلهمها إلا صاحب الحظ العظيم في الدنيا والآخرة. وقيل: هذه الآية منسوخة بآية السيف، وقيل: محكمة؛ لأن المداراة مرغوب فيها، مالم تتعارض مع الدين والمروءة.

ثم علمه الثبات على هذا الخط فقال:

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ ٱلشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ أي وقل: إني أعتصم بك وألتجئ إليك من وساوس الشياطين المُغْرية بالسوء والمعصية ومخالفة أوامرنا، وألتجئ إليك من حضورهم في شيء من أموري، ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والذبح وغير ذلك من الأمور، فإنهم إذا حضروا الإنسان حدث الهمز، وإذا لم يكن حضور، فلا همز.

روى أبو داود أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهرَم، وأعوذ بك من الهدم ومن الغَرَق، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت».

وروى أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي والبيهقي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: «كان رسول الله ﷺ يعلّمُنا كلمات نقولهن عند النوم من الفزع: بسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه، ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين، وأن يحضرون».

فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها، كتبها له، فعلّقها في عنقه.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه باقة من الأدعية أمر الله بها نبيه ليدعو بها، ولتعليمنا إياها، وهي:

أولاً - دعاء النجاة من العذاب الذي يقع بالكفار، ومعناه: يا ربِّ، إن أريتني ما يوعدون من العذاب، فلا تجعلني معهم في نزول العذاب بهم، بل أخرجني منهم.

وكان ﷺ يعلم أن الله تعالى لا يجعله في القوم الظالمين إذا نزل بهم العذاب، ومع هذا أمره بهذا الدعاء، ليعظم أجره، وليكون في كل الأوقات ذاكراً ربَّه تعالى.

والله قادر على إنزال العذاب بهم، وأراه الله تعالى ذلك فيهم بالجوع والسيف في يوم بدر وفتح مكة، ونجاه الله ومن آمن به من ذلك.

وثانياً - دعاء الاعتصام من الشيطان، والمعنى: يا ربّ إني ألتجئ إليك من نزغات الشياطين الشاغلة عن ذكر الله تعالى، وفي حالات الغضب.

وبين الدعاءين تعليم لأسلوب الدعوة إلى الله تعالى، وهو مقابلة السيئة بالحسنة، أي بالصفح ومكارم الأخلاق، لتنقلب العداوة صداقة، والبغض محبة، قال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

تمني الإنسان عند الموت
الرجوع إلى الدنيا ليعمل صالحاً

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

القراءات:

﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (لعليَ أعمل).

الإعراب:

﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾: إنما جاءت المخاطبة بلفظ الجمع، ولم يقل: ارجعني تعظيماً لله تعالى، أو على معنى التكرار، كأنه قال: ارجعني ارجعني، فجمع، كما ثنّى في قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ أي ألْقِ ألْقِ.

البلاغة:

﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ مجاز مرسل، من إطلاق الجزء على الكل، إذ إنه أطلق الكلمة على الجملة.

المفردات اللغوية:

﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائية. ﴿جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي الكافر، وهو متعلق بقوله: ﴿يَصِفُونَ﴾ في الآيات المتقدمة، وما بينهما اعتراض، وقد يسأل المؤمن الرجعة أيضاً، فإذا رأى الكافر مقعده من النار ومقعده من الجنة لو آمن، طلب العودة إلى الدنيا، وكذلك المؤمن يسأل الرجعة، كما جاء في آخر سورة المنافقين: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ٦٣/ ١٠].

﴿ٱرْجِعُونِ﴾ الواو لتعظيم المخاطب، أي ردوني إلى الدنيا. ﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾ بأن أشهد أن لا إله إلا الله. ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ ضيعت من عمري. ﴿كَلَّآ﴾ كلمة ردع وزجر عن حصول ما يطلب، أي لا رجوع. ﴿إِنَّهَا﴾ أي قوله: رب ارجعون ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ أي لا فائدة له فيها. ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ أي من أمامهم. ﴿بَرْزَخٌ﴾ حائل أو حاجز بينهم وبين الرجعة. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي إلى يوم القيامة، ولا رجوع بعده، فهو تيئيس وإقناط كلي عن الرجوع إلى الدنيا، وإنما الرجوع إلى حياة الآخرة.

المناسبة:

بعد أن كشف الله حال المشركين وما يصفون من الشرك والتكذيب، ذكر الله حال الكافرين عند مجيء الموت، فإنهم يتمنون أن يعودوا إلى دار الدنيا ليعملوا صالحاً، لكن لا يسمع لقولهم ودعائهم. والمراد أن الكفار ما يزالون على سوء الحال والاعتقاد إلى الموت، فهذه الآية متعلقة بقوله: ﴿يَصِفُونَ﴾ وما بينهما اعتراض وتأكيد للإغضاء عنهم وإهمالهم، بالاستعانة بالله على الشيطان أن يستزله عن الحلم، ويزحزحه عن الأناة.

التفسير والبيان:

هذا حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو العصاة المفرطين في أمر الله تعالى وماذا يقولون حينئذ، فقال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ أي إذا دنا الإنسان الكافر أو العاصي المفرط في حقوق الله من الموت، ورأى ما ينتظره من العذاب، طلب الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته، وقال: ربّ ارجعني لكي أتدارك ما قصرت فيه، وأعمل العمل الصالح الذي ترضى عنه من الطاعات والخيرات وأداء حقوق الناس. وقوله: ﴿لَعَلِّىٓ﴾ ليس المراد بها الشك، وإنما يعني كونه جازماً بأنه سيتدارك.

وذلك كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤٤] وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٣].

وقال عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ

أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ٣٢/ ١٢] وقال تعالى: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا﴾ [الأنعام: ٦/ ٢٧]، ﴿وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤٤]، ﴿وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٥/ ٣٧].

وهذا كله يدل على أن تمني العودة إلى الدنيا يحدث حال المعاينة للعذاب عند الاحتضار، وحين النشور، وحين الحساب، وحين العرض على النار، وبعد دخولهم النار.

وليس سؤال الرجعة مختصاً بالكافر، وإنما يشمل ذلك المؤمن المقصر في الطاعات وأداء حقوق الله تعالى، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون: ٦٣/ ١٠].

﴿كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ أي يجيبهم الله تعالى بقوله: كلا وهي كلمة ردع وزجر، أي لا نجيبه إلى طلبه، وتلك كلمة لا بدّ من أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم، ولا فائدة من الرجعة، فلو ردّ لما عمل صالحاً، وكذب في مقالته هذه كما قال تعالى: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ [الأنعام: ٦/ ٢٨]. ثم إنه بين الظلمة حال الاحتضار وبين الرجوع إلى الدنيا وأمامهم حاجز ومانع من الرجوع. فالبرزخ: الحاجز ما بين الدنيا والآخرة، فمن مات دخل في البرزخ، أو حياة المقابر. وهذا تهديد بعذاب البرزخ، وتيئيس إلى يوم القيامة لهؤلاء المحتضرين من الظلمة من الرجوع أبداً؛ لأنهم إذا لم يرجعوا حال وجود بقية من الحياة فلا يرجعون بعدئذ مطلقاً، وإنما الرجوع إلى حياة الآخرة، وتلقي عذابها كما قال تعالى:

﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ٤٥/١٠] وقال سبحانه: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٤/١٧] .

والخلاصة: أن المراد من قوله: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ أن العذاب يستمر بهؤلاء إلى يوم البعث، كما جاء في الحديث: «فلا يزال معذباً فيها» أي في الأرض وهم في القبور.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيتان على ما يلي:

١ - يتمنى الإنسان الكافر والمؤمن المقصر الرجعة إلى دار الدنيا ليتدارك ما فاته فيها إما من الإيمان أو العمل الصالح، ولا يطلب الرجعة إلا بعد أن يستيقن العذاب.

٢ - لا رجعة بعد البعث أو دنو الموت إلا إلى الآخرة.

٣ - يستمر الكافرون والعصاة في عذاب القبور أو البرزخ إلى يوم القيامة، قالت عائشة رضي الله عنها: ويل لأهل المعاصي من أهل القبور، تدخل عليهم في قبورهم حيات سود أو دُهْم، حية عند رأسه، وحية عند رجليه، يقرصانه حتى يلتقيا في وسطه، فذلك العذاب في البرزخ الذي قال الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾.

موازين النجاة في حساب الآخرة

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾

القراءات:

﴿شِقْوَتُنَا﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (شَقَاوتنا).

﴿سِخْرِيًّا﴾:

وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي، وخلف (سُخْرِيّاً).

﴿أَنَّهُمْ هُمُ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي (إِنَّهم هم).

الإعراب:

﴿فِي جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ﴾ ﴿خَـٰلِدُونَ﴾ بدل من صلة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أو خبر ثانٍ لأولئك.

﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾ بكسر السين وقرئ بضمها، وهما لغتان بمعنى واحد، وهما من سَخِر يسخَر: من الهزء واللعب.

﴿بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ ما: مصدرية، و﴿أَنَّهُمۡ﴾ في موضع نصب بـ ﴿جَزَيۡتُهُمُ﴾ لأنه مفعول ثانٍ، ويجوز أن يكون في موضع نصب على تقدير حذف حرف الجر، وتقديره: جزيتهم بصبرهم؛ لأنهم الفائزون. و﴿هُمُ﴾ ضمير فصل عند البصريين، وعماد عند الكوفيين.

البلاغة:

﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بين الآيتين مقابلة.

﴿أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ فيها قصر.

﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾، ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، ﴿خَٰلِدُونَ﴾، ﴿كَٰلِحُونَ﴾، ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، ﴿ظَٰلِمُونَ﴾، ﴿تُكَلِّمُونِ﴾، ﴿تَضۡحَكُونَ﴾، ﴿ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ سجع غير متكلف.

المفردات اللغوية:

﴿نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ ﴿ٱلصُّورِ﴾ بوق ينفخ فيه نفختين، النفخة الأولى لتموت المخلوقات، والثانية لتحيا المخلوقات من القبور؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٣٩/٦٨] والمراد هنا النفخة الثانية لقيام الساعة. وقيل: الصور جمع صورة كبسر وبسرة، والمراد: نفخ الروح في الأجساد. ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ﴾ تنفعهم لزوال التعاطف والتراحم من فرط الحيرة واستيلاء الدهشة بحيث يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، وقيل: لا أنساب يفتخرون بها. ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً لاشتغاله بنفسه، وهو لا يناقض قوله: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ

﴿٢٥﴾ [الطور: ٥٢/٢٥] لأن الآية هنا عند النفخة، وذلك بعد المحاسبة ودخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار. أو لا يتساءلون عن الأنساب.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي موزوناته بالحسنات من عقائد وأعمال، أي فمن كانت له عقائد وأعمال صالحة يكون لها وزن عند الله وقدر. ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالنجاة والدرجات. ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ موزوناته بالسيئات، أي ومن لم يكن له وزن وهم الكفار، لقوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٨/١٠٥]. ﴿خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ غبنوها حيث ضيعوا زمان استكمالها. ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ تحرقها، واللفح كالنفح إلا أنه أشد تأثيراً. ﴿كَالِحُونَ﴾ عابسون متقلصو الشفاه عن الأسنان، وهذا هو الكلوح.

﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي﴾ أي من القرآن، وهذا على إضمار القول أي يقال لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ﴾. ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ تأنيب وتذكير لهم بما استحقوا هذا العذاب لأجله. ﴿شِقْوَتُنَا﴾ وشقاوتنا بمعنى واحد: ضد السعادة، أي صارت أحوالنا مؤدية إلى سوء العاقبة، والمراد: غلبت علينا لذاتنا وأهواؤنا، وسميت شقوة لأنهما يؤديان إليها. ﴿ضَالِّينَ﴾ تائهين عن الحق والهداية. ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى التكذيب. ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ لأنفسنا.

﴿قَالَ﴾ مالك خازن النار ﴿اخْسَئُوا فِيهَا﴾ اسكتوا سكوت ذلة وهوان، أو اقعدوا في النار أذلاء ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ في رفع العذاب عنكم. ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي﴾ أي المؤمنون. ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ هزءاً، مثل بلال وصهيب وعمار وسلمان. ﴿حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ أي خوف عقابي، من فرط تشاغلكم بالاستهزاء بهم. ﴿تَضْحَكُونَ﴾ استهزاء بهم. ﴿جَزَيْتُهُمُ﴾ النعيم المقيم. ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بصبرهم على استهزائكم بهم وأذاكم إياهم. ﴿الْفَائِزُونَ﴾ الظافرون بمطلوبهم.

المناسبة:

بعد أن قال الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي إن هناك حاجزاً إلى يوم القيامة، ذكر أحوال ذلك اليوم، من عدم الاعتداد بالأنساب، وجعل الحسنات أساس الفوز في الآخرة، والسيئات سبب دخول جهنم.

التفسير والبيان:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ أي إذا نفخ في الصور النفخة الثانية وهي نفخة النشور، وقام الناس من القبور، فلا تنفعهم الأنساب والقرابات بالرغم من وجود التعاطف والتراحم؛ لاستيلاء الدهشة والحيرة عليهم، وانشغال كل إنسان بنفسه، ولا يسأل القريب قريبه، لاشتغاله بنفسه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٨٠/ ٣٤-٣٧] وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ [المعارج: ٧٠/ ١٠-١١] أي لا يسأل القريب قريبه، وهو يبصره.

هذا عند النفخة، أما بعد القرار في الجنة أو النار، فيسأل أهل الجنة بعضهم عن بعض، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٢٧].

وجاء في السنة ما أخرجه الإمام أحمد عن المِسْور بن مَخْرمة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فاطمةُ بَضْعة مني، يغيظني ما يغيظها، وينشطني ما ينشطها، وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي وصهري». وأصل هذا الحديث في الصحيحين عن المِسْوَر بن مخرمة أن رسول الله ﷺ قال: «فاطمة بَضْعة مني، يريبني ما يريبها، ويؤذيني ما آذاها». وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على هذا المنبر: «ما

بال رجال يقولون: إن رحم رسول الله ﷺ لا تنفع قومه؟ بلى، والله إن رحمي موصولة في الدنيا والآخرة، وإني أيها الناس فَرَط[١] لكم إذا جئتم».

وروى الطبراني والبزار والبيهقي وغيرهم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما تزوج أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال: أما والله، ما بي إلا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل سبب ونسب فإنه منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي».

ثم شرح أحوال السعداء والأشقياء فقال:

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ أي من رجحت حسناته على سيئاته، ولو بواحدة، فأولئك الذين فازوا بالمطلوب، فنجوا من النار، وأدخلوا الجنة.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي ثقلت سيئاته على حسناته، فأولئك الذين خابوا وهلكوا وباؤوا بالصفقة الخاسرة، بأن صارت منازلهم للمؤمنين. وهذه هي الصفة الأولى لأهل النار، ثم أتبعها بصفات ثلاث أخرى، فصارت أربعاً:

١ - ﴿فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ أي ماكثون في جهنم على الدوام، مقيمون فيها إلى الأبد، وفيه دلالة بيّنة على خلود الكفار في النار.

٢ - ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي تحرق النار وجوههم، وتأكل لحومهم وجلودهم كما قال تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٥٠] وقال سبحانه: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٣٩] . وإنما خص الوجوه بالذكر؛ لأنها أشرف الأعضاء.

---

(١) أنا فرطكم: أي متقدمكم، يقال: فارط وفرط: إذا تقدم وسبق القوم ليرتاد لهم الماء.

أخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾: «تلفحهم لفحة تسيل لحومهم على أعقابهم».

٣ً - ﴿وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ﴾ عابسون متقلصو الشفاه عن الأسنان. فالكلوح: أن تتقلص الشفتان وتتباعدا عن الأسنان، كما ترى الرؤوس المشوية.

ثم ذكر الله تعالى ما يقال لأهل النار تقريعاً وتوبيخاً على ما ارتكبوه من الكفر والمآثم فقال:

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ أي ألم تكن آياتي من القرآن تتلى عليكم للتذكير والموعظة وإزالة الشُّبه، فتكذبون بها، وتعرضون عنها. وهذا كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ، قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الملك: ٦٧/ ٨-٩] وقال سبحانه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٧١].

وهذا من المخطط العام لرسالات الأنبياء وإنزال الكتب، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٥] وقوله عز وجل: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ٤/ ١٦٥].

فأجابوا عن السؤال هنا:

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾ أي غلبت علينا شهوات نفوسنا وملذاتنا، بحيث صارت أحوالنا مؤدية إلى سوء العاقبة،

وأخطأنا طريق الحق والهدى، كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ [غافر: ٤٠/١١] .

﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧﴾ أي يا ربنا أخرجنا من النار، واردُدْنا إلى الدنيا، فإن عُدنا إلى مثل ما سلف منا، فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة.

فأجابهم الله تعالى بقوله:

﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾ أي قال الله للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى الدنيا: امكثوا فيها - أي في النار - أذلاء صاغرين مهانين، واسكتوا ولا تعودوا إلى سؤالكم هذا، فإنه لا جواب لكم عندي، ولا رجعة إلى الدنيا.

ثم ذكر سبب عذابهم فقال:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩﴾ أي إنه كان جماعة من عبادي المؤمنين يقولون: يا ربنا صدقنا بك وبرسلك، وبما جاؤوا به من عندك، فاستر ذنوبنا، وارحم ضعفنا، فأنت خير من يرحم.

﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ١١٠﴾ أي فما كان منكم إلا أن سخرتم منهم في دعائهم إياي وتضرعهم إلي، حتى حملكم بغضهم على نسيان ذكري، وعدم الاهتمام بشأني، ولم تخافوا عقابي، وكنتم تضحكون استهزاء من صنيعهم وعبادتهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠﴾ [المطففين: ٨٣/٢٩-٣٠] أي يلمزونهم استهزاء.

ثم أخبر الله تعالى عما جازى به عباده الصالحين فقال:

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ أي إني جازيتهم في يوم القيامة بصبرهم على أذاكم لهم واستهزائكم بهم بالفوز بالسعادة والسلامة، والنعيم المقيم في الجنة، والنجاة من النار، كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين: ٨٣/ ٣٤-٣٦] .

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - إذا حدثت النفخة الثانية ليوم القيامة شغل كل امرئ بنفسه، ولم يلتفت إلى أحد من أقربائه، ولو كانوا من الوالدين والأولاد والزوجات، ولا تنفع أحداً روابط الدم والنسب التي كانت تربط الأسر فيما بينهم في الدنيا. لكن جاء في الحديث الثابت كما تقدم استثناء صلة النسب والقرابة بالنبي ﷺ.

٢ً - إن ميزان النجاة من النار والفوز بالجنة هو رجحان الحسنات على السيئات، ولو بواحدة. وإن سبب اقتحام النار هو العكس أي رجحان السيئات على الحسنات.

٣ً - لأهل النار أثناء العذاب صفات أربع: هي خسارة أنفسهم أي غبنها بأن صارت منازلهم للمؤمنين، وخلودهم في نار جهنم، وإضرام النار في أجسادهم حتى تأكل لحومهم وجلودهم، وظهور أمارات العذاب على الأوجه بالكلوح: وهو تقلص الشفاه عن الأسنان، كالرؤوس المشوية.

٤ً - اعترف أهل النار حين اقتحام العذاب بالأسباب التي أدت بهم إلى العقاب: وهي غلبة أهوائهم وشهواتهم على نفوسهم، حتى ساءت أحوالهم، وصاروا إلى سوء العاقبة، وضلالهم عن الحق والهداية، وظلمهم أنفسهم، وتكذيبهم بآيات ربهم، واستهزائهم من المؤمنين، ونسيانهم ذكر الله والخوف من عقابه.

٥ً - لقد طلب الكفار الرجعة إلى الدنيا وهم في النار، كما طلبوها عند الموت لتدارك ما فاتهم من الأعمال الصالحة والإيمان الصحيح، ولكن لا رجعة لأحد إلى دار الدنيا بعد البعث والحساب.

٦ً - اقتضى العدل مجازاة المؤمنين الذين صبروا على الأذى والسخرية جزاء عادلاً وهو الفوز بالجنة يوم القيامة، والنجاة من النار.

٧ً - على المؤمن إكثار الدعاء بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

التنبيه على قصر مدة اللبث في الدنيا وعقاب المشركين ورحمة المؤمنين

﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾

القراءات:

﴿قَٰلَ كَمْ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي (قُل كم).

﴿فَسْـَٔلِ﴾:

وقرأ ابن كثير، والكسائي، وحمزة وقفاً (فَسَل).

﴿قَـٰلَ إِن﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي (قل إن).

﴿لَا تُرْجَعُونَ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (لا تَرْجِعون).

الإعراب:

﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ﴿كَمْ﴾: منصوبة بـ ﴿لَبِثْتُمْ﴾. و﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾: تمييز، و﴿سِنِينَ﴾: جمع سنة، وأصل سنة: سَنَهَة أو سَنَوه، فلما حذفت اللام، جمع جمع التصحيح، أي جمع المذكر السالم، عوضاً عما دخلها من الحذف.

﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ جمع العادّ من العدّ. ومن قرأه بالتخفيف جعله جمع (عَادِي) من قولهم: بئر عادِيّة، أي قديمة، فلما جمع جمع المذكر السالم (أي بالواو والنون) حذف منه ياء النسب، وصارت ياء الجمع عوضاً عن ذلك، كالأعجمين والأشعرين، جمع أعجمي وأشعري، وقيل في قوله تعالى: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ أنه جمع إلياسيّ، منسوب إلى إلياس .﴿عَبَثًا﴾ حال بمعنى عابثين، أو مفعول لأجله.

البلاغة:

﴿وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿قَـٰلَ﴾ أي قال الله أو الملَك المأمور بسؤالهم ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أحياء

في الدنيا وأمواتاً في قبوركم، واللبث: الإقامة. ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ استقصروا مدة لبثهم فيها بالنسبة إلى خلودهم في النار وما هم فيه من العذاب. ﴿فَسْئَلِ ٱلْعَادِّينَ﴾ الذين يتمكنون من عدّ أيامها، أو الملائكة الذين يعدّون أعمار الناس ويحصون أعمالهم. ﴿قَٰلَ﴾ تعالى بلسان مالك خازن النار. ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي ما لبثتم. ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ مدة لبثكم بالنسبة إلى لبثكم في النار.

﴿عَبَثًا﴾ ما خلا من الفائدة، أو لا لحكمة، توبيخ على تغافلهم. والمراد: إنا لم نخلقكم تلهياً بكم، وإنما خلقناكم لنعيدكم ونجازيكم على أعمالكم، وهو كالدليل على وجود البعث. ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ معطوف على ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أو ﴿عَبَثًا﴾، وقرئ بفتح التاء. والمراد أننا خلقناكم لنتعبدكم بالأمر والنهي وترجعون إلينا، ونجازي على ذلك.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ تنزه الله عن العبث وغيره مما لا يليق به. ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي الثابت الذي لا يزول. ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ الكرسي الحسن، وهو مركز تدبير العالم، ووصف بالكريم لشرفه.

﴿يَدْعُ﴾ أي يعبد. ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ لا دليل له عليه، وهو صفة كاشفة لا مفهوم لها. ﴿حِسَابُهُۥ﴾ جزاؤه. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لا يسعدون، والضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ للشأن والأمر. ويلاحظ أنه تعالى بدأ السورة بتقرير الفلاح للمؤمنين، وختمها بنفي الفلاح عن الكافرين. ﴿ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ﴾ المؤمنين، وطلب الرحمة زيادة عن المغفرة.

المناسبة:

بعد بيان إنكار الكفار للبعث، وأنه لا رجعة إلى الدنيا بعده، ذكر تعالى أنهم يسألون في النار سؤال تقريع وتوبيخ عن مدة لبثهم في الأرض، دون أن يكون القصد مجرد السؤال. ثم ذكر تعالى ما هو كالدليل على وجود البعث، ثم

أمر رسوله بأن يستغفره ويسترحمه، تعليماً وإرشاداً للأمة، حتى لا يكونوا مثل أولئك الكفار.

التفسير والبيان:

ينبه الله تعالى الكفار على ما أضاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده، ولو صبروا لفازوا كالمؤمنين، فيقول:

﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ أي قال الله أو الملك المأمور بسؤالهم: كم كانت مدة إقامتكم في الدنيا؟

والغرض من السؤال التبكيت والتقريع والتوبيخ، تنبيهاً لهم على أن ما ظنوه دائماً طويلاً، فهو يسير بالنسبة إلى ما أنكروه من البعث، فتحصل لهم الحسرة على سوء اعتقادهم في الدنيا.

﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ نسوا مدة لبثهم في الدنيا، لعظم ما هم فيه من الأهوال والعذاب، حتى ظنوا أن المدة يوم أو بعض يوم، أو المراد تحقير مدة لبثهم بالنسبة إلى ما وقعوا فيه من أليم العذاب.

﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ أي فاسأل الحاسبين، أو الملائكة الحفظة الذين يحصون أعمال العباد وأعمارهم.

﴿قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ قال لهم الملك: ما لبثتم إلا زمناً يسيراً، على كل تقدير، ولو كنتم تعلمون شيئاً من العلم لآثرتم الباقي على الفاني، ولعملتم بما يرضي ربكم، ولو صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم كما فازوا.

روى ابن أبي حاتم عن أيفع بن عبد الكلاعي الذي خطب الناس فقال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، قال: يا أهل الجنة، كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يوماً أو

بعض يوم، قال: لنعم ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم، رحمتي ورضواني وجنتي، امكثوا فيها خالدين مخلدين!!

ثم قال: يا أهل النار، كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم، فيقول: بئس ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم، ناري وسخطي، امكثوا فيها خالدين مخلدين».

ثم شدد الله تعالى في توبيخهم على غفلتهم فقال:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ أي أفظننتم أنكم مخلوقون عبثاً، أي لعباً وباطلاً بلا قصد ولا حكمة لنا، بل خلقناكم للعبادة والتهذيب والتعليم وإقامة أوامر الله تعالى. وهل ظننتم أنكم لا تعودون إلينا في الدار الآخرة للحساب والجزاء، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٧٥/٣٦] .

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/١١٦] أي تنزه وتقدس الله صاحب الملك الواسع، الثابت الذي لا يزول، أن يخلق شيئاً عبثاً، فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك، وهو ذو العرش العظيم الحسن البهي الذي يدبر فيه نظام الكون بحكمة ومقصد سام.

ثم ردَّ الله تعالى على من نسب إليه ولداً أو شريكاً فقال:

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ أي ومن يعبد إلهاً آخر مع الله الذي لا يستحق العبادة سواه، دون أن يكون له دليل على صحة معتقده وعبادته، فجزاؤه محقق شديد عند ربه وخالقه، وذلك توبيخ وتقريع وتهديد بما لا يوصف، فمن ادعى إلهاً آخر فقد ادعى باطلاً من حيث لا برهان له فيه، وما لا برهان فيه لا يجوز إثباته.

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أي إنه لا يفوز الكفار بشيء من النعيم،

وإنما مصيرهم إلى الجحيم، وهذا يقابل افتتاح السورة، فإنه بشر بفلاح المؤمنين، وختم هنا بخيبة الكافرين.

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ أي قل أيها النبي: يا رب اغفر لي ذنوبي، واستر عيوبي، وارحمني بقبول توبتي، ونجاتي من العذاب، فأنت خير من رحم عباده.

أخرج البخاري ومسلم والترمذي وابن حَبَّان عن أبي بكر أنه قال: «يا رسول الله، علِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي، قال: قل: اللهم إني ظلمتُ نفسي ظلماً كثيراً، وإنه لا يغفِرُ الذنوب إلا أنت، فاغفر لِي مغفرة من عندكَ، وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم».

والآيتان الأخيرتان من آيات الشفاء، أخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود أنه مرَّ برجل مصاب، فقرأ في أذنه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ حتى ختم السورة، فبرأ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال له: «بماذا قرأت في أذنه؟» فأخبره، فقال: «والذي نفسي بيده، لو أن رجلاً موقناً قرأها على جبل لزال». وواضح من ذلك أن المعول عليه هو إيمان القارئ ويقينه وصفاؤه، واستعداد المريض وقابليته للتداوي بالقرآن.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - التنبيه على قصر مدة المكث في الدنيا، والاستفادة من تلك المدة بأقصى قدر ممكن للقيام بالطاعات والتقرب بالقربات، واجتناب المحظورات والمنهيات.

٢ً - إن شدة العذاب التي يرتع بها الكفار في نار جهنم أنْسَتهم مدة مكثهم في الدنيا أحياء، وفي القبور أمواتاً. لذا أحالوا الجواب على الحاسبين العارفين بذلك، أو على الملائكة الذين كانوا معهم في الدنيا.

٣ً - قرر الله تعالى أن مدة المكث أو اللبث في الدنيا قليلة لتناهيها بالنسبة إلى المكث في النار، لأنه لا نهاية له، لو علم الناس بذلك، فيكون المراد من قوله تعالى: ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن زمن الدنيا قليل لو علمتم البعث والحشر، لكنكم لما أنكرتم ذلك صرتم تعدونه طويلاً.

٤ً - إن للمخلوقات رسالة سامية في الحياة، وهي إطاعة الله تعالى فيما أمر، وعبادته بحق، واجتناب ما نهى عنه، فإنه تعالى لم يخلق الناس عبثاً أي لعباً باطلاً، دون قصد ولا حكمة، وإنما خلقهم لأداء مهمة خطيرة معينة، هي إظهار العبودية لله، قال الحكيم الترمذي أبو عبد الله محمد بن علي: إن الله تعالى خلق الخلق عبيداً ليعبدوه، فيثيبهم على العبادة، ويعاقبهم على تركها، فإن عبدوه فهم اليوم له عبيد أحرار كرام من رقّ الدنيا، ملوك في دار السلام، وإن رفضوا العبودية، فهم اليوم عبيد أُبَّاق سُقَّاط لئام، وغداً أعداء في السجون بين أطباق النار.

وروى ابن أبي حاتم عن رجل من آل سعيد بن العاص قال: كان آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز أن حمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد، أيها الناس: إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولن تتركوا سدى، وإن لكم معاداً ينزل الله فيكم للحكم بينكم، والفصل بينكم، فخاب وخسر وشقي عبد أخرجه الله من رحمته، وحرم جنة عرضها السماوات والأرض، ألم تعلموا أنه لا يأمن عذاب الله غداً إلا من حذر هذا اليوم، وخافه، وباع نافداً بباق، وقليلاً بكثير، وخوفاً بأمان.

ألا ترون أنكم من أصلاب الهالكين، وسيكون مَنْ بعدكم الباقين، حتى تردوا إلى خير الوارثين؟

ثم إنكم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله عز وجل، قد قضى نحبه، وانقضى أجله حتى تغيبوه في صدع من الأرض في بطن صدع غير ممهد ولا

موسد، قد فارق الأحباب، وباشر التراب، وواجه الحساب، مرتهن بعمله، غني عما ترك، فقير إلى ما قدم.

فاتقوا الله عباد الله قبل انقضاء مواثيقه ونزول الموت بكم.

ثم جعل طرف ردائه على وجهه، فبكى وأبكى من حوله.

٥ً - من قصر النظر وجهالة الإنسان وغبائه أن يظن كما يظن الماديون أن الدنيا هي كل شيء، وألا رجعة إلى الله والدار الآخرة، ليجازى الناس على أعمالهم.

٦ً - تقدس الله وتنزه عن الأولاد والشركاء والأنداد، وعن أن يخلق شيئاً عبثاً أو سفهاً؛ لأنه الحكيم، والملك الحق الثابت المبين الذي لا يزول ولا يبيد ملكه وقدرته، ويحق له الملك؛ لأن كل شيء منه وإليه، وهو الثابت الذي لا يزول، وذو العرش العظيم الكريم، لا إله غيره، ولا رب سواه، فما عداه مصيره إلى الفناء، وما يفنى لا يكون إلهاً. والمراد بالعرش: العرش حقيقة، ووصفه بالكريم لتنزل الرحمة والخير والبركة منه، ولنسبته إلى أكرم الأكرمين.

٧ً - إن من يعبد مع الله إلهاً آخر لا بينة ولا حجة ولا دليل له عليه، فإن الله هو الذي يعاقبه ويحاسبه، وإنه لا يفلح الكافرون، ولا يفوزون بالنعيم والسعادة الأبدية، فمن ادعى إلهاً آخر، فقد ادعى باطلاً إذ لا برهان له فيه، وما لا برهان فيه لا يجوز إثباته، وهذا دليل على وجوب التأمل والنظر في إثبات العقيدة، وبطلان التقليد.

٨ً - إن المؤمن الحق هو الذي يديم النظر والتأمل في بديع خلق الله وقدرته، ليتوصل بذلك إلى إثبات البعث وإمكانه، ويستمر في عبادته ربه حتى الموت، ويكثر من دعاء الله تعالى قائلاً: رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين؛ لأن الانقطاع إلى الله تعالى والالتجاء إلى دلائل غفرانه ورحمته عاصمان عن كل الآفات والمخاوف.

٩ً - من براهين البعث أنه: لولا القيامة لما تميز المطيع من العاصي، والصديق من الزنديق، والرجوع إلى الله تعالى معناه الرجوع إلى حيث لا مالك ولا حاكم سواه، لا أنه رجوع من مكان إلى مكان، لاستحالة ذلك على الله تعالى.

١٠ً - شتان بين فاتحة السورة وخاتمتها، فقال في الفاتحة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ①﴾ وفي الخاتمة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النور

مدنية، وهي أربع وستون آية

تسميتها:

سميت سورة النور لتنويرها طريق الحياة الاجتماعية للناس، ببيان الآداب والفضائل، وتشريع الأحكام والقواعد، ولتضمنها الآية المشرقة وهي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٢٤/ ٣٥] أي منورهما، فبنوره أضاءت السماوات والأرض، وبنوره اهتدى الحيارى والضالون إلى طريقهم.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر مناسبة هذه السورة لسورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ من وجهين: الأول - أنه تعالى لما قال في مطلع سورة المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾﴾ ذكر هنا أحكام من لم يحفظ فرجه من الزناة، وما اتصل بذلك من شأن القذف، وقصة الإفك، والأمر بغض البصر الذي هو داعية الزنى، والاستئذان الذي جعل من أجل النظر، وأمر بالتزويج حفظاً للفروج، وأمر من عجز عن مؤن الزواج بالاستعفاف وحفظ فرجه، ونهى عن إكراه الفتيات على الزنى.

الثاني - بعد أن ذكر الله تعالى في سورة المؤمنين المبدأ العام في مسألة

الخلق، وهو أنه لم يخلق الخلق عبثاً، بل للتكليف بالأمر والنهي، ذكر هنا طائفة من الأوامر والنواهي في أشياء تعد مزلقة للعصيان والانحراف والضلال.

فضلها:

في هذه السورة أنس وشعور بالطمأنينة؛ لأن المؤمن يرتاح للعفة والطهر، ويشمئز من الفحش وسوء الظن والاتهام، ذكر مجاهد أن رسول الله ﷺ قال: «علِّموا رجالكم سورة المائدة، وعلموا نساءكم سورة النور» وقال حارث بن مضَرِّب رضي الله عنه: كتب إلينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن تَعَلّموا سورة النساء والأحزاب والنور. وتعليم هذه السورة للنساء مروي أيضاً عن عائشة رضي الله عنها.

مشتملاتها:

اشتملت هذه السورة على أحكام مهمة تتعلق بالأسرة، من أجل بنائها على أرسخ الدعائم، وصونها من المخاطر والعواصف، والتركيز على تماسكها وتنظيمها، وحمايتها من الانهيار والدمار.

فكان مقصود هذه السورة ذكر أحكام العفاف والسِّتر.

لقد بدأت ببيان حد الزنى، وحد قذف المحصنات، وحكم اللعان عند الاتهام بالفاحشة أو لنفي نسب الولد، من أجل تطهير المجتمع من الانحلال والفساد واختلاط الأنساب، وبعداً عن هدم حرمة الأعراض، وصون الأمة من التردي في حمأة الإباحية والفوضى.

ثم ذكرت قصة الإفك المبنية على سوء الظن والتسرع بالاتهام لتبرئة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ومحاربة شيوع الفاحشة، وترديد الإشاعات المغرضة التي تهدم صرح الأمة، وتقوّض بنيتها التي ينبغي أن تقوم على الثقة والمحبة، والابتعاد عن وساوس الشيطان.

ثم تحدثت السورة عن باقة من الآداب الاجتماعية في الحياة الخاصة والعامة، وهي الاستئذان عند دخول البيوت، وغض الأبصار، وحفظ الفروج، وإبداء النساء زينتهن لغير المحارم مما يدل على تحريم الاختلاط بين الرجال والنساء غير المحارم، وتزويج الأيامى (غير المتزوجين) من الرجال والنساء، والاستعفاف لمن لم يجد مؤن الزواج، من أجل تحقيق الاستقامة على شريعة الله، وصون الأسرة المسلمة، ورعاية حال الشباب والفتيات، والبعد عن الفتنة.

ثم أبانت مزية تشريع الأحكام وأنه نور وهدى، وفضل آيات القرآن، ومزية بيوت الله وهي المساجد، وعدم جدوى أعمال الكفار وتشبيهها بالسراب الخادع أو ظلمات البحار.

وأعقب ذلك تنبيه الناس إلى أدلة وجود الله ووحدانيته في صفحة الكون الأعلى والأسفل من تقليب الليل والنهار وإنزال المطر وخلق السماوات والأرض، وخضوع جميع الكائنات الحية لله عز وجل، وطيران الطيور، وخلق الدواب ذات الأنواع العجيبة.

ثم انتقل إلى وصف مواقف المنافقين والمؤمنين الصادقين من حكم الله والرسول بإعراض الأولين وإطاعة الآخرين، ووعده تعالى للمؤمنين الذين يعملون الصالحات بالاستخلاف في الأرض.

ثم عادت الآيات لبيان حكم استئذان الموالي والأطفال في البيوت في أوقات ثلاثة، وحكم رفع الحرج عن ذوي الأعذار في الجهاد، وعن الأقارب والأصدقاء في الأكل من بيوت أقاربهم بلا إذن، واستئذان المؤمنين الرسول ﷺ عند الانصراف، وتفويضه بالإذن لمن شاء، وتعظيم مجلسه ومناداته بأدب جم وحياء وتبجيل يليق به وبرسالته.

ميزة سورة النور

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾

القراءات:

﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (فَرَّضْناها).

﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

قرئ:

١- (تَذَكَّرون) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (تَذَّكَّرون) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ ﴿سُورَةٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف، و﴿أَنزَلْنَاهَا﴾: صفة لـ ﴿سُورَةٌ﴾ وتقديره: هذه سورة منزلة. وقرئ (سورةً) بالنصب على تقدير فعل، و﴿أَنزَلْنَاهَا﴾: مفسر له، وتقديره: أنزلنا سورة أنزلناها، أو اتبعوا سورة، أو اتل سورة. وهذا على رأي الجمهور القائلين: الابتداء بالنكرة لا يجوز، وقال الأخفش: لا يبعد الابتداء بالنكرة، فسورة: مبتدأ، وأنزلنا: خبره.

البلاغة:

﴿سُورَةٌ﴾ التنكير للتفخيم، أي هذه سورة عظيمة الشأن أنزلها الله. وفيه تنبيه على الاعتناء بها، ولا ينفي الاعتناء بما عداها.

﴿أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ إطناب لتأكيد العناية بها، وهو ذكر للخاص بعد العام للاهتمام به.

المفردات اللغوية:

﴿سُورَةٌ﴾ السورة: طائفة من آيات القرآن، محددة البدء والنهاية شرعاً بالتوقيف أي النقل الثابت عن النبي ﷺ والوحي الإلهي بوساطة جبريل عليه السلام .﴿أَنزَلْنَٰهَا﴾ أعطيناها الرسول وأوحينا بها إليه، والتعبير بالإنزال الذي هو صعود إلى نزول وإشارة إلى العلو، للدلالة على أن هذا القرآن من عند الله المتعالي على كل شيء، وكل من دونه نازل عنه في المرتبة، فلا يفهم من ذلك أنه تعالى في جهة.

﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ الفرض: التقدير، أو قطع الشيء الصلب، والمراد هنا الإيجاب أي أوجبنا ما فيها من الأحكام إيجاباً قطعياً. وقرئ (وفرّضناها) بالتشديد لكثرة المفروض فيها ﴿ءَايَٰتٍۭ﴾ جمع آية، وهي العلامة، والمراد هنا جملة من القرآن الكريم متصلة الكلام تحقق غرضاً معيناً .﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات الدلالة على ما فيها من الأحكام .﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي تتذكرون وتتعظون وتتقون المحارم، ولعل هنا يراد بها الإعداد والتهيئة.

التفسير والبيان:

هذه السورة أوحيناها وأعطيناها الرسول ﷺ وفرضنا ما فيها من أحكام كأحكام الزنى والقذف واللعان والحلف على ترك الخير والاستئذان، وغض البصر، وإبداء الزينة للمحارم وغيرهم، وإنكاح الأيامى، واستعفاف من لم يجد نكاحاً، ومكاتبة الأرقاء، وإكراه الفتيات على البغاء، وطاعة الرسول ﷺ، والسلام على المؤمنين.

وأنزلنا فيها دلائل واضحة، وعلامات بينة على توحيد الله وكمال قدرته،

لتتذكروها، فتعتقدوا وحدانيته وقدرته تعالى. وتكرار ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ لكمال العناية بشأنها، كما هي الحال في ذكر الخاص بعد العام.

فقه الحياة أو الأحكام:

إن سورة النور متضمنة آيات بينات ترشد إلى النظام الأقوم والسلوك الأمثل في الأسرة والمجتمع، يقصد بها تحقيق العفاف والصون وحماية العرض، واتقاء المحرَّمات، وتوفير السكينة والطمأنينة القلبية البعيدة عن الشواغل والهواجس الشيطانية الداعية إلى المعصية والرذيلة.

كما أن في هذه الأحكام تذكيراً وعظة للمؤمنين، وتربية للنفوس، وتحقيقاً للتقوى التي يستشعر بها المؤمن التقي جلال الله وعظمته، وعلمه وقدرته، وحسابه على كل صغيرة وكبيرة، لهذا افتتحت السورة بما ينبه على العناية بها، والاهتمام بأحكامها وهي ما يأتي

الحكم الأول والثاني

حد الزنى وحكم الزناة

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾

القراءات:

﴿رأفة﴾:

قرئ:

١- (رَأَفة) وهي قراءة ابن كثير.

٢- (رافة) وهي قراءة السوسي.

٣- (رَأْفة) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿ٱلزَّانِيَةُ﴾ مبتدأ، خبره مقدم محذوف، أي فيما يتلى عليكم الزانية والزاني. أو خبره: ﴿فَٱجْلِدُوا۟﴾ والفاء زائدة، فاء الفصيحة، أفصحت عن جواب سائل سمع حكم الزاني، فقال: فكيف الحكم؟ وصلح هذا الفعل أن يكون خبراً للمبتدأ، وإن كان أمراً، بتقدير: أقول: فاجلدوا، أو يجعله محمولاً على المعنى، كأنه يقول: الزانية والزاني كل واحد منهما مستحق للجلد. وأل في ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ موصولة، ونظراً لشبه كل منهما بالشرط دخلت الفاء في الخبر.

البلاغة:

﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ تحريض وإغراء.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ أي غير المحصنين، والزنى: مقصور في اللغة الفصحى، وهي لغة الحجازيين، وقد يُمَدّ في لغة أهل نجد، والزنى من الرجل: وطء المرأة في قُبُل من غير ملك ولا شبهة ملك. والزنى من المرأة: تمكينها الرجل أن يزني بها. وإنما قدم الزانية؛ لأن الزنى في الأغلب يكون بتعرض المرأة للرجل وعرض نفسها عليه بأساليب متنوعة، ولأن مفسدة الزنى وعاره يصيبها أكثر من الرجل، فهي المادة الأصلية في الزنى.

﴿فَٱجْلِدُوا۟﴾ الجلْد: ضرب الجلْد، وهو حكم البكر غير المحصن، لما ثبت في

السنة أن حدَّ المحصن هو الرجم. والإحصان: بالحرية والبلوغ والعقل والدخول في نكاح صحيح، وبالإسلام عند الحنفية.

﴿رَأْفَةٌ﴾ شفقة وعطف. ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ في حكمه وطاعته. ﴿وَلْيَشْهَدْ﴾ يحضر ﴿عَذَابَهُمَا﴾ الجلد. ﴿طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الطائفة: تطلق على الواحد فأكثر، والمراد هنا جمع يحصل به التشهير، وأقلها ثلاثة. وحضور الطائفة: زيادة في العقاب؛ لأن التشهير قد يؤثر أكثر مما يؤثر التعذيب.

﴿لَا يَنكِحُ﴾ يتزوج، أي أن الغالب المناسب لكل من الزانية والزاني نكاح أمثاله، فإن التشابه علة الألفة والتضام، والمخالفة سبب النفرة. وقدم الزاني هنا؛ لأن المراد بيان أحوال الرجال في الرغبة في الزواج بالنساء؛ لأن الرجل أصل فيه لأنه الراغب والطالب. ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي حرم نكاح الزواني على المؤمنين الأخيار؛ لأنه تشبه بالفساق، وتعرض للتهمة، وتسبب لسوء المقالة، والطعن في النسب، وغير ذلك من المفاسد، ولذلك عبر عن التنزيه بالتحريم مبالغة.

سبب النزول:

نزول الآية (٣):

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾: أخرج النسائي عن عبد الله بن عمرو قال: كانت امرأة يقال لها أم مهزول (أو أم مهدون) وكانت تسافح، فأراد رجل من أصحاب النبي ﷺ أن يتزوجها، فأنزل الله: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وأخرج أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رجل يقال له مرثد، يحمل من الأنبار إلى مكة حتى يأتيهم، وكانت امرأة بمكة صديقة له يقال لها عَنَاق، فاستأذن النبي ﷺ أن

ينكحها، فلم يرد عليه شيئاً حتى نزلت: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ يا مرثد: «الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة» الآية، فلا تنكحها.

وقال المفسرون: الآية إما أنها نزلت في مرثد بن أبي مرثد المذكور، وإما في جماعة من فقراء المهاجرين استأذنوا النبي ﷺ في التزوج ببغايا من الكتابيات والإماء اللائي كن بالمدينة، فأنزل الله فيهم هذه الآية.

وظاهر الآية تحريم العفيفة على الزاني، والزانية على العفيف.

التفسير والبيان:

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾: هذه الآية شروع في بيان الأحكام التي أشير إليها في الآية السابقة: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا﴾، وهي تبين حد الزناة.

والمعنى أن عقوبة الزانية والزاني الحرين البالغين العاقلين البكرين غير المحصنين بالزواج هي الجلد لكل منهما مئة جلدة. والحكمة في البدء في حد الزنى بالمرأة وفي حد السرقة بالرجل؛ لأن دواعي الزنى تحدث غالباً من المرأة، وعاره عليها أشد، وأثره فيها أدوم، وأما السرقة فالغالب وقوعها من الرجال، وهم عليها أجرأ من النساء وأخطر، فقدموا عليهن.

وظاهر الآية أن حد الزناة مطلقاً هو الجلد مئة، لكن ثبت في السنة القطعية المتواترة التفريق بين حد المحصن وغير المحصن، أما حد المحصن فهو الرجم بالحجارة حتى الموت، بالسنة القولية والفعلية؛ أخرج البخاري ومسلم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه، المفارق للجماعة». وأخرج أصحاب الكتب الستة ما عدا ابن ماجه، ومالك في الموطأ وأحمد في مسنده

عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني أن أعرابيين أتيا رسول الله ﷺ، فقال أحدهما: يا رسول الله إن ابني هذا كان عسيفاً - أجيراً - على هذا، فزنى بامرأته، فافتديت ابني منه بمئة شاة ووليدة - أمة - فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مئة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا: الرجم. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله تعالى: الوليدة والغنم ردّ عليك، وعلى ابنك مئة جلدة، وتغريب عام، واغْدُ يا أنيس - رجل من أسلم - إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها» فغدا عليها، فاعترفت، فرجمها.

وروى جماعة من الصحابة في الصحاح وغيرها بالنقل المتواتر أن ماعز بن مالك الأسلمي اعترف بالزنى أمام الرسول ﷺ وهو في المسجد أربع مرات، فأمر الرسول برجمه.

وروى مسلم وأحمد وأبو داود عن بريدة أن امرأة من بني غامد أقرت بالزنى، فرجمها الرسول ﷺ بعد أن وضعت.

وأنكر الخوارج مشروعية حد الرجم؛ لأنه لا يتنصف، فلا يصح أن يكون حداً للمحصنات من الحرائر، والله تعالى جعل حد الإماء نصف حد المحصنات الحرائر في قوله: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٤/٢٥] ، ولأن الرجم لم يذكر في القرآن في حد الزنى، ولأن آية الجلد عامة لكل الزناة، فلا تخصص بخبر الواحد المروي في حد الرجم.

ورد الجمهور على تلك الأدلة بأن التنصيف وارد في الجلد، فبقي ما عداه وهو الرجم على عمومه، وبأن الأحكام الشرعية كانت تنزل بحسب تجدد المصالح، فلعل المصلحة التي اقتضت وجوب الرجم حدثت بعد نزول آية الجلد، وأما تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد فهو جائز عندنا، بل إن

أحاديث الرجم ثابتة بالتواتر المعنوي، والآحاد في تفاصيل الصور والخصوصيات.

وشروط الإحصان: البلوغ والعقل والحرية والدخول في زواج صحيح، وأضاف أبو حنيفة ومالك شرط الإسلام، فلا يرجم الذمي، ورد عليهما بأن النبي ﷺ أمر برجم يهوديين.

وأما حد غير المحصن وهو البكر: فليس الجلد مئة جلدة فقط، وإنما يضم إليه تغريب (نفي) سنة، بدليل ما ثبت في السنة، ومنها قصة العسيف المتقدمة: «وعلى ابنك جلد مئة وتغريب عام» ومنها ما رواه أحمد وأصحاب الكتب الستة إلا البخاري والنسائي عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً: البِكْرُ بالبِكْرِ جَلْد مئة وتغريبُ عام، والثيِّب بالثيِّب جَلْدُ مئة والرَّجْمُ» إلا أن جلد الثيب لم يستقر عليه التشريع المعمول به في السنة النبوية، وأصبح المطبق هو الرجم فقط، كما تقدم. والقول بالتغريب هو رأي الجمهور، وقال أبو حنيفة: ليس التغريب من الحد، وإنما هو تعزير مفوض إلى رأي الإمام وحكمه. وما يزال الظاهرية يقولون بوجوب جلد الثيب ورجمه، أخذاً بحديث عبادة السابق.

وعموم قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ يشمل المسلم والكافر، غير أن الحربي لا يحد حد الزنى؛ لأنه لم يلتزم أحكامنا، وأما الذمي فيجلد في رأي الجمهور، وروي عن مالك رحمه الله أن الذمي لا يجلد إذا زنى.

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ أي لا يحملنكم العطف والشفقة على ترك حد الزناة، فهو حكم الله تعالى، ولا يجوز تعطيل حدود الله، والواجب التزامَ النص، والغيرة على حرمات الله، كما قال النبي ﷺ فيما رواه أحمد وأصحاب الكتب الستة عن عائشة رضي الله عنها: «والذي نفسي بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقتْ لقطعتُ يدها».

﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ أي فأقيموا الحدود على من زنى، وشددوا عليه الضرب غير المبرح ليرتدع هو وأمثاله، إن كنتم تصدقون بالله وبالآخرة التي يجري فيها الحساب والجزاء. وهذا ترغيب شديد وحض أكيد وإلهاب على تطبيق وتنفيذ حدود الله. وفي ذكر اليوم الآخر تذكير للمؤمنين بما فيه من العقاب تأثراً بعاطفة اللين في استيفاء الحد، جاء في الحديث: «يؤتى بوالٍ نقص من الحد سوطاً، فيقال له: لم فعلت ذلك؟ فيقول: يا ربّ رحمة بعبادك فيقول له: أنت أرحم بهم مني! فيؤمر به في النار».

﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ولتكن إقامة الحد علانية، أمام فئة من المسلمين، زيادة في التنكيل للزانيين، فإنهما إذا جلدا بحضرة الناس كان ذلك أبلغ في زجرهما، وأنجع في ردعهما، وأكثر تقريعاً وتوبيخاً وتأنيباً لهما.

والطائفة: أقلها واحد، وقيل: اثنان فأكثر، وقيل: ثلاثة نفر فصاعداً، وقيل: أربعة نفر فصاعداً؛ لأنه لا يكفي في شهادة الزنى إلا أربعة فأكثر، وقيل: خمسة، وقيل: عشرة فصاعداً.

وقال قتادة: أمر الله أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين، أي نفر من المسلمين، ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالاً. وهذا أولى الآراء في تقديري.

ويثبت الزنى بأحد أمور ثلاثة:

١ ـ الإقرار أو الاعتراف: وهذا هو الواقع فعلاً في عهود الإسلام.

٢ ـ البينة أو الشهادة: أي شهادة أربعة رجال أحرار عدول مسلمين على التلبس بالزنى فعلاً، ورؤية ذلك بالعين المجردة، وهذا نادر جداً لم يحصل إلا قليلاً.

٣ – الحبل عند المرأة بلا زوج معروف لها.

وحكمة حد الزنى:

الحفاظ على الأعراض والحقوق، ومنع اختلاط الأنساب، وتحقيق العفاف والصون، وطهر المجتمع، والحيلولة دون ظهور اللقطاء في الشوارع، وانتشار الأمراض الجنسية الخطيرة، كالزُّهري والسيلان، وتكريم المرأة نفسها، وعدم إهدار مستقبلها.

روي عن حُذَيفة أن النبي ﷺ قال: «يا معشر الناس اتقوا الزنى، فإن فيه ست خصال: ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة، أما التي في الدنيا: فيُذهب البهاء، ويورث الفقر، وينقص العمر، وأما التي في الآخرة: فسخط الله سبحانه وتعالى، وسوء الحساب، وعذاب النار».

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ الآية: هذا خبر خرج مخرج الغالب فلا يقصد به التحريم الاصطلاحي، وإنما التنزه والابتعاد والترفع، والمعنى: أن الشأن في الزاني الفاسق الفاجر ألا يرغب إلا في نكاح أمثاله من النساء الزانيات الفاسقات، فهو عادة لا يرغب في نكاح المرأة الصالحة، وإنما يميل إلى الزواج بالفاسقة الخبيثة أو المشركة مثلها التي لا تهتم عادة لحرمة العرض، ولا تأبه بشأن التعفف.

وكذلك الشأن في الزانية الخبيثة لا يرغب فيها غالباً إلا زان خبيث مثلها أو مشرك لا يتعفف عادة.

وبدئ بالزاني هنا، وبالزانية في الآية السابقة؛ لأن هذه الآية تتحدث عن النكاح وإبداء الرغبة فيه بالخطبة، والعادة أن ذلك يكون من الرجل، لا من المرأة، أما أكثر دواعي الزنى فتكون من المرأة فبدئ بها كما بينا، فهي المادة في الزنى، وأما في النكاح فالرجل هو الأصل؛ لأنه الراغب والطالب عادة.

وليس معنى الجملتين في الآية هنا واحداً، فإن الجملة الأولى تصف الزاني

بأنه لا يرغب في العفيفات المؤمنات، وإنما يميل إلى الزانية والمشركة، والجملة الثانية تصف الزانية بأنه لا يرغب فيها المؤمنون الأعفاء، وإنما يميل إليها الفجار والمشركون، فكان المعنى مختلفاً إذ لا يلزم عقلاً من كون الزاني لا يرغب إلا في مثله أن الزانية لا يرغب فيها غير أمثالها، وكانت الآية موضحة وجود التلاؤم والانسجام والتفاهم والاقتران من كلا الطرفين: الرجل والمرأة. وقد سمعنا كثيراً اليوم أن الممثلين والممثّلات ونحوهم من أهل الفن لا يتزوج الواحد منهم أو الواحدة إلا بمحترف فناً مماثلاً؛ لأن عنصر الغيرة في زعمهم يجب أن يرتفع، ليستمر الفريقان في عملهما، وإلا تعرض الزواج للهدم والفسخ والزوال، فكما لا يألف العفيف ولا يقبل غير العفائف، كذلك لا تقبل العفيفة الشريفة بحال إسفاف زوجها وتبذّله، واختراقه حدود الصون والعفة، ولربما كانت المرأة أشد غيظاً وغضباً وتحرقاً من الرجل في هذا، وقد يكون العكس، والمعول عليه وجود الدين والخلق والإحساس المرهف وتوافر الغيرة الدينية على الحرمات والأعراض، والبعد عن جعل العلاقة بين الرجل والمرأة مجرد علاقة مادية شهوانية، كما هو الشائع اليوم لدى الماديين الملحدين الذين رفعوا مسألة العرض من قاموس الأخلاق والقيم، سواء في الشرق أو الغرب.

﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي حُرِّم التزوج بالبغايا أو تزويج العفائف بالرجال الفجار على المؤمنين الأتقياء، والمراد بالتحريم التنزه والتعفف مبالغة في التنفير؛ لأنه تشبُّه بالفُسَّاق، وتعرض للتهمة، وتسبب لسوء المقالة، والطعن في النسب وغير ذلك من المفاسد.

وهذا رأي الجمهور كأبي بكر وعمر وجماعة من التابعين وفقهاء الأمصار جميعاً، فيجوز نكاح الزانية، والزنى لا يوجب تحريمها على الزوج، ولا يوجب الفرقة بينهما، ويؤيدهم ما أخرجه الطبراني والدارقطني من حديث عائشة قالت: «سئل رسول الله ﷺ عن رجل زنى بامرأة، وأراد أن يتزوجها، فقال:

أوله سفاح، وآخره نكاح، والحرام لا يحرم الحلال». وما أخرجه أبو داود والنسائي وغيرهما عن ابن عباس أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إن امرأتي لا تمنع يد لامس! قال ﷺ: «غرِّبها»، قال: أخاف أن تتبعها نفسي، قال: «فاستمتع بها». وهو دليل على جواز نكاح الزانية، وعلى أن الزوجة إذا زنت لا ينفسخ نكاحها.

وقوله: «لا تمنع يد لامس» معناه الزانية، وأنها مطاوعة من راودها، لا ترد يده. وقوله: «غرّبها» أي أبعدها بالطلاق، وهذا دليل آخر على جواز نكاح الفاجرة. وقوله: «فاستمتع بها» أي لا تمسكها إلا بقدر ما تقضي متعة النفس منها، والاستمتاع بالشيء: الانتفاع به إلى مدة، ومنه سمي نكاح المتعة، ومنه آية: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ [غافر: ٤٠/٣٩].

وأما حكم الحرمة في الآية فمخصوص بالسبب الذي ورد فيه، أو منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٢٤/٣٢] فإنه يتناول المسافحات.

وقال جماعة من السلف (علي وعائشة والبراء، وابن مسعود في رواية عنه): إن من زنى بامرأة أو زنى بها غيره لا يحل له أن يتزوجها، وقال علي: إذا زنى الرجل فرّق بينه وبين امرأته؛ وكذلك هي إذا زنت. ودليلهم أن الحرمة في الآية على ظاهرها، والخبر في قوله ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ﴾ بمعنى النهي، وأحاديث منها ما رواه أبو داود عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة دُيّوث» ومنها ما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاقّ لوالديه، والمرأة المترجلة المتشبهة بالرجال، والدُّيّوث، وثلاث لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، ومدمن الخمر، والمنّان بما أعطى».

وذهب الإمام أحمد رحمه الله إلى أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغي ما دامت كذلك، حتى تستتاب، فإن تابت، صح العقد عليها،

وإلا فلا، وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح حتى يتوب توبة صحيحة؛ لقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٤/ ٢٥] وقوله سبحانه: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥/ ٥].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآية على الأحكام التالية:

١ - **تحريم الزنى:** الزنى من الكبائر؛ لأن الله تعالى قرنه بالشرك وقتل النفس في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٦٨]. ولأن الله سبحانه أوجب الحد فيه وهو مئة جلدة، وشرع فيه الرجم. ونهى المؤمنين عن الرأفة، وأمر بإشهاد الطائفة المؤمنة للتشهير، ولحديث حذيفة المتقدم: «يا معشر الناس، اتقوا الزنى، فإن فيه ست خصال..»

والزنى: وطء الرجل امرأة في فرجها من غير نكاح ولا شبهة نكاح بمطاوعتها، أو هو إيلاج (إدخال) فرج في فرج مشتهى طبعاً محرّم شرعاً. فإذا كان ذلك وجب الحد.

أما فعل قوم لوط: فحكمه عند الشافعي في الأصح ومالك وأحمد وأبي يوسف ومحمد حكم الزنى، فيكون اللائط زانياً، فيدخل في عموم الآية، ويحد حد الزنى عند الشافعي بدليل ما روى البيهقي عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أتى الرجلُ الرجلَ، فهما زانيان» وحده عند المالكية والحنابلة: الرجم، ويرى بعض الحنابلة أن الحد في فعل قوم لوط القتل، إما برميه من شاهق، وإما بهدم حائط عليه، وإما برميه بالحجارة.

وذهب أبو حنيفة إلى أنه يعزر اللوطي فقط، ولا يحد؛ إذ ليس في اللواط اختلاط أنساب، ولا يترتب عليه غالباً حدوث منازعات تؤدي إلى قتل اللائط، وليس هو زنى، ولا يتعلق به المهر، فلا يتعلق به الحد، ولأنه ﷺ أباح قتل المسلم بإحدى ثلاث: زنى المحصن، وقتل النفس بغير حق، والردة. ولم يذكر فاعل اللواط؛ لأنه لا يسمى زانياً، ولم يثبت عنه ﷺ أنه قضى في اللواط بشيء.

واتفق الفقهاء على أن السحاق والاستمناء باليد يشرع فيه التعزير والتأديب والتوبيخ.

وأما إتيان البهائم: فاتفق أئمة المذاهب الأربعة على تعزير فاعله بما يراه الحاكم رادعاً له؛ لأن الطبع السليم يأبى ذلك، وفي سنن النسائي عن ابن عباس: «ليس على الذي يأتي البهيمة حد» وهذا موقوف له حكم المرفوع.

وأما إتيان الميتة: ففيه عند الجمهور غير المالكية التعزير؛ لأن هذا ينفر الطبع منه، فلا يحتاج إلى حد زاجر، وإنما يكفي فيه التأديب.

وأوجب المالكية فيه الحد؛ لأنه وطء في فرج آدمية، فأشبه وطء المرأة الحية. والخلاصة: أن كل فعل من هذه الأفعال حرام منكر، يجب اجتنابه.

٢ - **وجوب الحد في الزنى:** وهذا هو الذي استقر عليه التشريع، وكانت عقوبته في مبدأ الإسلام حبس المرأة، وتعيير الرجل وإيذاءه بالقول؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّـٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةً مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَـٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾ [النساء: ٤/١٥-١٦].

ثم نسخ ذلك، بدليل ما أخرج مسلم وأبو داود والترمذي عن عبادة بن

الصامت رضي الله عنه من الحديث المتقدم أن النبي ﷺ قال: «خذوا عني، فقد جعل الله لهن سبيلاً: البِكْرُ بالبِكْر جلْد مئة ونفيُ سنة، والثيِّب بالثيب جلد مئة والرجم».

وحد الزنى نوعان: حد الثيب (المتزوج) وحد البكر (غير المتزوج).

أ - أما حد الثيب: فهو باتفاق جماهير العلماء الرجم فقط، للأحاديث المتقدمة القولية والفعلية الدالة على مشروعيته، والتي بلغت مبلغ التواتر، فيخصص بها عموم القرآن، كما أنه في رأي الجمهور يخصص القرآن بخبر الواحد.

وفي رأي الظاهرية وإسحاق وأحمد في رواية عنه: الجلد والرجم، عملاً بظاهر حديث عبادة المتقدم.

ويرى الخوارج أن حد الثيب هو جلد مئة فقط، وأما الرجم فهو غير مشروع، للأدلة السابقة الثلاثة، والتي أجيب عنها.

واتفق الفقهاء على أن حد الثيب من الأرقاء هو الجلد فقط كحد البكر، وأنه لا رجم في الأرقاء.

ب - وأما حد البكر: فهو في رأي الحنفية الجلد مئة فقط، دون تغريب، عملاً بصريح الآية، ولا يزاد عليها شيء بخبر الواحد، وأما التغريب فهو مفوض إلى رأي الإمام حسبما يرى من المصلحة في ذلك.

وهو في رأي الجمهور: الجلد مئة ونفي عام. فيغرب في رأي الشافعية والحنابلة إلى بلد آخر بعيد عن بلده بمقدار مسافة القصر (٨٩ كم) لحديث عبادة المتقدم: «البكر بالبكر جلد مئة وتغريب عام». ويسجن الرجل عند المالكية في البلد التي غرب إليها. ولا تغرب المرأة باتفاق هؤلاء خشية الزنى بها مرة أخرى.

وأما الذمي المحصن: فحده في رأي الحنفية والمالكية الجلد فقط لا الرجم، لما رواه إسحاق بن راهويه عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «من أشرك بالله فليس بمحصن» وهذا قول يرجح على الفعل الثابت عنه ﷺ أنه رجم يهوديين، وبالقياس على إحصان القذف يعتبر فيه الإسلام بالإجماع، فيكون إحصان الرجم مثله، لكمال النعمة في الحالين.

وحده في رأي الشافعي وأحمد وأبي يوسف: الرجم إذا ترافع إلينا؛ لما ثبت في الصحيحين وسنن أبي داود أن النبي ﷺ أتي بيهوديين زنيا، فأمر برجمهما، ولأن الكافر كالمسلم يحتاج إذا زنى إلى الردع، ولأن الكفار الذميين ملتزمون بأحكام شريعتنا. أما حديث «من أشرك بالله فليس بمحصن» فلا ينطبق على الذمي؛ لأنه في مصطلحنا لا يسمى مشركاً. وأما القياس على حد القذف وأنه لا حد على من قذف كافراً فهو قياس مع الفارق؛ لأن الشرع أوجب هذا الحد تكريماً للمسلم ورفعاً للعار عنه، وغير المسلم لا حاجة له لذلك، لتساهله عادة.

٣ - **صاحب الولاية في إقامة الحد:** إن المطالب بتطبيق الحد هو الإمام الحاكم أو نائبه باتفاق العلماء؛ لأن الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَٱجۡلِدُواْ﴾ لأولياء الأمر من الحكام؛ لأن هذا حكم يتعلق بإصلاح الناس جميعاً، وذلك منوط بالإمام، وإقامة مراسم الدين واجبة على المسلمين، والإمام ينوب عنهم فيها؛ إذ لا يمكنهم الاجتماع على إقامة الحدود، ومنعاً للفوضى، والعودة إلى عادة الجاهلية في الأخذ بالثأر.

وأضاف الإمامان مالك والشافعي: السادة في شأن العبيد، لكن عند مالك في الجلد دون القطع، وعند الشافعي في قول: في كل جلد وقطع. ودليلهما ما أخرجه الستة غير النسائي من قوله ﷺ في الأَمَة: «إن زنت فاجلدوها». وما روى مسلم وأبو داود والنسائي عن علي رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «أقيموا الحدود على ما ملكت أيمانكم، من أحصن ومن لم يحصن». وما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه أقام حداً على بعض إمائه.

وقال الحنفية: لا يملك السيد أن يقيم حداً ما، للآية: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟﴾ والخطاب بلا شك للأئمة دون سائر الناس، ولم يفرق في المحدودين بين الأحرار والعبيد. وأما الأحاديث فيراد بها رفع الموالي أمر عبيدهم إلى الحكام ليقيموا الحد عليهم، وفعل ابن عمر رأي له لا يعارض الآية. والجلاد يكون من خيار الناس وفضلائهم، حسبما يختار الإمام.

٤ً - **أداة الجلد:** أجمع العلماء على أن الجلد يجب بالسوط الذي لا ثمرة له، وهو الوسط بين السوطين، لا شديد ولا ليِّن، كما فعل النبي ﷺ. وقال مالك والشافعي: الضرب في الحدود كلها سواء، ضرب غير مبرح (غير شديد). ضرب بين ضربين؛ لأنه لم يرد شيء في تخفيف الضرب ولا تثقيله.

وقال الحنفية: التعزير أشد الضرب، وضرب الزنى أشد من الضرب في الخمر، وضرب الشارب أشد من ضرب القذف، احتجاجاً بفعل عمر الذي خفف في ضرب الشارب.

٥ً - **صفة الجلد وطريقة الضرب ومكانه عند الجمهور:** أن يكون مؤلماً لا يجرح ولا يقطع (يَبْضع) ولا يُخرج الضارب يده من تحت إبطه، عملاً بقول عمر الذي أتى بسوط بين سوطين وقال للضارب: اضرب ولا يُرى إبطك، وأعط كل عضو حقه، ولأن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ معناه النهي عن التخفيف في الجلد.

ومواضع الضرب في الحدود والتعزير: ظهر الإنسان في رأي مالك؛ لقوله ﷺ فيما أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي عن ابن عباس: «البينة وإلا حدٌّ في ظهرك» وسائر الأعضاء ما عدا الوجه والفرج والرأس في رأي الجمهور.

وكيفية ضرب الرجال والنساء مختلف فيها، فقال مالك: الرجل والمرأة في الحدود كلها سواء، لا يجزي عنده إلا في الظهر، وقال الحنفية والشافعية: يجلد الرجل وهو واقف، والمرأة وهي قاعدة، عملاً بقول علي رضي الله عنه.

وتجريد المجلود في الزنى مختلف فيه أيضاً، فقال مالك وأبو حنيفة وغيرهما: يجرّد ما عدا ما بين السرة والركبة؛ لأن الأمر بالجلد يقتضي مباشرة جسمه، ويترك على المرأة ما يسترها دون ما يقيها الضرب. وقال الأوزاعي: الإمام مخير، إن شاء جرَّد وإن شاء ترك.

وذهب الشافعي وأحمد إلى أنه لا يجرد المحدود في الحدود كلها فيما عدا الفرو والحشو، فإنه ينزع عنه، فإنه لو ترك عليه ذلك، لم يبال بالضرب، عملاً بقول ابن مسعود: «ليس في هذه الأمة مدّ ولا تجريد».

٦ - **الشفاعة في الحدود:** يراد بآية ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ النهي عن تخفيف الحد وإسقاطه، وهو دليل على تحريم الشفاعة في إسقاط حد الزنى؛ لأنها تعطيل لإقامة حد الله تعالى، وكذلك تحرم الشفاعة في سائر الحدود، لما أخرجه الخمسة أن النبي ﷺ قال لأسامة بن زيد حين تشفع في فاطمة بنت الأسود المخزومية التي سرقت قطيفة وحلياً: «أتشفع في حد من حدود الله تعالى؟! ثم قام فاختطب فقال: إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

وأخرج أبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول: «من حالت شفاعته دون حد من حدود الله تعالى، فقد ضادَّ الله عز وجل».

كذلك يحرم على الإمام الحاكم قبول الشفاعة في الحدود، لما أخرجه مالك عن الزبير بن العوام رضي الله عنه: «أنه لقي رجلاً قد أخذ سارقاً يريد أن يذهب به إلى السلطان، فشفع له الزبير ليرسله، فقال: لا، حتى أبلغ به إلى

السلطان، فقال الزبير: إنما الشفاعة قبل أن يبلغ السلطان، فإذا بلغ السلطان، لعن الشافع والمشفع».

٧ - **الترغيب في إقامة الحدود: دل قوله تعالى:** ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ على الحث على إقامة الحد، وامتثال أمر الله تعالى وتنفيذ أحكامه على النحو الذي شرعها.

٨ - **حضور إقامة الحد:** دل ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على وجوب الحضور على طائفة من المؤمنين، للتنكيل والعبرة والعظة، لكن الفقهاء اختلفوا في ذلك:

فقال الحنفية والحنابلة: ينبغي أن تقام الحدود كلها في ملأ من الناس؛ لأن المقصود من الحد هو زجر الناس. والطائفة في قول أحمد والنخعي: واحد.

وقال المالكية والشافعية: يستحب حضور جماعة، وهما اثنان في القول المشهور لمالك، وأربعة على الأقل في رأي الشافعية وفي قول مالك والليث.

٩ - **حكمة الحد:** إن الحد عقوبة تجمع بين الإيلام الخفيف والاستصلاح، أما الإيلام فلقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا﴾ فسميت العقوبة عذاباً، ويراد من هذه العقوبة أيضاً الزجر والإصلاح؛ لأنه يمكن أن يراد من العذاب: ما يمنع المعاودة كالنكال، فيكون الغرض منه الاستصلاح.

١٠ - **هل الآية منسوخة؟** إن آية ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ منسوخة في رأي أكثر العلماء بقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٢٤/ ٣٢] لذا قال الحنفية: إن من زنى بامرأة فله أن يتزوجها ولغيره أن يتزوجها. وقال غير الحنفية أيضاً: إن التزوج بالزانية صحيح، وإذا زنت زوجة الرجل لم يفسد النكاح، وإذا زنى الزوج لم يفسد نكاحه مع زوجته.

وروي أن رجلاً زنى بامرأة في زمن أبي بكر رضي الله عنه، فجلدهما مئة

جلدة، ثم زوّج أحدهما من الآخر مكانه، ونفاهما سنة، وهذا ما يحدث الآن في المحاكم الشرعية. وروي مثل ذلك عن عمر وابن مسعود وجابر رضي الله عنهم. وقال ابن عباس: أوله سفاح وآخره نكاح. ومَثَل ذلك مَثَل رجل سرق من حائط (بستان) ثمرة، ثم أتى صاحب البستان، فاشترى منه ثمره، فما سَرَق حرام، وما اشترى حلال.

وقال بعض العلماء المتقدمين: الآية محكمة غير منسوخة، وبناء عليه قالوا: من زنى فسد النكاح بينه وبين زوجته، وإذا زنت الزوجة فسد النكاح بينها وبين زوجها. وقال بعض هؤلاء: لا ينفسخ النكاح بذلك، ولكن يؤمر الرجل بطلاقها إذا زنت، ولو أمسكها أَثم، ولا يجوز التزوج بالزانية، ولا من الزاني، بل إذا ظهرت التوبة يجوز النكاح حينئذ. وأدلتهم تقدم ذكرها.

١١ - **عموم التحريم:** حرم الله تعالى الزنى في كتابه، سواء في أي مكان في العالم، فحيثما زنى الرجل فعليه الحد، وهذا قول الجمهور (مالك والشافعي وأبي ثور وأحمد) قال ابن المنذر: دار الحرب ودار الإسلام سواء، ومن زنى فعليه الحدّ، على ظاهر قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾.

وقال الحنفية في الرجل المسلم إذا كان في دار الحرب بأمان وزنى هنالك، ثم خرج إلى دار الإسلام، لم يحدّ؛ لأن الزنى وقع في مكان لا سلطان للإمام المسلم عليه، لكن يكون زناه حراماً وإن لم يجب عليه الحد، وعليه التوبة من الحرام.

الحكم الثالث

حد القذف

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

القراءات:

﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾:

وقرأ الكسائي (المحصِنات).

الإعراب:

﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ ﴿ثَمَانِينَ﴾ منصوب على المصدر، و﴿جَلْدَةً﴾ تمييز منصوب. ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ ﴿الَّذِينَ﴾ إما منصوب على الاستثناء، كأنه قال: إلا التائبين، وإما مرفوع على الابتداء، وخبره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وإما مجرور على البدل من الهاء والميم في ﴿لَهُمْ﴾.

البلاغة:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ استعارة، استعير لفظ الرمي (وهو الإلقاء بالحجارة ونحوها) لشيء معنوي وهو القذف باللسان، بجامع الأذى في كل منهما.

﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ صيغة مبالغة على وزن فعول وفعيل.

المفردات اللغوية:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ يقذفون العفائف الحرائر البالغات العاقلات

المسلمات، ولا فرق بين الذكر والأنثى، وتخصيص المحصنات مراعاة للواقعة، أو لأن قذف النساء أغلب وأشنع، والرمي: الإلقاء بشيء يضر أو يؤذي، استعير للسب بالزنى لما فيه من الأذى والضرر، أما القذف بغير الزنى مثل يافاسق، ياشارب الخمر فيوجب التعزير ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ لإثبات زناهن برؤيتهم، وهو جمع شهيد، وهو الشاهد، وسمي بذلك لأنه يخبر عن شهادة وعلم وأمانة، ولا تعتبر شهادة زوج المقذوفة عند الشافعية، وتعتبر عند أبي حنيفة ﴿فَاجْلِدُوهُمْ﴾ اجلدوا كل واحد منهم ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ أي تسقط عدالتهم، فلا تقبل لهم أي شهادة كانت بعدئذ؛ لأنه مفترٍ. ولا يتوقف ذلك على استيفاء الجلد عند الشافعية؛ لترتب الجزاءين على القذف على السواء جواباً للشرط، دون ترتيب بينهما، فيحصلان دفعة واحدة، ويتوقف عدم قبول شهادته عند أبي حنيفة على استيفاء الحد. وقوله: ﴿أَبَدًا﴾ أي مالم يتب، وعند أبي حنيفة: إلى آخر عمره ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المحكوم بفسقهم؛ لإتيانهم كبيرة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ عن القذف ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أعمالهم بالتدارك، ومنه الاستسلام للحد، أو طلب العفو (الاستحلال) من المقذوف .﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لهم قذفهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم بإلهامهم التوبة. وبالتوبة ينتهي فسقهم وتقبل شهادتهم عند الشافعية، ولا تقبل عند الحنفية؛ لأن الاستثناء يكون راجعاً إلى الجملة الثالثة وهي: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ في رأيهم، وإلى أصل الحكم وجميع الجمل في رأي الشافعية، لكن تستثنى الجملة الأولى، فلا يسقط الحد بالتوبة بالاتفاق، حفاظاً على حق العبد، ويبقى الاستثناء في ظاهره عائداً إلى رد الشهادة والتفسيق.

المناسبة:

بعد التنفير من نكاح الزانيات وإنكاح الزناة، نهى الله تعالى عن القذف

وهو الرمي بالزنى، وذكر حده في الدنيا وهو الجلد ثمانين، وعقوبته في الآخرة وهو العذاب المؤلم مالم يتب القاذف.

ودلت القرائن على أن المراد الرمي بالزنى بإجماع العلماء لتقدم الكلام عن الزنى، ووصف النساء بالمحصنات وهن العفائف عن الزنى، ولاشتراط إثبات التهمة بأربعة شهود، ولا يطلب هذا العدد إلا في الزنى، ولانعقاد الإجماع على أنه لا يجب الجلد بالرمي بغير الزنى، كالرمي بالسرقة وشرب الخمر والكفر، فمجموع هذه القرائن الأربع يجعل المراد هو الرمي بالزنى.

التفسير والبيان:

هذه الآية تبين حكم قذف المحصنة وهي الحرة البالغة العاقلة العفيفة، يجلد قاذفها ثمانين جلدة، وكذلك يجلد قاذف الرجل العفيف اتفاقاً، وقذف الرجل داخل في حكم الآية بالمعنى، كدخول تحريم شحم الخنزير في تحريم لحمه. وذكر النساء، لأن رميهن بالفاحشة أشنع، والزنى منهن أقبح، أما السرقة فالرجل عليها أجرأ وأقدر، فبدأ به في آية حد السرقة.

وفي التعبير بالإحصان إشارة إلى أن قذف العفيف رجلاً أو امرأة موجب لحد القذف، أما المعروف بفجوره فلا حد على قاذفه، إذ لا كرامة للفاسق.

والمعنى: إن الذين يسبّون النساء العفيفات الحرائر المسلمات برميهن بالزنى، ولم يتمكنوا من إثبات التهمة بأربعة شهود رأوهن متلبِّسات بالزنى، أي لم يقيموا البينة على صحة القذف الذي قالوه، لهم ثلاثة أحكام:

الأول - أن يجلد القاذف ثمانين جلدة. والجلد: الضرب.

الثاني - أن ترد شهادته أبداً، فلا تقبل في أي أمر مدة العمر.

الثالث - أن يصير فاسقاً ليس بعدل، لا عند الله ولا عند الناس، سواء

كان كاذباً في قذفه أو صادقاً. والفسق: الخروج عن طاعة الله تعالى، وهذا دليل على أن القذف كبيرة من الكبائر، لما يترتب عليه من التشنيع وهتك حرمة المؤمنات. لكن شرط القاذف الذي نصت عليه الآية: عجزه عن الإتيان بأربعة شهود، وتقضي قواعد الشرع أن يكون من أهل التكليف: وهو البالغ العاقل المختار، العالم بالتحريم حقيقة، أو حكماً كمن أسلم حديثاً ومضت عليه مدة يتمكن فيها من معرفة أحكام الشرع.

وشرط المقذوف المرمي بنص الآية: أن يكون محصناً: وهو المكلف (البالغ العاقل) الحر، المسلم، العفيف عن الزنى. فشرائط إحصان القذف خمسة: هي البلوغ والعقل باعتبارهما من لوازم العفة عن الزنى، والحرية؛ لأنها من معاني الإحصان، والإسلام، لقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث المتقدم: «من أشرك بالله فليس بمحصن» والعفة عن الزنى، فلا يعتبر كل من المجنون والصبي والعبد والكافر والزاني محصناً، فلا يحد قاذفهم، لكن يعزر للإيذاء. ويلاحظ أن ظاهر الآية يتناول جميع العفائف، سواء كانت مسلمة أو كافرة، وسواء كانت حرة أو رقيقة، إلا أن الفقهاء قالوا شرائط الإحصان في القذف خمسة: الإسلام، والعقل، والبلوغ، والحرية، والعفة عن الزنى. وإنما اعتبرنا الإسلام للحديث المتقدم، واعتبرنا العقل والبلوغ لقوله ﷺ فيما رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم عن عائشة: «رفع القلم عن ثلاثة» ومنهم الصبي والمجنون، واعتبرنا الحرية؛ لأن العبد ناقص الدرجة، فلا يعظم عليه التعيير بالزنى، واعتبرنا العفة عن الزنى؛ لأن الحد مشروع لتكذيب القاذف، فإذا كان المقذوف زانياً، فالقاذف صادق في القذف، فلا يحد، وكذلك إذا كان المقذوف وطئ امرأة بشبهة أو نكاح فاسد؛ لأن فيه شبهة الزنى.

وإذا كان العبد أو الكافر عفيفاً عن الزنى، فيصبح محصناً من وجه، وغير محصن من وجه آخر، فيكون ذلك شبهة في إحصانه، فيجب درء الحد عن قاذفه.

وكان ينبغي جعل التزوج من صفات الإحصان، إلا أن العلماء أجمعوا على عدم اعتباره هنا، وهو كون المرمي زوجة أو زوجاً، بدليل الآيات التالية في اللعان، فتكون آية اللعان مخصصة لعموم الموصول: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾.

وظاهر الآية: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ يدل على أنه يشترط لتحقق القذف الموجب للعقوبة عجز القاذف عن الإتيان بأربعة يشهدون أنهم قد رأوا المقذوف يزني، وتاء ﴿بِأَرْبَعَةِ﴾ تفيد في ظاهرها اعتبار كونهم من الرجال، ويؤكد ذلك أنه لا تعتبر شهادة النساء في الحدود اتفاقاً.

ولم تشترط الآية أكثر من كون الرجال الأربعة أهلاً للشهادة، لكن العلماء اختلفوا في اشتراط كون الشاهد عدلاً، فقال الشافعية: تشترط عدالة الشاهد، وقال الحنفية: لا تشترط عدالة الشاهد. فإذا شهد أربعة فساق فهم قَذَفة عند الشافعية يحدون كالقاذف، ولا يحدون عند الحنفية، ويدرأ الحد عن القاذف؛ لأنه تثبت بشهادتهم شبهة الزنى، فيسقط الحد عنهم وعن القاذف، وكذا عن المقذوف.

وظاهر عموم الآية أنه يكفي أن يكون زوج المقذوفة أحد الشهود الأربعة، وقد أخذ الحنفية بهذا الظاهر، وقال مالك والشافعي: لا يعتبر الزوج أحد الشهود، ويلاعن الزوج ويحد الشهود الثلاثة الآخرون؛ لأن الشهادة بالزنى قذف، ولم يكتمل نصاب الشهادة المطلوب.

وظاهر إطلاق الآية أنه يصح مجيء الشهود متفرقين أو مجتمعين، وبه أخذ المالكية والشافعية، وذلك كالشهادة في سائر الأحكام. وقال أبو حنفية: لا تقبل شهادتهم إلا إذا كانوا مجتمعين غير متفرقين، فإن تفرقوا لم تقبل شهادتهم؛ لأن الشاهد الواحد لما شهد صار قاذفاً، ولم يأت بأربعة شهداء، فوجب عليه الحد، ولم يعد صالحاً للشهادة. ونقل ذلك أيضاً عن مالك.

وظاهر الآية أيضاً أن القاذف يجلد إذا أتى بشاهدين أو ثلاثة فقط، وكذلك يجلد هؤلاء الشهود إذا لم يكملوا النصاب، بدليل فعل عمر الذي أمر بجلد ثلاثة شهود وهم شبل بن معبد وأبو بكرة (نُفيع بن الحارث) وأخوه نافع شهدوا بالزنى على المغيرة بن شعبة، وأما رابعهم زياد فلم يجزم بحدوث حقيقة الزنى.

والخطاب في قوله تعالى: ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ هم أولياء الأمر الحكام، وظاهر هذا العموم يشمل الحر والرقيق، فحدهما ثمانون جلدة، وبه أخذ ابن مسعود والأوزاعي والشيعة، وأجمع بقية الفقهاء على أن حد الرقيق في القذف النصف وهو أربعون جلدة. ودل هذا الظاهر أيضاً أن الحاكم يقيم الحد ولو من غير طلب المقذوف، وبه أخذ ابن أبي ليلى، وقال الجمهور: لا يحد إلا بمطالبة المقذوف، وقال مالك: إذا سمعه الإمام يقذف، حدَّه ولو لم يطلب المقذوف، إذا كان مع الإمام شهود عدول. والخلاصة: أن الإمام لا يقيم حد القذف إلا بمطالبة المقذوف في المذاهب الأربعة.

وفي إقامة حد القذف: مراعاة لحق الله تعالى في حماية الأعراض، ولحق العبد الذي انتهكت حرمته، لكن اختلف الفقهاء في المغلَّب في هذا الحد:

فقال الشافعية: يغلَّب حق العبد باعتبار حاجته، وغنى الله عز وجل. وذهب الحنفية إلى تغليب حق الله تعالى؛ لأن استيفاءه يحقق مصلحة العبد أيضاً. وتظهر ثمرة الخلاف في أمثلة منها:

أ - إذا مات المقذوف قبل استيفاء الحد، فيسقط عند الحنفية تغليباً لحق الله تعالى، وقال الشافعية: لا يسقط الحد بموت المقذوف، بل يتولى ورثته المطالبة به تغليباً لحق العبد.

ب - وإذا قذف شخص جماعة بكلمة واحدة أو بكلمات متعددة، فالحنفية يقولون بتداخل الحد، ويكفي للجميع حد واحد، تغليباً لحق الله تعالى كمن

زنى مراراً أو سرق أو شرب الخمر، ولا يتداخل الحد عند الشافعية، وعليه لكل واحد حد تغليباً لحق العباد.

ج - وإذا عفا المقذوف عن الحد، يسقط عند الشافعية تغليباً لحق العبد، ولا يسقط عند الحنفية بعد طلب إقامته.

وبما أن مجموع العقوبات الثلاث مرتب على القذف بالعطف بالواو، فترد شهادة القاذف ولو قبل جلده في رأي الشافعي، ولا ترد شهادته إلا بعد جلده في رأي أبي حنيفة ومالك؛ لأن الواو وإن لم تقتض الترتيب، لكن المراد الترتيب؛ لقوله ﷺ فيما رواه الديلمي وابن أبي شيبة عن ابن عمرو مرفوعاً: «المسلمون عدول، بعضهم على بعض، إلا محدوداً في فرية» أي قذف، ورواه الدارقطني عن عمر في كتابه إلى أبي موسى.

ورد شهادة القاذف عام يشمل ما إذا كانت الشهادة واقعة منه قبل القذف أم بعد القذف، ويشمل شهادة من قذف وهو كافر ثم أسلم، إلا أن الحنفية استثنوا الكافر إذا حد في القذف ثم أسلم، فإن شهادته بعد إسلامه تكون مقبولة، لاستفادته بالإسلام عدالة جديدة.

ورد شهادة القاذف هي من تمام الحد في رأي الحنفية، عملاً بظاهر الآية التي رتب الله فيها على القذف عقوبتين، فكان الظاهر أن مجموعهما حد القذف. وقال مالك والشافعي: الحد هو جلد ثمانين فقط، وأما رد الشهادة فهو عقوبة زائدة على الحد؛ لأن الحد عقوبة بدنية، ورد الشهادة عقوبة معنوية، ولأن قول النبي ﷺ لهلال بن أمية فيما أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي عن ابن عباس: «البينة أو حد في ظهرك» يدل على أن الجلد هو تمام الحد.

ويلزم على قول الحنفية أن الحاكم لا يرد شهادة القاذف إلا بطلب المقذوف، أما الآخرون فلا يرون توقف رد الشهادة على طلب المقذوف.

ثم استثنى الله تعالى حال التوبة فقال:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ أي إلا الذين رجعوا عن قولهم وندموا على فعلهم، وأصلحوا حالهم وأعمالهم، فلم يعودوا إلى قذف المحصنات، قال ابن عباس: أي أظهروا التوبة، فإن الله غفور ستار لذنوبهم، رحيم بهم، فيقبل توبتهم، ويرفع عنهم صفة الفسق التي وسموا بها.

قال الشافعي: توبة القاذف: إكذابه نفسَه، والمعنى كما فسره الإصطخري من أصحاب الشافعي: أن يقول: كذبت فيما قلت، فلا أعود لمثله، وفسره أبو إسحاق المروزي من أصحاب الشافعي: لا يقول: كذبت؛ لأنه ربما يكون صادقاً، فيكون قوله: (كذبت) كذباً، والكذب معصية، والإتيان بالمعصية لا يكون توبة عن معصية أخرى، بل يقول: القذف باطل، وندمت على ما قلت، ورجعت عنه، ولا أعود إليه. ورجح أبو الحسن اللخمي أن التوبة إنما تكون بالتكذيب في القذف.

وقال بعض العلماء: توبة القاذف كتوبة غيره، تكون بينه وبين ربه، ومضمونها الندم على ما قال، والعزم على ألا يعود.

وقد اختلف العلماء في هذا الاستثناء، هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط، فترفع التوبة الفسق فقط، ويبقى مردود الشهادة دائماً، وإن تاب وأصلح، أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة أو إلى الكل؟

يلاحظ كما ذكرنا أن الآية ذكرت ثلاثة أحكام بثلاث جمل متعاطفة بالواو، معقبة بالاستثناء، فاتفق العلماء على أن الاستثناء لا يرجع هنا إلى الجملة الأولى، فلا يسقط الحد بتوبة القاذف، للمحافظة على حق العبد وهو المقذوف.

وانحصر الخلاف في عود الاستثناء إلى الجملتين الثانية والثالثة، أي رد

الشهادة والفسق، فقال الحنفية: إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط، فيرتفع الفسق بالتوبة، ويبقى مردود الشهادة أبداً؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ جملة مستأنفة بصيغة الإخبار، منقطعة عما قبلها، لدفع توهم أن القذف لا يكون سبباً لثبوت صفة الفسق بهتك عرض المؤمن بلا فائدة، وإذا كانت الجملة الأخيرة مستأنفة، توجه الاستثناء إليها وحدها.

وقال الجمهور (المالكية والشافعية والحنابلة): يعود الاستثناء إلى كلتا الجملتين الثانية والثالثة؛ لأن جملة ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ مستأنفة منقطعة عما قبلها؛ لأنها ليست من تتمة الحد، وجملة ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ تبين علة رد الشهادة، فإذا ارتفع الفسق الذي هو علة بالتوبة، ارتفع المعلول الذي هو رد الشهادة، فهذه الجملة تعليل، لا جملة مستقلة بنفسها، أي لا تقبلوا شهادتهم لفسقهم، فإذا زال الفسق فلم لا تقبل شهادتهم؟.

ولا يثور هذا الخلاف بين الفريقين إذا قامت قرينة أو دليل على أن الاستثناء يرجع إلى الجملة الأخيرة أو إلى الجمل كلها، كما في المثالين الآتيين:

الأول - قوله تعالى في دية القتل الخطأ: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ [النساء: ٤/٩٢] فيه قرينة تدل على أن الاستثناء عائد إلى الدية لا إلى تحرير الرقبة؛ لأن التحرير حق الله تعالى، وتصدق الولي لا يسقط حق الله تعالى.

الثاني - قوله تعالى في المحاربين: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٥/٣٤] فيه دليل على رجوع الاستثناء إلى الجمل كلها، فإن التقييد في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ يمنع عود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة، وهي قوله سبحانه: ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لأن التوبة تسقط العذاب الأخروي، سواء أكانت قبل القدرة عليهم أم بعدها،

فلم يكن لهذا التقييد فائدة إلا سقوط الحد، فهذا الاستثناء راجع إلى الجميع بالاتفاق.

فقه الحياة أو الأحكام:

١ً - أرشدت الآية إلى وجوب حد القاذف ثمانين جلدة إذا عجز عن إثبات تهمته بأربعة شهود، وإلى الحكم برد شهادته، وصيرورته فاسقاً، إلا إذا تاب فتقبل شهادته وترتفع صفة الفسق عنه في رأي الجمهور، وتزول عنه صفة الفسق فقط بالتوبة في مذهب الحنفية، ويظل مردود الشهادة أبداً وإن تاب.

٢ً - وللقذف شروط تسعة عند العلماء: شرطان في القاذف: وهما العقل والبلوغ؛ لأنهما أصلا التكليف.

وشرطان في المقذوف به: وهو أن يقذف بوطء يلزمه فيه الحد: وهو عند الجمهور غير الحنفية: الزنى وفعل قوم لوط، أو بنفيه من أبيه دون سائر المعاصي.

وخمسة شروط في المقذوف: وهي العقل والبلوغ والإسلام والحرية والعفة عن الفاحشة التي رُمي بها.

٣ً - واتفق العلماء على أن القذف بصريح الزنى يوجب الحد، أما القذف بالتعريض والكناية، مثل ما أنا بزانٍ ولا أمي بزانية، فقال مالك: هو قذف. وقال الشافعي: هو قذف إن نوى وفسره به فقال: أردت به القذف. وقال أبو حنيفة: ليس ذلك قذفاً، لما فيه من شبهة، والحدود تدرأ بالشبهات.

٤ً - وذهب الجمهور إلى أنه لا حد على من قذف رجلاً من أهل الكتاب أو امرأة منهم، ولكنه يعزر، وقال الزهري وسعيد بن المسيب وابن أبي ليلى: عليه الحد إذا كان لها ولد من مسلم.

٥ً - وإذا رمى صبيةً يمكن وطؤها قبل البلوغ بالزنى كان قذفاً عند مالك وقال الآخرون من الأئمة: ليس بقذف؛ لأنه ليس بزنىً؛ إذ لا حد عليها، ويعزَّر.

٦ً - وأما شرط أداء الشهادة وهو كون ذلك في مجلس واحد ففيه رأيان للعلماء كما تقدم: رأي يشترط اجتماع الشهود في مجلس واحد، ورأي لا يشترط ذلك، ويصح أداؤهم الشهادة متفرقين.

٧ً - إن رجع أحد الشهود، وقد رُجم المشهود عليه في الزنى، فقال الجمهور: يَغْرَم ربع الدية، ولا شيء على الآخرين. وقال الشافعي: إن قال: تعمدت ليقتل، فالأولياء بالخيار: إن شاؤوا قتلوا، وإن شاؤوا عفوا، وأخذوا ربع الدية، وعليه الحدّ.

٨ً - صفة حد القذف فيها رأيان أيضاً: قال أبو حنيفة: هو من حقوق الله تعالى والمغلب فيه حق الله، وقال الجمهور: هو من حقوق الآدميين. وفائدة الخلاف: أنه على الرأي الأول تنفع القاذف التوبة فيما بينه وبين الله تعالى، ولا يورث الحد ولا يسقط بالعفو، وعلى الرأي الثاني: لا تنفع القاذف التوبة حتى يسامحه المقذوف، ويورث الحد، ويسقط بالعفو. وقد ذكر سابقاً آثار أخرى للخلاف.

قال ابن العربي: والصحيح أنه حق الآدميين، والدليل أنه يتوقف على مطالبة المقذوف، وأنه يصح له الرجوع عنه.

٩ً - الشهادة تكون على معاينة الزنى، يرون ذلك كالمِرْود في المُكْحُلة، وفي موضع واحد في رأي مالك، فإن لم يتحقق ذلك جلد الشهود، كما بينا.

١٠ً- إذا تاب القاذف قبلت شهادته في رأي الجمهور؛ لأن ردها كان لعلة الفسق، فإذا زال بالتوبة، قبلت شهادته مطلقاً قبل الحد وبعده. ولا تقبل

شهادته مدة العمر وإن تاب في رأي الحنفية. ويترجح الرأي الأول بأن التوبة تمحو الكفر، فما دونه أولى، وبقوله ﷺ فيما رواه ابن ماجه عن ابن مسعود: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» وإذا قبل الله التوبة من العبد، كان قبول العباد أولى.

١١ً - تسقط شهادة القاذف في رأي الشافعي وابن الماجشون بنفس قذفه، ولا تسقط في رأي مالك وأبي حنيفة حتى يجلد، فإن منع من جلده مانع عفو أو غيره لم تردّ شهادته.

١٢ً - تجوز شهادة المحدود بحد القذف بعد التوبة في كل شيء مطلقاً في رأي الأكثرين. وقال ابن الماجشون: مَن حد في قذف أو زنى، فلا تجوز شهادته في شيء من وجوه الزنى، ولا في قذف ولا لعان، وإن كان عدلاً.

١٣ً - إذا لم يجلد القاذف بأن مات المقذوف قبل أن يطالب القاذف بالحد، أو لم يرفع إلى السلطان، أو عفا المقذوف، فالشهادة مقبولة؛ لأن النهي عن قبول الشهادة معطوف على الجلد.

وقد بينا أن الشافعي ومثله الليث والأوزاعي قالوا: ترد شهادة القاذف بالقذف نفسه، وإن لم يحد؛ لأنه بالقذف يفسق؛ لأنه من الكبائر، فلا تقبل شهادته حتى تصح براءته بإقرار المقذوف له بالزنى أو بقيام البينة عليه.

ويرى أبو حنيفة ومالك أنه لا ترد شهادة القاذف إلا بعد جلده وصيرورته محدوداً في القذف، للحديث المتقدم الذي رواه الديلمي وابن أبي شيبة عن ابن عمرو: «المسلمون عدول، بعضهم على بعض، إلا محدوداً في قذف».

١٤ً - لا تكفي التوبة الشخصية أو القلبية لإعادة اعتبار القاذف وقبول شهادته؛ لأن الأمر متعلق بحق الغير وهو المقذوف، بل لابد من إعلانها، لذا قال تعالى: ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ أي بإظهار التوبة. وقيل: وأصلحوا العمل، لكن هذا لا يناسب هنا.

الحكم الرابع
حكم اللعان
أو قذف الرجل زوجته

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

القراءات:

﴿أَرْبَعُ﴾:

قرئ:

١- (أَرْبَعُ) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي.

٢- (أَرْبَعَ) وهي قراءة الباقين.

﴿أَنَّ لَعْنَتَ﴾:

وقرأ نافع (أنْ لعنتُ).

ووقف عليها بالهاء: ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي.

ووقف الباقون بالتاء.

﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ﴾:

قرئ:

١- (والخامسةُ أنْ غَضِبَ الله عليها) وهي قراءة نافع.

٢- (والخامسةَ أنَّ غَضَبَ الله عليها) وهي قراءة حفص.

٣- (والخامسةُ أنَّ غَضَبَ الله عليها) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ بدل مرفوع من ﴿شُهَدَآءُ﴾ وهم: اسم كان، و﴿لَّهُمْ﴾ خبرها.

﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ﴾ شهادة: إما مبتدأ وخبره إما أربع أو محذوف تقديره: فعليهم شهادة أحدهم، وإما خبر مبتدأ محذوف تقديره: فالحكم شهادة أحدهم أربع شهادات. و﴿أَرْبَعُ﴾ خبر المبتدأ: ﴿فَشَهَٰدَةُ﴾ ويكون ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلقاً بـ ﴿شَهَٰدَٰتٍۭ﴾. وعلى قراءة النصب يكون منصوباً على المصدر، والعامل فيه شهادة؛ لأنها في تقدير (أن) والفعل، أي أن يشهد أربع شهادات بالله.

﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾ إما مبتدأ وما بعده خبر، وإما معطوف بالرفع على ﴿أَرْبَعُ﴾. وعلى قراءة النصب إما صفة مصدر مقدر أي أن تشهد الشهادة الخامسة، أو معطوف على ﴿أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ﴾. و﴿أَنَّ لَعْنَتَ﴾: منصوب بتقدير حذف حرف جر، أي وتشهد الخامسة بأن لعنة الله عليه.

﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ﴾ أن وصلتها في موضع رفع، أي ويدرأ عنها العذاب شهادتها. و﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في موضع نصب بـ ﴿تَشْهَدَ﴾.

﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾ معطوف على ﴿أَرْبَعَ﴾ وبالرفع: مبتدأ وما بعده خبر.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: لم يذكر جواب ﴿وَلَوْلَا﴾ إيجازاً واختصاراً

لدلالة الكلام عليه، أي لعاجلكم بالعقوبة، أو لفضحكم بما ترتكبون من الفاحشة.

البلاغة:

﴿تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ صيغة مبالغة على وزن: فعَّال، وفعيل.

﴿ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ و﴿ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ بينهما طباق.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ حذف الجواب للتهويل والزجر، ليكون أبلغ في البيان.

المفردات اللغوية:

﴿يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ يقذفونهن بتهمة الزنى ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ وقع ذلك لجماعة من الصحابة، وهو هلال بن أمية رأى رجلاً على فراشه ﴿لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ فيما رمى به زوجته من الزنى ﴿لَعْنَتَ ٱللَّهِ﴾ اللعنة: الطرد من رحمة الله وهذا لعان الرجل، وحكمه: سقوط حد القذف عنه، وحصول الفرقة بينه وبين زوجته باللعان نفسه فرقة فسخ عند الشافعية؛ لقوله ﷺ فيما رواه الدارقطني عن ابن عمر: «المتلاعنان لا يجتمعان أبداً» وبتفريق الحاكم فرقة طلاق عند أبي حنيفة، ومن أحكامه أيضاً: نفي الولد إن تعرّض له فيه، وثبوت حد الزنى على المرأة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ أي ويدفع عنها الحد: حد الزنى الذي ثبت بشهادته.

﴿لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ فيما رماها به من الزنى ﴿غَضَبَ ٱللَّهِ﴾ سَخَطه وتعذيبه ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بالستر في ذلك ﴿تَوَّابٌ﴾ يقبل التوبة في ذلك وغيره ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما حكم به في ذلك وغيره. وجواب ﴿وَلَوْلَا﴾ تقديره: لبين الحق في ذلك وعاجل بالعقوبة من يستحقها.

سبب النزول:

أخرج البخاري وأبو داود والترمذي عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف

امرأته عند النبي ﷺ بشَريك بن سَحْماء[١]، فقال له النبي ﷺ: «البيِّنة أو حَدٌّ في ظهرك» فقال: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا مع امرأته رجلاً ينطلق، يلتمس البينة! فجعل النبي ﷺ يقول: «البينة أو حدٌّ في ظهرك».

فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزلُ الله ما يبرئ ظهري من الحد، فنزل جبريل، فأنزل الله عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

وأخرجه أحمد بلفظ: لما نزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةً وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ﴾ قال سعد بن عُبادة وهو سيد الأنصار: أهكذا نزلت يارسول الله؟

فقال رسول الله ﷺ: يامعشر الأنصار، ألا تسمعون ما يقول سيدكم؟ قالوا: يارسول الله، لا تلمه، فإنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قط، فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غيرته.

فقال سعد: والله يارسول الله، إني لأعلم أنها حق، وأنها من الله، ولكني تعجبت أني لو وجدت لَكَاعاً[٢] مع رجل لم يكن لي أن أنحيّه ولا أحركه، حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله لا آتي بهم، حتى يقضي حاجته.

قال: فما لبثوا إلا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية، وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، فجاء من أرضه، فوجد عند أهله رجلاً، فرأى بعينه، وسمع بأُذنه، فلم يهجه حتى أصبح، فغدا إلى رسول الله ﷺ، وقال له: إني جئت أهلي عشاء، فوجدت عندها رجلاً، فرأيت بعيني، وسمعت بأذني، فكره رسول الله ﷺ ما جاء به واشتد عليه.

---

(١) نسبة إلى أمه السحماء.

(٢) امرأة لَكَاع: لئيمة وقيل: ذليلة النفس.

واجتمعت الأنصار، فقالوا: قد ابتُلينا بما قال سعد بن عبادة إلا أن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية، ويبطل شهادته في الناس.

فقال هلال: والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجاً، فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يضربه، فأنزل الله عليه الوحي، فأمسكوا عنه، حتى فرغ من الوحي، فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ الآية. وأخرج أبو يعلى مثل هذه الرواية من حديث أنس.

وفي رواية: لما نزلت الآية المتقدمة في الذين يرمون المحصنات، وتناول ظاهرها الأزواج وغيرهم قال سعد بن عبادة: يارسول الله، إن وجدت مع امرأتي رجلاً أُمهله حتى آتي بأربعة! والله لأضربنّه بالسيف غير مُصْفَح عنه، فقال رسول الله ﷺ: «أتعجبون من غَيْرة سعدٍ لأنا أَغْير منه، والله أغير مني»؟!

وأخرج الشيخان وغيرهما عن سهل بن سعد قال: جاء عويمر العجلاني إلى عاصم بن عدي، فقال: اسأل لي رسول الله ﷺ: أرأيتَ رجلاً وجد مع امرأته رجلاً، فقتله، أيُقْتَل به، أم كيف يصنع به؟

فسأله عاصم رسول الله ﷺ، فعاب رسول الله ﷺ السائل، فلقيه عويمر[1]، فقال: ما صنعتَ؟ قال: ما صنعت؟ إنك لم تأتني بخبر، سألتُ رسول الله ﷺ، فعاب السائل، فقال عويمر: فوالله لآتين رسول الله ﷺ فلأسألنه، فسأله، فقال: إنه أُنزل فيك وفي صاحبك.. الحديث. أي فيمن وقع له مثل ما وقع لك.

قال الحافظ ابن حجر: اختلف الأئمة في هذه المواضيع، فمنهم من رجّح أنها نزلت في شأن عويمر، ومنهم من رجح أنها نزلت في شأن هلال، ومنهم

(١) هو عويمر بن زيد بن الجدّ بن العجلاني.

من جمع بينهما بأن أول من وقع له ذلك هلال، وصادف مجيء عويمر أيضاً، فنزلت في شأنهما. وإلى هذا جنح النووي، وتبعه الخطيب، فقال: لعلهما اتفق لهما ذلك في وقت واحد.

قال ابن حجر: لا مانع من تعدد الأسباب.

وقال القرطبي: والمشهور أن نازلة هلال كانت قبلُ، وأنها سبب الآية. وقيل: نازلة عُويمر بن أشقر كانت قبلُ؛ وهو حديث صحيح مشهور خرّجه الأئمة. قال السهيلي: وهو الصحيح. وقال الكلبي: والأظهر أن الذي وجد مع امرأته شَرِيكاً عُوَيْمِرٌ العَجْلاني؛ لكثرة ما رُوي أن النبي ﷺ لاعن بين العجلاني وامرأته.

والمهم أن جميع الروايات متفقة على ثلاثة أمور:

أولها: أن آيات اللعان نزلت بعد آية قذف المحصنات بتراخ عنها وأنها منفصلة عنها.

وثانيها: أنهم كانوا قبل نزول آيات اللعان يفهمون من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أنها تشمل الأجنبية والزوجة على السواء.

وثالثها: أن هذه الآية نزلت تخفيفاً على الزوج.

المناسبة:

بعد بيان حكم قذف النساء الأجنبيات غير الزوجات بالزنى، بيَّن الله تعالى حكم قذف الزوجات الذي هو في حكم الاستثناء من الآية المتقدمة، تخفيفاً عن الزوج؛ لأن العار يلحقه، ومن الصعب أن يجد بيِّنة، وفي تكليفه إحضار الشهود إحراج له، ويعذر بالغيرة على أهله، وأيضاً فإن الغالب أن الرجل لا يرمي زوجته بالزنى إلا صادقاً، بل ذلك أبغض إليه، وأكره شيء لديه.

التفسير والبيان:

فرّج الله تعالى بهذه الآية عن الأزواج وأوجد لهم المخرج إذا قذف أحدهم زوجته، وتعسَّر عليه إقامة البينة، وهو أن يحضرها إلى الحاكم، فيدعي عليها بما رماها به، فيلاعنها كما أمر الله عز وجل، بأن يحلفه الحاكم أربع شهادات بالله، في مقابلة أربعة شهداء، إنه لمن الصادقين فيما رماها به من الزنى، فقال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ - إلى قوله -: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ أي إن الأزواج الذين يقذفون زوجاتهم بالزنى، ولم يتمكنوا من إحضار أربعة شهود يشهدون بصحة قذفهم، وإنما كانوا هم الشهود فقط، فالواجب عليهم أن يشهد الواحد منهم أربع شهادات بالله إنه لصادق فيما رمى به زوجته من الزنى، والشهادة الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فيما اتهمها به. واللعن: الطرد من رحمة الله.

فإذا قال ذلك بانت منه بهذا اللعان نفسه عند جمهور العلماء غير الحنفية، وحرمت عليه أبداً، ويعطيها مهرها، ويسقط عنه حد القذف، وينفي الولد عنه إن وجد، ويتوجه عليها حد الزنى.

﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ﴾ - إلى قوله -: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي ويدفع عنها حد الزنى أن تحلف بالله أربعة أيمان: أن زوجها كاذب فيما رماها به من الفاحشة، والشهادة الخامسة أن غضب الله عليها إن كان زوجها صادقاً فيما يقول.

وسبب التفرقة بينهما بتخصيصه باللعنة، وتخصيصها بالغضب هو التغليظ عليها؛ لأنها سبب الفجور ومنبعه، بإطماعها الرجل في نفسها.

ثم بيّن الله تعالى ما تفضل به على عباده من الفضل والنعمة والرحمة بهذا

التشريع؛ إذ جعل اللعان للزوج طريقاً لتحقيق مراده. وللزوجة سبيلاً إلى درء العقوبة عن نفسها، فقال:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ أي ولولا ما خصكم الله به من مزيد فضله ونعمته وإحسانه ورحمته ولطفه ورأفته من تشريع مابه فرج ومخرج من الشدة والضيق، وتمكين من قبول التوبة، لوقعتم في الحرج والمشقة في كثير من أموركم، ولفضحكم وعاجلكم بالعقوبة، ولكنه ستر عليكم، وأنقذكم من الورطة باللعان، فمن صفاته الذاتية أنه كتب الرحمة على نفسه، وأنه التواب الذي يقبل التوبة عن عباده، وإن كان ذلك بعد الحلف والأيمان المغلظة، وأنه حكيم فيما يشرعه، ويأمر به، وينهى عنه، فإنه بالرغم من أن أحد الزوجين كاذب في يمينه، يدرأ عنه العقاب الدنيوي وهو الحد، ويستحق ماهو أشد منه وهو العقاب الأخروي. وعبر بقوله: ﴿حَكِيمٌ﴾ لا ﴿رَّحِيمٌ﴾ مع أن الرحمة تناسب التوبة؛ لأن الله أراد الستر على عباده بتشريع اللعان بين الزوجين.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على مشروعية حكم اللعان بين الزوجين، وكيفية اللعان، ولا بدّ من توضيح الأحكام التالية التي أصّلها الفقهاء بنحو جلي:

أ - آيات اللعان وآية القذف: جاء ذكر آيات اللعان بعد آية قذف المحصنات غير الزوجات، فرأى علماء الأصول من الحنفية أن آيات اللعان ناسخة لعموم آية القذف: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ لتراخي نزولها عنها، فيكون قذف الزوجة منسوخاً إلى بدل وهو اللعان.

وذهب الأئمة الآخرون إلى أن آيات اللعان مخصصة لعموم آية القذف، فتكون هذه الآية مختصة بالمحصنات غير الزوجات، وآيات اللعان خاصة بالزوجات، ويكون موجَب قذف المحصنة الحدّ فقط، ثم استثني من ذلك الزوجة، فيكون موجَب قذفها الحد أو اللعان.

٢ً - وحكمة اللعان: كما بينا التخفيف على الأزواج الذين لا يتيسر لهم إثبات زنى زوجاتهم بأربعة شهود.

٣ً - هل ألفاظ اللعان شهادات أم أيمان؟: يرى الحنفية أن ألفاظ اللعان شهادات؛ لظاهر الآيات التي ذكر فيها لفظ الشهادة خمس مرات وهي: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ أي ليس لهم بينة، ثم قال: ﴿فَشَهَـٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾ أي بينته المشروعة في حقه، ثم قال: ﴿أَرْبَعُ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ﴾ وهذه المواضع الثلاثة هي أخبار مؤكدة بالشهادة، ورتبوا على ذلك أنه يشترط في المتلاعنين أهلية الشهادة.

وذهب الجمهور إلى أن ألفاظ اللعان أيمان، لا شهادات؛ لأن قوله تعالى: ﴿أَرْبَعَ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ﴾ قسم أو أيمان مؤكدة بلفظ الشهادة، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٦٣/ ١] ثم قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦٣/ ٢] . وقال ﷺ: «لولا الأيمان لكان لي ولها شأن»[١]. ورتبوا على ذلك أنه لا يشترط في المتلاعنين إلا أهلية اليمين.

قال ابن العربي: والفيصل في أنها يمين لا شهادة أن الزوج يحلف لنفسه في إثبات دعواه وتخليصه من العذاب، وكيف يجوز لأحد أن يدّعي في الشريعة أن شاهداً يشهد لنفسه بما يوجب حكماً على غيره، هذا بعيد في الأصل، معدوم في النظر[٢].

والحكمة في تكرار الشهادات التغليظ والتشدد في أمر خطير يترتب عليه الحد والتشنيع وفسخ الزواج ونفي الولد إن وجد والتحريم المؤبد.

٤ً - شروط المتلاعنين: ترتب عند العلماء على الخلاف في ألفاظ اللعان:

(١) رواه أبو داود بإسناد لا بأس به.

(٢) أحكام القرآن: ٣/ ١٣٣٢

شهادات أو أيمان اختلافهم في أوصاف المتلاعنين أو شروطهم، فاشترط الحنفية والأوزاعي والثوري في الزوج الملاعن أن يكون أهلاً للشهادة على المسلم، وفي الزوجة أيضاً أن تكون أهلاً للشهادة على المسلم، وأن تكون ممن يحد قاذفها، فلا يصح اللعان إلا من زوجين حرين مسلمين؛ لأن اللعان عندهم شهادة، فلا لعان بين رقيقين، ولا بين كافرين، ولا بين المختلفين ديناً أو حرية ورقاً.

وأدلتهم قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ وأن كلمات اللعان من الزوج شهادات مؤكدات بأيمان، وهي بدل من الشهود، ولأن لعان الزوجة معارضة للعان الزوج. وأما كونها ممن يحد قاذفها؛ فلأن اللعان بدل عن الحد في قذف الأجنبية. وروى ابن عبد البر عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «لا لعان بين مملوكين ولا كافرين». وروى الدارقطني عن ابن عمرو أيضاً مرفوعاً: «أربعة ليس بينهم لعان: ليس بين الحرة والعبد لعان، وليس بين المسلم واليهودية لعان، وليس بين المسلم والنصرانية لعان».

وذهب الجمهور إلى أن اللعان يصح من كل زوجين: مسلمين أو كافرين، عدلين أو فاسقين، محدودين في قذف أو غير محدودين، حرين أو عبدين؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ ولأن النبي ﷺ سمى اللعان يميناً، فقال لما علم أن امرأة هلال بن أمية جاءت بولد شبيه بشريك بن سحماء: «لولا الأيمان لكان لي ولها شأن».

٥ - وترتب على الخلاف السابق أيضاً الاختلاف في ملاعنة الأخرس، فقال الجمهور: يلاعن؛ لأنه ممن يصح طلاقه وظِهاره وإيلاؤه، إذا فُهم ذلك عنه. وقال أبو حنيفة: لا يلاعن؛ لأنه ليس من أهل الشهادة.

٦ - إذا قذف الرجل زوجته بعد الطلاق، فإن كان هنالك نسب يريد أن ينفيه أو حَمْل يتبرأ منه، لاعن، وإلا لم يلاعن.

ولا ملاعنة بين الرجل وزوجته بعد انقضاء العدة إلا في حالة واحدة، وهي أن يكون الرجل غائباً، فتأتي امرأته بولد في مغيبه، وهو لا يعلم، فيطلّقها فتنقضي عدتها، ثم يَقْدَم فينفيه، فله أن يلاعنها بعد العدة، ولو بعد وفاتها، ويرثها؛ لأنها ماتت قبل وقوع الفرقة بينهما. ولو مات الزوج قبل اللعان ترث عند الحنفية.

وإذا كانت المرأة حاملاً لاعن عند الجمهور قبل الوضع، لأن النبي ﷺ لاعن قبل الوضع، وقال: «إن جاءت به كذا فهو لأبيه، وإن جاءت به كذا فهو لفلان». وقال أبو حنيفة: لا يلاعن إلا بعد أن تضع، لاحتمال كون الانتفاخ بسبب ريح أو داء.

وإذا قذف بالوطء في الدبر لزوجه لاعن عند الجمهور؛ لأنه دخل تحت عموم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ وقال أبو حنيفة: لا يلاعن؛ لأن فعل قوم لوط عنده لا يوجب الحد.

٧ً - إذا قذف زوجته ثم زنت وثبت الزنى قبل التعانه، فلا حدّ على القاذف ولا لعان في رأي أكثر أهل العلم، لظهور أمر قبل استيفاء الحد واللعان يمنع وجوب الحد وصحة اللعان. وقال الثوري والمزني: لا يسقط الحدّ عن القاذف؛ لأن المقذوف كان محصناً في حال القذف، ويعتبر الإحصان والعفة حال القذف لا بعده.

ومن قذف امرأته وهي كبيرة لا تحمل تلاعنا، فالزوج يلاعن لدفع الحد عنه، والزوجة لدرء العقاب وهو حد الزنى. فإن كانت صغيرة لا تحمل لاعن هو لدرء الحد، ولم تلاعن هي؛ لأنها لو أقرت لم يلزمها شيء.

٨ً - إذا شهد أربعة على امرأة بالزنى، أحدهم زوجها، فإن الزوج في رأي المالكية يلاعن وتُحدّ الشهود الثلاثة إذ لا يصح أن يكون أحد الشهود. وقال أبو حنيفة: إذا شهد الزوج والثلاثة، قبلت شهادتهم، وحدّت المرأة.

٩ً - إذا أبى الزوج اللعان، فلا حدّ عليه عند أبي حنيفة، ويسجن أبداً حتى يلاعن؛ لأن الحدود لا تؤخر. وقال الجمهور: إن لم يلاعن الزوج حُدّ؛ لأن اللعان له براءة كالشهود للأجنبي، فإن لم يأت الأجنبي بأربعة شهود حدّ، فكذلك الزوج إن لم يلاعن.

وإذا امتنعت الزوجة من اللعان ترجم في رأي الجمهور. ولا ترجم عند الحنفية.

١٠ً - كيفية اللعان: بعد نزول آيات اللعان أمر رسول الله ﷺ بدعوة عويمر العجلاني وزوجته وشريك بن سحماء، وقال لعويمر: اتق الله في زوجتك وابن عمك ولا تقذفها، فقال: يا رسول الله، أقسم بالله، إني رأيت شريكاً على بطنها، وإني ما قربتها منذ أربعة أشهر، وإنها حبلى من غيري.

فقال لها النبي ﷺ: اتقي الله ولا تخبري إلا بما صنعتِ، فقالت: يا رسول الله، إن عويمراً رجل غيور، وإنه رأى شريكاً يطيل النظر إلي، ويتحدث، فحملته الغَيْرَة على ما قال.

فنودي «الصلاة جامعة» فصلى العصر، ثم قال لعويمر: قم وقل: أشهد بالله، إن خولة لزانية، وإني لمن الصادقين، ثم قال: قل: أشهد بالله، إني رأيت شريكاً على بطنها، وإني لمن الصادقين، ثم قال: قل: أشهد بالله، إنها حبلى من غيري، وإني من الصادقين، ثم قال: قل: أشهد بالله، إنها زانية، وإني ما قربتها منذ أربعة شهور، وإني لمن الصادقين، ثم قال: قل: لعنة الله على عويمر (أي نفسه) إن كان من الكاذبين فيما قال، ثم قال: اقعد.

وقال لخولة: قومي، فقامت، وقالت: أشهد بالله، ما أنا بزانية، وإن عويمراً زوجي لمن الكاذبين، وقالت في الثانية: أشهد بالله ما رأى شريكاً على بطني، وإنه لمن الكاذبين، وقالت في الثالثة: إني حبلى منه، وقالت في الرابعة: أشهد بالله، إنه ما رآني على فاحشة قط، وإنه لمن الكاذبين، وقالت في

الخامسة: غضب الله على خولة إن كان عويمر من الصادقين في قوله، ففرَّق رسول الله ﷺ بينهما.

وفي رواية أخرى لابن عباس عند الإمام أحمد: «فلما كانت الخامسة، قيل له: يا هلال اتق الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه المُوجِبة التي توجب عليك العذاب، فقال: والله لا يعذبني الله عليها، كما لم يجلدني عليها، فشهد في الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين.

ثم قيل للمرأة: اشهدي أربع شهادات بالله، إنه لمن الكاذبين، وقيل لها عند الخامسة: اتقي الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب، فتلكأت ساعة، وهمت بالاعتراف، ثم قالت: والله لا أفضح قومي، فشهدت في الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين.

ففرَّق رسول الله ﷺ بينهما، وقضى ألا يدعى ولدها لأب، ولا يرمى ولدها، ومن رماها أو رمى ولدها، فعليه الحد، وقضى ألا بيت لها عليه، ولا قوت لها، من أجل أنهما يفترقان من غير طلاق ولا متوفى عنها.

وقال: «إن جاءت به أصيهب أريشح حمش الساقين، فهو لهلال، وإن جاءت به أورق جَعْداً جمالياً، خدلج الساقين، سابغ الأليتين، فهو الذي رميت به» فجاءت به على النعت المكروه، فقال رسول الله ﷺ: «لولا الأيمان لكان لي ولها شأن».

يفهم من الآية وهذه الحادثة كيفية اللعان، وهو أن يقول الحاكم للملاعن: قل أربع مرات: أشهد بالله، إني لمن الصادقين، وفي المرة الخامسة، قل: لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين.

وتشهد المرأة أربع مرات: أشهد بالله إنه لمن الكاذبين، وفي المرة الخامسة تقول: غضب الله عليها إن كان من الصادقين.

ويكتفى بدلالة الحال والقرائن عن ذكر متعلق الصدق والكذب، أي فيما رماها به من الزنى ونفي الولد، وفيما اتهمها به.

ولا بد من الحلف خمس مرات من كل منهما، ولا يقبل من الزوج إبدال اللعنة بالغضب، ولا يقبل من الزوجة إبدال الغضب باللعنة.

وظاهر الآية وهو مذهب الجمهور البداءة في اللعان بما بدأ الله به، وهو الزوج، وفائدته درء الحد عنه، ونفي النسب منه؛ لقوله ﷺ: «البينة وإلا حدّ في ظهرك» ولو بُدئ بالمرأة قبله لم يجز؛ لأنه عكس ما رتبه الله تعالى. وقال أبو حنيفة: يجزئ إن بدأت هي بلعانها. وسبب الخلاف: أن الجمهور يرون أن لعان الزوج موجب للحد على الزوجة، ولعانها يسقط ذلك الحد، فكان من المعقول أن يكون لعانها متأخراً عن لعانه. وأبو حنيفة لا يرى لعان الزوج موجباً لشيء قبلها، فلا حاجة لأن يتأخر لعانها عن لعانه.

وإذا كانت المرأة حاملاً، وأراد الزوج نفي الحمل عنه قال: وأن هذا الحمل ليس مني، وهذا رأي الجمهور، وقال أبو حنيفة: لا لعان لنفي الحمل، وينتظر حتى تضع، فيلاعن لنفيه.

وإذا كان هناك ولد يريد الزوج نفيه عنه، تعرض له في اللعان.

ويقام الرجل حتى يشهد والمرأة قاعدة، وتقام المرأة والرجل قاعد حتى تشهد. ويعظهما القاضي أو نائبه عند ابتداء اللعان وقبل الخامسة من الشهادات، بأن يذكرهما ويخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا. ويحضر اللعان جمع من عدول المسلمين.

١١ - آثار اللعان وما يترتب عليه: يترتب على اللعان:

أولاً - إسقاط حد القذف عن الزوج، وإيجاب حد الزنى على الزوجة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾ والشهادة من الأجنبي تسقط حد القذف

عن القاذف، وتوجب حد الزنى على المقذوف، والله تعالى أقام شهادة الزوج مقام شهادة الأجنبي. ثم قال تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ والمراد منه عذاب الدنيا؛ لأن (أل) للعهد المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا﴾ أي عذاب حد الزنى، ولا يصح أن يراد منه عذاب الآخرة؛ لأن لعان الزوجة إن كانت كاذبة لا يزيدها إلا عذاباً في الآخرة، وإن كانت صادقة فلا عذاب عليها في الآخرة حتى يدرأه اللعان، فتعين أن يراد به عذاب الدنيا. ويؤيده قوله ﷺ لخولة بنت قيس: «الرجم أهون عليك من غضب الله» فقد فسر ﷺ العذاب المدروء عنها بالرجم.

وأصرح من ذلك قوله لخولة قبل الشهادة الخامسة: «عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة» أي الحد، لا الحبس. وهذا قول الجمهور.

وقال أبو حنيفة رحمه الله: آيات اللعان نسخت الحد عن قاذف زوجته، ولكن لعانه لا يوجب حد الزنى على الزوجة؛ لأن حد الزنى لا يثبت إلا بأربعة شهود، أو بالإقرار أربع مرات.

ويترتب على هذا الخلاف: حكم الممتنع عن اللعان من الزوجين، فعلى رأي الجمهور كما تقدم: إن امتنع الزوج من اللعان يحد؛ لأن اللعان رخصة له، فلما أبى أن يلاعن، فقد أضاع على نفسه هذه الرخصة، فصار حكمه وحكم غير الزوج سواء. وإن امتنعت الزوجة يقام عليها حد الزنى وهو الرجم إن كانت محصنة.

وعلى رأي الحنفية: إذا امتنع الزوج من اللعان، حبس حتى يلاعن، كما بينا؛ لأن اللعان حق توجه عليه، يستوفيه الحاكم منه بالقهر والتعزير، فيكون له حبسه حتى يلاعن أو يكذب نفسه في القذف، فيقام عليه حده. ورأي الجمهور هو الصواب عملاً بظاهر الآية.

ثانياً - يترتب على اللعان أيضاً نفي الولد، كما ثبت في حادثة هلال بن أمية.

ثالثاً - الفرقة بين المتلاعنين: قال مالك وأحمد: بتمام اللعان تقع الفرقة بين الزوجين المتلاعنين، فلا يجتمعان أبداً ولا يتوارثان، ولا يحل له مراجعتها أبداً لا قبل الزواج من زوج آخر ولا بعده، كما ثبت في السنة الصحيحة، روى الدارقطني عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «المتلاعنان لا يجتمعان أبداً».

ورأى الشافعي أن الفرقة تحصل بمجرد لعان الزوج؛ لأنها فرقة بالقول، فيستقل بها قول الزوج وحده كالطلاق، ولا تأثير للعان الزوج إلا في دفع العذاب (حد الزنى) عن نفسها. واتفق الشافعي ومالك وأحمد على وقوع التحريم المؤبد بين المتلاعنين. وهذا هو الظاهر من الآيات.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا تقع الفرقة باللعان حتى يفرق الحاكم بينهما لقول ابن عمر وابن عباس: «فرّق رسول الله ﷺ بين المتلاعنين» فأضاف الفرقة إليه، وقال ﷺ: «لا سبيل لك عليها». وإن أكذب الزوج نفسه فهو خاطب من الخطاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٤/٣] وقوله سبحانه: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٤/ ٢٤] .

١٢- ما يحتاج إليه اللعان: يحتاج اللعان إلى أربعة أشياء:

الأول - عدد الألفاظ وهو أربع شهادات، كما تقدم.

الثاني - المكان: وهو أن يقصد به أشرف البقاع بالبلدان: إن كان بمكة فعند الركن والمقام، وإن كان بالمدينة فعند المنبر، وإن كان ببيت المقدس فعند الصخرة، وإن كان في سائر البلدان ففي مساجدها.

الثالث - الوقت: وذلك بعد صلاة العصر.

الرابع - جمع الناس: بأن يكون هناك أربعة أنفس فصاعداً. فاللفظ وجمع الناس مشروطان، والزمان والمكان مستحبان.

١٣ً - إذا قذف الرجل مع زوجته أجنبياً: فقال أبو حنيفة ومالك: لكل منهما حكمه، فيلاعن للزوجة ويحد للأجنبي.

وقال أحمد: عليه حد واحد لهما، ويسقط هذا الحد بلعانه، سواء ذكر المقذوف في لعانه أم لا.

وقال الشافعي: إن ذكر المقذوف في لعانه، سقط الحدّ له، كما يسقط للزوجة، وإن لم يذكره في لعانه حدّ له.

ودليل أحمد والشافعي أنه ﷺ لم يحد هلال بن أمية لشريك بن سحماء، وقد سماه صريحاً، وأن الزوج مضطر إلى قذف الزاني.

١٤ً - استدل بمشروعية اللعان على جواز الدعاء باللعن على كاذب معين، لقول الزوج: «لعنة الله عليه» مما يدل على جواز لعن الشخص المقطوع بكذبه.

واستدل بمشروعية اللعان على إبطال قول الخوارج: إن الزنى والكذب في القذف كفر؛ لأن الزوج إن كان صادقاً فزوجته زانية، وإن لم يكن صادقاً كان كاذباً في قذفه، فأحدهما لا محالة كافر مرتد، والردة توجب الفرقة بينهما من غير لعان.

١٥ً - قال العلماء: لا يحل للرجل قذف زوجته إلا إذا علم زناها أو ظنه ظناً مؤكداً، والأولى به تطليقها، ستراً عليها، ما لم يترتب على فراقها مفسدة. فإن أتت بولد علم أنه ليس منه، وجب عليه نفيه، وإلا كان بسكوته مستلحقاً ما ليس منه، وهو حرام، كما يحرم عليه نفي من هو منه. وإنما يعلم أن الولد ليس منه إذا لم يطأها أصلاً، أو وطئها وأتت به لدون ستة أشهر من الوطء، فإن أتت به لستة أشهر فأكثر، فإن لم يستبرئها بحيضة حرم النفي، وإن استبرأها بحيضة، حلّ النفي، على رأي القائلين بأن الحامل لا تحيض[1].

(١) انظر مذكرات تفسيرات الأحكام للأستاذ المرحوم محمد علي السايس: ٣/ ١٣٣ - ١٤٤

الحكم الخامس

قصة الإفك

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٌ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٌ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

القراءات:

﴿لَا تَحۡسَبُوهُ﴾، ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ﴾:

قرئ:

١- (لا تَحْسَبُوه وتحسَبونه)، وهي قراءة ابن عامر، وعاصم، وحمزة.

٢- (ولا تَحسِبوه وتَحسِبونه)، وهي قراءة الباقين.

﴿رَءُوفٌ﴾:

وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وخلف: (رَؤُف).

﴿خُطُوَٰتِ﴾: قرئ:

١- (خُطُوات) وهي قراءة قنبل، وحفص، وابن عامر، والكسائي.

٢- (خُطْوات) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ ﴿عُصْبَةٌ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ ويجوز أن ينصب، ويكون خبر ﴿إِنَّ﴾: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍ مِّنْهُم﴾.

البلاغة:

﴿لَّوْلَآ﴾ في المواضع المختلفة، أي هلا للحض بقصد التوبيخ على التقصير والتسرع في الاتهام.

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ طباق بين الشر والخير.

﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ طباق بين الهيِّن والعظيم.

﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الأصل أن يقال: ظننتم، لكن استعمل بطريق الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، مبالغة في التوبيخ، ولفت نظر إلى أن الإيمان يقتضي حسن الظن.

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ معناه تنزيه الله تعالى عند رؤية عجائب صنعه، للإشارة إلى أن مثل ذلك لا يخرج عن قدرته، ثم استعمل في كل متعجب منه.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فيه تهييج وتقريع. ﴿لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ استعارة، شبه سلوك طريق الشيطان بمن يتبع خطوات غيره خطوة خطوة.

﴿أَن يُؤْتُوٓا۟﴾ فيه إيجاز بالحذف، أي ألا يؤتوا، حذفت منه (لا) لدلالة المعنى.

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ المراد أبو بكر الصدّيق، وخاطبه بصيغة الجمع للتعظيم.

المفردات اللغوية:

﴿بِٱلْإِفْكِ﴾ أبلغ الكذب وأسوأ الافتراء على عائشة رضي الله عنها أم المؤمنين بقذفها. ﴿عُصْبَةٌ﴾ جماعة، وكثر إطلاقها على العشرة إلى الأربعين، وهم عبد الله بن أُبي، وزيد بن رفاعة، وحسان بن ثابت، ومِسْطَح بن أثاثة، وحَمْنة بنت جحش أخت زينب أم المؤمنين وزوجة طلحة بن عبيد الله، ومن ساعدهم. ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ لا تظنوه شراً أيها المؤمنون غير العصبة، وهو خطاب مستأنف، والشر: ما غلب ضرره على نفعه. ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يأجركم الله به، ويظهر براءة عائشة وكرامتكم على الله، بإنزال ثماني عشرة آية[١] في براءتكم، وتعظيم شأنكم، وتهويل الوعيد لمن أساء الظن بكم، كما ذكر البيضاوي.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي لكلٍّ جزاء ما اكتسب بقدر ما خاض فيه من السوء، مختصاً به. ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي تولى معظمه من الخائضين، وهو عبد الله بن أُبي، فإنه بدأ به وأذاعه عداوة لرسول الله ﷺ.

---

(١) الظاهر أن هذه الآيات هي (١١ - ٢٨) المختتمة بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾. والأصح ما رواه الطبراني عن الحكم بن عتبة أن الله أنزل فيها خمس عشرة آية، أي إلى الآية (٢٦).

﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة، أو في الدنيا، بأن جلدوا، وصار ابن أُبي مطروداً مشهوراً بالنفاق، وحسان أعمى وأشل اليدين، ومسطح مكفوف البصر. ﴿لَّوْلَآ﴾ هلا. ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ ظن بعضهم ببعض. ﴿إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ كذب بيِّن واضح، وفيه التفات أي ظننتم أيها العصبة وقلتم ﴿لَّوْلَآ﴾ هلا، للحث على فعل ما بعدها. ﴿جَآءُو﴾ العصبة. ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ شاهدوه. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ في حكمه.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ لولا هنا لامتناع الشيء لوجود غيره، أي لولا فضل الله عليكم في الدنيا بأنواع النعم التي من جملتها الإمهال للتوبة، ورحمته في الآخرة بالعفو والمغفرة، المقرران لكم. ﴿لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ لمسَّكم عاجلاً أيها العصبة فيما خضتم فيه ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة، يستحقر دونه اللوم والجلد.

﴿إِذْ﴾ ظرف ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أو ﴿أَفَضْتُمْ﴾. ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي يرويه بعضكم عن بعض، وأصله: تتلقونه، وهو بمعنى تتلقفونه، فحذف منه إحدى التاءين. ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ تظنونه أمراً يسيراً لا إثم فيه، أو لا تبعة فيه. ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ أي وهو في حكم الله عظيم في الوزر والإثم، والمعنى: هذه ثلاثة آثام مترتبة، عُلِّق بها استحقاق العذاب العظيم وهي تلقي الإفك بألسنتهم، والتحدث به من غير تحقق، واستصغارهم شأنه، وهو عظيم عند الله وفي حكمه.

﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ﴾ ما ينبغي لنا وما يصح. ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تعجب ممن يقول ذلك، وأصله أن يذكر عند كل متعجب، تنزيهاً لله تعالى من أن يصعب عليه مثله، ثم كثر استعماله في كل متعجب. ﴿بُهْتَٰنٌ﴾ كذب مختلق يبهت السامع، لعدم علمه به. ﴿يَعِظُكُمُ﴾ ينصحكم وينهاكم. ﴿أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ﴾ كراهة أن تعودوا لمثله، أو في أن تعودوا لمثله. ﴿أَبَدًا﴾ ما دمتم أحياء مكلفين. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فتتعظون بذلك، فإن الإيمان يمنع عنه.

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي يوضح لكم الآيات الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب كي تتعظوا وتتأدبوا .﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالأحوال كلها، وبما يأمر به وينهى عنه .﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره.

﴿يُحِبُّونَ﴾ يريدون أي العصبة .﴿أَن تَشِيعَ﴾ أن تنتشر وتظهر .﴿ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ الفعل القبيح المفرط القبح، وهو الزنى .﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ مؤلم وهو حد القذف .﴿وَٱلْأَخِرَةِ﴾ بدخول النار أو السعير، رعاية لحق الله تعالى .﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما في الضمائر، ويعلم انتفاء الفاحشة عن المؤمنين .﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أنتم أيها العصبة بما قلتم من الإفك لا تعلمون وجودها فيهم.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ تكرار لبيان المنة بترك تعجيل العقاب، للدلالة على عظم الجريمة .﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ بكم، وجواب لولا محذوف تقديره: لعاجلكم بالعقوبة .﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي طرق تزيينه ونزغاته ووساوسه، بإشاعة الفاحشة .﴿فَإِنَّهُۥ﴾ أي المتّبع .﴿يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي القبيح المفرط في القبح .﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ ما تنكره النفوس وتنفر منه وينكره الشرع. وهو بيان لعلة النهي عن اتباعه.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بالتوفيق إلى التوبة الماحية للذنوب وشرع الحدود المكفرة لها .﴿مَا زَكَىٰ﴾ ما طهر من دنس الذنوب .﴿مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أيها العصبة بما قلتم من الإفك .﴿أَبَدًا﴾آخر الدهر، أي ما طهّر من هذا الذنب بالتوبة أحداً مطلقاً .﴿يُزَكِّي﴾ يطهر من الذنب .﴿مَن يَشَآءُ﴾ بقبول توبته منه. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمقالتهم .﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم.

﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ لا يحلف، من الألية وهي الحلف .﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ في الدين .﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ في المال أي أصحاب الغنى والثراء، وفيه دليل على فضل أبي بكر رضي الله عنه وشرفه .﴿أَن يُؤْتُوٓاْ﴾ على ألا يؤتوا .﴿وَلْيَعْفُواْ﴾ لما فرط منهم أي يمحوا الذنوب .﴿وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ بالإغضاء عنه .﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ

لَكُمْ﴾ على عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم .﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مع كمال قدرته، فتخلقوا بأخلاقه.

سبب النزول أو قصة الإفك في السنة النبوية الصحيحة:

روى الأئمة منهم أحمد، والبخاري تعليقاً، ومسلم عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت[١]:

كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج لسفر، أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها، خرج بها رسول الله ﷺ معه، فأقرع بيننا في غزوة غزاها[٢]، فخرج فيها سهمي (نصيبي) وخرجت مع رسول الله ﷺ، وذلك بعدما نزل الحجاب، فأنا أُحمل في هَوْدَجي وأنزل فيه، فسرنا، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك، وقَفَل، ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذن بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني، أقبلت إلى رَحْلي، فلمست صدري، فإذا عِقْد لي من جَزْع ظَفَار[٣] قد انقطع.

فرجعت فالتمست عِقْدي فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرَّهْط الذين كانوا يُرحِّلونني، فاحتملوا هودجي، فرحلوه على البعير الذي كنت أركب، وهم يحسبون أني فيه.

وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن، ولم يَغْشَهن اللحم، إنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل، وساروا، ووجدت عِقْدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم، وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدونني، فيرجعون إلي.

(١) تفسير ابن كثير: ٢٦٨/٣ وما بعدها.

(٢) هي غزوة بني المُصْطَلِق، وهي غزوة المُرَيْسِيع.

(٣) الجزع: خرز معروف في سواده بياض كالعروق، وظفار: مدينة باليمن.

فبينا أنا جالسة في منزلي، غلبتني عيناي فنمت، وكان صفوان بن المُعَطَّل السُّلَمي ثم الذَّكْواني قد عَرَّس[١] من وراء الجيش، فأدلج[٢]، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني، فعرفني حين رآني، وقد كان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه[٣] حين عرفني، فخمَّرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته، فوطئ على يدها، فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا في نَحْر الظَّهيرة[٤].

فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كِبْرَه عبد الله بن أُبي بن سلول.

فقدمنا المدينة، فاشتكيت[٥] حين قدمناها شهراً، والناس يُفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني[٦] في وجعي أني لا أرى من رسول الله ﷺ اللطف الذي أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيُسلِّم ثم يقول: «كيف تيكم؟» - تي: إشارة إلى المؤنث - فذلك الذي يريبني، ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نَقِهت[٧]، وخرجت معي أم مِسْطَح قِبَل (المناصع) وهو متبرزنا، ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكُنُف[٨] قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه في البرية، وكنا نتأذى بالكنُف أن نتخذها في بيوتنا.

---

(١) التعريس: نزول القوم في السفر من آخر الليل للاستراحة في بقعة، ثم يرتحلون.
(٢) أدلج: سار من أول الليل.
(٣) الاسترجاع: أن يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.
(٤) وسط النهار عند الظهر أي وقت الظهيرة.
(٥) اشتكى عضواً من أعضائه: مرض وأحس بألم فيه.
(٦) يريبني: يوقعني في الريبة والشك.
(٧) نقِه من المرض: صحّ.
(٨) المتبرز: موضع التبرز، والكُنُف: جمع كنيف: المكان المخصص لقضاء الحاجة.

فانطلقت أنا وأم مِسْطَح - وهي بنت أبي رُهْم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر الصدّيق، وابنها مِسْطَح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب - فأقبلت أنا وابنة أبي رُهْم أم مِسْطَح قِبَل بيتي، حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مِسْطَح في مِرْطها[١]، فقالت: تعس مِسْطَح، فقلت لها: بئسما قلتِ، تسبّين رجلاً شهد بدراً؟

فقالت: أيْ هَنَتَاهُ[٢]، ألم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددتُ مرضاً إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي، دخل علي رسول الله ﷺ، فسلَّم، ثم قال: «كيف تيكم؟» فقلت له:

أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قال: نعم، قالت: وأنا حينئذٍ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ، فجئت أبوي، فقلت لأمي: يا أمتاه، لماذا يتحدث الناس به؟ فقالت: أي بُنية، هوِّني عليك، فوالله لقلَّما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبّها، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها.

قالت: فقلت: سبحان الله! وقد تحدث الناس بها؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي.

قالت: فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي، يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد، فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود، فقال أسامة: يا رسول الله، أهلك، ولا نعلم إلا خيراً. وأما علي بن أبي طالب، فقال: يا رسول الله، لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك الخبر.

---

(١) المِرْط: واحد المُرُوط: وهي أكسية من صُوف أو خزّ كان يؤتزر بها.

(٢) هنتاه: الهنة: هي الشيء الذي يستقبح، والمراد هنا الندبة المشوبة بالتعجب من الفعلة القبيحة لمسطح.

قالت: فدعا رسول الله ﷺ بَريرة فقال: «هل رأيتِ من شيء يريبك من عائشة؟» فقالت له بريرة: والذي بعثك بالحق، إنْ - أي ما - رأيت منها أمراً قطّ أغْمَصه[1] عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الدواجن فتأكله.

فقام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول، فقال وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي - يعني عبد الله بن أبي - فوالله ما علمتُ على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي».

فقام سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه، فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج، أمرتنا، ففعلنا أمرك.

فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد بن معاذ: كذبتَ، لعَمْرُ الله، لا تقتله، ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببتَ أن يُقتل.

فقام أُسيد بن حُضَير، وهو ابن عم سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة، كذبتَ، لعَمْرُ الله لنقتلنّه، فإنك منافق تجادل عن المنافق، فتثاور الحيان: الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ على المنبر، فلم يزل يخفِّضهم حتى سكتوا، وسكت رسول الله ﷺ.

قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي، فبينما هما جالسان عندي، وأنا أبكي إذ

(١) غمصه: استصغره ولم يره شيئاً.

استأذنتْ علي امرأة من الأنصار، فأذنتُ لها، فجلست تبكي معي، فبينا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ، فسلَّم ثم جلس، ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء.

فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «أما بعد، يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنتِ بريئة فسيبرئك الله، وإن كنتِ ألممت بذنب، فاستغفري الله، وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه، وتاب، تاب الله عليه».

فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، قَلَص دمعي، حتى ما أُحُسُّ منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله، فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ، فقالت: والله، ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت - وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ كثيراً من القرآن -: والله لقد علمتُ، لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم، وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة - والله يعلم أني بريئة - لا تصدقونني، ولئن اعترفت بأمر، والله يعلم أني بريئة، لتصدِّقُنِّي، إني والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٢/١٨].

ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، وأنا - والله أعلم حينئذٍ أني بريئة - وأن الله تعالى مبرئي ببراءتي، ولكن والله، ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها.

فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد، حتى أنزل الله تعالى على نبيه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء[1] عند الوحي، حتى إنه ليتحدَّر منه مثل الجُمَان من العَرَق، وهو في يوم شاتٍ، من ثقل القول الذي أنزل عليه.

---

(١) البُرَحاء: الشدة والانتفاضة من الجهد أو الألم.

فسُرِّي عن رسول الله ﷺ، وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: «أبشري يا عائشة، أمّا الله عزّ وجلّ فقد برّأك» فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله عزّ وجلّ، هو الذي أنزل براءتي، وأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ الآيات العشر كلها.

فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر رضي الله عنه، وكان ينفق على مِسْطَح بن أثاثة، لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ - إلى قوله - ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فقال أبو بكر: بلى والله، إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ عن أمري، فقال: «يا زينب ماذا علمتِ أو رأيتِ؟» فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً. قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ، فعصمها الله تعالى بالورع، وطفقت أختها حَمْنة بنت جحش تحارب لها، فهلكت فيمن هلك.

وكان مسروق إذا حدَّث عن عائشة يقول: حدثتني الصدِّيقة بنت الصدِّيق حبيبة رسول الله ﷺ، المبرأة من السماء.

المناسبة:

بعد بيان حكم قذف النساء الأجنبيات غير المحارم، وحكم قذف الزوجات، أبان الله تعالى في هذه الآيات العشر براءة عائشة أم المؤمنين مما رماها به أهل الإفك من المنافقين، وذكر فيها جملة من الآداب التي كان يلزمهم الإتيان بها، والزواجر التي كان ينبغي عدم التعرض لها، وهي تسعة كما سيأتي بيانه.

التفسير والبيان:

هذه الآيات العشر التي برأ الله فيها عائشة رضي الله عنها مما رماها به أهل الإفك والبهتان من المنافقين، غيرة من الله تعالى لها، وصوناً لعرض نبيه ﷺ، فقال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ أي إن الذين أتوا بالإفك وهو أبلغ الكذب والافتراء جماعة منكم، لا واحد ولا اثنان، أي ما أفك به على عائشة، بزعامة زعيم المنافقين عبد الله بن أبي، فإنه هو الذي اختلق هذا الكذب، وتواطأ مع جماعة صغيرة، فأصبحوا يروجونه ويذيعونه بين الناس، حتى دخل في أذهان بعض المسلمين، فتكلموا به، وبقي شيوع الخبر قريباً من شهر، حتى نزل القرآن. وفي التعبير بعصبة إشارة إلى أنهم فئة قليلة. وقوله تعالى: ﴿مِّنكُمْ﴾ أي منكم أيها المؤمنون؛ لأن عبد الله كان من جملة من حكم له بالإيمان ظاهراً.

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي لا تظنوا - يا آل أبي بكر وكل من تأذى بذلك الكذب واغتم، بدليل قوله تعالى ﴿مِّنكُمْ﴾ - أن ذلك هو شر لكم وإساءة إليكم، بل هو خير لكم في الدنيا والآخرة، لاكتسابكم به الثواب العظيم، وإظهار عناية الله بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم، يتلى إلى يوم القيامة، وتهويل الوعيد لمن تكلم في حقكم.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ لكل واحد تكلم في هذه القضية ورمى أم المؤمنين عائشة بالفاحشة نصيب من عذاب عظيم بقدر ما خاض فيه، أو عقاب ما اكتسب.

﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي والذي تحمل معظم ذلك الإثم منهم، وهو في رأي الأكثرين عبد الله بن أبي، له عذاب عظيم في الدنيا

والآخرة، فإنه أول من اختلق هذا الخبر، أو إنه كان يجمعه ويستوشيه ويذيعه ويشيعه، فمعظم الشر كان منه، أما عذابه في الدنيا فبإظهار نفاقه ونبذه من المجتمع، وأما في الآخرة فهو في الدرك الأسفل من النار.

وقيل: بل المراد به حسان بن ثابت، قال ابن كثير: وهو قول غريب، ولولا أنه وقع في صحيح البخاري ما قد يدل على إيراد ذلك، لما كان لإيراده كبير فائدة، فإنه من الصحابة الذين لهم فضائل ومناقب ومآثر، وأحسن مآثره أنه كان يذب عن رسول الله ﷺ بشعره، وهو الذي قال له رسول الله ﷺ: «هاجهم وجبريل معك»[1].

ثم أدب الله تعالى المؤمنين الذين خاض بعضهم في ذلك الكلام السوء في قصة عائشة رضي الله عنها، وزجرهم بتسعة أمور:

أ - ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ أي هلا حين سمعتم كلام الأفاكين في عائشة ظننتم بها خيراً، عملاً بمقتضى الإيمان الذي يحمل على حسن الظن، وقلتم صراحة معلنين البراءة: هذا إفك مبين، أي كذب مختلق واضح مكشوف على أم المؤمنين رضي الله عنها؛ فإن الذي وقع لم يكن ريبة، لمجيئها راكبة على راحلة صفوان ابن المعطَّل في وقت الظهيرة، والجيش بكامله يشاهدون ذلك، ورسول الله ﷺ معهم يكشف كل سوء وينفي كل شك، ولو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جهرة، بل كان يحدث - لو قُدِّر - خفية مستوراً.

وهذا أدب جم، وفي التصريح بلفظ الإيمان دلالة على أن المؤمن لا يظن بالمسلمين إلا خيراً.

٢ - ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٧٢

﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي هلا جاؤوا على ما قالوه بشهود أربعة يشهدون على ثبوت ما جاؤوا به، وصحة ما قالوا، ومعاينتهم ما رموها به، فحين لم يأتوا بالشهود لإثبات التهمة، فأولئك في حكم الله كاذبون فاجرون. وهذا من الزواجر.

٣ - ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ أي ولولا تفضل الله عليكم في الدنيا بأنواع النعم التي منها الإمهال للتوبة، ورحمته بكم في الآخرة بالعفو والمغفرة، لعجلت بكم العقاب على ما خضتم فيه من حديث الإفك. وهذا من الزواجر أيضاً. و﴿وَلَوْلَا﴾ هنا لامتناع الشيء لوجود غيره.

٤ - ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ أي لولا تفضل الله عليكم ورحمته لمسّكم العذاب حين تلقيكم أي تلقفكم بألسنتكم حديث الإفك وسؤال بعضكم عنه، وإكثار الكلام فيه، وقولكم ما لا تعلمون، وظنكم ذلك يسيراً سهلاً، وهو في شرع الله وحكمه أمر خطير عظيم، من عظائم الأمور وكبائرها، لما فيه من تدنيس بيت النبوة بأقبح الفواحش. ورد في الصحيحين: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يدري ما تبلغ، يهوي بها في النار أبعد مما بين السماء والأرض» وفي رواية: «لا يلقي لها بالاً».

وهذا أيضاً من الزواجر، فقد وصفهم الله بارتكاب ثلاثة آثام، وعلّق مسّ العذاب العظيم بها، وهي:

الأول - تلقي الإفك بألسنتهم، أي الاهتمام بالسؤال عنه وبإشاعته، لا مجرد السماع عفواً، وإنما يأخذه بعضهم من بعض، ويذيعه.

الثاني - التكلم بما لا علم لهم به ولا دليل عليه، وهذا منهي عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦/١٧] ، وهو شبيه بقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧/٣] .

الثالث - استصغار ذلك، وهو عند الله تعالى عظيم الإثم، موجب لشديد العقاب.

وهذا يدل على أمور ثلاثة: هي أن القذف من الكبائر، لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ وأن عظم المعصية لا يختلف بظن فاعلها، وإنما بالواقع، فربما كان جاهلاً لعظمها، لقوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ وأن الواجب على المكلف في كل محرم أن يستعظم الإقدام عليه، فربما كان من الكبائر.

٥ - ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ هذا من الآداب، فهو تأديب آخر بعد الأمر الأول بظن الخير، والمعنى: هلا حين سمعتم ما لا يليق من خبيث الكلام قلتم: ما ينبغي لنا وما يصح، ولا يحل لنا أن نتفوه بهذا الكلام، ونخوض في عرض النبي ﷺ، ولا نذكره لأحد؛ إذ لا دليل عليه، سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسوله ﷺ، أي إنا نعجب من عظم الأمر، وننزه الله تعالى عن أن تكون زوجة نبيه ﷺ فاجرة، فهذا بهتان عظيم واختلاق أثيم، وإيذاء للنبي ﷺ، والله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٥٧].

وإذا جاز أن تكون امرأة نبي كافرة، كامرأة نوح ولوط؛ لأن الكفر لم يكن مما ينفر عندهم، فلا يجوز أن تكون امرأة أي نبي فاجرة؛ لأن ذلك من أعظم المنفِّرات.

والخلاصة: أن العقل والدين يمنعان الخوض في مثل هذا، لما فيه من إيذاء النبي ﷺ، كما يمنعان ألا يعاقب هؤلاء القاذفين الأفاكين على عظيم ما اقترفوه وخاضوا فيه من الافتراء، وهو مدعاة للتعجب منه.

٦ - ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ هذا من

الزواجر يحذر الله تعالى فيه المؤمنين من العود لمثله، أي ينهاكم الله متوعداً أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً، أي في المستقبل ما دمتم أحياء مكلفين، ويعظكم بهذه المواعظ والإنذارات، كيلا تعودوا لمثل هذا الفعل، إن كنتم من أهل الإيمان بالله وشرعه وتعظيم رسوله ﷺ، والائتمار بأمره والانتهاء عن نهيه.

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ أي ويوضح لكم الأحكام الشرعية والآداب الدينية والاجتماعية، والله عليم بما يصلح عباده، مطّلع على أحوالهم، فيجازي كل امرئ بما كسب، حكيم في شرعه وقدره، وتدبير شؤون خلقه، وتكليفه بما يحقق سعادتهم في الدنيا والآخرة.

٧ - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ هذا أدب ثالث لمن سمع شيئاً من الكلام السّيئ، معناه: إن الذين يشيعون الفاحشة عن قصد وإرادة ومحبة لها، وإن الذين يرغبون في إشاعة الفواحش وانتشار أخبار الزنى في أوساط المؤمنين، لهم عذاب مؤلم في الدنيا وهو حد القذف، وفي الآخرة بعذاب النار، والله يعلم بحقائق الأمور، ولا يخفى عليه شيء، ويعلم ما في القلوب من الأسرار، فردوا الأمر إليه ترشدوا، وأنتم بسبب نقص العلم والإحاطة بالأشياء والاعتماد على القرائن والأمارات لا تعلمون تلك الحقائق. أخرج الإمام أحمد عن ثوبان عن النبي ﷺ قال: «لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم، ولا تطلبوا عوراتهم، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم، طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته». ولقد ضرب رسول الله ﷺ عبد الله بن أبي وحساناً ومسطحاً، وقعد صفوان لحسان فضربه ضربة بالسيف وكف بصره.

وهذا التأديب التربوي له مغزاه العميق، فإن شيوع الفاحشة في مجتمع يجرئ الناس على الإقدام عليها، ويجعلهم يستسهلون الوقوع فيها. والآية تدل على أن مجرد حب إشاعة الفاحشة كافٍ في إلحاق العذاب، فالذين يشيعونها

فعلاً أشد جرماً وإثماً وتعرضاً للعقاب. ومنشأ حب إشاعة الفاحشة هو الحقد والكراهية، والاستعلاء على الناس وحسدهم على ما يتمتعون به من تماسك واستقرار ومحبة ووئام، فيعمل الحاقد الكاره الحاسد كابن أُبي على تقويض أركان هذا المجتمع، والغض من كرامته، والنيل من عرضه وسمعته، ظناً منه أن هذا شرف له.

٨ - ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ أي لولا الفضل الإلهي والرحمة لكان أمر آخر، والجواب المحذوف هو: لهلكتم أو لعذبكم الله واستأصلكم، ولكنه تعالى رؤوف بعباده، رحيم بهم، فتاب على التائبين من هذه القضية، وأرشد إلى ما فيه الخير، وهدى إلى الطريق الأقوم، وحذَّر من مغبَّة الاستمرار في وجهة الانحراف، وبيَّن خطر هذا الفعل الشنيع وهو الطعن بعرض بيت النبوة، فله الحمد والمنة، لذا حذر في الآية التالية من اتباع وساوس الشيطان فقال:

٩ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ﴾ أي يا أيها المؤمنون المصدّقون بالله ورسوله لا تسيروا في طرائق الشيطان ومسالكه، ولا تسمعوا لوساوسه وتأثيراته وما يأمر به، في الإصغاء إلى الإفك والتلقي له، وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، فإن من يتبع وساوس الشيطان ويقتفي آثاره خاب وخسر؛ لأنه - أي الشيطان - لا يأمر إلا بالفحشاء (ما أفرط قبحه) والمنكر (ما أنكره الشرع وحرمه وقبَّحه العقل ونفَّر منه) فلا يصح لمؤمن طاعته، وهذا تنفير وتحذير صريح.

والله تعالى، وإن خص المؤمنين في هذه الآية بالنهي عن اتباع وساوس الشيطان، فهو نهي لكل المكلفين، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ﴾ فكل المكلفين ممنوعون من ذلك. وحكمة تخصيص المؤمنين بالذكر هي أن يتشددوا في ترك المعصية، لئلا يتشبهوا بحال أهل الإفك.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ هذا التكرار لتأكيد المنة والنعمة على العباد، والمعنى: ولولا تفضل الله عليكم بالنعم، ورحمته السابغة، بالتوفيق للتوبة الماحية للذنوب، ما طهَّر أحداً من ذنبه، ولا خلصه من أمراض الشرك والفجور والأخلاق الرديئة، وإنما عاجله بالعقوبة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [النحل: ١٦/ ٦١]، قال الرازي: إذا بلغ المؤمن من الصلاح في الدين إلى ما يرضاه الله تعالى، سمِّي زكياً.

﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي والله تعالى القدير الحكيم يطهر من يشاء من خلقه، بقبول توبتهم، وتوفيقهم إلى ما يرضيه، مثل قبول توبة حسان ومِسْطح وغيرهما من قصة الإفك، والله سميع لأقوال عباده، ولا سيما في حالتي الوقوع في المعصية والإخلاص في التخلص منها، والبراءة من آثامها، عليم بمن يستحق الهدى والضلال، وبالأقوال والأفعال، وبمن أصر على إشاعة الفاحشة ومن تاب منها، ومجازٍ كل إنسان بما قدَّم.

وهذا حث واضح على التطهر من الذنوب، والإقبال على التوبة بإخلاص.

وبعد تأديب أهل الإفك ومن سمع كلامهم، أدب الله تعالى أبا بكر لما حلف ألا ينفق على مِسْطَح أبداً، قال المفسرون: نزلت الآية في أبي بكر حيث حلف ألا ينفق على مسطح، وهو ابن خالة أبي بكر، وقد كان يتيماً في حِجْره، وكان ينفق عليه وعلى قرابته، فقال تعالى:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ أي لا يحلف أصحاب الفضل في الدين والخلق والإحسان، والسعة في المال والثروة ألا يعطوا أقاربهم المساكين المهاجرين، كمسطح ابن خالة أبي بكر الذي كان فقيراً مهاجراً من مكة إلى المدينة، وشهد بدراً. وفيه دليل على فضل أبي بكر رضي الله عنه وشرفه، وحث على صلة الرحم، فهذا في غاية الترفق والعطف في صلة الأرحام.

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ أي ليعفوا عن المسيء، ويصفحوا عن خطأ المذنب، فلا يعاقبونه ولا يحرمونه من عطائهم، وليعودوا إلى صلتهم الأولى، فإن من أخطأ مرة يجب ألا يتشدد في العقاب عليه، وقد عوقب مسطح بالحد والضرب، وكفى ذلك، وزلِق زلقة تاب الله عليه منها.

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي ألا تريدون أن يستر الله عليكم ذنوبكم، فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر ذنب من أذنب إليك، يغفر الله لك، وكما تصفح يصفح عنك: «من لا يَرْحَم لا يُرْحم»[1] والله غفور لذنوب عباده الطائعين التائبين، رحيم بهم فلا يعذبهم بزلَّة حدثت ثم تابوا عنها، فتخلقوا بأخلاق الله تعالى.

وهذا ترغيب في العفو والصفح، ووعد كريم بمغفرة ذنوب التائبين، لذا بادر أبو بكر الصدِّيق إلى القول: «بلى، والله، إنا نحب أن تغفر لنا يا ربَّنا» ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: «والله لا أنزعها منه أبداً».

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه جملة من الآداب والزواجر، أرشدت إليها قصة الإفك، وهي تربية عالية للمجتمع، وصون لأخلاقه من التردي والانحدار، ونبذ للعادات السيئة في إشاعة الأخبار دون علم ولا تثبت، وقد دلت الآيات على ما يلي:

١ً - إن داء الأمة ينبع من داخلها، وأخطر داء فيها زعزعة الثقة بقادتها ومصلحيها، وتوجيه النقد الهدام لهم، ومحاولة النيل من عرضهم وسمعتهم وكرامتهم، فأهل الإفك ليسوا من الأعداء الخارجين، وإنما هم - في الظاهر- عصبة من المؤمنين.

---

(١) هذا حديث صحيح أخرجه الطبراني عن جرير بلفظ: «من لا يرحم لا يرحم، ومن لا يغفر لا يغفر له، ومن لا يتب لا يتب عليه».

٢ً - ليس في الأشياء خير محض ولا شر محض، وإنما ما غلب نفعه على ضرره فهو خير، وما غلب ضرره على نفعه فهو شر، فحقيقة الخير: ما زاد نفعه على ضره، والشرّ: ما زاد ضره على نفعه، وإن خيراً لا شرَّ فيه هو الجنة، وشرّاً لا خير فيه هو جهنم. أما البلاء النازل على الأولياء فهو خير؛ لأن ضرره من الألم قليل في الدنيا، وخيره هو الثواب الكثير في الآخرة. لذا كان حديث الإفك خيراً على عائشة وأهلها آل أبي بكر، وعلى صفوان بن المُعَطّل المتهم البريء، فقال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لرجحان النفع والخير على جانب الشر.

وكان صفوان هذا صاحب ساقة رسول الله ﷺ في غزواته لشجاعته، وكان من خيار الصحابة رضوان الله عليهم. وقيل كما ذكر ابن إسحاق: كان حَصُوراً لا يأتي النساء. وقال: والله ما كَشَفْتُ كَنَفَ أنثى قط، يريد بزنى. وقتل شهيداً في غزوة أرمينية سنة تسع وعشرين في زمان عمر. وقيل: ببلاد الروم سنة ثمان وخمسين في زمان معاوية.

٣ً - للذين خاضوا في إثم الإفك جزاء وعقاب في الدنيا والآخرة، وهم الذين أصروا على التهمة، أما الذين تابوا وهم حسان ومِسْطَح وحَمْنة، فقد غفر الله لهم.

٤ً - إن زعيم المنافقين عبد الله بن أُبي هو الذي تولى كِبْر حديث الإفك، واختلاق معظم القصة، والترويج لها وإشاعتها بين المسلمين. وهل جلد هو وغيره؟ روى الترمذي ومحمد بن إسحاق وغيرهما أن النبي ﷺ جلد في الإفك رجلين وامرأة: مِسْطحاً وحساناً وحَمْنة. وذكر القشيري عن ابن عباس قال: جلد رسول الله ﷺ ابن أُبَيّ ثمانين جلدة، وله في الآخرة عذاب النار.

وقال الماوردي وغيره: اختلفوا هل حدّ النبي ﷺ أصحاب الإفك على قولين:

أحدهما - أنه لم يحدّ أحداً من أصحاب الإفك؛ لأن الحدود إنما تقام بإقرار أو ببينة، ولم يتعبّده الله أن يقيمها بإخباره عنها، كما لم يتعبده بقتل المنافقين، وقد أخبره بكفرهم. وعقب القرطبي على ذلك قائلاً: وهذا فاسد مخالف لنص القرآن؛ فإن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةً﴾ أي لم يأتوا بشهود أربعة على صدق قولهم.

والقول الثاني - أن النبي ﷺ حدّ أهل الإفك عبد الله بن أبي، ومِسْطَح بن أُثَاثة، وحسان بن ثابت، وحَمْنة بنت جحش. قال القرطبي: المشهور من الأخبار، والمعروف عند العلماء أن الذي حُدّ: حسان ومِسْطح وحمنة، ولم يُسْمع بحدّ لعبد الله بن أبي. وهذا - أي تعيين الذين حدّوا - رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها. وإنما لم يحد عبد الله بن أبي؛ لأن الله تعالى قد أعدّ له في الآخرة عذاباً عظيماً، فلو حُدَّ في الدنيا، لكان ذلك نقصاً من عذابه في الآخرة وتخفيفاً عنه، مع أن الله تعالى قد شهد ببراءة عائشة رضي الله عنها، وبكذب كل من رماها، فقد حصلت فائدة الحد، إذ مقصوده إظهار القاذف وبراءة المقذوف، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾.

وإنما حُدَّ هؤلاء المسلمون ليكفر عنهم إثم ما صدر عنهم من القذف، حتى لا يبقى عليهم تَبعة من ذلك في الآخرة، وقد قال ﷺ في الحدود من حديث عبادة بن الصامت الذي أخرجه مسلم بلفظ: «ومن أصاب شيئاً من ذلك فعوقب به، فهو كفارة له» أي إن الحدود كفارات لمن أقيمت عليه.

٥ً - على المؤمنين والمؤمنات أن يظنوا ببعضهم خيراً، لذا عاتبهم الله تعالى بقوله: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا﴾ أي ببعضهم أو بإخوانهم، فالواجب على المسلمين إذا سمعوا رجلاً يقذف أحداً أو يذكره بقبيح لا يعرفونه به أن ينكروا عليه ويكذبوه. ولأجل هذا قال العلماء: إن

الآية أصل في أن درجة الإيمان التي حازها الإنسان، ومنزلة الصلاح التي حلَّها المؤمن، وحُلّة العفاف التي يستتر بها المسلم لا يزيلها عنه خبر محتمل وإن شاع، إذا كان أصله فاسداً أو مجهولاً.

٦ً - إن إثبات تهمة الزنى إما بالإقرار أو بأربعة شهود، فقوله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ توبيخ لأهل الإفك على تقصيرهم في الإثبات، أي هلا جاؤوا بأربعة شهداء على ما زعموا من الافتراء. وهذا إحالة على المذكور في آية القذف السابقة. وإذ لم يأتوا بالشهداء فهم في حكم الله كاذبون.

٧ً - إن أحكام الدنيا في الإثبات ونحوه تجري على الظاهر، والسرائر إلى الله عزّ وجلّ، أخرج البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: أيها الناس، إن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيراً أمَّناه وقرَّبناه، وليس لنا من سريرته شيء، الله يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوءاً لم نؤمنه ولم نصدّقه، وإن قال: إن سريرته حسنة.

٨ً - تكرَّر الامتنان من الله تعالى على عباده في قصة القذف مرتين في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ أي لولا فضله ورحمته لمسَّكم بسبب ما قلتم في عائشة عذاب عظيم في الدنيا والآخرة، ولكنه برحمته ستر عليكم في الدنيا، ويرحم في الآخرة من أتاه تائباً.

٩ً - وصف الله الخائضين في قصة الإفك بارتكاب آثام ثلاثة: تلقي الإفك بألسنتهم وإشاعته بينهم، والتكلم بما لا علم لهم به، واستصغارهم ذلك وهو عظيم الوزر، ومن العظائم والكبائر. وهذا يدل أن القذف من الكبائر، وأن عظم المعصية لا يختلف بظن فاعلها وحسبانه، وأنه يجب على المكلف أن يستعظم الإقدام على كل محرَّم.

١٠ً - عاتب الله جميع المؤمنين بأنه كان ينبغي عليهم إنكار خبر الإفك، وألا يحكيه أو ينقله بعضهم عن بعض، وأن ينزهوا الله تعالى عن أن يقع هذا

من زوج نبيه ﷺ، وأن يحكموا على هذه المقالة بأنها بهتان، وحقيقة البهتان: أن يقال في الإنسان ما ليس فيه. والغيبة: أن يقال في الإنسان ما فيه.

وإن وصف الإيمان يجب أن يكون باعثاً لهم على هذا التخلق والأدب.

١١ً - دلّ قوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي في عائشة، قال الإمام مالك: من سبَّ أبا بكر وعمر أُدِّب، ومن سبَّ عائشة قُتل؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فمن سبَّ عائشة فقد خالف القرآن، ومن خالف القرآن قُتل. وقال ابن كثير: وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية، فإنه كافر؛ لأنه معاند للقرآن، وهذا ردّ على ما قال ابن العربي: قال أصحاب الشافعي: من سبَّ عائشة رضي الله عنها أُدِّب كما في سائر المؤمنين، وليس قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ في عائشة؛ لأن ذلك كفر، وإنما هو كما قال النبي ﷺ فيما رواه أحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة: «والله لا يؤمن من لا يَأْمنُ جارُه بوائقَه» أي لا يكمل إيمانه، لا أنه سلب الإيمان. وبوائقه: شروره وآثامه ودواهيه.

١٢ً - إن الذين يحبون إشاعة الفاحشة (الفعل القبيح المفرط القبح) في المؤمنين المحصنين والمحصنات كعائشة وصفوان رضي الله عنهما لهم عذاب أليم في الدنيا بالحدّ، وفي الآخرة بعذاب النار أي للمنافقين، أما الحدّ للمؤمنين فهو كفارة. والله يعلم مقدار عظم هذا الذنب والمجازاة عليه، ويعلم كل شيء، والناس لا يعلمون بذلك.

١٣ً - نهى الله المؤمنين وغيرهم عن اتباع مسالك الشيطان ومذاهبه؛ لأنه لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر.

١٤ً - لله تعالى وحده الفضل في تزكية المؤمنين وتطهيرهم وهدايتهم، لا بأعمالهم.

١٥ً - على المؤمن التخلق بأخلاق الله، فيعفو عن الهفوات والزلات والمزالق، فإن فعل، فالله يعفو عنه ويستر ذنوبه، وكما تدين تدان، والله سبحانه قال: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي كما تحبون عفو الله عن ذنوبكم فكذلك اغفروا لمن دونكم، وقال ﷺ فيما رواه الطبراني عن جرير: «من لا يَرحم لا يُرحم».

١٦ً - في هذه الآية دليل على أن القذف وإن كان معصية كبيرة لا يُحبط الأعمال؛ لأن الله تعالى وصف مِسْطحاً بعد قوله بالهجرة والإيمان؛ وكذلك سائر الكبائر؛ ولا يحبط الأعمال غير الشرك بالله، قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦٥] .

١٧ً - من حلف على شيء ألا يفعله، فرأى أن فعله أولى من تركه، أتاه وكفّر عن يمينه.

١٨ً - قال بعض العلماء: هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى، من حيث لطف الله بالقَذَفة العصاة بهذا اللفظ.

١٩ً - دلت هذه الآية على أن أبا بكر أفضل الناس بعد النبي ﷺ؛ لأن الله وصفه بصفات عجيبة في هذه الآية، دالة على علو شأنه في الدين، أورد الرازي أربع عشرة صفة مستنبطة من هذه الآية: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ منها أنه وصفه بأنه صاحب الفضل على الإطلاق من غير تقييد لذلك بشخص دون شخص، والفضل يدخل فيه الإفضال، وذلك يدل على أنه رضي الله عنه، كما كان فاضلاً على الإطلاق كان مفضلاً على الإطلاق. ومنها أنه لما وصفه تعالى بأنه أولوا الفضل والسعة بالجمع لا بالواحد وبالعموم لا الخصوص، على سبيل المدح، وجب أن يقال: إنه كان خالياً عن المعصية[1].

(١) انظر تفسير الرازي: ٢٣/ ١٨٧ - ١٩٠

٢٠ - قال بعض أهل التحقيق: إن يوسف عليه السلام لما رُمي بالفاحشة برَّأه الله على لسان صبي في المهد، وإن مريم لما رُميت بالفاحشة برأها الله على لسان ابنها عيسى صلوات الله عليه، وإن عائشة لما رُميت بالفاحشة برّأها الله تعالى بالقرآن؛ فما رضي لها ببراءة صبي ولا نبي حتى برَّأها الله بكلامه من القذف والبهتان[١].

جزاء القذفة الأخروي في قصة الإفك

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾:

وقرأ الكسائي (المحصِنات).

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (يوم يشهد).

﴿يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ﴾:

قرئ:

---

(١) تفسير القرطبي: ١٢/ ٢١٢

١- (يُوَفِّيهِم الله) وهي قراءة أبي عمرو.

٢- (يُوَفِّيهُمُ الله) وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف.

٣- (يُوَفِّيهِمُ الله) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ ﴿ٱلْحَقَّ﴾ بالنصب: صفة لـ ﴿دِينَهُمُ﴾ ومن قرأ بالرفع جعله صفة ﴿ٱللَّهُ﴾ وفصل بين الصفة والموصوف بالمفعول الذي هو ﴿دِينَهُمُ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، و﴿مُبَرَّءُونَ﴾ خبر المبتدأ. و﴿مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾ جار ومجرور في موضع نصب؛ لأنه يتعلق بـ ﴿مُبَرَّءُونَ﴾. و﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ جملة في موضع خبر آخر لـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

البلاغة:

﴿يَعْمَلُونَ﴾ و﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ جناس ناقص.

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ مقابلة.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ العفيفات. ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ البعيدات عن المعاصي والفواحش، السليمات الصدور، والنقيات القلوب. ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بالله ورسوله. ﴿لُعِنُواْ﴾ طُردوا من رحمة الله في الآخرة، وعذبوا في الدنيا بحد القذف. ﴿دِينَهُمُ﴾ جزاءهم. ﴿ٱلْحَقَّ﴾ الثابت الذي يستحقونه. ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ الثابت بذاته، الظاهر الألوهية، لا يشاركه في ذلك غيره، ولا يقدر على الثواب والعقاب

سواه، أو ذو الحق البيِّن، أي العادل الظاهر عدله، وقد حقق لهم جزاءه الذي كانوا يشكّون فيه. أو أن وعد الله ووعيده هو العدل الذي لا جَوْر فيه.

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ﴾ من النساء. ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ من الرجال. ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ من النساء. ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ من الناس، أي اللائق بالخبيث مثله، وبالطيب مثله. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الطيبون من الرجال والطيبات من النساء ومنهم عائشة أم المؤمنين وصفوان الصحابي التقي الورع المجاهد المتهم زوراً وبهتاناً. ﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي يقول الخبيثون والخبيثات من الرجال والنساء فيهم ﴿وَلَهُم﴾ للطيبين والطيبات. ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ ستر. ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يعني الجنة، وقد افتخرت عائشة بأشياء منها: أنها خلقت طيبة، ووعدت مغفرة ورزقاً كريماً. قال البيضاوي: ولقد برَّأ الله أربعة بأربعة: برّأ يوسف عليه السلام بشاهد من أهلها، وموسى عليه السلام من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه، ومريم بإنطاق ولدها، وعائشة رضي الله عنها بهذه الآيات، مع هذه المبالغات، وما ذلك إلا لإظهار منصب الرسول ﷺ وإعلاء منزلته.

سبب النزول:

أخرج الطبراني عن الضحّاك بن مزاحم قال: نزلت هذه الآية في نساء النبي ﷺ خاصة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في عائشة خاصة.

وأخرج ابن جرير عن عائشة قالت: رُميتُ بما رُميتُ به، وأنا غافلة، فبلغني بعد ذلك، فبينا رسول الله ﷺ عندي إذ أُوحي إليه، ثم استوى جالساً، فمسح وجهه وقال: يا عائشة، أبشري، فقلت: بحمد الله، لا بحمدك، فقرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ حتى بلَغ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾.

وأخرج الطبراني عن الحكم بن عتيبة قال: لما خاض الناس في أمر عائشة أرسل رسول الله ﷺ إلى عائشة، فقال: يا عائشة، ما يقول الناس، فقالت: لا أعتذر بشيء حتى ينزل عذري من السماء، فأنزل الله فيها خمس عشرة آية من سورة النور، ثم قرأ حتى بلغ ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ الآية، وهو مرسل صحيح الإسناد.

المناسبة:

بعد بيان خبر الإفك وعقاب الأفاكين، وتأديب الخائضين، ذكر الله تعالى براءة عائشة صراحة، وذكر مع ذلك حكماً عاماً وهو أن كل من قذف مؤمنة عفيفة بالزنى، فهو مطرود من رحمة الله، وله عذاب عظيم.

وهذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات، خرج مخرج الغالب، فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة، ولا سيما التي كانت سبب النزول وهي عائشة بنت الصدِّيق رضي الله عنهما.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي إن الذين يتهمون بالفاحشة والفجور النساء المؤمنات بالله ورسوله العفائف البعيدات عن تلك التهمة، ومثلهم الرجال، هم مطرودون من رحمة الله في الدنيا والآخرة، وعليهم غضب الله وسخطه، ولهم في الآخرة عذاب شديد كبير، جزاء جرمهم وافترائهم. وهذا دليل على أن القذف من الكبائر، أخرج الإمام أحمد والشيخان وغيرهم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات، قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشركُ بالله، والسحرُ، وقتلُ النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذفُ المحصنات الغافلات المؤمنات». وأخرج أبو القاسم الطبراني عن حذيفة عن النبي ﷺ قال: «قذف المحصنة يهدم عمل مئة سنة».

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي إن عذابهم يوم القيامة يوم تشهد عليهم أعضاؤهم الألسنة والأيدي والأرجل بما عملوا في الدنيا من قول أو فعل؛ إذ إن الله يُنطقها بقدرته، كما ذكر في آية أخرى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٤١/٢١].

روى ابن أبي حاتم وابن جرير عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يومُ القيامة عُرِّف الكافرُ بعمله، فيجحدُ ويخاصم، فيقال له: هؤلاء جيرانُك يشهدون عليك، فيقول: كذَبوا، فيقال: أهلُك وعشيرتُك، فيقولُ: كذَبُوا، فيقال: احلفوا فيحلفون، ثم يُصِمُّهم الله، فتشهدُ عليهم أيديهم وألسنتهم، ثم يُدخلهم النار».

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ أي في ذلك اليوم يوفيهم الله حسابهم أو جزاءهم على أعمالهم، ويعلمون أن وعد الله ووعيده وحسابه هو العدل الذي لا جور فيه.

قال الزمخشري رحمه الله وجزاه عن تفسيره الدقيق جداً للقرآن الكريم خير الجزاء: ولو فلَّيت[١] القرآن كله، وفتَّشت عما أوعد به العصاة، لم تر الله تعالى قد غَلَّظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد، والعقاب البليغ، والزجر العنيف، واستعظام ما رَكِب من ذلك، واستفظاع ما أقدم عليه، على طرق مختلفة، وأساليب مفتنَّة، كل واحد منها كاف في بابه، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث، لكفى بها، حيث جعل القَذَفة ملعونين في الدارين جميعاً، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفِكوا

(١) جعلها بعضهم: قَلَّبت.

وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله، حتى يعلموا عند ذلك أن الله هو الحق المبين[١].

يفهم من هذا الكلام ومن كلام الفخر الرازي أن الله تعالى عاقب هؤلاء القَذَفة بثلاثة أشياء: كونهم ملعونين في الدنيا والآخرة، وهو وعيد شديد، وشهادة ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم على أعمالهم، وإيفاؤهم جزاء عملهم. والدين بمعنى الجزاء مثل قولهم: «كما تدين تدان» وقيل: بمعنى الحساب كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي الحساب الصحيح، والحق: هو أن الجزاء الموفى هو القدر المستحق؛ لأنه الحق، وما زاد عليه هو الباطل.

ثم أورد الله تعالى دليلاً مادياً حسياً على براءة عائشة فقال:

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي النساء الزواني الخبيثات للخبيثين من الرجال، والخبيثون الزناة من الرجال للخبيثات من النساء؛ لأن اللائق بكل واحد ما يشابهه في الأقوال والأفعال، ولأن التشابه في الأخلاق والتجانس في الطبائع من مقومات الألفة ودوام العشرة. وذلك كقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور: ٢٤/٣] .

وعلى هذا يكون المراد بالخبيثات والطيبات النساء، أي شأن الخبائث يتزوجن الخباث، أي الخبائث، وشأن أهل الطيب يتزوجن الطيبات.

ويجوز أن يكون المراد من الخبيثات الكلمات التي هي القذف الواقع من أهل الإفك، والمعنى: الخبيثات من قول أهل الإفك للخبيثين من الرجال، وبالعكس: والطيبات من قول منكري الإفك للطيبين من الرجال وبالعكس.

(١) تفسير الكشاف: ٢/ ٣٨٠ وما بعدها.

وبما أن رسول الله ﷺ درة الطيبين وخيرة الأولين والآخرين، فالصدّيقة رضي الله عنها من أطيب الطيبات، فيبطل ما أشاعه أهل الإفك. ويكون الكلام جارياً مجرى المثل لعائشة وما رميت به من قول لا يطابق حالها في النزاهة والطيب. والرأي الأول هو الظاهر.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ أي أولئك الطيبون والطيبات كصفوان وعائشة بعداء مبرؤون مما يقوله أهل الإفك والبهتان الخبيثون والخبيثات.

وأولئك المبرؤون لهم مغفرة عن ذنوبهم بسبب ما قيل فيهم من الكذب ورزق كريم عند الله في جنات النعيم، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣١] .

عن عائشة رضي الله عنها: «لقد أُعطيتُ تسعاً ما أُعطيتهن امرأة: لقد نزل جبريل عليه السلام بصورتي في راحته حين أُمر رسول الله ﷺ أن يتزوجني؛ ولقد تزوجني بكراً وما تزوج بكراً غيري؛ ولقد تُوفِّي وإن رأسه لفي حِجْري؛ ولقد قُبر في بيتي، ولقد حفَّته الملائكة في بيتي؛ وإن الوحي لينزل عليه في أهله، فيتفرقون عنه، وإن كان لينزل عليه وأنا معه في لِحَافه؛ وإني لابنة خليفته وصِدِّيقه؛ ولقد نَزَل عُذْري من السماء، ولقد خُلقت طيِّبة عند طيب؛ ولقد وُعدت مغفرةً ورزقاً كريماً» تعني قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ وهو الجنة.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي من الأحكام:

أ - إن الذين يرمون بالزنى أو الفاحشة النساء المحصنات العفائف، أو الرجال المحصنين قياساً واستدلالاً أو يقذفون غيرهم، ومن هؤلاء عائشة

وسائر زوجات النبي ﷺ، لُعنوا في الدنيا والآخرة، واللعنة في الدنيا: الإبعاد وضرب الحد وهجر المؤمنين لهم، وإساءة سمعتهم، وإسقاط عدالتهم، وفي الآخرة الطرد من رحمة الله بالعذاب في جهنم.

والأصح كما رجح المفسرون أن بقية أمهات المؤمنين في هذا الحكم وغيره كعائشة رضوان الله عليهن، فقاذفهن ملعون في الدنيا والآخرة، ومن سبّهن فهو كافر، كما ذكر ابن كثير.

وقال أبو جعفر النحاس: من أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية: إنه عام لجميع الناس القَذَفة من ذكر وأنثى. ويكون التقدير: إن الذين يرمون الأنفس المحصنات، فدخل في هذا المذكر والمؤنث، وكذا في الذين يرمون؛ إلا أنه غلّب المذكر على المؤنث، أي إن الرمي أو القذف بالزنى كبيرة وحرام من أي مكلف، وعلى أي مكلف: ذكر أو أنثى.

٢ً - ولهم حكم آخر غير اللعنة وهو شهادة ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم وتكلمهم يوم القيامة عند الحساب بما تكلموا به وبما عملوا في الدنيا.

٣ً - وحكم ثالث أيضاً هو أن حسابهم وجزاءهم ثابت مستحق لهم بالقدر المستحق المناسب لعملهم أو قولهم؛ لأن مجازاة الله عز وجل للكافر والمسيء بالحق والعدل، ومجازاته للمحسن بالإحسان والفضل.

٤ً - النساء الخبيثات للخبيثين من الرجال، وكذا الخبيثون للخبيثات، وكذا الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات. وهذا ما اختاره النحاس، وهو الظاهر. وقال مجاهد وابن جُبير وعطاء وأكثر المفسرين: الكلمات الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، وكذا الخبيثون من الناس للخبيثات من القول، وكذا الكلمات الطيبات من القول للطيبين من الناس، والطيبون من الناس للطيبات من القول.

٥ - دل قوله تعالى صراحة: ﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ على براءة عائشة وصفوان رضي الله عنهما مما يقول الخبيثون والخبيثات.

الحكم السادس

الاستئذان لدخول البيوت وآدابه

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩)﴾

القراءات:

﴿بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾:

قرئ:

١- (بُيوتاً غير بُيُوتكم) وهي قراءة ورش، وأبي عمرو، وحفص.

٢- (بِيُوتاً غير بِيُوتكم) وهي قراءة الباقين.

﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

قرئ:

١- (تَذَكَّرون) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (تَذَّكَّرون) وهي قراءة باقي السبعة.

قيل:

بإشمام كسرة القاف الضم، قرأ الكسائي، وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

الإعراب:

﴿فِيهَا مَتَٰعٌ﴾ مرفوع بالظرف على مذهب سيبويه، كما يرتفع على مذهب الأخفش والكوفيين؛ لأن الظرف جرى وصفاً للنكرة.

المفردات اللغوية:

﴿بُيُوتًا﴾ جمع بيت وهو المسكن .﴿تَسْتَأْنِسُواْ﴾ تستأذنوا؛ إذ بالاستئذان يحصل الأنس للزائر وأهل البيت .﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ فيقول الواحد: السلام عليكم أأدخل، كما ورد في الحديث .﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الدخول بغير استئذان .﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون، أو تتذكرون خيريته، فتعملوا به. ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا﴾ يأذن لكم .﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ﴾ بعد الاستئذان. ﴿هُوَ﴾ الرجوع .﴿أَزْكَىٰ﴾ خير وأطهر .﴿لَكُمْ﴾ من القعود على الباب .﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الدخول بإذن وغير إذن .﴿عَلِيمٌ﴾ مطلع على كل شيء، لا تخفى عليه خافية، فيجازي كل إنسان بعمله.

﴿جُنَاحٌ﴾ حرج وإثم ﴿بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ كالخانات والحوانيت والفنادق. ﴿فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾ أي حق تمتع وانتفاع، كالاستظلال من الحر والإيواء من البرد وتخزين الأمتعة والجلوس للمعاملة من شراء أو بيع .﴿تُبْدُونَ﴾ تظهرون .﴿تَكْتُمُونَ﴾ تخفون في دخول غير بيوتكم من قصد صلاح أو غيره. وهذا وعيد لمن دخل مدخلاً لفساد أو تطلع على عورات.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٧):

أخرج الفريابي وابن جرير عن عدي بن ثابت قال: جاءت امرأة من

الأنصار، فقالت: يا رسول الله، إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد، وإنه لا يزال يدخل علي رجل من أهلي، وأنا على تلك الحال، فكيف أصنع؟ فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ الآية.

نزول الآية (٢٩):

أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال: لما نزلت آية الاستئذان في البيوت، قال أبو بكر: يا رسول الله، فكيف بتجار قريش الذين يختلفون بين مكة والمدينة والشام، ولهم بيوت معلومة على الطريق، فكيف يستأذنون ويسلمون، وليس فيها سكان؟ فنزل: ﴿عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ﴾ الآية.

المناسبة:

بعد بيان حكم قذف المحصنات وقصة أهل الإفك، ذكر الله تعالى ما يليق بذلك، وهو آداب الدخول إلى البيوت من الاستئذان والسلام، منعاً من الوقوع في التهمة، باقتحام البيوت دون إذن والتسلل إليها، أو حدوث الخلوة التي هي مظنة التهمة أو طريق التهمة التي تذرع بها أهل الإفك للوصول إلى بهتانهم وافترائهم، ومراعاة لأحوال الناس رجالاً ونساء الذين لا يريدون لأحد الاطلاع عليها؛ ولأن النظر والاطلاع على العورات طريق الزنى.

التفسير والبيان:

هذه آداب اجتماعية شرعية ذات مدلول حضاري، وتمدن رفيع؛ لما فيها من تنظيم لحياة المجتمع وأحوال الأسر في البيوتات، حفظاً لروابط الود والمحبة، وإبقاء على حسن العشرة وتبادل الزيارات بين المؤمنين، فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ

عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ أي يا أيها المصدقون بالله ورسوله لا تدخلوا بيوت غيركم حتى يؤذن لكم، وحتى تسلموا على أهل البيت، حتى لا تنظروا إلى عورات غيركم، ولا تطلعوا إلى ما لا يحل لكم الاطلاع عليه، ولا تفاجئوا الساكنين الوادعين، فتحرجوهم أو تزعجوهم، فيحدث الاشمئزاز، والتضايق، والكراهية.

فلا بد إذن من الاستئذان قبل الدخول والسلام خارج الباب لمعرفة الداخل، وكان السلام هو المألوف في الماضي حيث لم تكن أبواب الدور محكمة الإغلاق والستر بنحو كافٍ كاليوم؛ إذ لم يكن للدور حينئذ ستور.

والاستئناس: الاستعلام (طلب العلم) والاستكشاف، من آنس الشيء: إذا أبصره ظاهراً مكشوفاً، فمن أراد دخول بيت غيره عليه أن يستأنس، أي يتعرف من أهله ما يريدون من الإذن له بالدخول وعدمه، فهو بمعنى الاستئذان، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٢٤/٥٩] . وكان ابن عباس على الأصح فيما روي عنه يفسر الاستئناس بالاستئذان، ولا يحصل الاستئناس إلا بعد حصول الإذن بعد الاستئذان.

ويكون الاستئذان ندباً ثلاث مرات، فإن أذن للزائر وإلا انصرف، كما ثبت في الصحيح لدى مالك وأحمد والشيخين وأبي داود عن أبي موسى وأبي سعيد معاً أن أبا موسى الأشعري حين استأذن على عمر ثلاثاً، فلم يؤذن له انصرف، ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له، فطلبوه فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال: ما أرجعك؟ قال: إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي، وإني سمعت النبي ﷺ يقول: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً، فلم يؤذن له فلينصرف» الحديث.

وظاهر الآية أنه لا بد قبل الدخول من الاستئذان والسلام معاً، إلا أن

الأول مطلوب على سبيل الوجوب، والثاني على سبيل الندب كما هو حكم السلام في كل موضع. لكن الواجب في الاستئذان هو مرة واحدة، وأما الثلاث فهو مندوب، كما تقدم.

والظاهر أن الاستئذان متقدم على السلام؛ لأن الأصل في الترتيب الذِّكْري أن يكون على وفق الترتيب الواقعي، وبه قال بعض العلماء، والجمهور على تقديم السلام على الاستئذان، بدليل ما أخرجه الترمذي عن جابر رضي الله عنه: «السلام قبل الكلام» وما أخرجه البخاري في الأدب المفرد وابن أبي شيبة عن أبي هريرة فيمن يستأذن قبل أن يسلم قال: لا يؤذن له حتى يسلم، وما أخرجه قاسم بن أصبغ وابن عبد البر عن ابن عباس قال: استأذن عمر رضي الله عنه على النبي ﷺ فقال: «السلام على رسول الله، السلام عليكم، أيدخل عمر؟».

والسلام يكون أيضاً ثلاثاً كما أخرج الإمام أحمد عن أنس أن النبي ﷺ استأذن على سعد بن عبادة فقال: «السلام عليك ورحمة الله» فقال سعد: وعليك السلام ورحمة الله، ولم يسمع النبي ﷺ حتى سلم ثلاثاً، ورد عليه سعد ثلاثاً.

والحكمة من الاستئذان والسلام تحاشي الاطلاع على العورات، بدليل ما رواه أبو داود عن هُزَيل قال: جاء رجل (قال عثمان: سعد) فوقف على باب النبي ﷺ يستأذن، فقام على الباب، - قال عثمان: مستقبل الباب - فقال له النبي ﷺ «هكذا عنك - أو هكذا - فإنما الاستئذان من النظر» وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن، فخَذفته بحصاة، ففقأت عينه، ما كان عليك من جناح».

والمراد من هذين الحديثين أن من أدب الاستئذان ألا يستقبل المستأذن الباب بوجهه، وإنما يجعله عن يمينه أو شماله، وألا ينظر إلى داخل البيت،

روي أن أبا سعيد الخدري استأذن على رسول الله ﷺ وهو مستقبل الباب، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تستأذن وأنت مستقبل الباب» وذلك سواء أكان الباب مغلقاً أم مفتوحاً؛ فإن الطارق قد يقع نظره عند الفتح له على ما لا يجوز أو ما يكره أهل البيت اطلاعه عليه.

والاستئذان واجب ولو كان الطارق أعمى؛ لأن من عورات البيوت ما يدرك بالسمع، وقد يتأذى أهل البيت بدخول الأعمى، وأما الحديث المتقدم: «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر» فهو بحسب الغالب المعتاد.

ولا فرق في وجوب الاستئذان بين الرجال والنساء، والمحارم وغير المحارم؛ لأن الحكم عام، ولو كان الزائر والداً أو ولداً، قال رجل للنبي ﷺ - فيما رواه مالك في الموطأ عن عطاء بن يسار -: أأستأذن يا رسول الله على أمي؟ فقال النبي ﷺ: «نعم» قال: ليس لها خادم غيري، أأستأذن عليها كلما دخلت عليها؟ قال: «أتحب أن تراها عُريانة؟» قال: لا، قال: «فاستأذن عليها». وأخرج ابن جرير والبيهقي عن ابن مسعود قال: «عليكم أن تستأذنوا أمهاتكم وأخواتكم». وروى الطبري عن طاوس قال: «ما من امرأة أكره إلي أن أرى عورتها من ذات محرم» وعلى هذا يكون الاستئذان على المحارم واجباً وتركه غير جائز، واستدل ابن عباس عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ولم يفرق بين من كان أجنبياً أو ذا رحم محرم.

وقوله تعالى: ﴿بُيُوتًا﴾ نكرة في سياق النهي فتفيد العموم الشامل للبيوت المسكونة وغير المسكونة، لكن الآية التالية: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ يقتضي حمل الآية الأولى على المسكونة فقط، ويصير المعنى: أيها المخاطبون لا تدخلوا بيوتاً مسكونة لغيركم حتى تستأنسوا.

ثم ذكر تعالى حكمة الأمر بالاستئذان والسلام فقال:

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يعني الاستئذان والسلام خير وأفضل للطرفين: المستأذن وأهل البيت، من الدخول بغتة، ومن تحية الجاهلية، فقد كان الرجل منهم إذا دخل بيتاً غير بيته قال: حييتم صباحاً، وحييتم مساء، ودخل، فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف. وقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ متعلق بمحذوف، أي أنزل عليكم أو أرشدكم ربكم لتتذكروا وتتعظوا، وتعملوا بما هو أصلح لكم.

وكلمة ﴿خَيْرٌ﴾ هنا أفعل تفضيل، وكلمة (لعل) للتعليل، والحكم المعلل بها مفهوم مما سبق، أي أرشدكم الله إلى ذلك الأدب وبيَّنه لكم، ليكون متَذَكراً منكم دائماً، فتعملوا بموجبه.

ثم ذكر تعالى حكم حالة أخرى هي حالة فراغ البيوت من أهلها فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ أي إن لم تجدوا في بيوت غيركم أحداً يأذن لكم، فلا تدخلوها حتى يأذن لكم صاحب الدار، فلا يحل الدخول في هذه الحالة؛ لأنه تصرف في ملك الغير بغير إذنه، ولأن للبيوت حرمة، وفيها خبيئات لا يريد أحد الاطلاع عليها، فإن المانع من الدخول ليس الاطلاع على العورات فقط، بل وعلى ما يخفيه الناس عادة. وإذن الصبي والخادم لا يبيح الدخول في البيوت الخالية من أصحابها، فإن كان صاحب الدار موجوداً فيها، اعتبر إذن الصبي والخادم إذا كان رسولاً من صاحب الدار، وإلا لم يجز الدخول.

وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ المدار فيه على ظن الطارق، فإن كان يظن أنه ليس بها أحد، فلا يحل له أن يدخلها.

لكن يستثنى بداهة وشرعاً حالة الضرورة، كمداهمة البيت لحرق أو غرق أو مقاومة منكر أو منع جريمة ونحو ذلك.

﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي إن طلب منكم صاحب

البيت الرجوع، فارجعوا؛ فإن الرجوع هو خير لكم وأطهر في الدين والدنيا، ولا يليق بكم أيها المؤمنون أن تلحوا في الاستئذان، والوقوف على الأبواب، أو القعود أمامها بعد أن تردوا، ففي ذلك ذل ومهانة وعيب، وإحراج لصاحب البيت.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ أي إن الله عليم بنياتكم وأقوالكم وأفعالكم، فيجازيكم عليها. وهذا وعيد لمن يخالف ما أرشد الله إليه، فإن القصد من هذا الإخبار هنا تقرير الجزاء على هذه الأعمال.

ثم بيَّن الله تعالى حكم البيوت غير المسكونة، فقال:

﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ﴾ أي لا إثم ولا حرج عليكم من الدخول إلى بيوت لا تستعمل للسكنى الخاصة، كالفنادق وحوانيت التجار والحمامات العامة ونحوها من الأماكن العامة، إذا كان لكم فيها مصلحة أو انتفاع كالمبيت فيها، وإيواء الأمتعة، والمعاملة بيعاً وشراء وغيرهما، والاغتسال، ونحو ذلك.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ أي إن الله تعالى عليم بما تظهرونه من استئذان عند الدخول، وما تضمرونه من قصد سيِّئ من حب الاطلاع على عورات الناس. وهذا وعيد لأهل الريبة الذين يدخلون البيوت للاطلاع على عوراتها، وهو شبيه بالوعيد الذي ختمت به الآية السابقة.

وهذه الآية الكريمة أخص من سابقتها، ومخصصة لعموم الآية المتقدمة المانعة مطلقاً من دخول بيوت الآخرين، وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد، إذا كان للداخل متاع فيها، بغير إذن، كالبيت المستقل المعد للضيف بعد الإذن له فيه أول مرة، ولم يكن مجرد غرفة ضمن غرف أخرى.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يلي:

أ - تحريم دخول بيت الآخرين من غير استئذان وجوباً، وسلامٍ وتحيةٍ ندباً، ويكون السلام قبل الاستئذان، كما دلت السنة.

والسنة في الاستئذان كما تقدم أن يكون ثلاث مرات لا يزاد عليها. وصورة الاستئذان أن يقول الشخص رجلاً كان أو امرأة، بصيراً أو أعمى: السلام عليكم أأدخل؟ فإن أُذن له دخل، وإن أمر بالرجوع انصرف، وإن لم يجبه أحد استأذن ثلاثاً ثم ينصرف من بعد الثلاث.

قال مالك: الاستئذان ثلاث، لا أحب أن يزيد أحد عليها، إلا من علم أنه لم يُسمع، فلا أرى بأساً أن يزيد إذا استيقن أنه لم يُسمع.

وقال المالكية: إنما خص الاستئذان بثلاث؛ لأن الغالب من الكلام إذا كرر ثلاثاً، سُمِع وفُهم، ولذلك كان النبي ﷺ إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى يفهم عنه، وإذا سلم على قوم، سلم عليهم ثلاثاً، وإذا كان الغالب هذا؛ فإذا لم يؤذن له بعد ثلاث، ظهر أن رب المنزل لا يريد الإذن، أو لعله يمنعه من الجواب عنه عذر لا يمكنه قطعه، فينبغي للمستأذن أن ينصرف؛ لأن الزيادة على ذلك قد تقلق رب المنزل، وربما يضره الإلحاح حتى ينقطع عما كان مشغولاً به؛ كما قال النبي ﷺ لأبي أيوب حين استأذن عليه، فخرج مستعجلاً فقال: «لعلنا أعجلناك..» الحديث.

أما اليوم حيث اتخذ الناس الأبواب والأجراس، فصار الاستئذان بقرع الباب أو بدق الجرس، فإن طلب من الطارق التعريف بنفسه وجب عليه ذلك، منعاً من الإزعاج والتخويف أو الإحراج والمضايقة.

ولا يستقبل المستأذن الباب بوجهه، وإنما يقف يميناً وشمالاً، بحيث إذا فتح الباب لا يقع النظر فجأة على ما يكره صاحب البيت.

وصفة الدق أن يكون خفيفاً بحيث يسمع، ولا يعنُف في ذلك، فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كانت أبواب النبي ﷺ تقرع بالأظافير[١].

ودليل التعريف بشخص الداخل ما روى الصحيحان وغيرهما عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: استأذنت على النبي ﷺ فقال: «من هذا» ؟ فقلت: أنا، فقال النبي ﷺ: «أنا أنا» كأنه كره ذلك؛ لأن قوله: «أنا» لا يحصل بها تعريف، وإنما أن يذكر اسمه، كما فعل عمر وأبو موسى رضي الله عنهما.

ولكل قوم في الاستئذان عرفهم في العبارة، وكان الناس في الماضي يسلمون، ثم تركوا السلام لاتخاذ الأبواب التامة الستر، المحكمة الإغلاق. وهذا في بيت الآخرين.

أما في بيت الإنسان الخاص، فلا حاجة فيه للإذن إن كان فيه الأهل (الزوجة). والسنة السلام إذا دخل. قال قتادة: إذا دخلت على بيتك فسلم على أهلك، فهم أحق من سلمت عليهم. فإن كان فيه مع الأهل أمك أو أختك، فقال العلماء: تنحنح واضرب برجلك حتى تنتبها لدخولك؛ لأن الأهل لا حشمة بينك وبينها، وأما الأم والأخت فقد تكونان على حالة لا تحب أن تراهما فيها.

وإذا دخل بيت نفسه وليس فيه أحد، يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، كما قال قتادة. والملائكة ترد عليه.

وإذا رأى أهل الدار أحداً يطلع عليهم من ثقب الباب، فطعن أحدهم عينه فقلعها، فقال الشافعي وأحمد: لاشيء عليه، لما أخرجه الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من اطلع في دار قوم بغير

(١) ذكره أبو بكر علي بن ثابت الخطيب في جامعه.

إذنهم، ففقؤوا عينه، فقد هُدِرت عيْنه» وعبارة مسلم: «من اطلع في بيت قوم من غير إذنهم، حلّ لهم أن يفقؤوا عينه». وروى سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لمن اطلع في إحدى حجراته، وكانت في يده مدرى يحك بها رأسه: «لو كنت أعلم أنك تنظر لطعنت بها في عينك».

وقال أبو حنيفة ومالك: إن فقأ عينه فعليه الضمان من قصاص أو أرش (تعويض أو دية) لعموم قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٥] . ثم إن الاعتداء جناية، يستوجب الأرش أو القصاص. أما الأحاديث السابقة فهي منسوخة، وكان ذلك قبل نزول قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٦] . ويحتمل أن يكون ذلك على وجه الوعيد لا على وجه الحتم، والخبر إذا كان مخالفاً لكتاب الله تعالى لا يجوز العمل به. وقد كان النبي ﷺ يتكلم بالكلام في الظاهر، وهو يريد شيئاً آخر؛ كما جاء في الخبر أن عباس بن مِرداس لما مدحه قال لبلال: «قم فاقطع لسانه» وإنما أراد بذلك أن يدفع إليه شيئاً، ولم يرد به القطع في الحقيقة. وكذلك هذا يحتمل أن يراد بفقء العين أن يعمل به عملاً حتى لا ينظر بعد ذلك في بيت غيره.

٢ - تحريم الدخول إلى بيت الآخرين إذا لم يوجد فيه صاحبه حتى يؤذن له، وهذا مستفاد من الآية: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا﴾ والصحيح أن هذه الآية مرتبطة بما قبلها، التقدير: يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا، فإن أُذن لكم فادخلوا، وإلا فارجعوا، فإن لم تجدوا فيها أحداً يأذن لكم، فلا تدخلوها حتى تجدوا إذناً.

ولا فرق في وجوب الاستئذان وتحريم الدخول بغير إذن بين أن يكون الباب مغلقاً أو مفتوحاً.

ويجوز الإذن من الصغير والكبير، وقد كان أنس بن مالك يستأذن على رسول الله ﷺ، وكذلك الصحابة مع أبنائهم وغلمانهم رضي الله عنهم.

٣ً - قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ وعيد لأهل التجسس على البيوت، وطلب الدخول على غفلة للمعاصي والنظر إلى ما لا يحل ولا يجوز.

٤ً - إباحة الدخول في البيوت غير المسكونة والأماكن العامة كالفنادق والحوانيت والحمامات العامة ونحوها، إذا كان الدخول لمصلحة أو حق انتفاع كالمبيت والمعاملة والاغتسال وإيداع الأمتعة ونحو ذلك.

وعلى هذا تكون آية ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ﴾ لرفع حكم الاستئذان في كل بيت لا يسكنه أحد؛ لأن العلة في الاستئذان إنما هي لأجل الاطلاع على الحرمات، فإذا زالت العلة زال الحكم.

الحكم السابع

حكم النظر والحجاب

﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾

القراءات:

﴿جُيُوبِهِنَّ﴾ :

وقرأ ابن كثير، وابن ذكوان، وحمزة، والكسائي (جِيُوبهن).

﴿غَيْرِ أُوْلِي﴾:

وقرأ ابن عامر (غيرَ أولي).

﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾:

وقرأ ابن عامر (أيُّهُ المؤمنون).

الإعراب:

﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ ﴿يَغُضُّواْ﴾ مجزوم بجواب قل، و﴿مِنْ﴾ هنا لبيان الجنس. وقال الزمخشري: للتبعيض. وزعم الأخفش أنها زائدة، أي قل للمؤمنين يغضوا أبصارهم، والأكثرون على خلافه؛ لأن ﴿مِنْ﴾ لا تزاد في حال الإيجاب، وإنما تزاد حال النفي.

﴿غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾ ﴿غَيْرِ﴾ بالجر: صفة لـ ﴿ٱلتَّـٰبِعِينَ﴾ أو بدل منهم؛ لأنه ليس بمعرفة صحيحة؛ لأنه ليس بمعهود. وقرئ بالنصب (غَيْرَ) على الحال أو الاستثناء. قال مكي رحمه الله تعالى: ليس في كتاب الله تعالى آية أكثر ضمائر من هذه، جمعت خمسة وعشرين ضميراً للمؤمنات من مخفوض ومرفوع.

البلاغة:

﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ فيه إيجاز بالحذف، أي عما حرَّم الله، لا عن كل شيء.

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ مجاز مرسل، والمراد مواقع الزينة، من إطلاق الحال وإرادة المحل، مبالغة في الأمر بالتستر والتصون.

المفردات اللغوية:

﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ أي يكفُّوا البصر عما لا يحل لهم النظر إليه. ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ عما لا يحل لهم فعله بها. وسبب التفرقة بين غض البصر بذكر ﴿مِنْ﴾ وبين حفظ الفروج دون ذكر ﴿مِنْ﴾: أن غض البصر فيه توسع؛ إذ يجوز النظر إلى المحارم فيما عدا ما بين السرة والركبة، وإلى وجه المرأة الأجنبية وكفيها، وقدميها في إحدى الروايتين، وأما أمر الفروج فمضيق، كما ذكر في الكشاف، وكفاك فرقاً أن أبيح النظر إلا ما استثني منه، وحظر الجماع إلا ما استثني منه، أي فالأصل في الفروج الحظر، وفي النظر الإباحة. وتقديم الغض على حفظ الفرج لأن النظر بريد الزنى.

﴿أَزْكَى﴾ خير وأطهر. ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ بالأبصار والفروج، فيجازيهم عليه. ﴿يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ فلا ينظرن إلى ما لا يحل لهن النظر إليه من الرجال. ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ بالتستر أو التحفظ عن الزنى، أي بحفظ فروجهن عما لا يحل لهن فعله بها. ﴿يُبْدِينَ﴾ يظهرن. ﴿زِينَتَهُنَّ﴾ كالحلي والثياب والأصباغ، أو لا يظهرن مواضع الزينة لمن لا يحل أن تبدى له. ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ عند مزاولة الأشياء كالثياب والخاتم، فإن في سترها حرجاً. وقيل: المراد هو الوجه والكفان، فيجوز نظره لأجنبي إن لم يخف فتنة في أحد وجهين؛ لأنها ليست بعورة، والوجه الثاني يحرم؛ لأنه مظنة الفتنة. قال البيضاوي: والأظهر أن هذا في الصلاة لا في النظر، فإن كل بدن الحرة عورة، لا يحل لغير الزوج والمَحْرم القريب النظر إلى شيء منها إلا لضرورة كالمعالجة والتعليم والمعاملة وتحمل الشهادة.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ أي يسترن الرؤوس والأعناق والصدور بالخمار: وهو ما تغطي به المرأة رأسها، والجيوب: جمع جيب: وهو فتحة في أعلى الجلباب (أو الثوب) يبدو منها بعض الصدر. ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أي الخفية، أو مواضع الزينة، وهي ما عدا الوجه والكفين، وكرر ذلك لبيان

من يحل له الإبداء ومن لا يحل له. ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أزواجهن، جمع بعل: أي زوج، فإنهم هم المقصودون بالزينة، ولهم أن ينظروا إلى جميع بدن الزوجة، حتى الفرج مع الكراهة. ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ رفعاً للحرج بسبب كثرة المعاشرة والمخالطة والمداخلة، وقلة توقع الفتنة من قبلهم، لما في الطباع من النفرة عن مماسة الأقارب، فيجوز لهم نظره إلا ما بين السرة والركبة، فيحرم نظره لغير الأزواج. وخرج بقوله: ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ الكافرات، فلا يجوز في رأي الجمهور للمسلمات الكشف أمامهن؛ لأنهن لا يتحرجن عن وصفهن للرجال. وأجاز الحنابلة ذلك؛ لأن المراد جنس النساء أو كلهن. وما ملكت أيمانهن: هم العبيد والجواري (الإماء).

﴿أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ ﴿ٱلْإِرْبَةِ﴾ الحاجة إلى النساء، أي غير أولي الحاجة إلى النساء، وهم الشيوخ الهرمى الذين لا يحدث لهم انتشار ذكر، وقيل: البُلْه الذين يتبعون الناس لفضل طعامهم، ولا يعرفون شيئاً من أمور النساء، وفي المجبوب والخصي خلاف. ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ﴾ الأطفال، لعدم تمييزهم. ﴿لَمْ يَظْهَرُواْ﴾ لم يطلعوا على عورات النساء للجماع، ولم يعرفوا ذلك؛ لعدم بلوغهم حد الشهوة أو لصغرهم، فيجوز الإبداء لهم ما عدا ما بين السرة والركبة. و﴿ٱلطِّفْلِ﴾ جنس وضع موضع الجمع، اكتفاء بدلالة الوصف، أو إنه يطلق على الواحد والجمع. ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ أي الخلخال الذي يتقعقع فإن ذلك يلفت النظر ويورث الميل عند الرجال، وهو أبلغ من النهي عن إظهار الزينة، وأدل على المنع من رفع الصوت. ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ مما وقع لكم من النظر الممنوع. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي بسعادة الدارين، وتنجون من الإثم لقبول التوبة منه، وفي الآية تغليب الذكور على الإناث.

سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال: بلغنا عن جابر بن عبد الله، حدّث أن أسماء بنت مرثد كانت في نخل لها، فجعل النساء يدخلن عليها غير متأزرات، فيبدو ما في أرجلهن، تعني الخلاخل، وتبدو صدورهن وذوائبهن، فقالت أسماء: ما أقبح هذا! فأنزل الله في ذلك: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾. وأخرج ابن مردويه عن علي كرم الله وجهه أن رجلاً مرَّ على عهد رسول الله ﷺ في طريق من طرقات المدينة، فنظر إلى امرأة ونظرت إليه، فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجاباً به، فبينما الرجل يمشي إلى جنب حائط وهو ينظر إليها إذ استقبله الحائط فشق أنفه، فقال: والله لا أغسل الدم حتى آتي رسول الله ﷺ فأُخبره أمري، فأتاه فقص عليه قصته، فقال النبي ﷺ: «هذا عقوبة ذنبك» وأنزل الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير عن حضرمي أن امرأة اتخذت بُرَتَين[1] من فضة، واتخذت جَزْعاً (سلسلة خرز) فمرت على قوم، فضربت برجلها، فوقع الخلخال على الْجَزْع، فصوَّت، فأنزل ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ الآية.

المناسبة:

الآية واضحة الاتصال بما قبلها، فإن الدخول إلى البيوت مظنة الاطلاع على العورات، لذا أمر المؤمنون والمؤمنات بغض البصر بصورة حكم عام يشمل المستأذن للدخول إلى البيوت وغيره، فيجب على المستأذن التحلي به عند الاستئذان والدخول، منعاً من انتهاك الحرمات المنهي عنها، كما يجب على النساء عدم إبداء الزينة لأحد إلا للمحارم، لما في ذلك من الفتنة الداعية إلى

(١) بُرَتين من فضة: مفرد برة، والبرة: الخلخال، وكل حلقة من سوار وقرط.

الوقوع في الحرام، كالنظر الذي هو أيضاً بريد الزنى، فالجامع بين حكم النظر والحجاب سد الذرائع إلى الفساد.

التفسير والبيان:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ أي قل يا محمد لعبادنا المؤمنين: كُفُّوا أبصاركم عما حرم الله عليكم، فلا تنظروا إلا إلى ما أباح لكم النظر إليه. والتعبير بالمؤمنين: إشارة إلى أن من شأن المؤمنين أن يسارعوا إلى امتثال الأوامر. وليس المراد بغض البصر إغماض العين وإطباق أجفانها، بل المراد جعلها خافضة الطرف من الحياء، و﴿مِنْ﴾ للتبعيض أي يغضوا بعض أبصارهم، فلا يحملقوا بأعينهم في محرم، ويكون المراد حينئذ توبيخ من يكثر التأمل في المحرم، كما حدث في سبب النزول الذي أخرجه ابن مردويه، وللتفرقة في الأمر بين غض البصر وحفظ الفروج، فإن الأصل في الفروج التحريم إلا ما استثني، وأما النظر فالأصل فيه الإباحة إلا ما استثني كما بينا.

فإن وقع البصر على محرَّم من غير قصد، وجب إغضاء الطرف وصرف النظر عنه سريعاً؛ لما رواه مسلم في صحيحه وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن جرير بن عبد الله البَجَلي رضي الله عنه قال: «سألت النبي ﷺ عن نظر الفجأة، فأمرني أن أصرف بصري». وروى أبو داود عن بُرَيدة قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «يا علي لا تُتْبع النظرةَ النظرةَ، فإن لك الأولى، وليس لك الآخِرة».

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والجلوسَ على الطرقات، قالوا: يا رسول الله، لا بُدَّ لنا من مجالسنا نتحدث فيها، فقال رسول الله ﷺ: إن أبيتم فأعطوا الطريقَ حقَّه، قالوا: وما حقُّ الطريق يا رسول الله؟ قال: غضُّ البصر، وكفُّ الأذى، وردّ السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر».

وسبب الأمر بغض البصر هو سدّ الذرائع إلى الفساد، ومنع الوصول إلى الإثم والذنب، فإن النظر بريد الزنى، وقال بعض السلف: النظر سهم سُمّ إلى القلب، ولذلك جمع الله في الآية بين الأمر بحفظ الفروج، والأمر بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلى المحظور الأصلي وهو الزنى، فقال:

﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ أي من ارتكاب الفاحشة كالزنى وفعل قوم لوط ومن نظر أحد إليها، كما روى أحمد وأصحاب السنن: «احفظ عورتك إلا من زوجتك، أو ما ملكت يمينك». وقال تعالى مبيناً حكمة الأمر بالحكمين:

﴿ذَالِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي إن غض البصر وحفظ الفرج خير وأطهر لقلوبهم، وأنقى لدينهم، كما قيل: من حفظ بصره أورثه الله نوراً في بصيرته، أو في قلبه. وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة، ثم يغض بصره، إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها» وروى الطبراني عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم، من تركه مخافتي أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه». وأزكى الذي هو أفعل التفضيل للمبالغة في أن غض البصر وحفظ الفرج يطهران النفوس من دنس الرذائل. والمفاضلة على سبيل الفرض والتقدير، أو باعتبار ظنهم أن في النظر نفعاً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ أي إن الله عليم علماً تاماً بكل ما يصدر عنهم من أفعال، لا تخفى عليه خافية، وهذا تهديد ووعيد، كما قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ٤٠/١٩] فهو يعلم استراق النظر وسائر الحواس، والخبرة: العلم القوي الذي يصل إلى بواطن الأشياء.

أخرج البخاري في صحيحه تعليقاً ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كُتب على ابن آدم حظُّه من الزنى، أدرك ذلك لا

محالة، فزنى العينين النظر، وزنى اللسان النطق، وزنى الأذنين الاستماع، وزنى اليدين البطش، وزنى الرِّجْلين الْخُطا، والنفس تُمَنّي وتشتهي، والفرج يصدّق ذلك أو يكذبه».

وخلافاً لما عليه غالب الخطابات التشريعية من دخول النساء في الحكم بخطاب الرجال تغليباً، أمر الله تعالى المؤمنات بغض البصر وحفظ الفروج كما أمر الرجال، تأكيداً للمأمور به، وبيان بعض الأحكام التي تخصهن وهي النهي عن إبداء الزينة، والحجاب، والامتناع عن كل ما يلفت النظر إلى زينتهن، فقال تعالى:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ أي وقل أيها الرسول أيضاً للنساء المؤمنات: اغضضن أبصاركن عما حرم الله عليكن من النظر إلى غير أزواجكن، واحفظن فروجكن عن الزنى ونحوه كالسحاق، فلا يجوز للمرأة النظر إلى الرجال الأجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلاً، في رأي كثير من العلماء، بدليل ما رواه أبو داود والترمذي عن أم سلمة: «أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة، فأقبل ابن أم مكتوم، فدخل عليه، وذلك بعدما أُمرنا بالحجاب، فقال رسول الله ﷺ: احتجبا منه، فقلت: يا رسول الله، أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال رسول الله ﷺ: أوعمياوان أنتما، ألستما تبصرانه؟». وفي الموطأ عن عائشة أنها احتجبت عن أعمى، فقيل لها: إنه لا ينظر إليك، قالت: لكنني أنظر إليه.

وأجاز جماعة آخرون من العلماء نظر النساء إلى الرجال الأجانب بغير شهوة فيما عدا ما بين السرة والركبة، بدليل ما ثبت في صحيحي البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ جعل ينظر إلى الحبشة، وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد في المسجد، وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من ورائه، وهو يسترها منهم حتى ملت ورجعت. وهذا الرأي أيسر في عصرنا.

وأصحاب الرأي الثاني وهو جواز النظر بغير شهوة يحملون الأمر بالاحتجاب من ابن أم مكتوم على الندب، وكذلك احتجاب عائشة رضي الله عنها من الأعمى كان ورعاً منها، ويؤيد ذلك استمرار العمل على خروج النساء إلى الأسواق وإلى المساجد وفي الأسفار متنقبات، حتى لا يراهن أحد من الرجال، ولم يؤمر الرجال بالانتقاب حتى لا يراهم النساء، فكان ذلك دليلاً على المغايرة في الحكم بين الرجال والنساء.

ثم ذكر الله تعالى الأحكام الخاصة بالنساء وهي ما يلي:

أ - ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب حين التحلي بها وهي كل ما يتزين به ويتجمل من أنواع الحلي والخضاب وغيرها، فيكون إبداء مواقع الزينة منهياً عنه بالأولى، أو لا يظهرن مواضع الزينة بإطلاق الزينة وإرادة مواقعها، بدليل قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ والثاني هو الأولى؛ لأن الزينة نفسها ليست مقصودة بالنهي، وعلى كل حال هناك تلازم بين الزينة وموضعها، والغاية هي النهي عن أجزاء الجسد التي تكون محلاً للزينة، كالصدر والأذن والعنق والساعد والعضد والساق.

وأما ما ظهر منها فهو الوجه والكفان والخاتم، كما نقل عن ابن عباس وجماعة، وهو المشهور عند الجمهور، ويستأنس له بالحديث الذي رواه أبو داود في سننه عن عائشة رضي الله عنها: أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ، وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها وقال: «يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض، لم يصلح أن يرى منها إلا هذا» وأشار إلى وجهه وكفيه. وهو حديث مرسل.

وبناء عليه قال الحنفية والمالكية، والشافعي في قول له: إن الوجه والكفين ليسا بعورة، فيكون المراد بقوله: ﴿مَا ظَهَرَ﴾ ما جرت العادة بظهوره.

وروي عن أبي حنيفة رضي الله عنه: أن القدمين ليستا من العورة أيضاً؛

لأن الحرج في سترهما أشد منه في ستر الكفين، لا سيما أهل الريف. وعن أبي يوسف: أن الذراعين ليستا بعورة، لما في سترهما من الحرج.

وذهب الإمام أحمد، والشافعي في أصح قوليه إلى أن بدن الحرة كله عورة، للأحاديث المتقدمة في نظر الفجأة، وتحريم متابعة النظر، ولما رواه البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ أردف الفضل بن العباس يوم النحر خلفه، فطفق الفضل ينظر إلى امرأة وضيئة خثعمية حين سألته، فأخذ النبي ﷺ بذقن الفضل، فحوَّل وجهه عن النظر إليها. ويكون المراد بقوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ما ظهر بنفسه من غير قصد.

والراجح فقهاً وشرعاً أن الوجه والكفين ليسا بعورة إذا لم تحصل فتنة، فإن خيفت الفتنة وحصلت المضايقة وكثر الفساق وجب ستر الوجه. وأما أدلة الفريق الثاني فمحمولة على الورع والاحتياط ومخافة الفتنة والاسترسال في مزالق الشيطان.

ويجوز شرعاً استثناء وللضرورة النظر إلى الأجنبية كحال الخطوبة والشهادة والقضاء والمعاملة والمعالجة والتعليم، ففي كل هذه الأحوال يجوز النظر إلى الوجه والكفين فقط، ويجوز للطبيب إذا لم توجد طبيبة النظر إلى موضع العلة أو الداء للعلاج.

٢ - ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ أي ليُسدلن ويُرخين أغطية الرؤوس على أعلى أجزاء الصدر لستر الشعور والأعناق والصدور. والضرب هنا: السدل والإلقاء والإرخاء، والخمر: جمع خمار: وهو ما تغطي به المرأة رأسها، والجيوب: جمع جيب: وهو فتحة في أعلى الثوب يبدو منها بعض النحر.

وهذا أمر إرشاد لستر بعض مواضع الزينة الباطنة عند النساء، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: يرحم الله نساء المهاجرات الأُوَل

لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن مروطهن (أزرهن) فاختمرن بها.

٣ - ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ أي لا يظهرن زينتهن الخفية إلا لأزواجهن فهم المقصودون بالمتعة والنظر، أو آباء النساء والأجداد، أو آباء الأزواج أو أبناء النساء أو أبناء الأزواج أو الإخوة والأخوات وبني الإخوة أو بني الأخوات الشقيقات أو لأب أو لأم، فكل هؤلاء محارم يجوز للمرأة أن تظهر عليهم بزينتها ولكن من غير تبرج، وهؤلاء هم الأقارب من النسب وهم خمسة أنواع، وفيهم نوعان من الأقارب لأجل المصاهرة وهما آباء الأزواج وأبناء الأزواج، ولكن لم تذكر الآية من المحارم النسبية الأعمام والأخوال؛ لأن العمومة والخؤولة بمنزلة الأبوة. كذلك لم تذكر المحارم من الرضاع ولكن نصت السنة عليهم فيما أخرجه أحمد والشيخان وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن عائشة: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب».

﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ هؤلاء بقية الأنواع الذين يجوز للمرأة إظهار الزينة فيما عدا ما بين السرة والركبة، وهم النساء، والمماليك، والتابعون غير أولي الحاجة إلى النساء وهم الأجراء والأتباع الذين لا شهوة عندهم إلى النساء، كالخصيان والمجبوبين والمعتوهين، والأطفال الذين لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن لصغرهم وعدم اطلاعهم على القضايا الجنسية.

لكن وقع خلاف بين العلماء في النساء والمماليك والتابعين والأطفال، أما النساء: فقال الجمهور: المراد النساء المسلمات أي نسائهن في الدين، دون

نساء أهل الذمة، فلا يجوز للمسلمة إظهار شيء من جسمها ماعدا الوجه والكفين أمام المرأة الكافرة، لئلا تصفها لزوجها أو غيره، فهي كالرجل الأجنبي بالنسبة إليها.

أما المسلمة فتعلم أن ذلك حرام، فتنزجر عنه، أخرج الشيخان في الصحيحين عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لا تباشر المرأةُ المرأةَ تنعتها لزوجها، كأنه ينظر إليها».

روى سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في سننه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كتب إلى أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: «أما بعد، فإنه بلغني أن نساءً من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك، فانْهَ من قِبَلك، فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها».

وقال جماعة منهم الحنابلة: إن المراد بهن عموم النساء المسلمات والكافرات، فتكون الإضافة في قوله تعالى: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ للمشاكلة والمشابهة أي من جنسهن، وتكون عورة المرأة بالنسبة إلى المرأة مطلقاً مابين السرة والركبة فقط.

وأما ما ملكت أيمانهن: فقال الأكثرون: يشمل الرجال والنساء، فيجوز أن تظهر المرأة على رقيقها من الرجال والنساء ما عدا مابين السرة والركبة؛ لما رواه أحمد وأبو داود وابن مردويه والبيهقي عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها، وعلى فاطمة ثوب إذا قنَّعت به رأسها لم يبلغ رجليها، وإذا غطَّت به رجليها لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبي ﷺ ما تَلْقى قال: «إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوك وغلامك».

وذهبت طائفة إلى أن ذلك مخصوص بالإماء فقط؛ لأن العبد رجل كالحر الأجنبي في التحريم.

وأما التابعون غير أولي الإربة أي الحاجة إلى النساء: فهم الذين يتبعون الناس لينالوا من فضل طعامهم من غير أن تكون لهم حاجة في النساء ولا ميل إليهن، واختلف العلماء في المراد بهم فقيل: إنه الشيخ الفاني الذي فنيت شهوته، أو الأبله الذي لا يدري من أمر النساء شيئاً، أو المجبوب، أو الخصي أو الممسوح أو خادم القوم للعيش أو المخنث. والمعتمد أن المراد به: كل من ليس له حاجة إلى النساء، وأمنت من جهته الفتنة ونقل أوصاف النساء للأجانب، أخرج مسلم وأحمد وأبو داود والنسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رجل يدخل على أزواج النبي ﷺ مُخَنَّث، وكانوا يعدونه من غير أولي الإربة، فدخل النبي ﷺ، وهو ينعت امرأة يقول: إذا أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أدبرت أدبرت بثمان، فقال رسول الله ﷺ: «ألا أرى هذا يعلم ما هاهنا، لا يدخلن عليكن» فأخرجه من المنزل.

وأما الأطفال الذين لم يطلعوا على عورات النساء: فهم الذين لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن، ولم يظهر عندهم الميل الجنسي القوي لصغر سنهم، فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك فلا بأس بدخوله على النساء، أما المراهق أو القريب من المراهقة قبل البلوغ الذي يحكي ما يرى، ويفرّق بين الشوهاء والحسناء، فلا يمكّن من الدخول على النساء، بدليل وجوب استئذان الطفل عند دخول البيوت، في أوقات ثلاثة، بيّنها الله تعالى بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ [النور: ٥٨/٢٤] .

وقال جماعة آخرون: لا يحرم على المرأة إبداء زينتها للطفل إلا إذا كان فيه تشوق إلى النساء، سواء أكان مراهقاً أم غير مراهق، والإباحة هنا أوسع مما قرره أصحاب الرأي الأول.

ثم نهى الله تعالى عما يكون وسيلة أو ذريعة إلى الفتنة فقال:

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ أي لا يجوز للمرأة أن تدق برجليها في مشيتها، ليعلم الناس صوت خلاخلها؛ لأنه مظنة الفتنة والفساد، ولفت الأنظار، وإثارة مشاعر الشهوة، وإساءة الظن بأنها من أهل الفسوق، فإسماع صوت الزينة كإبدائها وأشد، والغرض التستر.

وهذا يشمل كل ما يؤدي إلى الفتنة والفساد كتحريك الأيدي بالأساور، وتحريك الجلاجل (المقصات) في الشعر، والتعطر والتطيب والزخرفة عند الخروج من البيت، فيشم الرجال طيبها، ويفتتنون بزخارفها؛ روى أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «كل عين زانية، والمرأة إذا استعطرت، فمرّت بالمجلس، فهي كذا وكذا» يعني زانية. وأخرج أبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يقبل الله صلاة امرأة تطيبت لهذا المسجد حتى ترجع فتغتسل من الجنابة». واللام في قوله: ﴿لِيُعْلَمَ﴾ لام العاقبة أو الصيرورة، فهي منهية عن الضرب بالأرجل أمام الرجال الأجانب مطلقاً، سواء قصدت إعلامهم أم لم تقصد، فإن عاقبة الضرب بالأرجل ذات الخلاخل، ومثلها (الأحذية الحالية ذات الكعاب العالية) أن يعلم الناس ما يخفين من الزينة، فتقع الفتنة بها.

واستدل الحنفية بهذا النهي على أن صوت المرأة عورة، فإنها إذا كانت منهية عن فعل يسمع له صوت خلخالها، فهي منهية عن رفع صوتها بالطريق الأولى.

والظاهر أن صوت المرأة ليس بعورة إن أمنت الفتنة، بدليل أن نساء النبي ﷺ كن يروين الأخبار للرجال الأجانب.

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي ارجعوا إلى طاعة الله والإنابة إليه أيها المؤمنون جميعاً، وافعلوا ما أمركم به من هذه الصفات والأخلاق الحميدة، واتركوا ما نهاكم عنه من غض البصر وحفظ

الفرج والدخول إلى بيوت الآخرين بلا استئذان وما كان عليه الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة، تفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة. وخوطبوا بصفة الإيمان للتنبيه على أن الإيمان الصحيح هو الذي يحمل صاحبه على الامتثال وعلى التوبة والاستغفار من الهفوات والزلات، فإن التوبة سبب الفلاح والفوز بالسعادة.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ - وجوب غض البصر من الرجال والنساء عما لا يحل من جميع المحرّمات وكل ما يخشى الفتنة من أجله؛ لأن البصر مفتاح الوقوع في المنكرات، وشغل القلب بالهواجس، وتحريك النفس بالوساوس، وبريد السقوط في الفتنة أو الزنى، ومنشأ الفساد والفجور.

٢ - وجوب حفظ الفروج أي سترها عن أن يراها من لا يحل، وحفظها من التلوث بالفاحشة كالزنى وفعل قوم لوط، واللمس والمفاخذة والسحاق.

٣ - تحريم الدخول إلى الحمام بغير مئزر، قال ابن عمر: أطيب ما أنفق الرجل درهم يعطيه للحمَّام في خلوة، أي في وقت لا يوجد فيه الناس أو قلة الناس. وذكر الترمذي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا بيتاً يقال له الحمام، قيل: يارسول الله، إنه يذهب به الوسخ ويذكّر النار، فقال: إن كنتم لابد فاعلين فادخلوه مستترين».

٤ - إن غض البصر وحفظ الفرج أطهر في الدين، وأبعد من دنس الذنوب، والله مطّلع عالم بأفعال العباد ونيات القلوب وهمسات الألسن، واستراق السمع والبصر، وبكل شيء، لا تخفى عليه خافية، ويجازي على ذلك كله.

٥ً - العورات أربعة أقسام:

أ - عورة الرجل مع الرجل: يجوز له أن ينظر إلى جميع بدنه إلا مابين السرة والركبة، وهما ليستا بعورة، وعند أبي حنيفة رحمه الله: الركبة عورة. وقال مالك: الفخذ ليست بعورة أي في الصلاة لا في النظر، والدليل على أنها عورة ماروي عن حذيفة «أن النبي ﷺ مرَّ به في المسجد، وهو كاشف عن فخذه، فقال ﷺ فيما رواه الحاكم عن محمد بن عبد الله بن جحش: غطِّ فخذك، فإن الفخذ عورة» وقال لعلي رضي الله عنه فيما رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم عن علي: «لا تبرز فخذك، ولا تنظر إلى فخذ حي ولا ميت». أما الأمرد فلا يحل النظر إليه.

ولا يجوز للرجل مضاجعة الرجل، وإن كان كل واحد منهما في جانب من الفراش؛ لما روى مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي سعيد الخدري أنه ﷺ قال: «لا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في ثوب واحد».

وتكره المعانقة وتقبيل الوجه إلا لولده شفقة. وتستحب المصافحة لما روى أنس قال: قال رجل: يارسول الله، الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحني له؟ قال: «لا»، قال: أيلتزمه ويقبّله؟ قال: «لا»، قال: أفيأخذ بيده ويصافحه؟ قال: «نعم».

ب - وعورة المرأة مع المرأة: كعورة الرجل مع الرجل، لها النظر إلى جميع بدنها إلا ما بين السرة والركبة، وعند خوف الفتنة لا يجوز، ولا تجوز المضاجعة.

والأصح أن المرأة الذمية (غير المسلمة) لا يجوز لها النظر إلى بدن المسلمة؛ لأنها أجنبية في الدين، والله تعالى يقول: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ وليست الذمية من نسائنا.

جـ - وعورة المرأة مع الرجل: إن كانت أجنبية عنه فجميع بدنها عورة، ولا يجوز له أن ينظر إلى شيء منها إلا الوجه والكفين؛ لحاجتها لذلك في البيع والشراء. ولا يجوز أن يتعمد النظر إلى وجه الأجنبية لغير غرض، وإن وقع بصره عليها بغتة يغض بصره، للآية: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾. وأجاز أبو حنيفة النظر مرة واحدة إذا لم يكن محل فتنة. ولا يجوز أن يكرر النظر إليها، للحديث المتقدم: «ياعلي لا تتبع النظرةَ النظرةَ، فإن لك الأولى، وليست لك الآخرة».

ويجوز النظر للخطبة، لقوله ﷺ فيما أخرجه ابن حبان والطبراني عن أبي حميد الساعدي: «إذا خطب أحدُكم المرأة فلا جناح عليه أن ينظر إليها، إذا كان إنما ينظر إليها لخطبته، وإن كانت لا تعلم» ويجوز النظر عند البيع ليعرفها عند الحاجة، وكذلك يجوز عند تحمل الشهادة النظر إلى الوجه؛ لأن المعرفة تحصل به. أما النظر للشهوة فهو محظور؛ لقوله ﷺ فيما أخرجه أحمد والطبراني عن ابن مسعود: «العينان تزنيان».

كذلك يجوز للطبيب الأمين أن ينظر للمرأة للمعالجة، ويجوز للختَّان أن ينظر إلى فرج المختون؛ لأنه موضع ضرورة، ويجوز تعمد النظر إلى فرج الزانيين لتحمل الشهادة على الزنى، وإلى فرج المرأة لتحمل شهادة الولادة، وإلى ثدي المرضعة لتحمل الشهادة على الرضاع. ويصح النظر لبدن المرأة للإنقاذ من غرق أو حرق وتخليصها منه.

وأما إذا كانت المرأة ذات محرم من الرجل بنسب أو رضاع أو مصاهرة فعورتها معه مابين السرة والركبة كعورة الرجل. وقال جماعة منهم أبو حنيفة: بل عورتها معه: مالا يبدو عند المهنة.

وأما إذا كانت المرأة زوجة: فيجوز له أن ينظر إلى جميع بدنها، حتى إلى فرجها، غير أنه يكره النظر إلى الفرج.

د - وعورة الرجل مع المرأة: إن كان أجنبياً منها فعورته معها مابين السرة والركبة. وقيل: جمع بدنه إلا الوجه والكفين كهي معه، والأول أصح بخلاف المرأة في حق الرجل؛ لأن بدن المرأة في ذاته عورة، بدليل أنه لا تصح صلاتها مكشوفة البدن، وبدن الرجل بخلافه. ولا يجوز لها قصد النظر عند خوف الفتنة، ولا تكرار النظر إلى وجهه، للحديث السابق: «احتجبا منه» أي عن ابن أم مكتوم، وإن كان أعمى.

وإن كان زوجاً فلها أن تنظر إلى جميع بدنه، غير أنه يكره النظر إلى الفرج، كما يكره له أيضاً.

ولا يجوز للرجل أن يجلس عارياً في بيت خالٍ، وله ما يستر عورته؛ لأنه روي أنه ﷺ سئل عنه، فقال فيما رواه البخاري والترمذي وابن ماجه: «الله أحق أن يستحيا منه» وقال فيما أخرجه الترمذي عن ابن عمر: «إياكم والتعري، فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط، وحين يفضي الرجل إلى أهله»[١].

٦ً - أمر الله تعالى النساء بألا يبدين زينتهن للناظرين إلا الوجه والكفين حذراً من الافتتان، والزينة نوعان: ظاهر وباطن، أما الظاهر فمباح لكل الناس من المحارم والأجانب. وأما الباطن فلا يحل إبداؤه إلا لمن سماهم الله تعالى في هذه الآية.

أما السّوار: فقالت عائشة: هو من الزينة الظاهرة؛ لأنه في اليدين. وقال مجاهد: هو من الزينة الباطنة؛ لأنه خارج عن الكفين، وإنما يكون في الذراع. وأما الخضاب فهو - في رأي ابن العربي - من الزينة الباطنة إذا كان في القدمين.

---

(١) تفسير الرازي: ٢٣/٢٠٢ - ٢٠٤

٧ً - يجب على المرأة ستر شعرها وعنقها ومقدم صدرها، لقوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ والخمار: ما تغطي به المرأة رأسها. روى البخاري عن عائشة قالت: رحم الله نساء المهاجرات الأُوَل لما نزل: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن أُزُرَهن فاختمرن بها.

٨ً - استثنى الله تعالى من الرجال الذين لا يجوز للمرأة إبداء زينتها لهم المحارم ومن في حكمهم وهم الأزواج، وآباؤهن وكذا الأجداد، سواء من جهة الأب أو الأم، وأبناء الأزواج ذكوراً وإناثاً، والإخوة الأشقاء أو لأب أو لأم، وأبناء الإخوة كذلك. ويلحق بهم الأعمام والأخوال، وهؤلاء هم الأقارب من جهة النسب، ومثلهم الأقارب من جهة الرضاع، وجميع هؤلاء يسمون المحارم.

ومن الاستثناء: النساء والمماليك العبيد والإماء المسلمات والكتابيات، في رأي الأكثرين، وقيل: الإماء فقط، والتابعون غير أولي الإربة وهم المسنون الضَّعَفَة أو البُلْه، أو العنّين أو الممسوح، وهم في المعنى متقاربون، والأطفال الذين لم يفهموا شيئاً عن عورات النساء، ولم يظهر فيهم الميل الجنسي لصغر سنهم.

٩ً - يحرم على المرأة فعل ما شأنه الإيقاع في الفتنة والفساد والتبرج والتعرض للرجال، كالضرب بالنعال، والتعطر والتزين عند الخروج من البيت. فإن ضربت المرأة بنعلها فرحاً بحليها فهو مكروه كما ذكر القرطبي.

١٠ً - التوبة على المؤمنين والمؤمنات واجبة وفرض متعين بلا خلاف بين الأمة، فإن كل إنسان محتاج إلى التوبة؛ لأنه لا يخلو من سهو وتقصير في أداء حقوق الله تعالى، فلا تترك التوبة في كل حال، ويلزم تجديد التوبة كلما تذكر الإنسان ذنبه؛ لأنه يلزمه أن يستمر على ندمه وعزمه إلى أن يلقى ربه. أخرج أحمد والبخاري والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر أنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «أيها الناس، توبوا إلى الله، فإني أتوب إليه كل يوم مئة مرة».

وشروط التوبة أربعة: الإقلاع عن الذنب، والندم على ما مضى، والعزم على ألا يعود إليه، ورد الحقوق إلى أهلها.

الحكم الثامن والتاسع والعاشر

زواج الأحرار ومكاتبة الأرقاء والإكراه على الزنى

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

القراءات:

﴿يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ﴾:

قرئ:

١- (يغنهِم الله) وهي قراءة أبي عمرو.

٢- (يغنهُمُ الله) وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف.

٣- (يغنهِمُ الله) وهي قراءة الباقين.

﴿مُّبَيِّنَـٰتٍ﴾:

قرئ:

١- (مُبَيِّنَات) وهي قراءة ابن عامر، وحفص، وحمزة، والكسائي.

٢- (مُبيَّنات) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، وخبره محذوف، تقديره: فيما يتلى عليكم الذين يبتغون الكتاب. أو ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ﴾ هو الخبر، ودخول الفاء لتضمن معنى الشرط.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلۡأَيَٰمَىٰ﴾ جمع أيِّم: وهي من الحرائر كل من ليس لها زوج، بكراً كانت أو ثيباً، وكل من ليس له زوج من الأحرار ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ للزواج والقيام بحقوقه ﴿مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾ عباد: جمع عبد، وإماء: جمع أمة وهي الرقيقة ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي غني ذو سعة لا تنفد نعمته إذ لا تنتهي قدرته ﴿عَلِيمٌ﴾ بخلقه يبسط الرزق ويقدر على مقتضى حكمته.

﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ﴾ ليجتهد في العفة ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ لا يتمكنون من مؤن النكاح وأسبابه المالية من مهر ونفقة، ويجوز أن يراد بالنكاح: ما ينكح به ﴿حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ يوسع عليهم من فضله، فيجدون ما يتزوجون به ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ المكاتبة: وهي أن يقول السيد لمملوكه: كاتبتك على كذا من الأقساط، فإن أديتها فأنت حر، فهي عقد بين المالك وعبده على أن يؤدي مالاً لسيده، فيعتق، أو هي إعتاق المملوك بعد أداء شيء من المال مقسطاً ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ﴾ الأمر فيه للندب عند أكثر العلماء ﴿إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ﴾ أي أمانة وقدرة على الكسب والاحتراف لأداء مال الكتابة، وقيل: صلاحاً في الدين ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾ أمر للسادة بإعطاء المكاتبين شيئاً من المال للاستعانة به في أداء ما التزموه لكم، أو حط شيء من مال

الكتابة، وهو للوجوب عند الأكثر، ويكفي أقل مايتمول. وقيل: ندب لهم إلى الإنفاق عليهم بعد أن يؤدوا ويعتقوا. وقيل: أمر لعامة المسلمين بإعانة المكاتبين وإعطائهم سهماً من الزكاة، ويحل للمولى السيد وإن كان غنياً؛ لأنه لا يأخذه صدقة كالدائن والمشتري.

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ لا تكرهوا إماءكم على الزنى ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ تعففاً عنه، وهذا شرط للإكراه فإنه لا يوجد دونه، وإن جعل شرطاً للنهي بقوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟﴾ فلا مفهوم للشرط، أي لا يلزم من عدم إرادة التحصن جواز الإكراه، فهو حرام مطلقاً. نزلت في عبد الله بن أبي كان له ست جوارٍ يكرههن على الكسب بالزنى ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ غفور لهن رحيم بهن، والإكراه لا ينافي المؤاخذة، فلا يقال: إن المكرهة غير آثمة، فلا حاجة إلى المغفرة، ولذا حرم على المكره القتل وأوجب عليه القصاص عند جماعة كالشافعية. ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي لتطلبوا بالإكراه الكسب.

﴿مُّبَيِّنَـٰتٍ﴾ مفصّلات ما تحتاجون إلى بيانه من الأحكام والحدود والآداب. وعلى قراءة فتح الياء يكون المعنى: مبيَّن فيها ما ذكر ﴿وَمَثَلًا﴾ أي قصة عجيبة وهي قصة عائشة ويوسف ومريم ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي ومثلاً من أمثال من قبلكم، أي من جنس أمثالهم وأخبارهم العجيبة، كقصة يوسف ومريم ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي عظة يوعظ بها المتقون، وتخصيصهم بالذكر؛ لأنهم المنتفعون بالعظة.

سبب النزول:

نزول الآية (٣٣):

﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ﴾: أخرج ابن السكن أنها نزلت في غلام لحوَيْطب بن عبد العُزّى يقال له: صبيح، سأله مولاه (عبده) أن يكاتبه، فأبى عليه، فأنزل الله

تعالى هذه الآية، وكاتبه حويطب على مئة دينار، ووهب له منها عشرين ديناراً فأداها، وقتل يوم حُنَيْن في الحرب.

نزول آية: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ﴾:

أخرج مسلم وأبو داود عن جابر رضي الله عنه أنه كان لعبد الله بن أبي جاريتان: مُسَيْكة وأُميمة، فكان يكرههما على الزنى، فشكتا ذلك إلى النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ الآية.

وقال مقاتل: كانت إماء أهل الجاهلية يساعين على مواليهن، وكان لعبد الله بن أبي رأس النفاق ست جوار: معاذة، ومُسَيْكة، وأميمة، وعمرة، وأروى، وقُتَيْلة، يكرههن على البغاء، وضرب عليهن ضرائب، فجاءت إحداهن ذات يوم بدينار، وجاءت أخرى بدونه، فقال لهما: ارجعا فازنيا، فقالتا: والله لا نفعل، قد جاءنا الله بالإسلام وحرَّم الزنى، فأتيتا رسول الله ﷺ وشكتا إليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

المناسبة:

بعد أن نهى الله تعالى عما لا يحل مما يفضي إلى السفاح أو الزنى المؤدي إلى اختلاط الأنساب كغض البصر وحفظ الفروج، أعقبه ببيان طريق الحل وهو الزواج الحافظ للأنساب وبقاء النوع الإنساني وترابط الأسرة ودوام الألفة وحسن تربية الأولاد، فقال: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ والخطاب للأولياء والسادة.

التفسير والبيان:

موضوع الآيات بيان طائفة من الأحكام والأوامر، أولها الأمر بالتزويج.

الحكم الثامن - ما يتعلق بالزواج:

قال الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ أي

زوجوا أيها الأولياء والسادة أو أيتها الأمة جميعاً بالتعاون وإزالة العوائق من لا زوج له من الرجال والنساء الأحرار والحرائر، ومن فيه صلاح من غلمانكم وجواريكم وقدرة على القيام بحقوق الزوجية وساعدوهم على الزواج بالإمداد بالمال، وعدم الإعاقة من التزويج، وتسهيل الوسائل المؤدية إليه. والصحيح أن الخطاب للأولياء، وقيل: للأزواج.

وظاهر الأمر في رأي الجمهور للندب والاستحباب والاستحسان؛ لأنه كان في عصر النبي ﷺ وسائر العصور بعده أيامى من الرجال والنساء، ولم ينكر أحد عليهم، ولأنه ليس للولي إجبار الأيم الثيب لو أبت التزوج، ولاتفاق العلماء على أنه لا يجبر السيد على تزويج عبده وأمته.

وذهبت طائفة من العلماء كالرازي إلى أن ظاهر الأمر هنا للوجوب على كل من قدر عليه، لخبر الصحيحين عن ابن مسعود: «يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة - مؤن الزواج - فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء». ولما جاء في السنن أن رسول الله ﷺ قال فيما رواه أبو داود والنسائي عن معقل بن يسار: «تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم». ورتبوا على القول بالوجوب ألا يجوز النكاح إلا بولي.

والمراد بالصلاح: معناه الشرعي وهو مراعاة أوامر الدين ونواهيه. وقيل: المراد به المعنى اللغوي وهو أهلية النكاح والقيام بحقوقه. والعباد كالعبيد: جمع عبد وهو الذكر من الأرقاء. والإماء جمع أمة، وهي الأنثى الرقيقة. وقوله ﴿وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ بتغليب الذكور على الإناث، واعتبر الصلاح في جانب الأرقاء دون الأيامى الأحرار والحرائر؛ لأنه عنصر مشجع على التغاضي من قبل السيد عن منافع العبيد والإماء، فلا يدفعهم إلى التزويج إلا استقامة هؤلاء المماليك وصلاحهم أو ظن قيامهم بحقوق الزوجية.

واستدل الإمام الشافعي رحمه الله بظاهر قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ على جواز تزويج الولي البكر البالغة بدون رضاها؛ لأن الخطاب في الآية للأولياء، فهم المأمورون بالتزويج لمن لهم الولاية عليهم، سواء كانت المولية كبيرة أم صغيرة، وسواء رضيت أم لم ترض. ولولا وجود أدلة أخرى من السنة على أنه لا يزوج الولي الثيب الكبيرة بغير رضاها، لكان حكمها حكم البكر الكبيرة، لعموم الآية. لكن قوله ﷺ فيما أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي عن ابن عباس: «البكر تستأمر في نفسها، وإذنها صماتها» يدل على وجوب استئذانها واعتبار رضاها، فكان ذلك مخصصاً للآية.

واستدل الشافعية بالآية على أن المرأة لا تلي عقد الزواج؛ لأن المأمور بتزويجها وليها، لكن الأولى حمل الخطاب في الآية على أنه خطاب للناس جميعاً بندبهم إلى المساعدة في التزويج، فيؤخذ حكم مباشرة العقد من غير هذه الآية.
واستدل بعض الحنفية بظاهر الآية: ﴿وَأَنكِحُوا۟﴾ على أنه يجوز للحر أن يتزوج بالأمة، ولو كان مستطيعاً مهر الحرة. ورد الشافعية بأن قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ [النساء: ٤/ ٢٥] - طولاً: مهراً - أخص من هذه الآية، والخاص مقدم على العام. كما أن العلماء أجمعوا على أن عموم الأيامى في الآية ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ﴾ مقيد بشروط: ألا تكون المرأة محرماً للزوج بنسب أو رضاع أو مصاهرة كالجمع بين الأختين ونحوهما كالعمة والخالة وبنت الأخ وبنت الأخت.

واستدل العلماء بقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ﴾ على أمرين:

الأول - أنه يجوز للمولى أن يزوج عبده وأمته بدون رضاهما.

والثاني - أنه لا يجوز للعبد ولا للأمة أن يتزوجا بغير إذن السيد، منعاً من تفويت استعمال حقه، ويؤيده قوله ﷺ فيما أخرجه أحمد: «أيما عبد تزوج بغير إذن مواليه، فهو زان».

ثم أزال الله تعالى التعلل بعدم وجدان المال فقال:

﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ هذا وعد بالغنى للمتزوج، فلا تنظروا إلى مشكلة الفقر، سواء فقر الخاطب أو المخطوبة، ففي فضل الله ما يغنيهم، والله غني ذو سعة، لا تنفد خزائنه، ولا حد لقدرته، عليم بأحوال خلقه، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر على وفق الحكمة والمصلحة. روى الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة حق على الله عونُهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله». وقال ابن مسعود: التمسوا الغنى في النكاح. إلا أن إغناء المتزوج مشروط بالمشيئة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٢٨/٩] وقوله هنا: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي يعلم المصلحة فيعطي بالحكمة.

وضمير ﴿إِن يَكُونُواْ﴾ راجع إلى الأيامى من الأحرار والحرائر والصالحين من العبيد والإماء، فيكون المراد من الإغناء التوسعة ودفع الحاجة. وقيل: إنه يرجع إلى الأيامى الأحرار والحرائر فقط؛ لأن المراد بالإغناء في قوله تعالى: ﴿يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ﴾ هو تمليك ما يحصل به الغنى، والأرقاء لا يملكون.

واستدل بعض العلماء بالآية على عدم جواز فسخ الزواج بالعجز عن النفقة؛ لأن الله تعالى لم يجعل الفقر مانعاً من التزويج في ابتداء الأمر، فلا يمنع استدامة الزواج بالأولى. وعلى كل حال فإن المقصود بالآية أنه يندب ألا يُرد الخاطب الفقير ثقة بما عند الله، كذلك يندب للمرأة إذا أعسر زوجها بنفقتها أن تصبر.

ويفهم من الآية أنه يندب للفقير أن يتزوج ولو لم يجد مؤن الزواج؛ لأنه إذا ندب الولي إلى تزويج الفقير، ندب الفقير نفسه إلى الزواج.

وبعد الأمر بتزويج الحرائر والإماء أغنياء أو فقراء، وضع القرآن العلاج

لحال العاجز عن وسائل الزواج، ولم يجد أحداً يزوجه، فقال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي وليجتهد في العفة وصون النفس من لا يتمكن من نفقات الزواج، ويكون المراد بالنكاح حقيقته الشرعية، وبالوجدان التمكن منه، ويجوز أن يراد بالنكاح هنا ما ينكح به، كرِكاب الذي هو اسم آلة لما يركب به. والمراد بالآية توجيه العاجزين عما يتزوجون به أن يجتهدوا في التزام جانب العفة عن إتيان ما حرم الله عليهم من الفواحش إلى أن يغنيهم الله من سعته، ويرزقهم ما به يتزوجون، فالتعفف عن الحرام واجب المؤمن، وفي الآية وعد كريم من الله بالتفضل عليهم بالغنى، فلا ييأسوا ولا يقلقوا.

جاء في الحديث الصحيح المتقدم: «يامعشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء» والباءة: مؤن الزواج من مهر ونفقة وغيرها.

واستدل بعض العلماء بالآية على أنه يندب ترك الزواج لمن لا يملك أهبته مع التوقان، وحينئذ يكون هناك تعارض مع الآية السابقة التي تندب إلى الزواج، فقال الشافعية: هذه الآية مخصصة للآية السابقة، أي أن تلك الآية في الفقراء الذين يملكون أهبة الزواج، وهذه الآية في الفقراء العاجزين عن أهبة الزواج. ويرى الحنفية تأويل هذه الآية، وأن النكاح أي المنكوحة ككتاب بمعنى مكتوب، ويكون الأمر بالاستعفاف هنا محمولاً على من لم يجد زوجة له، وحينئذ لا تعارض بين الآيتين، لكن قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يجعل هذا التأويل بعيداً.

الحكم التاسع - مكاتبة الأرقاء:

﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي والمماليك الذين يطلبون من سادتهم المكاتبة على أداء مال معين في مدة

معينة، فاعقدوا معهم عقد الكتابة إذا كانوا من أهل الصلاح والتقوى، والأمانة، والقدرة على الكسب وأداء المال المشروط لسيده. وقد فسر الخير بتفسيرات قيل: إنه الأمانة والقدرة على الكسب، وهو تفسير ابن عباس والشافعي. وقيل: إنه الحرفة، وفي ذلك حديث مرفوع أخرجه أبو داود في المراسيل والبيهقي في السنن: «إن علمتم فيهم حرفة، ولا ترسلوهم كَلّاً على الناس»، وقيل: إنه المال، وهو مروي عن علي وجماعة، وقيل: إنه الصلاح والإيمان وهو تفسير الحسن البصري، وهذا يقتضي ألا يكاتب غير المسلم، وفيه تشدد.

والجمهور على أن الأمر في قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ للإرشاد والندب والاستحباب، لا أمر تحتم وإيجاب، بل السيد مخير إذا طلب منه عبده الكتابة: إن شاء كاتبه وإن شاء لم يكاتبه، لقوله ﷺ فيما أخرجه أحمد وأبو داود: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه» وكما لا يجب عليه بيعه ممن يعتقه في الكفارة ولا يجبر، لا تجب عليه الكتابة ولا يجبر عليها، فالعقود كلها تقوم على التراضي.

وقال داود الظاهري وجماعة من التابعين: الأمر للوجوب، لما رواه البخاري تعليقاً وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن أنس بن مالك قال: سألني سيرين المكاتبة، فأبيت عليه، فأتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأقبل علي بالدِّرَّة، وتلا قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ فكاتبه.

ويجوز عملاً بظاهر إطلاق الآية ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ أن يكون البدل حالاً أو مؤجلاً بقسط واحد أو أكثر، وهو مذهب الحنفية وأصحاب مالك. ومنع الشافعية الكتابة على بدل حال؛ لأن الكتابة تشعر بالتنجيم (التقسيط) ولأن المكاتب عاجز عن الأداء في الحال، فيرد إلى الرق، ولا يحصل مقصود الكتابة. كذلك منعوا الكتابة على أقل من نجمين (قسطين) لأنه عقد إرفاق وتعاون، ومن تمام الإرفاق التنجيم. وهذا خلاف ظاهر الآية.

والكتابة مشروطة في الآية بظن الخير في المكاتب، فإن لم يعلم فيه الخير، لم تجب ولم تندب، بل ربما تكون الكتابة محرمة، كما إذا علمنا أن المكاتب يكتسب بطريق الفسق، أو الموت جوعاً. كما تحرم الصدقة والقرض لمن يصرفهما في محرَّم.

﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي أعطوهم أيها السادة شيئاً من مال الكتابة كالربع أو الثلث أو السبع أو العشر، وكل ذلك مروي عن التابعين، أو أقل متمول كما قال الشافعي. وحط شيء من مال الكتابة أولى من الإيتاء؛ لأنه المأثور عن الصحابة. والإيتاء عند الجمهور مندوب للمساعدة والخلاص، وذهب الشافعي إلى أن الإيتاء واجب، وفي معناه الحط، عملاً بظاهر الآية.

وقال جماعة من العلماء: إن الأمر متوجه إلى الناس كافة من سهم الزكاة في قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ أي في تحرير الرقاب، وهو مذهب الحنفية، والأمر حينئذ للوجوب. ويؤيده الحديث المتقدم عن أبي هريرة: «ثلاثة حق على الله عونهم: المكاتب الذي يريد الأداء، والناكح يريد العفاف، والمجاهد في سبيل الله». قال ابن كثير: والقول الأول أشهر، أي جعل الخطاب للسادة، لا لجماعة المسلمين؛ لأن الخطاب في الزكاة فرض متعين، والآية هنا تضيف على الزكاة مطلباً آخر على السادة.

الحكم العاشر - الإكراه على البغاء:

نهى الله تعالى المؤمنين عن جمع المال من طرق حرام فقال: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي لا تجبروا إماءكم على الزنى، سواء أردن التعفف عنه أو لا، طلباً لعروض الدنيا المادية من مال وولد وغيرهما. وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ شرط لحدوث الإكراه وقيد لبيان الواقع الذي بسببه نزلت الآية، بدليل ما أخرجه ابن مردويه عن علي

كرم الله وجهه أنهم كانوا في الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنى ليأخذوا أجورهن، فنُهوا عن ذلك في الإسلام ونزلت الآية، وكذلك بينا في سبب النزول أن عبد الله بن أبي كان له جوارٍ يكرههن على الزنى كسباً للمال.

فالتقييد بقيدي إرادة التحصن وابتغاء عرض الحياة الدنيا لا مفهوم له، ويحرم الإكراه مطلقاً سواء وجد هذان القيدان أم لا، وإنما جاء ذلك بقصد النص على عادة أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة، أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت، فنص على ذلك للتشنيع، ثم إن قيد إرادة التحصن شرط في تصور الإكراه وتحققه وليس شرطاً للنهي، لكن في الحقيقة ذكر الإكراه مغن عن هذا القيد، فيتصور بإكراه غير التي تريد الزنى، ثم حدث الإجماع على تحريم الإكراه على الزنى عند عدم إرادتهن التحصن أو إرادة التحصن والتعفف.

والتعبير بإن في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ بدل «إذا» للإشعار بوجوب الانتهاء عن الإكراه في حال التردد والشك بإرادة التحصن، فيكون تحريم الإكراه عند تحقق الوقوع أشد وأقبح وأولى.

﴿وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي ومن يحدث منه الإجبار على البغاء للإماء فإن الله غفور لهن، رحيم بهن من بعد إكراههن. وهذا يشعر أنه لو حدث الزنى بالإكراه فهو ذنب وإثم، بدليل المغفرة، ولأن مثل هذا الفعل لا يخلو من مطاوعة.

وواضح أن المغفرة عائدة إلى المكرهات، وهو رأي أكثر العلماء، ويؤيده قراءة ابن مسعود: «من بعد إكراههن لهن غفور رحيم». وقال بعضهم: المغفرة عائدة إلى المكرِهين بشرط التوبة، وهو فتح باب الأمل أمامهم، وهو تأويل ضعيف بعيد لأن فيه تهوين أمر الإكراه على الزنى، والحال حال تهويل وتشنيع على من أقدم على الإكراه.

وبعد تفصيل هذه الأحكام وبيانها ذكر الله تعالى فضائل هذه السورة، أو وصف القرآن بصفات ثلاث هي:

أً - ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ أي أنزلنا في هذه السورة وغيرها آيات مفصّلات الأحكام والحدود والشرائع التي أنتم بحاجة إليها.

٢ً - ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي وأنزلنا أيضاً قصة عجيبة من مثل أخبار الأمم المتقدمة وهي قصة الإفك العجيبة المشابهة لقصة يوسف ومريم عليهما السلام. فقوله: ﴿وَمَثَلًا﴾ أي ومثلاً من أمثال من قبلكم أي قصة عجيبة من قصصهم، يعني قصة عائشة رضي الله عنها كقصة يوسف ومريم عليهما السلام.

٣ً - ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي وأنزلنا مواعظ وزواجر لمن اتقى الله وخاف عذابه، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢٤/٢] وقوله عز وجل: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ [النور: ٢٤/١٢].

أي أن هذه الأوصاف إما لما في هذه السورة من أحكام ومواعظ وأمثال، وإما لجميع ما في القرآن من الآيات البينات والأمثال والمواعظ، والأول رأي الزمخشري، والثاني رأي الرازي وابن كثير.

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمنت الآيات أحكاماً رئيسة كبرى ثلاثة هي ما يتعلق بالزواج، ومكاتبة الأرقاء، والإكراه على الزنى.

أً - أما ما يتعلق بالزواج: فقد ذكر الله تعالى حكم زواج القادرين على تكاليفه، والعاجزين عن أهبته.

أ - فإن كان الشخص قادراً على الزواج صحياً ومالياً، فالله تعالى يأمر

الأولياء بالتزويج، تحقيقاً للعفة والستر والصلاح، فإن الزواج طريق التعفف. والصحيح أن الخطاب للأولياء، لذا قال أكثر العلماء: في الآية دليل على أن المرأة ليس لها أن تزوج نفسها بغير ولي.

وقال أبو حنيفة: إذا زوجت المرأة نفسها ثيباً كانت أو بكراً بغير ولي من كفء لها جاز.

وحكم الزواج يختلف باختلاف حال الإنسان من خوف الوقوع في الزنى ومن عدم صبره، ومن قوته على الصبر وزوال خشية الزنى، فإن خاف الهلاك في الدِّين أو الدنيا أو فيهما فالزواج حتم فرض، وإن لم يخش شيئاً وكانت الحال معتدلة، فقال الشافعي: الزواج مباح، وقال مالك وأبو حنيفة وأحمد: هو مستحب. دليل الرأي الأول: أن الزواج قضاء لذة، فكان مباحاً كالأكل والشرب، ودليل الرأي الثاني الحديث الصحيح المتفق عليه بين الشيخين وأحمد عن أنس: «من رغب عن سنتي فليس مني».

ونهى الحق تعالى عن الامتناع عن التزويج بسبب فقر الرجل والمرأة، ووعد بالغنى للمتزوجين الطالبين رضا الله والاعتصام من معاصيه، في قوله: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾. فإن وجد متزوج لا يستغني، فلا يخل بمعنى الآية، إذ لا يلزم من هذا دوام الغنى واستمراره، بل لو كان في لحظة واحدة لصدق الوعد، فالمال غاد ورائح، أو أن الغنى مرتبط بمشيئة الله تعالى، ويكون معنى الآية: يغنيهم الله من فضله إن شاء؛ كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ [الرعد: ١٣/٢٦] .

وهذه الآية: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ دليل على تزويج الفقير، ولا يقول: كيف أتزوج وليس لي مال؛ فإن رزقه على الله. وقد زوَّج النبي ﷺ المرأة التي أتته تَهَب له نفسها لمن ليس له إلا إزار واحد، وليس لها بعد ذلك فسخ الزواج بالإعسار؛ لأنها دخلت عليه. وليس في الآية دلالة على

منع التفريق بسبب الإعسار بعد أن تزوجت المرأة موسراً، وإنما يفرّق بينهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء: ٤/ ١٣٠] . كل ما في الأمر أن الآية وعد بالإغناء لمن تزوج فقيراً.

ب - وأما إن كان الشخص عاجزاً عن تكاليف الزواج، فالله يأمره بالاجتهاد في التعفف، فقال: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ﴾ الخطاب لمن يملك أمر نفسه، لا لمن زِمامه بيد غيره، فإنه يقوده إلى ما يراه، كالمحجور عليه. والاستعفاف: طلب أن يكون عفيفاً، والله يأمر بهذه الآية كل من تعذّر عليه النكاح ولا يجده بأي وجه أن يستعفف.

ولما كان أغلب الموانع عن الزواج عدم المال وعد تعالى بالإغناء من فضله، فيرزقه ما يتزوج به، أو يجد امرأة ترضى باليسير من الصداق، أو تزول عنه شهوة النساء.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي طَوْل (مؤن) نكاح، فحذف المضاف. أو يراد به ما تنكح به المرأة من المهر والنفقة، كاللِّحاف: اسم لما يُلتحف به، واللباس اسم لما يلبس. فعلى هذا لا حذف في الآية.

وعلى هذا من تاقت نفسه إلى الزواج إن وجد التكاليف المالية فالمستحب له أن يتزوج، وإن لم يجدها فعليه بالاستعفاف، فإن أمكن ولو بالصوم، فإن الصوم له وِجاء، كما جاء في الخبر الصحيح. ومن لم تتُق نفسه إلى النكاح فالأولى له التخلي لعبادة الله تعالى.

٢ - وأما مكاتبة الأرقاء من عبيد وإماء فهي أمر مستحب شرعاً، لأن الشرع يتشوف إلى تحرير الأنفس البشرية، وإذا تحرر الإنسان ملك نفسه، واستقل واكتسب وتزوج إذا أراد، فيكون الزواج أعف له. والكتابة: عقد بين السيد وعبده، وهي في الشرع: أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه مُنَجَّماً عليه (مقسطاً) فإذا أدّاه فهو حرّ.

وتطلب الكتابة إن علم السيد في المكاتب خيراً، أي ديناً وصدقاً وصلاحاً، ووفاء بالمعاملة، وأمانة وقدرة على الاكتساب، وإلا لم تطلب. واختلف العلماء في كتابة من لا حرفة له، فكرهه الأوزاعي وأحمد وإسحاق، ورخص فيه مالك وأبو حنيفة والشافعي.

وتكون الكتابة بقليل المال وكثيره، وعلى أَنْجُم (أقساط) ولا خلاف في ذلك بين العلماء. وقال الشافعي: لا بدّ فيها من أجل، وأقلها ثلاثة أنجم، وقال الجمهور: تجوز ولو على نجم (قسط) واحد. ولا تجوز حالَّة ألبتة عند الشافعي وتجوز عند الحنفية وأصحاب مالك.

والمكاتب عبد ما بقي عليه من مال الكتابة شيء؛ لقوله ﷺ فيما رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو: «المكاتب عبد ما بقي عليه من مكاتبته درهم». وهو متفق عليه بين المذاهب.

وإذا عجز المكاتب عن قسط، ولم يطالبه السيد، لا تنفسخ الكتابة ما داما على ذلك ثابتين.

وإذا أدى المكاتب ما التزم به عتق، ولا يحتاج إلى إعتاق السيد، ويعتق معه أولاده الذين وُلدوا أثناء الكتابة، ولا يعتق الولد قبل الكتابة إلا بشرط.

وقد أمر الله السادة بإعانة المكاتبين في مال الكتابة؛ إما بأن يعطوهم شيئاً مما في أيديهم، أو يحطُّوا عنهم شيئاً من مال الكتابة.

٣ - وأما الإكراه على الزنى أو الإجارة على الزنى: فهو حرام قطعاً، سواء أرادت الفتاة ذلك أو امتنعت عنه، فلا فرق في حرمة هذا الإكراه بين حال إرادة التحصن (التعفف) أو حال عدم إرادته، كما لا فرق بين قصد الكسب الدنيوي والأولاد أو عدم قصده. وبالرغم من حرمة فعل المستكرهة فإن الله غفور للمكرهات رحيم بهن؛ فإن الإكراه أزال العقوبة الدنيوية، وهو عذر

للمكرهة، أما المكرِه فلا عذر له فيما فعل. وما أشبه الأمس باليوم فإن المرأة أصبحت في عصرنا أداة للسياحة واستقطاب الزبائن والدعاية.

٤ - عدد الله تعالى في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ﴾ على المؤمنين نعمه فيما أنزل إليهم من الآيات المنيرات الواضحات، وفيها من أمثال الماضين للتحفظ عما وقعوا فيه، وهي أيضاً موعظة وعبرة لمن اتقى الله وخاف عقابه.

الله منوِّر السماوات والأرض بدلائل الإيمان وغيرها

﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾

القراءات:

﴿دُرِّىٌّ﴾:

قرئ:

١- (دِرِّيءٌ) وهي قراءة أبي عمرو، والكسائي.

٢- (دُرِّيءٌ) وهي قراءة حمزة.

٣- (دُرِّيٌّ) وهي قراءة الباقين.

﴿يُوقَدُ﴾:

قرئ:

١- (تَوَقَّدَ) وهي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو.

٢- (يُوْقَدُ) وهي قراءة نافع، وابن عامر، وحفص.

٣- (تُوْقَدُ) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ ﴿مَثَلُ﴾ مبتدأ، و﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ خبره، وهاء ﴿نُورِهِۦ﴾ إما عائدة على الله تعالى، أو على المؤمن، أو الإيمان في قلب المؤمن.

﴿دُرِّيٌّ﴾ صفة: ﴿كَوْكَبٌ﴾، وهو منسوب إلى الدُّر، أو أصله (دُرّيءٌ) بالهمز من الدرء، فقلبت الهمزة ياء، وأدغمت في الياء قبلها، والدرء: الدفع، ومعناه أنه يدفع الظلمة لتلألئه.

﴿زَيْتُونَةٍ﴾ بدل أو عطف بيان.

البلاغة:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿نُورُ﴾ من إطلاق المصدر على اسم الفاعل للمبالغة، أي منوِّر كل شيء، كأنه عين نوره. ومن فسر ذلك بأنه هادي أهل السماوات والأرض ببراهينه وبيانه، فهو استعارة.

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ تشبيه تمثيلي، شبه نور الله الذي جعله في قلب المؤمن بالمصباح في كوة (طاقة) داخل زجاجة، تشبه الكوكب الدري في الصفاء والحسن، سمي تمثيلياً لأن وجه الشبه منتزع من متعدد.

المفردات اللغوية:

﴿ٱللَّهُ نُورُ﴾ أي ذو نور يهدي به أهل السماوات والأرض، أو منور السماوات والأرض، من طريق المجاز. وأصل النور: ما به الإضاءة الحسية التي بها تبصر العين، ويطلق شرعاً على ما به الاهتداء والإدراك، فأهل

السماوات والأرض أي العالم كله يهتدون بنوره .﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي صفة نوره العجيبة الشأن في قلب المؤمن ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ أي كَوَّة أو طاقة مسدودة غير نافذة من الخلف .﴿مِصْبَاحٌ﴾ سراج .﴿زُجَاجَةٍ﴾ قنديل .﴿كَأَنَّهَا﴾ أي الزجاجة والنور فيها ﴿ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ نجم مضيء. والدري: منسوب إلى الدر اللؤلؤ، أو من الدرء: أي الدفع لدفعه الظلام بسبب تلألئه .﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ أي من زيت .﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي لا شرقية فقط تقع عليها الشمس أحياناً، ولا غربية فقط تتعرض للشمس أحياناً أخرى، وإنما هي في موقع وسط تقع عليها الشمس طول النهار، وتتعرض للهواء المعتدل دون حرّ أو برد، فتكون ثمرتها أنضج وأطيب، وزيتها أجود الزيوت وأصفاها.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي يكاد يضيء بنفسه من غير نار لصفائه وتلألئه وفرط وبيصه .﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ نور متضاعف، فإن نور المصباح زاد في إنارته صفاء الزيت، فهو نور فوق نور، اجتمع فيه نور السراج (المصباح) وبهاء الزجاجة، وصفاء الزيت، فاكتمل الإشعاع. ومعنى تشبيه نور الله بنور هذا المصباح لتقريب الأمر إلى الأذهان: هو تمثيل الهدى الذي دلت عليه الآيات المبينات في جلاء مدلولها، وظهور مضمونها بالمشكاة المنعوتة بالأوصاف المذكورة. أو تمثيل لما نور الله به قلب المؤمن من المعارف والعلوم بنور المشكاة المنبث من مصباحها .﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي يهدي الله لهذا النور الثاقب وهو دلالة الآيات أو دين الإسلام أو إيمان المؤمن من يشاء من عباده .﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ يبين الله الأمثلة للناس، تقريباً لأفهامهم، وتصويراً للمعقول بالمحسوس توضيحاً وبياناً، ليعتبروا فيؤمنوا. ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ معقولاً كان أو محسوساً، ظاهراً كان أو خفياً، وفيه وعد ووعيد، لمن تدبرها، ولمن لم يكترث بها.

المناسبة:

بعد بيان الشرائع والأحكام الجزئية العملية (أحكام الفقه) والأخلاق

والآداب (علم الأخلاق) انتقل البيان الرباني إلى دائرة العقيدة والإيمان وهي الإلهيات، فذكر الله تعالى مثلين:

أحدهما:

بيان أن دلائل الإيمان في غاية الظهور، فتنوير العالم كله بالآيات الكونية والآيات المنزلة على رسوله دليل واضح قاطع على وجود الله تعالى ووحدانيته وقدرته وعلمه وسائر صفاته العليا، وهو أيضاً هادٍ إلى صلاح الدنيا والآخرة.

الثاني:

بيان أن أديان الكفرة في نهاية الظلمة والخفاء، وهو موضوع الآيات التالية بعدئذ.

التفسير والبيان:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي الله منور العالم كله وهاديه بما أقام فيه من أدلة في الكون على وجوده وتوحيده، وبما أنزل على رسله من الآيات البينات الواضحات، فمن اهتدى بذلك النور واستنار قلبه بهداية الله فاز بسعادة الدنيا والآخرة. وهذا هو النور المعنوي. أما النور الحسي فواضح أيضاً أن الله هو مصدر النور، وخالق النور، وماحي الظلام، ومدبر الكون بنظام دقيق ثابت، وله عليه الهيمنة التامة والشاملة والمستمرة في كل لحظة وزمان.

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ أي شبيه هذا النور وهو نور الله القائم في صفحة الكون وبيان القرآن وما أودعه في قلب المؤمن من الإيمان كنور مصباح في قنديل زجاجي صاف مزهر، موضوع في مشكاة (كوّة أو طاقة) لينبعث النور في اتجاه معين تقتضيه الحاجة، وكأن زجاج هذا المصباح (السراج أو القنديل) في إضاءته كوكب عظيم ونجم ضخم من الكواكب السيارة مثل الزُّهرة وعطارد والمُشْتري.

والظاهر أن الضمير في ﴿نُورِهِۦ﴾ عائد إلى الله عز وجل، في تنويره الكون، وهدايته قلب المؤمن.

﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي أن زيت المصباح يستمد من زيت زيتون شجرة مباركة كثيرة المنافع، زرعت في جبل عال أو في صحراء، ليست مما تطلع عليه الشمس في وقت شروقها فقط، أو غروبها فقط، بسبب ظل حاجب للشمس فيما عدا ذلك، بل هي في مكان وسط تتعرض للشمس حالتي الطلوع والغروب ومن أول النهار إلى آخره، فهي شرقية غربية تصيبها الشمس بالغداة والعشي، فيجيء زيتها صافياً معتدلاً مشرقاً.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي إن زيتها لصفائه وبريقه وإشراقه كأنه يضيء بنفسه، قبل إضاءته ومسّ النار له؛ لأن الزيت إذا كان خالصاً صافياً، ثم رئي من بعيد، يرى كأن له شعاعاً، فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوء، كذلك قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم، ازداد نوراً على نور، وهدى على هدى. قال يحيى بن سلام: قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يبيَّن له، لموافقته له، وهو المراد من قوله ﷺ فيما رواه البخاري في التاريخ وأبو داود عن أبي سعيدالخدري: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله»[١].

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي هو نور مترادف متضاعف، قد اجتمعت فيه المشكاة (الطاقة) والزجاجة والمصباح والزيت، لجعل النور قوياً مشعاً لا مجال لأي تقوية أخرى فيه، فالمشكاة تحصر النور في اتجاه واحد غير مشتت ولا موزع، وبهاء الزجاجة يزيد الإنارة والتلألؤ وانعكاس الضوء، والقنديل مصدر

(١) تفسير الرازي: ٢٣/ ٢٣٧

الطاقة الإشعاعية الكافية التي لا تتوافر فيما سواه، وصفاء الزيت ونقاؤه من أهم عوامل الاحتراق الكامل وتوافر الإضاءة الكاملة.

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي يرشد الله إلى هدايته ويوفق من يختاره من عباده، بالنظر وإعمال الفكر وتدبر آي الكون.

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ أي يبين الله تعالى للمكلفين من الناس دلائل الإيمان ووسائل الهداية، ويبصرهم بما خفي عليهم من أمور الحق في صور مختلفة، بضرب الأمثال، وعقد التشبيهات، وتصوير المعاني بصور المحسوسات المألوفة، لترسيخها في الأذهان، وتثبيتها في أعماق الفؤاد والنفس، فيصير الإيمان راسخاً في القلب كالجبال الراسيات. وهذا من مزايا القرآن البلاغية الرائعة أنه يصور المعقولات والمعاني بصور الماديات والمحسوسات.

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي والله عالم علماً تاماً شاملاً بجميع الأشياء المعقولة والحسية، الباطنة والظاهرة، يمنح الهداية لمن كان أهلاً لها، مستعداً لتلقيها. وهذا وعد لمن أعمل فكره ووعى وسائل الهداية، ووعيد لمن أعرض، فلم يتدبر ولم يتفكر فيها، ولم يكترث بها.

والخلاصة: هذا مَثَل نور الله وهداه في قلب المؤمن، فكما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار، فإذا مسّته ازداد ضوءاً على ضوء، يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاء ازداد هدى على هدى، ونوراً على نور.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه الآية لا يراد بها ظاهرها وإنما هي مؤولة، وتأويلها مختلف فيه، وأصح التأويلات ما ذكره جمهور المتكلمين وابن عباس وأنس[(١)]: وهو أن الله

(١) تفسير الرازي: ٢٣/ ٢٣١ وما بعدها.

هادي أهل السماوات والأرض، وهداية الله تعالى قد بلغت في الظهور والجلاء إلى أقصى الغايات، وتلك الهداية هي الآيات البينات القائمة في الكون والمنزلة على الرسل بمنزلة المشكاة التي تكون فيها زجاجة صافية، وفي الزجاجة مصباح يتّقد بزيت بالغ النهاية في الصفاء.

ومثل نور الله أي صفة دلائله التي يقذفها في قلب المؤمن، مثل المصباح الذي تكاملت فيه وسائل الإنارة وهي المشكاة (الكَوَّة في الحائط غير النافذة) وهي أجمع للضوء، والمصباح فيها أكثر إنارة منه في غيرها، والزجاجة لأنها جسم شفَّاف، والمصباح فيه أنور منه في غير الزجاج، فصارت الزجاجة في الإنارة والضوء كالكوكب الدرّي المتلألئ، والزيت الصافي النقي النابع من زيتون شجرة كثيرة المنافع، تتعرض للشمس والهواء طوال النهار، فهي ليست شرقية فحسب وهي التي تصيبها الشمس إذا شرقت، ولا تصيبها لوجود الساتر الحاجب إذا غربت، وليست غربية فحسب عكس الشرقية: وهي التي تصيبها الشمس إذا غربت ولا تصيبها وقت الشروق، فليست خالصة للشرق فتسمى شرقية ولا للغرب فتسمى غربية، بل هي شرقية غربية، في صحراء واسعة من الأرض، لا يواريها عن الشمس شيء، وهو أجود لزيتها.

والأنوار مترادفة متضاعفة مجتمعة بعضها مع بعض، كذلك قلب المؤمن يزداد إيماناً وهداية بأضواء القرآن وهداية الله تعالى.

والله تعالى يبين الأشياء بالأمثال الحسية وغيرها تقريباً إلى الأفهام، وهو عليم بكل شيء يحقق المراد، وبمن هو أهل للهداية والضلال.

فهذا مثل للقرآن في قلب المؤمن، فكما أن هذا المصباح يستضاء به ولا ينقص، فكذلك القرآن يُهتَدى به ولا ينقص، فالمصباح القرآن، والزجاجة قلب المؤمن، والمشكاة لسانه وفهمه، والشجرة المباركة شجرة الوحي. ويكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار: معناه تكاد حجج القرآن تتضح ولو لم يقرأ.

و﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾: معناه أن القرآن نور من الله تعالى لخلقه، مع ما أقام لهم من الدلائل والإعلام قبل نزول القرآن، فازدادوا بذلك نوراً على نور، وهذا النور عزيز لا يناله إلا من أراد الله هداه، والله أعلم بالْمَهْدِيّ والضالّ.

وأما ما لا تعلق له بالآية: فيجوز أن يقال: لله تعالى نور، من جهة المدح؛ لأنه أوجد الأشياء، ونور جميع الأشياء: منه ابتداؤها، وعنه صدورها. وهو سبحانه ليس من الأضواء المدركة، جلّ وتعالى عما يقول الظالمون عُلوّاً كبيراً[1].

وهو تعالى خالق النور الحسي في السماوات والأرض، ومدبّرهما على أحسن نظام وأتمه وأدقه، ونوّر السماء بالملائكة وبالكواكب، والأرض بالأنبياء وبالشرائع وبالفطرة السليمة والعقل النيّر المرشد إلى الخير، فلو تفكر إنسان بعقل حرّ بريء متجرد من التأثر باتجاه معين أو عقيدة سابقة، لآمن بالله تعالى رباً وإلهاً واحداً إيماناً كاملاً، يتزايد وينمو ويتبلور بهداية القرآن وآياته البينات، والله أعلم.

المؤمنون المهتدون بنور الله تعالى

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾

القراءات:

﴿بُيُوتٍ﴾:

---

(١) تفسير القرطبي: ١٢/٢٥٦ - ٢٦٤

قرئ:

١- (بُيُوت) وهي قراءة ورش، وأبي عمرو، وحفص.

٢- (بِيُوت) وهي قراءة الباقين.

﴿يُسَبِّحُ﴾:

وقرأ ابن عامر (يُسَبَّحُ).

الإعراب:

﴿فِي بُيُوتٍ﴾ إما صفة (مشكاة) في قوله تعالى: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وتقديره: كمشكاة كائنة في بيوت، أو متعلق بقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾. ﴿يُسَبِّحُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ﴿رِجَالٌ﴾ ومن قرأ بضم الياء وفتح الباء (يُسَبَّحُ) كان ﴿رِجَالٌ﴾ مرفوعاً بفعل مقدر دلَّ عليه ﴿يُسَبِّحُ﴾ كأنه قيل: من يسبحه؟ فقال: رجال، أي يسبحه رجال. و﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول، أي عن ذكرهم الله. ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾: الأصل أن تقول: وإقامة الصلاة، إلا أنه حذفت التاء تخفيفاً؛ لأن المضاف إليه صار عوضاً عنها، كما صار عوضاً عن التنوين، كما صارت (ها) في (يا أيها) عوضاً عن المضاف إليه.

البلاغة:

﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ إطناب بذكر الخاص بعد العام؛ لأن الصلاة من ذكر الله.

﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ﴾ جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿فِي بُيُوتٍ﴾ متعلق بما قبله، أي كمشكاة في بعض بيوت أو توقد في بعض

بيوت. أو متعلق بـ ﴿يُسَبِّحُ﴾ الآتي. والبيوت هنا: المساجد المخصصة لذكر الله؛ لأن الصفة تلائمها .﴿أَذِنَ﴾ أمر وقضى .﴿أَن تُرۡفَعَ﴾ بالتعظيم أي تعظم وتطهر عن الأدناس والأنجاس وعن لغو الأقوال، أو ترفع بالبناء. ﴿وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ بتوحيده .﴿يُسَبِّحُ﴾ يصلي أو ينزه ويقدس. ﴿بِٱلۡغُدُوِّ﴾ مصدر بمعنى الغداة أو الغدوات، أي أول النهار .﴿وَٱلۡأٓصَالِ﴾ جمع أصيل، وهو العشي أو العشايا، أي آخر النهار من بعد الزوال.

﴿رِجَالٞ﴾ أي ينزهونه ويسبحونه رجال، أي يصلون له فيها بالغدوات والعشايا .﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ﴾ أي لا تشغلهم معاملة رابحة، سواء بالتجارة أو الصناعة أو غيرهما .﴿وَلَا بَيۡعٌ﴾ مبالغة بالتعميم بعد التخصيص إن أريد به مطلق المعاوضة، أو بإفراد ما هو الأهم من قسمي التجارة، فإن الربح يتحقق بالبيع، ويتوقع بالشراء، والثاني هو الأولى .﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ إقامتها لوقتها. ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ ما يجب إخراجه من المال للمستحقين .﴿تَتَقَلَّبُ﴾ تضطرب وتتغير من الهول والخوف في يوم القيامة، فهو اليوم المراد.

﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ متعلق بـ ﴿يُسَبِّحُ﴾ أو ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ﴾ أو ﴿يَخَافُونَ﴾. ﴿أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ أي أحسن جزاء أو ثواب عملهم، و﴿أَحۡسَنَ﴾ بمعنى حسن.

المناسبة:

بعد أن بين الله تعالى كون نوره سبيلاً لهداية عباده، بما أقام لهم من الآيات البينات، ذكر هنا حال المنتفعين بذلك النور.

التفسير والبيان:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ هذا متعلق بما قبله أي كمشكاة كائنة في مساجد أمر الله أن ترفع بالبناء أو التعظيم بتطهيرها من

الأنجاس الحسية، والمعنوية مثل الشرك والوثنية ولغو الحديث، ويخصص الدعاء والعبادة فيها لله، ويذكر فيها اسم الله بتوحيده، أو بتلاوة كتابه.

قال قتادة: هي هذه المساجد، أمر الله سبحانه وتعالى ببنائها وعمارتها ورفعها وتطهيرها. وقال ابن عباس: «المساجد: بيوت الله في الأرض، تضيء لأهل السماء، كما تضيء النجوم لأهل الأرض». وقال عمرو بن ميمون: «أدركت أصحاب رسول الله ﷺ وهم يقولون: المساجد بيوت الله، وحقٌّ على الله أن يُكرِم من زاره فيها». وأخرج الشيخان في الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من بنى مسجداً لله يبتغي به وجه الله، بنى الله له مثله في الجنة».

والسبب في جعل المشكاة في مساجد: أن المصباح الموضوع في الزجاجة الصافية إذا كان في المساجد كان أعظم وأضخم، فكان أضوأ، فكان التمثيل به أتم وأكمل، كما قال الرازي.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ، رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي ينزه الله ويقدسه ويصلي في تلك المساجد في أوائل النهار بكرة وغدوة، وأواخره في الآصال والعشايا رجال لا تشغلهم الدنيا والمعاملات الرابحة عن ذكر الله وحده، وإقامة الصلاة لوقتها، وأداء الزكاة المفروضة عليهم للمستحقين.

وقوله: ﴿رِجَالٌ﴾ فيه إشعار بهمتهم العالية، وعزيمتهم الصادقة، التي بها صاروا عماراً للمساجد التي هي بيوت الله في أرضه، وشكره وتوحيده وتنزيهه، كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٢٣] . والمراد بقوله: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ غير الصلاة، منعاً من التكرار. وخص التجارة بالذكر؛ لأنها أعظم ما يشتغل به الإنسان عن الصلاة.

وشبيه الآية قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [المنافقون: ٦٣/٩] .

ويستدل بكلمة ﴿رِجَالٞ﴾ على أن صلاة الجماعة مطلوبة من الرجال، أما النساء فصلاتهن في بيوتهن أفضل لهن؛ لما رواه أبو داود عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حُجْرتها، وصلاتُها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها». وروى الإمام أحمد عن أم سلمة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ قال: «خير مساجد النساء قعر بيوتهن».

وتخصيص المساجد بالذكر؛ لأنها مصدر إشعاع عقَدي وفكري وتنظيمي وسلوكي وعلمي وسياسي في حياة المسلمين.

وسبب انصراف الرجال إلى العبادة الخوف من عذاب الله كما قال: ﴿يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أي إن الرجال الذين يؤدون الصلاة جماعة في المساجد يخافون عقاب يوم القيامة الذي تضطرب فيه القلوب والأبصار من شدة الفزع والهول، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ١٤/٤٢] وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان: ٧٦/١٠] .

وعاقبة أمرهم ما قال الله تعالى:

﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ﴾ أي يذكرون الله ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ليثيبهم الله ثواباً يكافئ حسن عملهم، فهم الذين يتقبل حسناتهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، ويضاعف لهم الجزاء الحسن، كقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: ٦/١٦٠] وقوله سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: ١٠/٢٦] وقوله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة: ٢/٢٦١] . وقال الله تعالى في الحديث القدسي

فيما رواه أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة: «أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خَطَر على قلب بشر».

﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ أي إن الله تعالى واسع الفضل والإحسان يرزق من يريد ويعطي من يشاء، بغير عدّ ولا إحصاء، والله على كل شيء قدير.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - إن أول موضع تظهر فيه هداية الله ونوره هو في المساجد التي يشيد بناءها المؤمنون، ويعمرونها بالصلاة والأذكار في أوائل النهار وأواخره، والمساجد المخصوصة لله تعالى بالعبادة تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض، كما قال ابن عباس ومجاهد والحسن.

روى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «من أحبَّ الله عز وجل فليحبني، ومن أحبَّني فليحبَّ أصحابي، ومن أحب أصحابي، فليحبّ القرآن، ومن أحبّ القرآن فليحبّ المساجد، فإنها أفنيةُ الله أبنيته، أذن الله في رفعها، وبارك فيها، ميمونةٌ ميمون أهلها، محفوظة محفوظ أهلها، هم في صلاتهم، والله عز وجل في حوائجهم، هم في مساجدهم والله من ورائهم».

٢ - يأمر الله بعمارة المساجد عمارة حسية بالبناء، وعمارة معنوية بالصلاة وتلاوة القرآن والأذكار وحلقات التعليم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التوبة: ١٨/٩] وقال ﷺ فيما رواه ابن ماجه عن علي: «من بنى لله مسجداً، بنى الله له بيتاً في الجنة» وروى ابن ماجه في سننه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «من أخرج أذىً من المسجد، بنى الله له بيتاً في الجنة» وقال النبي ﷺ فيما رواه أحمد

والترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد، فاشهدوا له بالإيمان، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾».

أما زخرفة المساجد فبعضهم أباحها؛ لأن فيها تعظيم المساجد، والله تعالى أمر بتعظيمها في قوله: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ أي تعظَّم. وروي عن عثمان أنه بنى مسجد النبي ﷺ بالسَّاج[1] وحسَّنه. قال أبو حنيفة: لا بأس بنقش المساجد بماء الذهب، ونقش عمر بن عبد العزيز مسجد النبي ﷺ وبالغ في عمارته وتزيينه، زمن ولايته على المدينة قبل خلافته، ولم ينكر عليه أحد ذلك.

وكرهه قوم لما أخرجه أبو داود عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد».

وتصان المساجد وتنزه عن الروائح الكريهة والأقوال السيئة وغيرها، وذلك من تعظيمها، جاء في الحديث الصحيح عند الشيخين عن جابر: «من أكل ثوماً أو بصلاً فلا يغشانا في مساجدنا» أو «فليعتزلنا وليعتزل مسجدنا، وليقعد في بيته».

والمساجد فيما ذكر كلها سواء، للحديث المتقدم ولحديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال في غزوة تبوك فيما رواه أحمد ومسلم عن أبي سعيد: «من أكل من هذه الشجرة الخبيثة - يعني الثُّوم - شيئاً فلا يقرُبْنا في المسجد».

وتصان المساجد أيضاً عن البيع والشراء وجميع الأشغال الدنيوية؛ لما

(١) أحسن أنواع الخشب المأخوذ من شجر معروف في الهند.

أخرجه مسلم عن بريدة من قوله ﷺ للرجل الذي نادى على الجمل الأحمر: «لا وَجدتَ، إنما بنيت المساجد لما بُنيت له». وهذا يدل على أن الأصل ألا يعمل في المسجد غير الصلوات والأذكار وقراءة القرآن. وروى الترمذي عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه نهى عن تناشد الأشعار في المسجد، وعن البيع والشراء فيه، وأن يتحلّق الناس يوم الجمعة قبل الصلاة. ولكن روي في حديث آخر أن النبي ﷺ رخص في إنشاد الشعر في المسجد.

ويكره رفع الصوت في المسجد في العلم وغيره في رأي مالك وجماعة، لحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد ومسلم وأبو داود وابن ماجه: «من سمع رجلاً يَنْشُد ضالة في المسجد، فليقل: لا ردّها الله عليك، فإن المساجد لم تُبْن لهذا». وأجاز أبو حنيفة وأصحابه رفع الصوت في الخصومة (التقاضي) والعلم؛ لأنه لا بد لهم من ذلك.

ويجوز عند المالكية النوم في المسجد لمن احتاج إلى ذلك من رجل أو امرأة من الغرباء، ومن لا بيت له، فقد أنزل النبي ﷺ في صُفَّة المسجد رهطاً من عُكْل. وفي الصحيحين عن ابن عمر أنه كان ينام وهو شاب أعزب، لا أهل له، في مسجد النبي ﷺ. ويكره عند الشافعية النوم في المساجد.

ويسن الدعاء عند دخول المسجد؛ روى مسلم عن أبي أسيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك». وبعد الدخول يسن صلاة ركعتين تحية المسجد؛ لما روى مسلم أيضاً عن أبي قتادة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس».

٣ - وصف الله تعالى المسبِّحين في المساجد بأنهم المراقبون أمر الله، الطالبون رضاه، الذين لا يشغلهم عن الصلاة وذكر الله شيء من أمور الدنيا. قال كثير من الصحابة: نزلت هذه الآية في أهل الأسواق الذين إذا

سمعوا النداء بالصلاة، تركوا كل شغل وبادروا. وهم أيضاً في مبادرتهم إلى صلاة الجماعة في المساجد يخافون عذاب يوم القيامة.

٤ - يكافئ الله ويجازي على الحسنات ويضاعف الثواب إلى عشر أمثاله. والله يرزق من يشاء من عباده من غير أن يحاسبه على ما أعطاه؛ إذ لا نهاية لعطائه.

حال الكافرين في الدنيا وخسرانهم في الآخرة

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾

القراءات:

﴿يَحْسَبُهُ﴾:

قرئ:

١- (يَحْسَبُه) وهي قراءة ابن عامر، وعاصم، وحمزة.

٢- (يَحْسِبُه) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌ﴾:

قرئ:

١- (سحابُ ظلماتٍ) وهي قراءة البزي.

٢- (سحابٌ ظلماتٍ) وهي قراءة قنبل.

٣- (سحابٌ ظلماتٌ) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ﴾: ﴿كَسَرَابٍ﴾: جار ومجرور في موضع رفع خبر المبتدأ وهو أعمالهم. و﴿بِقِيعَةٍ﴾ في موضع جر صفة سراب أي كسراب كائن بقيعة، وقيعة: جمع قاع كجِيَرة جمع جَارٍ، و﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ جملة فعلية في موضع جرّ صفة لـ ﴿كَسَرَابٍ﴾ أيضاً. و﴿شَيْئًا﴾ منصوب على المصدر، أي لاشيء هناك.

﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾ جملة فعلية في موضع جر صفة لـ ﴿بَحْرٍ﴾. و﴿مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ وكذا ﴿مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ يرتفع موج وسحاب بالظرف عند سيبويه، وعند الأخفش لجريه صفة على المذكور المرفوع بأنه فاعل. و﴿ظُلُمَاتٌ﴾ إما مرفوع بدلاً من ﴿سَحَابٌ﴾ أو على تقدير مبتدأ محذوف، أي هي ظلمات، وإما مجرور بدلاً من ﴿ظُلُمَاتٌ﴾ الأولى.

البلاغة:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ﴾ وكذلك ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ كل منهما تشبيه تمثيلي رائع وبديع.

المفردات اللغوية:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي حالهم على ضدّ حال المؤمنين، فإن أعمالهم التي يحسبونها صالحة نافعة عند الله يجدونها في الآخرة لاغية مخيبة للآمال. ﴿كَسَرَابٍ﴾ هو ما يرى في عين الإنسان أثناء سيره في الفلاة من لمعان الشمس وقت الظهيرة في شدة الحر، فيظن أنه ماء جارٍ أو راكد على وجه الأرض.

﴿بِقِيعَةٍ﴾ جمع قاع، أي فلاة، وهو ما انبسط من الأرض. ﴿يَحْسَبُهُ﴾ يظنه. ﴿الظَّمْآنُ﴾ العطشان، وخص الظمآن بالذكر لتشبيه الكافر به في شدة الخيبة عندما تمسُّ الحاجة إلى الظفر بثمرة عمله. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ﴾ جاء ما توهمه ماء أو جاء موضعه. ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ مما ظنه أو حسبه، وكذلك الكافر يحسب أن عمله كالصدقة ينفعه، حتى إذا مات وقدم على ربه، يجد عمله لم ينفعه. ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ﴾ أي عند عمله. ﴿فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ جازاه عليه في الدنيا. ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي المجازاة، لا يشغله حساب عن حساب.

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾ أي والذين كفروا أعمالهم السيئة في الدنيا كالظلمات المتراكمة و﴿أَوْ﴾ إما للتخيير فإن أعمال الكفار لكونها لاغية لا منفعة لها كالسراب، ولكونها خالية عن نور الحق كالظلمات المتراكمة في لج البحر والأمواج والسحاب، وإما للتنويع فإن أعمالهم إن كانت حسنة فكالسراب، وإن كانت قبيحة فكالظلمات، وإما للتقسيم باعتبار وقتين وهو الظاهر، فإنها كالظلمات في الدنيا والسراب في الآخرة.

﴿فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ عميق، أو ذي لُجّ وهو معظم الماء، والمقصود: بحر عميق الماء كثيره ذو طبقات. ﴿يَغْشَاهُ﴾ يغطيه. ﴿مِنْ فَوْقِهِ﴾ الظلمة الأولى أي الموج. ﴿مِنْ فَوْقِهِ﴾ والظلمة الثانية أي الموج الثاني، والمراد بظلمات البحر: أمواج متراكمة مترادفة، والمراد بالسحاب: سحاب غطى النجوم وحجب أنوارها. والسحاب: غيم. ﴿ظُلُمَاتٌ﴾ أي هذه ظلمات: ظلمة البحر، وظلمة الموج الأول وظلمة الثاني، وظلمة السحاب. ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ﴾ أخرج الناظر يده في هذه الظلمات وهي أقرب شيء إليه. ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ لم يقرب من رؤيتها فضلاً عن أن يراها. ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ أي من لم يهده الله لم يهتد، والمراد من لم يوفقه لأسباب الهداية لم يكن مهتدياً.

سبب النزول:

نزول الآية (٣٩):

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾: روي أنها نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية، قد كان تعبَّد في الجاهلية، ولبِس المسوح، والتمس الدِّين، فلما جاء الإسلام كفر. وقيل: في شيبة بن ربيعة. وكلاهما مات كافراً.

المناسبة:

بعد بيان حال المؤمنين، وأنهم في الدنيا يكونون في نور الله، وبسببه يتمسكون بالعمل الصالح، وفي الآخرة يفوزون بالنعيم المقيم والثواب العظيم، أتبع ذلك ببيان حال الكافرين، فإنهم يكونون في الآخرة في أشد الخسران، وفي الدنيا في أعظم أنواع الظلمات، وضرب لكل من الحالين مثلاً، أما المثل الأول الدال على الخيبة في الآخرة فهو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ﴾ وأما المثل الثاني لأعمالهم في الدنيا فهو ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾ أي إن أعمالهم في الدنيا كظلمات في بحر.

التفسير والبيان:

هذان مثلان ضربهما الله تعالى لحالي الكفار في الآخرة والدنيا، أو لنوعي الكفار: الداعي لكفره، والمقلد لأئمة الكفر، كما ضرب للمنافقين في أول البقرة مثلين: نارياً ومائياً، وكما ضرب لما يقرّ في القلوب من الهدى والعلم في سورة الرعد مثلين: مائياً ونارياً أيضاً.

أما المثل الأول هنا فهو قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ أي إن الأعمال الصالحة التي يعملها الكفار الذين جحدوا توحيد الله وكذبوا بالقرآن وبالرسول المنزل عليه، أو الدعاة إلى كفرهم، الذين

يظنون أنها تنفعهم عند الله، وتنجيهم من عذابه، ثم تخيب آمالهم في الآخرة ويلقون خلاف ما قدّروا، شبيهة بسراب يراه الإنسان العطشان في فلاة أو منبسط من الأرض، فيحسبه ماء، فيأتيه، فلا يجد ما رجاه. وأعمالهم الصالحة: مثل صلة الأرحام والإحسان إلى الفقراء وإقامة المشاريع الخيرية.

وهكذا حال الكافرين في الآخرة يحسبون أعمالهم نافعة لهم، منجّية من عذاب الله، فإذا جاء يوم القيامة وقوبلوا بالعذاب، فوجئوا أن أعمالهم لم تنفعهم، وإنما يجدون زبانية الله تأخذهم إلى جهنم، التي يسقون فيها الحميم والغساق، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ١٠٣-١٠٤] . وقال تعالى هنا: ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي ووجد عقاب الله وعذابه الذي توعد به الكافرين، فجازاه الله الجزاء الأوفى على عمله في الدنيا، والله سريع المجازاة، لا يشغله حساب عن حساب، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٣] . هذا حالهم في الآخرة، أو حال الكفار الدعاة إلى الكفر.

والخلاصة: أن الكفار سيصطدمون بالخيبة والخسارة في الآخرة، فلا يجدون ما ينفعهم ولا ما ينجيهم.

أما المثل الثاني لحالهم في الدنيا أو حال الكفار الجهلة المقلدين لأئمة الكفر فهو كما قال تعالى:

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ أي إن مثل أعمال الكفار التي يعملونها في الدنيا على غير هدى، أو مثل الذين يقلدون غيرهم، مثل ظلمات متراكمة في بحر عميق كثير الماء، تغمره الأمواج المتلاطمة، ويحجب نور الكواكب السماوية غيم كثيف، فهي ظلمات ثلاث:

ظلمة البحر، وظلمة الموج، وظلمة السحاب، وكذا الكافر له ظلمات ثلاث: ظلمة الاعتقاد، وظلمة القول، وظلمة العمل، وهذه الظلمات حجبت عنه رؤية الحق وإدراك ما في الكون من عظات وآيات ترشد إلى الطريق الأقوم. قال الحسن: الكافر له ظلمات ثلاث: ظلمة الاعتقاد، وظلمة القول، وظلمة العمل. وقال ابن عباس: شبهوا قلبه وبصره وسمعه بهذه الظلمات الثلاث.

والمقصود من هذا المثل بيان أن الكافر تراكمت عليه أنواع الضلالات في الدنيا، فصار قلبه وبصره وسمعه في ظلمة شديدة كثيفة، لم يعد بعدها قادراً على تمييز طرق الصواب ومعرفة نور الحق. لذا قال تعالى: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ أي إن تلك الظلمات الثلاث ظلمات متراكمة مترادفة، بعضها يعلو بعضها الآخر، حتى إنه إذا مدَّ الإنسانُ يَدَه، وهي أقرب شيء إليه، لم يقرب أن يراها، فضلاً عن أن يراها، ومعنى «لم يكد»: لم يقارب الوقوع، والذي لم يقارب الوقوع لم يقع.

﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ أي من لم يهده الله ولم يوفقه إلى الهداية، فهو هالك جاهل خاسر، في ظلمة الباطل لا نور له، ولا هادي له، كقوله تعالى: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ﴾ [الأعراف: ١٨٦/٧] . ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ [الرعد: ٣٣/١٣] ، ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧/١٤] . وهذا مقابل لما قال في مثل المؤمنين ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾.

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمنت الآيات مثلين لأعمال الكفار فهي إما كسراب خادع في فلاة أو صحراء، وإما كظلمات، والمثل الأول كما اختار الرازي دال على خيبة الكافر في الآخرة، والثاني دال على كون أعمالهم في متاهات وضلالات

وظلمات يصعب اختراقها وتجاوزها، لكون قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم في ظلمة حالكة، يتخبط فيها، فلا يدري ما هو الصواب، وهو أيضاً جاهل لا يدري أنه لا يدري.

ويستفاد من الآيات أن شرع الله ونظامه هو النور الصحيح المرشد لخيري الدنيا والآخرة، وأما التشريع المخالف لشرع الله فهو كالسراب الخادع، والظلمات المتراكمة. وهذا كله في مجال العقيدة. أما في مجال التحضر الدنيوي فقد يكون الكافر مبدعاً فيها، متفوقاً في إدراك غوامض الحياة، مبتكراً وسائل التقدم والمدنية، ولكنه عن الآخرة والنجاة فيها غافل جاهل.

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ أي من لم يجعل الله له ديناً فماله من دين، ومن لم يجعلِ الله له نُوراً يمشي به يوم القيامة، لم يهتد إلى الجنة؛ كقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: ٥٧/٢٨].

والسبب في إحباط أعمال الكافر وإهدارها: أنها لا تعتمد على أصل صحيح وهو الإيمان بالله تعالى، والله لا يقبل عملاً إلا من مؤمن معترف بالله وبصفاته، موحد له توحيداً تاماً كاملاً لتصح نية عمله.

والخلاصة: أن المثلين المذكورين في الآيتين هما تحذير وتنبيه للكفار، فمن عقل كلام الله وتدبر فيه، صحح اعتقاده، فيصلح له عمله ويستقيم في الدنيا، ومن ظل مصراً على كفره، معرضاً عن التأمل في آيات ربه، لقي جزاءً عسيراً، وعقاباً أليماً، ولم ينفعه أي عمل صالح، ينجّيه من عذاب الله يوم القيامة.

الأدلة الكونية على وجود الله وتوحيده

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾

القراءات:

﴿يُؤَلِّفُ﴾:

وقرأ ورش، وحمزة وقفاً (يُولِّف).

﴿وَيُنَزِّلُ﴾:

قرأ ابن كثير، وأبو عمرو (ويُنْزِل).

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (والله خالقُ كلِّ).

﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾:

تقدم في قراءات الآيات [النور ٢٤/ ٣٢-٣٤]

﴿صِرَٰطٍ﴾:

وقرأ قنبل (سراط).

الإعراب:

﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ حال.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ ﴿مِنَ﴾ الأولى للابتداء؛ لأن السماء ابتداء الإنزال، والثانية: للتبعيض؛ لأن البرد بعض الجبال التي في السماء، وهي مع المجرور في موضع المفعول، والثالثة: لبيان الجنس؛ لأن جنس تلك الجبال جنس البَرَد، وتقديره: فيها شيء من بَرَد، وهو مرفوع بالظرف؛ لأن الظرف صفة الجبال.

﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ من قرأ بفتح الياء تكون باء في ﴿بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ للتعدية، ومن قرأ بضم الياء كانت الباء زائدة.

البلاغة:

﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ ﴿وَيَصْرِفُهُۥ﴾ بينهما طباق.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ استعارة، شبه تعاقب الليل والنهار بتقليب الأشياء المادية.

﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ ﴿لِأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ بينهما جناس تام؛ لأن المراد بالأولى العيون وبالثانية العقول والقلوب.

المفردات اللغوية:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم علماً يشبه المشاهدة في اليقين والثقة بالوحي أو بالدليل. ﴿يُسَبِّحُ﴾ ينزه ويقدّس ذاته عن كل نقص، والصلاة من التسبيح.

﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ﴿مَن﴾: لتغليب العقلاء. ﴿وَٱلطَّيْرُ﴾ جمع طائر، وهو تخصيص لما فيها من الدليل الباهر على وجود الخالق وقدرته، بجعل الأشياء الثقيلة تقف في الجو. ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ باسطات أجنحتها في الهواء بعملية القبض والبسط. ﴿كُلٌّ﴾ كل واحد مما ذكر، أو من الطير. ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ أي علم الله دعاءه وتنزيهه اختياراً أو طبعاً. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ تعميم بعد تخصيص، أي إن الله عالم بكل شيء من أفعالهم ومجازيهم عليها. وقوله: ﴿يَفْعَلُونَ﴾ فيه تغليب العقلاء.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي الله مالك السماوات والأرض وما فيهما من خزائن المطر والرزق والنبات، حاكم متصرف فيهما إيجاداً وإعداماً؛ لأنه الخالق لهما ولما فيهما من الذوات والصفات والأفعال. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وإليه المرجع والمآب.

﴿يُزْجِى﴾ يسوق برفق وسهولة، ومنه البضاعة المزجاة يزجيها كل أحد أي يزهد فيها بسهولة. ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ يضم بعضه إلى بعض، فيجعل القطع المتفرقة قطعة واحدة. ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ متراكماً بعضه فوق بعض. ﴿ٱلْوَدْقَ﴾ المطر. ﴿مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ من فتوقه ومخارجه التي حدثت بالتراكم، جمع خلل، كجبال وجبل. ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الغمام، وكل ما علاك فهو سماء. ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾ من قطع عظام في السماء، وهو بدل بإعادة الجارّ. ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ بيان للجبال، ومفعول ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ محذوف، أي ينزل مبتدئاً من السماء من جبال فيها من جنس البَرَد، مأخوذ من بَرَد بَرداً، والمشهور أن الأبخرة إذا تصاعدت، ولم تحلّلها حرارة، فبلغت الطبقة الباردة من الهواء، وقوي البَرْد هناك، اجتمع وصار سحاباً، فإن لم يشتد البرد تقاطر مطراً، وإن اشتد البَرْد، فإن وصل إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها نزل ثلجاً، وإلا نزل بَرَداً، وكل ذلك لا بد وأن يستند إلى إرادة الله الحكيم، وإليه أشار بقوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ والضمير للبَرَد.

﴿يَكَادُ﴾ يقرب. ﴿سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ ضوء البرق الذي في السحاب، والبرق: جمع برقة. ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي بأبصار الناظرين إليه من فرط الإضاءة، وذلك أقوى دليل على كمال القدرة من حيث توليد الضدّ من الضدّ، أي النار من البارد. ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ بالمعاقبة بينهما، فيأتي بكل منهما بدل الآخر، أو بنقص أحدهما وزيادة الآخر، أو بتغيير أحوالهما بالحر والبرد والظلمة والنور، أو بما يعم ذلك وهو الأولى. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ التقليب، وفيما تقدم ذكره. ﴿لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ للدلالة على وجود الصانع القديم، وكمال قدرته، وإحاطة علمه، ونفاذ مشيئته، وتنزهه عن الحاجة، لمن يتأمل ذلك من أهل العقول والبصائر.

﴿دَآبَّةٍ﴾ حيوان يدب على الأرض، وتستعمل عرفاً للدواب ذوات الأربع. ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ هو جزء مادته، أو ماء مخصوص وهو النطفة، تنزيلاً للغالب منزلة الكل؛ إذ من الحيوانات ما لا يتولد عن النطفة. ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحيات والهوام من الحشرات، وإنما سمي الزحف مشياً بطريق الاستعارة أو المشاكلة. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطير. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالبهائم والأنعام، ويندرج فيه ما له أكثر من أربع كالعناكب، فإنها تعتمد في المشي على أربع. وتذكير الضمير في قوله: ﴿وَمِنْهُم﴾ والتعبير بمن لتغليب العقلاء، والتعبير بمن عن الأصناف ليوافق التفصيل الجملة. والترتيب في إيراد هذه المخلوقات لتقديم ما هو أدل على القدرة. ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ مما ذكر ومما لم يذكر، على اختلاف الصور في الأعضاء والهيئات والحركات والطبائع والقوى والأفعال مع اتحاد العنصر بمقتضى مشيئته. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل ما يشاء.

المناسبة:

بعد أن وصف الله تعالى ما استنارت به قلوب المؤمنين بالهداية، وما

أظلمت به قلوب الكافرين بالضلالة، أتبع ذلك ببيان أدلة التوحيد والقدرة، فذكر منها أربعة: الأول - تسبيح المخلوقات، والثاني - إنزال الأمطار، والثالث - اختلاف الليل والنهار، والرابع - أنواع الحيوانات.

التفسير والبيان:

النوع الأول - تسبيح المخلوقات:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ أي ألم تعلم بالدليل أيها النبي وكل مخاطب أن الله سبحانه ينزهه ويقدِّسه كل من في السماوات والأرض من العقلاء وغيرهم من الملائكة والإنس والجن والجمادات، ومنها الطير الباسطات القابضات أجنحتها حال طيرانها في جو السماء لكيلا تسقط، تنزيهاً يدركه المتأمل بعقله السليم؛ إذ تكوينها بخصائصها المتفاوتة يدل بذاته على وجود الخالق لها.

والتنزيه يدل على اتصاف الخالق بجميع صفات الكمال، ويبطل قول الكفار الذين جعلوا الجمادات شركاء لله، ونسبوا إليه الولد، وهي من مخلوقاته وإيجاده. قال مجاهد وغيره: الصلاة للإنسان، والتسبيح لما سواه من الخلق.

وذكر الطير مع دخولها بما سبق لما فيها من دلالة خاصة على بديع الصنع الإلهي، وكمال القدرة الإلهية، ولطف التدبير لمبدعها؛ لأن وقوف الأشياء الثقيلة في الجو أثناء الطيران حجة واضحة على كمال قدرة الخالق المبدع.

والافتتاح بقوله ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يشير إلى أن تسبيح الكائنات لله عزّ وجلّ أمر واضح يصل إلى حد العلم الذي لا شك فيه.

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي كل واحد مما ذكر قد علم الله صلاته وتسبيحه، أي أرشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله عزّ وجلّ.

والله عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه شيء من أفعالهم، سواء في حال الطاعة أو المعصية، ومجازيهم عليها.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾ أي إن الله تعالى مالك جميع ما في السماوات والأرض، وهو الحاكم المتصرف فيهما خَلْقاً وإماتة، وهو الإله المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولا معقِّب لحكمه، وإليه وحده مصيرهم ومعادهم يوم القيامة، فيحكم فيه بما يشاء، ويجازي بما أراد، كقوله تعالى﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٥٣/ ٣١] .

والخلاصة: إن عظمة الكون، وإبداع السماوات والأرض، وما بثّ الله فيهما من كائنات حية وجامدة، وروعة ما نشاهده من تركيب الإنسان، وتنوع عالم الحيوان في البر والبحر والجو، وما يقوم به أضخم الحيوان وأصغره، وتفنّن النحل في بناء البيوت وتكوين العسل، وحيل العناكب الضعيفة في اصطياد الحشرات، وعجائب أعمال الطيور، وتصرف الرّب في المخلوقات إيجاداً وإعداماً، بدءاً وإعادة، كل ذلك دليل قاطع محسوس على وجود الإله الخالق المبدع، والرّب الواحد المتصرف، الذي لا ربّ سواه، ولا معبود بحق غيره.

هذا أول دليل كوني على وجود الله وقدرته ووحدانيته، وهو شامل لعدة أدلة، كل دليل منها كافٍ وحده في تكوين القناعة، ويمكن تصنيف ما ذكر في الآيتين الأولين في دليلين إجماليين: دليل العبودية في العالمين العلوي والسفلي، ودليل الملك المطلق ووحدة مصير الخلائق إلى الله تعالى.

وفي كـــل شيء لـــه آيـــة تـــدل عـــلى أنـــه واحـــد

وهذان دليلان آخران في الآيتين التاليتين على قدرة الله وتوحيده:

النوع الثاني - إنزال المطر:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ إلى قوله: ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ أي ألم تعلم أيها النبي وكل مخاطب كيفية تكوين المطر وإنزاله، إنه تعالى يسوق بقدرته السحاب أول ما ينشئه بعضه إلى بعض، بعد أن يتكون من بخار الماء الصاعد من البحار التي هي أربعة أخماس المعمورة، ثم يجمع ما تفرق من أجزائه في وحدة متضامة، ثم يجعل بعضه متراكماً فوق بعض، حتى يتكون منه سحاب عالٍ في طبقات الجو الباردة، ثم يسوق ذلك السحاب بالرياح اللواقح إلى المكان الذي يريد إنزال المطر فيه، ثم ينزل المطر من خلال السحاب، أي من نتوقه وشقوقه التي تتكون بين أجزائه.

وهكذا ينزل الله المطر من طبقات السحب المتكاثفة التي تشبه الجبال، كما ينزل الثلج والبرد بحسب نسبة تأثير البرودة في الأبخرة المتصاعدة. وكل ما علا الإنسان فهو سماء، فالسماء هي الغيم المرتفع على رؤوس الناس. وتكون الجبال كناية عن السحاب المشاهد الآن لكل راكب في الطائرة التي ترتفع عادة أكثر من ثلاثين ألف قدم في الجو فوق السحب البيضاء المتجمعة كالجبال الشاهقة[١]. ويرى مفسرون آخرون أن جبال البرد قائمة فعلاً في السماء، وينزل الله منها البرد، وهذا المعنى تؤيده بعض النظريات الحديثة التي تثبت أن في طبقات الجو ما يشبه الجبال مكونة من برد، وقد تنزل زيادة على ما يصعد من بخار البحار.

---

(١) قال بعض النحاة في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾: ﴿مِنَ﴾ الأولى لابتداء الغاية، والثانية للتبعيض، والثالثة لبيان الجنس، كما قدمنا في الإعراب، وهذا إنما يجيء على قول بعض المفسرين إلى أن في السماء جبال برد ينزل الله منها البرد. وأما من جعل الجبال ههنا كناية عن السحاب، فإن ﴿مِن﴾ الثانية عند هذا لابتداء الغاية أيضاً، لكنها بدل من الأولى، والله أعلم (تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٩٧).

وتتحكم إرادة الله وقدرته وتصريفه في كيفية إنزال المطر، فيصيب بما يُنزل من السماء من نوعي المطر والبَرَد من يشاء من عباده رحمة لهم، ويحجبه عمن يشاء، ويؤخر الغيث عمن يريد، إما نقمة وإما رحمة من إسقاط الثمار والأزهار وإتلاف الزروع والأشجار.

وأعجب من ذلك كله خلق الضد من الضد وهو النار من البارد، حتى ليكاد أو يقرب ضوء برق اصطدام الغيوم من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته.

النوع الثالث - اختلاف الليل والنهار:

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ أي إن الله عزّ وجلّ يتصرف في الليل والنهار بزيادة أحدهما ونقص الآخر، وتغير أحوالهما بالحرارة والبرودة، وتعاقبهما بنظام ثابت دقيق، إن في ذلك لدليلاً على عظمته تعالى، وعظة لمن تأمل فيه من ذوي العقول، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٠] ، وقال النبي ﷺ - فيما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه -: «قال الله تعالى: يؤذيني ابنُ آدم يسبُّ الدهر، وأنا الدهرُ، بيدي الأمر، أقلِّب الليل والنهار».

النوع الرابع - أنواع المخلوقات:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ بعد أن استدل الله تعالى على وحدانيته وقدرته بعالم السماء والأرض وبالآثار العلويه، استدل بأحوال الحيوانات على اختلاف أشكالها وألوانها وحركاتها وسكناتها ومهماتها، فذكر أنه سبحانه خلق كل أنواع الحيوانات التي تدب على الأرض من ماء واحد هو جزء مادتها وأساس تكوينها، أو هو النطفة التي

يحملها المني الحيواني الذي تلقح به بويضة الأنثى في منيها. وسبب تخصيص الماء بالذكر أنه أصل الخلقة الأول، ولأنه لا بقاء للحيوان بدونه، ولأن آثار التراب تمتزج فيه.

وأنواع الحيوان كثيرة، فمنها من يمشي زحفاً على بطنه بانقباض عضلات البطن وانبساطها كالحيات والأسماك وسائر الزواحف. وسمي زحفها مشياً إشارة إلى كمال القدرة وتحقيقها هدف المشاة وهو الانتقال والحركة للبحث عن الرزق وتحقيق الغايات.

ومنها من يمشي على رجلين كالإنسان والطير.

ومنها من يمشي على أربع كالأنعام وسائر وحوش البر.

والله سبحانه يخلق بقدرته ما يشاء، وهذا تعبير إجمالي يدخل آلاف أنواع الحيوانات الأخرى من حشرات وغيرها مما يمشي على أكثر من أربع، وتختلف صوره وطبائعه وقواه.

إن الله قادر على خلق كل شيء، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

ثم ختم الله تعالى إيراد أدلة التوحيد ببيان جامع شامل يجمع تلك الأدلة فقال:

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾ أي أنزل الله في هذا القرآن آيات مفصلات واضحات دالة على وجود الخالق المدبر للكون، ومرشدة إلى طريق الحق والسداد بما فيها من حكم وأحكام وأمثال بينة محكمة، وأنه تعالى يرشد إلى تفهمها وتعقلها أولي الألباب والبصائر والوعي والعقل، ويرشد من يشاء إلى الطريق القويم الذي لا عوج فيه.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه دلائل التوحيد وإثبات الذات الإلهية، الدالة دلالة حسية على أن لتلك المصنوعات المتغيرة صانعاً قادراً على الكمال.

وأول هذه الأدلة أن جميع المخلوقات تسبح الله، أي تنزهه عن جميع النقائص، وتصفه بصفات الجلال والكمال، والله عليم بتسبيحها وبدعائها وعبادتها، يعلم صلاة المصلي وتسبيح المسبِّح، ولا يخفى عليه طاعتهم وتسبيحهم.

والله تعالى مالك الملك في السماوات والأرض، وهو الحاكم المدبر المتصرف بجميع المخلوقات، وإليه مصير الخلائق يوم القيامة. وكل مملوك عبد لله، وكل محاسَب ضعيف ذليل أمام القاضي.

وثاني الأدلة - إنزال المطر بكيفية عجيبة تبدأ بتصاعد أبخرة الماء وتحمل بقدرة الله إلى طبقات الجو العالية، وتتجمع حينئذ بها السحب والغيوم، وتقودها الرياح، وتلقحها وتؤثر فيها بالبرودة، ثم تتساقط الأمطار العذبة بعد أن كانت عند تبخرها من البحار مالحة، فتروي الأرض، وتحقق الخير، وتوفر الرزق، وتحيي جميع الكائنات الحية، فإن الرطوبة أهم عناصر الحياة، وهي الفارق المميز بين الشتاء والصيف.

وثالث الأدلة - تقليب الليل والنهار بالزيادة والنقص، والحرارة والبرودة، والتعاقب المستمر، ولكل من الليل والنهار طبيعة تناسب الإنسان، فالليل للراحة والهدوء، والنهار للحركة والكسب.

ورابع الأدلة - تنوع المخلوقات بأشكال شتى، وطبائع مختلفة، ومنافع متعددة، مع أن منشأها واحد وهو الماء، وتركيبها مختلف، ويخلق الله من الماء ما يشاء وما لا نعلم به إلى الآن، بالرغم من تعدد الاكتشافات العلمية؛ إذ

أول ما خلق الله من العالم الماء، ثم خلق منه كل شيء، وقدرة الله فوق الحصر والعد، وأغرب من السمع والبصر.

وما أجمل وأبدع ما ختمت به تلك الأدلة من قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ فهي تشمل كل الأدلة والعبر، ومنها بيان القرآن العظيم الذي اشتمل على أدلة الإيمان والاعتقاد، وأحكام العبادة والتشريع، وأصول الفضائل والآداب والأخلاق. والله يهدي بتلك الأدلة من يريد إلى طريق الحق والصواب، والسداد والاستقامة، دون انحراف أو اعوجاج، فماذا بعد بيان الحق إلا الضلال؟!

البقاء على الضلال والنفاق بالرغم من البيان الشافي

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾

المفردات اللغوية:

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي المنافقون. ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾ صدقنا بتوحيد الله وبالرسول محمد. ﴿وَأَطَعْنَا﴾ رضينا فيما حكما به. ﴿يَتَوَلَّىٰ﴾ يعرض ويمتنع عن قبول حكمه. ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المعرضون. ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الصادقي الإيمان التي توافق قلوبهم ألسنتهم.

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي ليحكم بينهم النبي ﷺ، فإنه الحاكم الدنيوي ظاهراً، وذكر الله لتعظيمه والدلالة على أن حكمه في الحقيقة حكم الله. ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي فاجأ فريق بالإعراض عن المجيء إليك إذا كان الحق عليهم؛ لعلمهم بأنك لا تحكم لهم.

﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ لهم الحكم لا عليهم ﴿إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ﴾ طائعين منقادين؛ لعلمهم بأنه يحكم لهم، وتقديم ﴿إِلَيۡهِ﴾ للاختصاص. ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ كفر أو ميل إلى الظلم. ﴿ٱرۡتَابُوٓاْ﴾ شكوا في نبوتك، فزالت ثقتهم بك. ﴿يَحِيفَ﴾ يجور ويظلم في الحكم. ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي لا، بل هم الذين يريدون ظلم الناس وإنكار حقوقهم بالإعراض عنك.

سبب النزول:

قال المفسرون: هذه الآيات نزلت في بِشْر المنافق وخصمه اليهودي حين اختصما في أرض، فجعل اليهودي يجرّه إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهما، وجعل المنافق يجرّه إلى كعب بن الأشرف، ويقول: إن محمداً يحيف علينا. وقد سبق بيان قصتهما في سورة النساء.

وأخرج ابن أبي حاتم من مرسل الحسن البصري قال: كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة، فدعي إلى النبي ﷺ، وهو محق، أذعن، وعلم أن النبي ﷺ سيقضي له بالحق، وإذا أراد أن يَظْلم، فدعي إلى النبي ﷺ أعرض، فقال: انطلق إلى فلان، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الآية.

وقال مقاتل: نزلت هذه الآية في بِشْر المنافق، دعاه يهودي في خصومة بينهما إلى رسول الله ﷺ، ودعا هو اليهودي إلى كعب بن الأشرف، ثم تحاكما إلى رسول الله ﷺ، فحكم لليهودي؛ لأنه صاحب الحق، فلم يرض المنافق بقضائه ﷺ. وقال: نتحاكم إلى عمر رضي الله عنه، فلما ذهبا إليه، قال له اليهودي: قضى لي النبي ﷺ، فلم يرض بقضائه، فقال عمر للمنافق: أكذلك؟ قال: بلى، فقال: مكانكما حتى أخرج إليكما، فدخل رضي الله عنه بيته، وخرج بسيفه، فضرب به عنق المنافق حتى برد، وقال: هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله ﷺ[١].

(١) وهذا الحكم حق وعدل؛ لأنهم في الواقع كفار استباحوا معارضة النبي ﷺ في أحكامه، وشهّروا بحكمه، وأحدثوا البلبلة والاضطراب في عدله ونبوته، وكل ذلك يختلف عن الكافر العادي.

المناسبة:

بعد بيان أدلة التوحيد، ذمّ الله تعالى قوماً وهم المنافقون اعترفوا بالدين بألسنتهم، ولكنهم لم يقبلوه بقلوبهم، فيقولون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾ ثم يفعلون نقيض ذلك.

التفسير والبيان:

هذه صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، فقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أي ويقول المنافقون أمام الناس: صدقنا بالله رباً وبمحمد ﷺ رسولاً، وأطعنا الله فيما قضى، والرسول ﷺ فيما حكم به، ثم يعرض فريق منهم عن قبول حكمه، فيخالفون أقوالهم بأعمالهم، ويقولون ما لا يفعلون، ويرجعون بعدئذ إلى الباقين منهم، فيظهرون الرجوع عما أعلنوه، والحقيقة أن أولئك المنافقين ليسوا بالفعل من أهل الإيمان، وإنما مردوا على النفاق.

وهذا دليل واضح على أن الإيمان لا يكون بالقول، إذ لو كان به، لما صح أن ينفي عنهم كونهم مؤمنين. ومن مظاهر نفاقهم وذبذبتهم:

﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي وإذا طلبوا إلى تحكيم كتاب الله واتباع هداه، وإلى الرسول ﷺ ليحكم بينهم في خصوماتهم، أعرضوا عن قبول حكم الله ورسوله ﷺ، واستكبروا عن اتباع حكمه. وهذا ترك للرضا بحكم الرسول ﷺ، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ ۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٤/ ٦٠-٦١] .

وفي الآية دلالة على أن حكم الرسول ﷺ هو حكم الله القائم على الحق والعدل.

﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي إذا كان الحكم في صالحهم جاؤوا إليه سامعين مطيعين؛ لعلمهم بأنه لا يحكم إلا بالحق. وهذا دليل واضح على انتهازيتهم وإرادتهم النفع المعجل، فهم يعرضون عن حكم النبي ﷺ متى عرفوا الحق لغيرهم أو شكّوا، فأما إذا عرفوه لأنفسهم أسرعوا إلى قبول الحكم النبوي والرضا به.

ثم حلّل القرآن الكريم نفسيتهم فقال تعالى:

﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾[1] أي إن ترددهم وذبذبتهم بين قبول حكم النبي ﷺ تارة والإعراض عنه تارة أخرى لأحد الأسباب التالية: وهي إما أنهم مرضى القلوب بالكفر والنفاق، والمرض ملازم لهم، وإما أنهم شكوا في الدين وفي نبوته ﷺ، وإما أنهم يخافون أن يجور الله تعالى ورسوله ﷺ عليهم في الحكم.

وأيا كان هو السبب فهو كفر محض، والله عليم بكل منهم وبصفاتهم. لذا قال تعالى: ﴿بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي بل هم الظالمون الفاجرون، يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم، لا أنهم يخافون أن يحيف الرسول ﷺ عليهم؛ لمعرفتهم بأمانته وعدله في حكمه وصونه عن الجور.

فقه الحياة أو الأحكام:

الإيمان بالمبدأ أو الاعتقاد لا يعرف إلا واجهة واحدة هي واجهة الصراحة

---

(١) كلمة أم للاستفهام، وهو غير جائز على الله تعالى، والمراد به الإخبار عنهم، كقول جرير:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

ومعناه إثبات أنهم كذلك، ولو كان الاستفهام على حقيقته لكان ذماً لهم، وإنما أتى بالاستفهام في الآية لأنه أبلغ في التوبيخ والذم.

في القول، والحزم والجزم بالعقيدة، ومطابقة القول العمل. أما أولئك المنافقون في صدر الإسلام وفي كل عصر الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، فهم كفرة جبناء يطعنون في الإسلام من الخلف، ويريدون في الواقع هدمه، والتنصل من أحكامه وقواعده.

وهذه صورة مخزية لهم عرضها القرآن الكريم، تراهم إذا أحسوا بأن الحق في جانبهم قبلوا بحكم النبي ﷺ؛ لأنه كما أثبت الواقع لا يحكم إلا بالحق. وإن عرفوا الحق مع غيرهم وأرادوا جحوده، طلبوا التحاكم إلى غير هذا النبي من أعدائه الذين يحكمون بأهوائهم.

ففي قلوبهم مرض الكفر والنفاق، والشك والريب في نبوة النبي ﷺ وعدله، وهم في الواقع الظالمون، أي المعاندون الكافرون الذين يريدون جحود الحقوق؛ لإعراضهم عن حكم الله تعالى، وليس هناك أدنى جور في حكم الله والرسول.

هذه عادة الذين يتاجرون بالإسلام وتملق أهله ما دامت لهم مصلحة، فإن زالت المصلحة أو تغيرت ابتعدوا عن الإسلام وركبه.

وهذه الآية دليل على وجوب إجابة الداعي إلى الحاكم؛ لأن الله سبحانه ذمّ من دُعي إلى رسوله ﷺ ليحكم بينه وبين خصمه بأقبح الذم، فقال: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾. فواجب على كل من دُعي إلى مجلس الحاكم أن يجيب، ما لم يعلم أن الحاكم فاسق، أو عداوة بينه وبين المدّعي أو المدّعى عليه.

ومن المعلوم أن القضاء يكون للمسلمين في الحكم بين المُعاهَد والمسلم، ولا حق لأهل الذمة فيه. أما القضاء بين الذميين فذلك راجع إليهما، فإن تراضيا وجاءا قاضي الإسلام، فإن شاء حكم، وإن شاء أعرض.

الطاعة والامتثال عند المؤمنين

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعْرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾

الإعراب:

﴿وَيَتَّقْهِ﴾ بكسر القاف على الأصل، وقرئ بسكونها على التخفيف، مثل كتِف وكتْف.

﴿طَاعَةٞ مَّعْرُوفَةٌۚ﴾ ﴿طَاعَةٞ﴾ خبر مبتدأ محذوف، تقديره: أمرُنا طاعة، أو مبتدأ محذوف الخبر، أي طاعة معروفة أمثلُ من غيرها.

البلاغة:

﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ استعارة، شبَّه الأيمان المبالغ فيها والمؤكدة بمن يجهد نفسه في أمر شاقّ لا يستطيعه.

﴿عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ﴾ مشاكلة، أي عليه التبليغ، وعليكم إثم التكذيب.

المفردات اللغوية:

﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي دعوا إلى حكم الله تعالى والرسول ﷺ ﴿أَن

يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي القول اللائق بهم أن يعلنوا الإطاعة بالإجابة ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الناجون ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما يأمرانه، أو في الفرائض والسنن ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ أي يخف الله على ماصدر عنه من الذنوب في الماضي. ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ بأن يطيعه فيما بقي من عمره ﴿ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم في جنان الله.

﴿جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ قدر طاقتهم وأقصى غاية الأيمان ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ بالجهاد أو الخروج عن ديارهم وأموالهم ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ جواب أقسموا، على الحكاية أي قائلين: لنخرجن ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا۟﴾ على الكذب ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ أي المطلوب منكم طاعة معروفة، لا اليمين والطاعة النفاقية المنكرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مطّلع على أعمالكم فلا يخفى عليه سرائركم ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ أمر بتبليغ ما خاطبهم الله به، على الحكاية، مبالغة في تبكيتهم ﴿تَوَلَّوْا۟﴾ أي تتولوا وتعرضوا ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ أي على محمد ﷺ ما حُمِّل من مهمة التبليغ، وعليكم ما حملتم من الامتثال والطاعة ووزر التكذيب ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾ في حكمه ﴿تَهْتَدُوا۟﴾ إلى الحق ﴿ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ التبليغ الموضح لما كلفتم به.

المناسبة:

جرياً على عادة الله تعالى في إتباع ذكر المحق المبطل، والتنبيه على ما ينبغي بعد إنكاره مالا ينبغي، فبعد حكاية قول المنافقين وفعلهم وبقائهم على النفاق ونفي الإيمان الحق، ذكر الله تعالى ماهو شأن أهل الإيمان في الطاعة والامتثال، وصفات المؤمن الكامل وما يجب أن يسلكه المؤمنون.

التفسير والبيان:

هذه صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، المتثلين لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، فقال تعالى:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ أي إن شأن المؤمنين الصادقي الإيمان وعادتهم أنهم إذا طلبهم أحد إلى حكم الله ورسوله في خصوماتهم أن يقولوا: سمعاً وطاعة، لذا وصفهم تعالى بالفلاح، فأولئك هم الفائزون بنيل المطلوب، والسلامة من المرهوب، والنجاة من المخوف.

والسمع والطاعة هو محور الميثاق الأول مع المسلمين الأوائل، ففي بيعة العقبة الأولى بايع رسول الله ﷺ اثني عشر رجلاً من الأنصار على السمع والطاعة في المعروف، كما روى عبادة بن الصامت. وأخرج أبو داود والترمذي عن أبي نجيح العرباض بن سارية أن رسول الله ﷺ وعظ الصحابة فقال: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة..» وأوصى عبادة بن الصامت ابن أخيه جنادة بن أبي أمية لما حضره الموت فقال: ألا أنبئك بماذا عليك وبماذا لك؟ قال: بلى، قال: فإن عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك، وعليك أن تقيم لسانك بالعدل، وألا تنازع الأمر أهله إلا أن يأمروك بمعصية الله بواحاً، فما أمرت به من شيء يخالف كتاب الله، فاتبع كتاب الله. وقال أبو الدرداء: لا إسلام إلا بطاعة الله، ولا خير إلا في جماعة، والنصيحة لله ولرسوله وللخليفة وللمؤمنين عامة.

ثم أبان الله تعالى أن كل طاعة لله ورسوله محققة الفوز، فقال:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أي ومن يطع الله ورسوله فيما أمراه به، وترك ما نهياه عنه، وخاف الله فيما مضى من ذنوبه، واتقاه فيما يستقبل من أيامه، فأولئك هم الذين فازوا بكل خير، وأمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة.

ثم قارن الله تعالى موقف هؤلاء بموقف أولئك المنافقين، وهم كثيرون في كل زمان، فعاد إلى كشف موقفهم من الطاعة بعد بيان كراهيتهم لحكم رسول الله ﷺ فقال:

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ أي كان أهل النفاق يحلفون للرسول ﷺ مغلّظين الأيمان، مبالغين فيها إلى غايتها: لئن أمرتهم بالجهاد والخروج مع المجاهدين، ليخرجن كما طلبت، فقالوا: والله لئن أمرتنا أن نخرج من ديارنا وأموالنا ونسائنا لخرجنا، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا.

فرد الله تعالى عليهم مبيناً أكاذيبهم بقوله:

﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ قل يامحمد لهم: لا تحلفوا، فإن المطلوب منكم طاعة معروفة، صدق باللسان، وتصديق بالقلب والأفعال. وقيل: معناه طاعتكم طاعة معروفة لنا، فهي مجرد طاعة باللسان فحسب من غير تصديق قلبي، وقول لا فعل معه، وكلما حلفتم كذبتم، كما قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة: ٩/٩٦] وقال سبحانه: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾ [المجادلة: ٥٨/١٦] .

وهذا نهي عن القسم القبيح الكاذب؛ إذ لو كان قسمهم كما يجب لم يجز النهي عنه، فتبين أن قسمهم كان لنفاقهم وأن باطنهم خلاف ظاهرهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي أن الله مطلع على أعمالكم الظاهرة والباطنة، خبير بكم وبمن يطيع ممن يعصي، يعلم بأيمانكم الكاذبة وبكل ما في ضمائر عباده من الكفر والنفاق وخداع المؤمنين، فيجازيكم على كل عمل سَيِّئ. وهذا تهديد ووعيد.

ثم رغبهم الله ورهبهم فقال:

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ قل لهم أيها الرسول: اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله، وهذا دليل على أنهم لم يطيعوا مافيهما.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ أي فإن تتولوا عنه

وتتركوا ما جاءكم أو إن تولوا عن طاعة الله وطاعة رسوله، فإن الذي عليه أي الرسول إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة، وعليكم بقبول ذلك وبطاعته فيما أمر، وتعظيمه، فما حملتم هو الطاعة.

﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي وإن تطيعوا هذا الرسول فيما أمركم به ونهاكم عنه، تهتدوا إلى الحق؛ لأنه يدعو إلى صراط مستقيم، وما على الرسول إلا التبليغ البين والواضح والموضح لما تحتاجون إليه، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ١٣/ ٤٠] وقوله سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٨٨/ ٢١-٢٢].

فقه الحياة أو الأحكام:

قارن الله تعالى في هذه الآيات بين المؤمنين والمنافقين في شأن الطاعة: طاعة الله تعالى والرسول ﷺ في الأمر والنهي، فإن المؤمنين الصادقين، وهم عند نزول الآيات المهاجرون والأنصار، كانوا إذا دعوا إلى كتاب الله تعالى وحكم رسوله ﷺ، قالوا: سمعاً وطاعة، دون تمهل ولا تردد.

وهم في هذا القول لم يخسروا، وإنما حققوا لأنفسهم الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة، فمن يطع أوامر الله تعالى ويلتزم بحكم رسول الله ﷺ وأمره، ويخف عذاب الله على ذنوبه الماضية، ويتق الله في مستقبل عمره، فهو من الفائزين بكل خير، البعيدين عن كل شر.

ذكر أسلم أن عمر رضي الله عنه بينما هو قائم في مسجد النبي ﷺ، وإذا رجل من دهاقين الروم قائم على رأسه، وهو يقول: أنا أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأشهدُ أن محمداً رسول الله، فقال له عمر: ما شأنُك؟ قال: أسلمتُ لله، قال: هل لهذا سبب؟ قال: نعم! إني قرأتُ التوراة والزبور والإنجيل وكثيراً من كتب الأنبياء، فسمعت أسيراً يقرأ آية من القرآن جمع فيها كل مافي

الكتب المتقدمة، فعلمت أنه من عند الله، فأسلمت، قال: ماهذه الآية؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ في الفرائض ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ في السنن ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ فيما مضى من عمره ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما بقي من عمره ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ والفائز: من نجا من النار، وأُدخل الجنة. فقال عمر: قال النبي ﷺ فيما رواه البيهقي: «أوتيتُ جوامع الكَلِم».

وأما المنافقون فيقسمون بالله تعالى أغلظ الأيمان، وطاقة ما قدروا أن يحلفوا على أنهم يجاهدون مع النبي ﷺ في المستقبل ويطيعونه فيما أمر، ولكن أيمانهم كاذبة، لذا نهاهم الله تعالى عن هذا القسم القبيح الكاذب، وأمرهم بالطاعة المعروفة المعتادة لدى المؤمنين، وهي النابعة من إخلاص القلب، ولا حاجة بعدئذ إلى اليمين، فإن الله خبير بما يعملون من الطاعة بالقول، والمخالفة بالفعل.

ثم أكد الله تعالى الأمر بطاعة أوامر الله تعالى وحكم الرسول ﷺ بإخلاص لا نفاق فيه، فإن تولوا عن الطاعة، فما على النبي ﷺ إلا تبليغ الرسالة، وما عليهم إلا الطاعة له، فإن أطاعوه اهتدوا إلى الحق، فجعل الاهتداء مقروناً بطاعته، ثم أكد أنه ما على الرسول ﷺ إلا التبليغ الواضح الذي لا شائبة فيه لكل ما كلف فيه الناس، فهو لا يحمل أحداً على الإيمان الحق، ولا يكره إنساناً على الدين القويم.

قال بعض السلف: من أمَّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾.

أصول دولة الإيمان

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾

القراءات:

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾:

وقرأ ابن كثير (ولَيُبْدِلَنَّهُم).

﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾: قرئ:

١- (لا يَحْسَبَنَّ) وهي قراءة ابن عامر، وحمزة.

٢- (لاتَحْسَبَنَّ) وهي قراءة عاصم.

٣- (لاتَحْسِبَنَّ) وهي قراءة الباقين.

﴿وَمَأْوَىٰهُمُ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (وماواهم).

﴿وَلَبِئْسَ﴾:

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (ولبيس).

الإعراب:

﴿وَعَدَ﴾: وعد في الأصل يتعدى إلى مفعولين، ويجوز الاقتصار على أحدهما، ولهذا اقتصر في هذه الآية على مفعول واحد، وفسّر العدة بقوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾. وهو جواب قسم مضمر تقديره: وعدهم الله وأقسم ليستخلفنهم.

﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من ﴿الَّذِينَ﴾ أو استئناف كلام جديد.

﴿لَا يُشْرِكُونَ﴾ حال من واو ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾.

البلاغة:

﴿مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ طباق بين الخوف والأمن.

المفردات اللغوية:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ خطاب للرسول ﷺ والأمة ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ ليجعلنهم خلفاء متصرفين في الأرض تصرف الملوك في ممالكهم ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ﴾ مبني للمعلوم، وقرئ مبنياً للمجهول ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من بني إسرائيل في مصر وفلسطين بدلاً عن الجبابرة: فرعون وأمثاله ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ وهو الإسلام بالتقوية والتثبيت وإظهاره على جميع الأديان، فالتمكين: هو جعل هذا الدين ممكَّنا في الأرض بتثبيت قواعده وإعزاز جانبه ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ أي وليجعلنهم بعد الخوف من الكفار في حالة أمن وسلام، وقد أنجز الله وعده لهم بما ذكر، فكان رسول الله ﷺ وأصحابه في مكة عشر سنين خائفين، ثم هاجروا إلى المدينة، وبقوا مستنفرين في السلاح صباح مساء، حتى أنجز الله وعده، فغلّبهم على العرب كلهم، وفتح لهم بلاد الشرق والغرب. وفيه دليل

على صحة النبوة بالإخبار عن الغيب على ماهو به، وعلى صحة خلافة الراشدين.

﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ حال من ﴿ٱلَّذِينَ﴾ لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد، أو استئناف ببيان المقتضي للاستخلاف والأمن ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ حال من واو ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ أي يعبدونني غير مشركين ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي ومن ارتد، أو كفر هذه النعمة بعد الوعد أو حصول الخلافة ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ الكاملون في فسقهم حيث ارتدوا بعد وضوح مثل هذه الآيات، أو كفروا تلك النعمة العظيمة. وأول من كفر به قَتَلَةُ عثمان رضي الله عنه، فصاروا يقتتلون بعد أن كانوا إخواناً.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ والفاصل وإن طال وعد على المأمور به، فيكون تكراراً للأمر بطاعة الرسول ﷺ لتأكيد وجوبها، وتعليق الرحمة بها، أي بالطاعة ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي راجين الرحمة.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ الخطاب للرسول ﴿مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي لا تلحقهم قدرة الله على الإهلاك، بأن يفوتوا منها، أي لا تحسبن يامحمد الكفار معجزين الله عن إدراكهم وإهلاكهم في الأرض ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ ومرجعهم النار، وذلك معطوف من حيث المعنى على قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ﴾ كأنه قيل: الذين كفروا لا يَفُوتون الله ومأواهم النار، والمراد بهم: المقسمون جهد أيمانهم. ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ المرجع هي، أو المأوى الذي يصيرون إليه.

سبب النزول:

أخرج الحاكم وصححه، والطبراني عن أبي بن كعب قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين، لا نخاف إلا الله، فنزلت: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن البراء بن عازب قال: فينا نزلت هذه الآية، ونحن في خوف شديد.

المناسبة:

بعد الكلام عن الطاعة وثمرتها: وهي أن من أطاع الرسول ﷺ فقد اهتدى إلى الحق وفاز بالجنة، وعد الله سبحانه بتمكين المؤمنين الطائعين في خلافة الأرض، وتأييدهم بالنصر والإعزاز، وإظهار دينهم على الدين كله، وتبديلهم من بعد خوفهم من العدو أمناً، فيعبدون الله آمنين لا يشركون به شيئاً ولا يخافون. ثم أمرهم بالصلاة والزكاة شكراً لتلك النعم، وطمأنهم بتحقق الوعد السابق بإهلاك الكافرين وزجّهم في نار جهنم.

التفسير والبيان:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي وعد الله الذين تحقق فيهم وصفان معاً هما الإيمان بالله ورسوله والعمل الصالح الطيب الذي يقرب من الله تعالى ويرضيه بأن يجعل أمة النبي ﷺ خلفاء الأرض، أي أئمة الناس، والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد، كما استخلف داود وسليمان عليهما السلام على الأرض، وكما فعل ببني إسرائيل حين أورثهم مصر والشام بعد إهلاك الجبابرة. وقوله ﴿مِنكُمْ﴾ من للبيان كالتي في آخر سورة الفتح: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٤٨/٢٩] .

وبما أن وعد الله صادق ومنجز، كما قال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٣٩/٢٠] فقد أنجز الله وعده، وأظهر المسلمين على جزيرة العرب، وافتتحوا بعدئذ بلاد المشرق والمغرب، ومزّقوا مُلْك الأكاسرة (حكام فارس) وملكوا خزائنهم، وفتحوا بلاد القياصرة (بلاد الروم)

واستولوا على الدنيا، وظلت دولة الإسلام قوية منيعة في ظل خلافات متعاقبة: الخلافة الراشدية، ثم الخلافة الأموية في الشام والأندلس، ثم الخلافة العباسية، ثم الخلافة العثمانية إلى انتهاء الربع الأول من القرن العشرين (١٩٢٤) حيث ألغى أتاتورك الخلافة.

ففي عهده ﷺ فتحت مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن كلها. وأخذت الجزية من مجوس هَجَر ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هِرَقل ملك الروم، والمُقَوْقِس عظيم القبط في مصر، والنجاشي ملك الحبشة، وملك عُمَان.

وفي عهد الخلفاء الراشدين افتتحت بلاد كثيرة في الشرق والغرب وهي أكثر بلاد فارس والروم في العراق والشام ومصر وبعض بلاد شمال إفريقية، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز وقتل كثير من الترك.

وفي العهد الأموي استمرت الفتوح الواسعة حتى شملت بلاد الأندلس والهند.

واستقر الحكم الإسلامي في العهد العباسي في مختلف أجزاء بلاد الإسلام.

وفي عهد الدولة العثمانية امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى بلاد الأندلس، وقبرص والقسطنطينية، وبلاد القيروان وسبتة مما يلي المحيط الأطلسي، وامتد الفتح إلى أقصى بلاد الصين.

وصدق قول الرسول ﷺ في صحيحي البخاري ومسلم ومسند أحمد: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيتُ مشارقها ومغاربها، وسيبلغ مُلْك أمتي ما زُوي لي منها».

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ

تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأنفال: ٨/٢٦] ، وقوله سبحانه: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [القصص: ٢٨/ ٥-٦] .

﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ أي وليجعلن دين الإسلام مكيناً ثابتاً في الأرض، عزيزاً قوياً منيعاً، مرهوب الجانب في نظر أعدائه، منصوراً على ملة الكفر.

﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ أي وليغيرن حالهم من الخوف إلى الأمن. قال رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم حين وفد عليه: «أتعرف الحيرة؟» قال: لم أعرفها، ولكن قد سمعت بها، قال: «فوالذي نفسي بيده ليُتمنَّ الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة - المرأة في الهودج - من الحيرة، حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولتُفتحنَّ كنوزُ كسرى بن هرمز» قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم، كسرى بن هرمز، وليُبذلنَّ المال حتى لا يقبله أحد».

قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة، فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة؛ لأن رسول الله ﷺ قد قالها.

وتحققت الثالثة في عهد الخليفة الراشد العادل عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى.

وأخرج الإمام أحمد عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «بشِّر هذه الأمة بالسنا والرفعة والدين والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة نصيب».

ثم بيَّن حال هذه الأمة أثناء تمكنها في الأرض أو علة تمكينها في الأرض فقال:

﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [1] أي إن هذه الأمة تعبد الله وحده لاشريك له، ولا يتغيرون من عبادة الله تعالى إلى الشرك، ووَعَدهم الله ذلك في حال عبادتهم وإخلاصهم. روى الإمام أحمد والشيخان عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال له: «حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله ألا يعذبهم».

﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي ومن ارتد أو كفر النعمة، كقوله تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ [النحل: ١٦/ ١١٢] ، أو خرج عن طاعة ربه وأمره، فأولئك هم الكاملون في فسقهم حيث كفروا تلك النعمة العظيمة، وتناسوا فضل الله عليهم، وهذا ربما يصدر من بعض الأمة بدليل حديث الصحيحين وغيرهما من الأئمة: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة».

وبعد الأمر بطاعة الله تعالى وطاعة الرسول ﷺ أمر الله تعالى بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة شكراً للنعمة، وإحساناً إلى عباد الله الفقراء، مكرراً للتأكيد الأمر بطاعة الرسول ﷺ، فقال:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦)﴾ أي وأدوا الصلاة في أوقاتها تامة الأركان والشروط، واعبدوا الله وحده لاشريك له، وأعطوا الزكاة المفروضة عليكم؛ لما فيها من الإحسان إلى الضعفاء والفقراء، وأطيعوا رسول الله ﷺ فيما أمركم به أو نهاكم عنه أو زجركم

(١) يعبدونني كما تقدم: هو في موضع الحال، أي في حال عبادتهم الله بالإخلاص، ويجوز أن يكون استئنافاً على طريق الثناء عليهم.

عنه، لعل الله يرحمكم بذلك، وينجيكم من عذاب أليم. ولا شك أن من فعل هذا سيرحمه الله، كما قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [التوبة: ٩/ ٧١] .

وأما المتنكرون لطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ فهم كما قال تعالى:

﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٥٧﴾ أي لا تظنن أيها الرسول أن الذين خالفوك وكذبوك وكفروا برسالتك يعجزون الله ويفرون من سلطانه إذا أراد إهلاكهم، بل الله قادر عليهم، وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب في الدنيا بألوان مختلفة فردية كالمرض والهم والقلق والانتحار، أو جماعية كالقتل في الحروب والزلازل والبراكين والحرق والغرق، ومأواهم في الآخرة نار جهنم، وبئس المآل مآل الكافرين، وبئس المرجع والقرار والمهاد. ومعجزين: معناه فائتين، والمصير: المرجع، كما بيَّنا.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه هي أصول دولة الإيمان، تنبئ عن قواعد ومبادئ أهمها الجمع بين الإيمان والعمل الصالح، وثمرتها أولاً - إنجاز وعد الله بالعزة والسيادة في الأرض في الدنيا، ونصرة الإسلام على الكفر، وتمكين هذا الدين المرتضى وهو دين الإسلام في الأرض، أي تثبيته وتوطيده وتأمينه وتأمين أهله وإزالة الخوف الذي كانوا عليه، وثانياً - الظفر برحمة الله في الآخرة.

ودلت الآيات على ما يلي[1]:

أ - إثبات صفة الكلام لله عزّ وجلّ وأنه متكلم؛ لأن الوعد نوع من أنواع الكلام، ومن وصف بالنوع وصف بالجنس.

٢ - الله تعالى حيّ قادر على جميع الممكنات؛ لأنه قال: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي

(١) انظر تفسير الرازي: ٢٤/ ٢٤

﴿ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ وقد فعل ذلك كما بيّنا في التفسير السابق، وصدور هذه الأشياء لا يصح إلا من القادر على كل المقدورات.

٣ً - الله تعالى هو المستحق للعبادة وحده؛ لقوله: ﴿يَعْبُدُونَنِى﴾.

٤ً - إنه سبحانه منزه عن الشريك؛ لقوله: ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ وذلك يدل على نفي الإله الآخر، وعلى أنه لا يجوز عبادة غير الله تعالى، سواء كان كوكباً كما يقول الصابئة، أو صنماً كما يقول عبدة الأوثان.

٥ً - صحة نبوة محمد ﷺ؛ لأنه أخبر عن الغيب في قوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية، وقد تحقق الخبر المعجز، فدل على صدق المخبر وهو محمد ﷺ.

٦ً - العمل الصالح خارج عن مسمى الإيمان.

٧ً - إثبات خلافة الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، فالآية ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ أوضح دليل وأبينه؛ لأنهم المستخلفون الذين آمنوا وعملوا الصالحات، والذين وعدهم الله بالاستخلاف بعد النبي ﷺ، والاستخلاف: الإمامة فقط، وأما الذين من قبلهم فهم الخلفاء إما بالنبوة وإما بالإمامة والخلافة.

ولكن لا تختص الخلافة بهم، بل تشمل غيرهم ممن استخلفوا على المسلمين.

٨ً - إن من أتم النعم على الصحابة وتابعيهم بعد نصرة الإسلام هو تبديل خوفهم أمناً، كما وعد تعالى، وأكده رسول الله ﷺ لما قال أصحابه: أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟ فقال ﷺ: «لا تلبثون إلا قليلاً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم مُحْتَبياً، ليس عليه حديدة» وقال ﷺ فيما أخرجه مسلم في صحيحه: «والله ليُتمنَّ الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء

إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون» فالآية معجزة النبوة؛ لأنها إخبار عما سيكون، فكان، كما بيَّنا.

٩ً - إن أساس العمل الإسلامي عبادة الله بالإخلاص، دون أن يشوبها شرك ظاهر أو خفي وهو الرياء.

١٠ً - المراد بالكفران في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ في رأي أكثر المفسرين كفران النعمة؛ لأنه قال تعالى: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أما الكافر الحقيقي فهو فاسق بعد هذا الإنعام وقبله.

١١ً - إن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة أوامر الرسول ﷺ واجتناب نواهيه سبب للرحمة الشاملة من الله تعالى.

١٢ً - لن يعجز الله هرباً في الأرض أحدٌ من الكفار، وإنما قدرة الله تطولهم في أي مكان، وهم المقهورون، ومأواهم النار. قال صاحب الكشاف: النظم في قوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ لا يحتمل أن يكون متصلاً بقوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ لأن ذلك نفي، وهذا إيجاب، فهو إذن معطوف بالواو على مضمر قبله تقديره: لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض، بل هم مقهورون، ومأواهم النار.

الحكم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر
حالات الاستئذان في داخل الأسرة
وتخفيف الثياب الظاهرة عن العجائز

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (٥٩) وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۢ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ (٦٠)﴾

القراءات:

﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (ثلاثَ عورات).

﴿فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ﴾:

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (فليستاذنوا كما استاذن).

الإعراب:

﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذه ثلاث عورات، أي هذه ثلاثة أوقاتِ عورات، وحَذَف المضاف اتساعاً. ويقرأ بالنصب على أنه بدل

من قوله: ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ وهذا ظرف زمان أي ثلاثة أوقات، وأخبر عن هذه الأوقات بالعورات لظهورها فيها، مثل ليلك نائم، ونهارك صائم. وتسكين واو ﴿عَوْرَٰتٍ﴾ لأنه حرف العلة، والحركة تستثقل على حرف العلة. وقرئ بفتح الواو على قياس جمع التصحيح، نحو ضَرْبة ضَرَبات.

﴿طَوَّٰفُونَ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هم طوافون، أي أنتم طوافون، و﴿بَعْضُكُمْ﴾ بدل من ضمير ﴿طَوَّٰفُونَ﴾ أي يطوف بعضكم على بعض.

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ﴾ جمع قاعد: وهي التي قعدت عن الزواج للكبر، ولم يدخلها الهاء؛ لأن المراد به النسب، أي ذات قعود، كقولهم: حامل وحائض وطاهر وطالق، أي ذات حمل وطمث وطهر وطلاق.

﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ دخول الفاء في ﴿فَلَيْسَ﴾ يدل على أن ﴿ٱلَّتِى﴾ في موضع رفع؛ لأنه صفة للقواعد لا للنساء؛ لأنك لو جعلته صفة للنساء، لم يكن لدخول الفاء وجه؛ لأن الموصول هي التي يدخل الفاء في خبرها، فإذا جعلت ﴿ٱلَّتِى﴾ صفة للقواعد، فالصفة والموصوف بمنزلة شيء واحد.

﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ﴾ حال من ضمير (هن) في ثيابهن، أو من ضمير ﴿يَضَعْنَ﴾.

البلاغة:

﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ صيغة مبالغة.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ العبيد والإماء. ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ الصبيان الذين لم يبلغوا من الأحرار، والحلم من حلَم: وقت البلوغ: إما بالاحتلام وإما ببلوغ خمس عشرة سنة. ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ أي في ثلاثة أوقات ﴿مِّن

﴿قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ لأنه وقت تبديل الثياب. ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ أي تخلعون ثيابكم وقت الظهر، وقوله: من الظهيرة: بيان للحين. ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ لأنه وقت التجرد عن اللباس والالتحاف باللحاف. ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ﴾ أي ثلاثة أوقات يختل فيها تستركم وتبدو فيها العورات لإلقاء الثياب، والعورة: الخلل، والأعور: المختل العين، وسميت كل حالة عورة؛ لأن الناس يختل تحفظهم وتسترهم فيها. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ أي لا على المماليك والصبيان. ﴿جُنَاحٌۢ﴾ إثم وذنب في الدخول عليكم بغير استئذان. ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ بعد الأوقات الثلاثة. ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ أي هم طوافون عليكم للخدمة والمخالطة وكثرة المداخلة. وفيه دليل على تعليل الأحكام. ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بعضكم طائف على بعض، أو يطوف بعضكم على بعض، والجملة مؤكدة لما قبلها.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التبيين لما ذكر. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي الأحكام. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأمور خلقه وأحوالهم. ﴿حَكِيمٌ﴾ بما دبره لهم وشرع. ولكن تهاون الناس في ترك الاستئذان.

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ﴾ أيها الأحرار، ولا يدخل فيهم المماليك. ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ في جميع الأوقات. ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي الأحرار الكبار الذين بلغوا من قبلهم. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ كرره تأكيداً ومبالغة في الأمر بالاستئذان.

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ العجائز اللاتي قعدن عن الحيض والحمل والولد لكبرهن. ﴿لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ لا يطمعن في النكاح لكبرهن. ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أن يتخففن بإلقاء الثياب الظاهرة كالجلباب والرداء، والقناع فوق الخمار. ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ أي غير مظهرات زينة خفية كقلادة وسوار وخلخال. وأصل التبرج: التكلف في إظهار ما يخفى من

الزينة، مأخوذ من قولهم: سفينة بارجة أي لا غطاء عليها، إلا أنه خص بكشف المرأة زينتها ومحاسنها للرجال .﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ أي يرتدين أكمل الثياب خير لهن من الوضع؛ لأنه أبعد من التهمة .﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمقالهن للرجال وقولكم .﴿عَلِيمٌ﴾ بمقصودهن وبما في قلوبكم.

سبب النزول:

قال ابن عباس: وجَّه رسول الله ﷺ غلاماً من الأنصار يقال له: مُدْلج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقت الظهيرة ليدعوه، فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته ذلك، فقال: يا رسول الله وَدِدْت لو أن الله تعالى أمرنا ونهانا في حال الاستئذان، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾.

وقال مقاتل: نزلت في أسماء بنت أبي مَرْثَد كان لها غلام كبير، فدخل عليها في وقت كرهته، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهها، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية.

وفي رواية: ثم انطلق - أي عمر - إلى رسول الله ﷺ، فوجد هذه الآية قد أنزلت، فخرَّ ساجداً، شكراً لله. وهذه إحدى موافقات رأي عمر للوحي.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي أنه قال: كان أناس من أصحاب رسول الله ﷺ يعجبهم أن يباشروا نساءهم في هذه الساعات، فيغتسلوا، ثم يخرجوا إلى الصلاة، فأمرهم الله تعالى أن يأمروا المملوكين والغلمان ألا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا بإذن بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ الآية.

فإذا صح أن سبب النزول قصة أسماء المتقدمة، كان قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ خطاباً للرجال والنساء بطريق التغليب؛ لأن دخول سبب النزول في الحكم قطعي، كما هو الراجح في الأصول.

التفسير والبيان:

هذه الآيات عود إلى تتمة الأحكام السالفة في هذه السورة، بعد الفراغ من الإلهيات الدالة على وجوب الطاعة فيما سلف من الأحكام وغيرها، والوعد عليها والوعيد على الإعراض عنها. وموضوع هذه الآيات استئذان الأقارب بعضهم على بعض، والتخفيف عن العجائز بإلقاء الثياب الظاهرة. أما ما تقدم في أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض. وتفسير الآيات ما يأتي:

الحكم الحادي عشر:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ﴾ أي أيها المؤمنون والمؤمنات بالله ورسوله يطلب من خدمكم مما ملكت أيمانكم من العبيد والإماء، وأطفالكم الصغار أن يستأذنوكم في ثلاثة أحوال أو أوقات:

الأول - من قبل صلاة الفجر؛ لأنه وقت النوم في الفراش واليقظة من المضاجع وتغيير ثياب النوم وارتداء ثياب اليقظة، ويحتمل انكشاف العورة.

الثاني - حين تخلعون ثياب العمل وتستعدون للنوم وقت الظهيرة أو وقت القيلولة؛ لأن الإنسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله.

الثالث - من بعد صلاة العشاء؛ لأنه وقت خلع ثياب اليقظة، ولبس ثياب النوم.

فيؤمر الخدم والأطفال ألا يهجموا على أهل البيت في هذه الأحوال؛ لما يخشى من انكشاف العورات ونحو ذلك من مقدمات النوم والراحة، فهي ساعات الخلوة والانفراد ووضع الملابس.

والأمر في قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ﴾ ظاهر في الوجوب، لكن قال الجمهور: إنه مصروف إلى الندب والاستحباب، والتعليم والإرشاد إلى محاسن الآداب، مثل قوله ﷺ فيما أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم عن عبد الله بن عمر: «مُرُوا أولادكم بالصلاة وهم أبناءُ سَبْع، واضْرِبُوهم عليها وهم أبناءُ عَشْر سنين». فلو حدث دخول بغير استئذان لم يكن ذلك معصية، وإنما خلاف الأولى، وإخلال بالأدب. فإن علم الخادم أن في دخوله على سيده إيذاء له، حرم الدخول بسبب الأذى لغيره.

وزعم بعضهم أن حكم الاستئذان في الأوقات الثلاثة السابقة منسوخ؛ لجريان عمل الصحابة والتابعين في الصدر الأول على خلافه، أو أنه كان يعمل بها عند عدم وجود ستور للبيوت. والأصح أن حكم الاستئذان في هذه الأوقات محكم غير منسوخ، وهو قول أكثر أهل العلم. قال أبو حنيفة رحمه الله: لم يصر أحد من العلماء إلى أن الأمر بالاستئذان منسوخ.

والجمهور على أن الخطاب في الآية عام في الذكور والإناث من الأرقاء، الكبار منهم والصغار. وروي عن ابن عباس أنه خاص بالصغار، كما روي عن السُّلَمي أنه خاص بالإناث، وكلا الرأيين غير معقول.

والمراد بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ﴾ هم الصبيان من الذكور والإناث، سواء أكانوا أجانب أم محارم. وهم المراهقون لقوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: ٢٤/٣١] .

وعلة طلب الاستئذان ما قال الله تعالى:

﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ﴾ أي إن هذه الأوقات المذكورة هي ثلاثة أوقات عورات يختل فيها التستر عادة، والعورة لا يجوز النظر إليها. وما عدا ذلك فهو مباح كما قال سبحانه:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أي لا إثم ولا حرج في ترك الاستئذان في غير الأوقات الثلاثة، وإنما الأمر مباح على أصل الإباحة في الأشياء.

وأما الوقت الممتد بين العشاء والفجر، فيدخل في وقت المنع قبل صلاة الفجر، من باب أولى، وإنما سكت عنه النص لندرة الدخول فيه بسبب النوم، ولأن المعمول به عادة حصول الاستئذان فيه، منعاً من التهمة وسوء الظن.

وعلة الإباحة كما ذكر تعالى:

﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي إن هؤلاء الخدم والأطفال الصغار يطوفون عليكم في الخدمة وغير ذلك، ويترددون على مجالسكم أنساً بكم ومعاشرة ومداخلة، وقضاء حاجات، وبعضكم طائف عادة على بعض، وكرر الله تعالى ذلك للتأكيد، فالتعبير الأول تسلية للمماليك والخدم، والتعبير الثاني مراعاة لجانب السادة المخدومين وإشعاراً بحاجتهم إلى خدمات الخدم.

وفيه دلالة على تعليل الأحكام؛ لأن الله تعالى نبّه على علة طلب الاستئذان بقوله: ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾ كما نبّه على أن التطواف علة الإباحة في غير الأوقات الثلاثة، ويغتفر في الطوافين دفعاً للحرج والمشقة ما لا يغتفر في غيرهم. لهذا روى الإمام مالك وأحمد بن حنبل وأهل السنن أن النبي ﷺ قال في الهرة: «إنها ليست بنجسة، إنها من الطوافين عليكم، والطوافات».

وفي الآية دلالة أيضاً على أن المميز غير البالغ يُعَوَّد على الأدب والنظام والانضباط والإعداد لتحمل المسؤولية والتكاليف الشرعية، قال تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦٦/٦] أي أدبوهم وعلموهم.

وهذا التأديب والتعليم والبيان والتشريع بفضل الله تعالى، لذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي مثل ذلك التبيين لما ذكر

من الأحكام يبين الله لكم الشرائع والأنظمة في آياته البينة الواضحة الدلالة على معانيها ومقاصدها، والله عليم بأحوال عباده وبما يصلحهم وما لا يصلحهم، حكيم في تدبير أمورهم وتشريع الأصلح الأنسب لهم في الدنيا والآخرة.

الحكم الثاني عشر:

انتقل البيان لمعرفة حكم استئذان البالغين الأحرار، فقال تعالى:

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ أي إذا بلغ الحلم الأطفال الذين كانوا يستأذنون في العورات الثلاث، فيجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال، مع الأجانب والأقارب، كما استأذن الكبار الذين سبقوهم من ولد الرجل وأقاربه. فهذه الآية مبينة لآية: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ﴾ [النور: ٢٤/٣١] أي إن الطفل الذي لم يظهر على العورات مستثنى، فإذا ظهر على العورات، وذلك بالبلوغ، فيستأذن. وأفرد «الطفل» في الآية؛ لأنه يراد به الجنس.

ولم يذكر المماليك هنا، وإنما بقي الحكم السابق مقرراً عليهم وهو الاستئذان في أوقات ثلاثة؛ لأن حكم كبارهم وصغارهم واحد.

وبلوغ الحلم إما بالاحتلام أو ببلوغ خمس عشرة سنة في رأي أكثر العلماء؛ لما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه عُرض على النبي ﷺ يوم أحد، وله أربع عشرة سنة، فلم يجزه، وعرض عليه يوم الخندق، وله خمس عشرة سنة فأجازه.

وقال أبو حنيفة رحمه الله: لا يكون الغلام بالغاً حتى يبلغ ثماني عشرة سنة ويستكملها، والفتاة حتى تبلغ سبع عشرة سنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ﴾ [الأنعام: ٦/١٥٢] وأقل حد لبلوغ

الأشد ثماني عشرة سنة، فيبنى الحكم عليها للتيقن، أما الإناث فيكون إدراكهن ونشوؤهن أسرع، فنقص في حقهن سنة[١].

ويرى جماعة من العلماء منهم الشافعي أن الإنبات (إنبات الشعر) من أمارات البلوغ؛ لما روى عطية القرظي أن النبي ﷺ أمر بقتل من أنبت من قريظة، واستحياء من لم ينبت، قال: فنظروا إلي فلم أكن أنبتّ، فاستبقاني ﷺ. ولا يعتبر الإنبات عند الحنفية بلوغاً لظاهر قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ فإنه ينفي كون الإنبات بلوغاً إذا لم يحتلم، كما نفى كون خمس عشرة سنة بلوغاً.

ثم عاد البيان القرآني لتأكيد نعمة الله بتشريع هذه الأحكام فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي كما بين لكم ما ذكر بياناً كافياً شافياً، يبيِّن لكم أحكاماً أخرى تحقق الاستقرار والاطمئنان وسعادة الدنيا والآخرة، والله عليم بأحوال عباده، حكيم في معالجة أمورهم.

الحكم الثالث عشر:

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ۖ﴾ هذا بيان حكم النساء العجائز، والمعنى: إن النساء اللواتي كَبِرن، وانقطع الحيض عنهن، ويئسن من الولد، ولم يبق لهن رغبة في التزوج، فلا إثم عليهن ولا حرج أن يخففن في ملابسهن ويخلعن ثيابهن الظاهرة كالجلباب والرداء والقناع فوق الخمار (غطاء الرأس) إذا لم يقصدن إظهار ما عليهن من الزينة الخفية كشعر ونحر وساق، ولم يكن فيهن جمال ظاهر، فإن وجد حرم خلع الثياب الظاهرة، ولم يؤد إلى كشف شيء من العورة.

---

(١) أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ٣٣١ وما بعدها.

﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي إن التعفف والاحتياط بالستر، وإبقاء ثيابهن المعتادة، وإن كان جائزاً، خير وأفضل لهن، والله سميع لأحاديثهن وكلامهن مع الرجال وكلام الرجال معهن، عليم بمقاصدهن لا تخفى عليه خافية من أمرهن وغير ذلك، فإياكم ووساوس الشيطان.

فقه الحياة أو الأحكام:

اشتملت الآيات على أحكام ثلاثة هي:

١ - يندب ندباً مؤكداً للمماليك العبيد والإماء والأطفال غير البالغين الاستئذان عند الدخول على الأبوين (عماد الأسرة) في أوقات ثلاثة: هي ما قبل صلاة الفجر، وعند القيلولة ظهراً، وما بعد صلاة العشاء. قال ابن عباس: إن الله حليم رحيم بالمؤمنين يحبُّ السَّتْر، وكان الناس ليس لبيوتهم ستور ولا حجال[1]، فربما دخل الخادم أو الولد أو يتيمة الرجل، والرجل على أهله، فأمرهم الله بالاستئذان في تلك العورات، فجاءهم الله بالستور والخير، فلم أر أحداً يعمل بذلك.

وسبب تخصيص هذه الأوقات أنها أوقات تقتضي عادة الناس كشف شيء من عوراتهم فيها، فطلب فيها الاستئذان منعاً من الاطلاع على العورات. وهذه الآية خاصة، وأما التي سبق ذكرها فهي عامة، وهي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ﴾.

٢ - يجب على البالغين الأحرار الاستئذان في كل وقت عند الدخول على الآخرين أجانب أو أقارب.

---

(١) الحجال جمع حَجَلة: بيت كالقبة يستر بالثياب، ويكون له أزرار كبار كبيت الشَّعْر اليوم.

٣ً - يباح للعجائز القاعدات في البيوت اللواتي لا يشتهين عادة من الرجال خلع الثياب الظاهرة كالجلباب والرداء والقناع فوق الخمار، دون أن يؤدي ذلك إلى كشف شيء من العورة، ودون قصد التبرج أو إظهار الزينة لينظر إليهن، وإن كن لسن بمحل لذلك عادة، والاستعفاف خير وأفضل من فعل المباح.

وإنما خص الله تعالى القواعد من النساء بهذا الحكم دون غيرهن لانصراف النفوس عنهن عادة.

ومن التبرج أن تلبس المرأة ثوباً رقيقاً يصف جسدها، وهو المراد بقوله ﷺ في الحديث الصحيح عند مسلم عن أبي هريرة: «ربَّ نساءٍ كاسيات عارياتٍ، مائلاتٍ مُميلات، لا يدخُلْن الجنة، ولا يجدن ريحها» جعلن كاسيات؛ لأن الثياب عليهن، ووصفن بعاريات لأن الثوب إذا رَقَّ يكشفهن، وذلك حرام[(١)].

٤ً - قال أبو بكر الرازي الجصاص: دلت هذه الآية على أن من لم يبلغ، وقد عقل، يؤمر بفعل الشرائع، وينهى عن ارتكاب القبائح، فإن الله أمرهم بالاستئذان في هذه الأوقات، وقال ﷺ فيما أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم عن ابن عمرو: «مروهم بالصلاة، وهم أبناء سبع، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين». وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: نُعلِّم الصبي الصلاة إذا عرف يمينه من شماله. وكان زين العابدين علي بن الحسين يأمر الصبيان أن يصلوا الظهر والعصر جميعاً والمغرب والعشاء جميعاً، فقيل له: يصلون الصلاة لغير وقتها، فقال: هذا خير من أن يتناهوا عنها. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: إذا بلغ الصبي عشر سنين كتبت له الحسنات، ولا تكتب عليه السيئات، حتى يحتلم.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي: ٣/ ١٣٨٩

وإنما يؤمر بذلك على وجه التعليم، وليعتاده ويتمرن عليه، فيكون أسهل عليه بعد البلوغ، وأقل نفوراً منه، وكذلك يجنب شرب الخمر ولحم الخنزير، وينهى عن سائر المحظورات؛ لأنه لو لم يمنع منه في الصغر، لصعب عليه الامتناع بعد الكبر، وقال الله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦٦/٦] قيل في التفسير: أدبوهم وعلّموهم(١).

٥ - الآية دالة على أن الواجب اعتبار العلل في الأحكام إذا أمكن؛ لأنه تعالى نبّه على العلة في هذه الأوقات الثلاثة من وجهين:

أحدهما - بقوله تعالى: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ﴾ وهي علة طلب الاستئذان.

والثاني - بالتنبيه على الفرق بين هذه الأوقات الثلاثة، وبين ما عداها، وهو علة التكشف في هذه الأوقات الثلاثة، وما عداها يختلف عنها، كما تقدم بيانه.

إباحة الأكل من بيوت معينة دون إذن

﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٦١﴾

(١) أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ٣٣٣

القراءات:

﴿بُيُوتِكُمْ﴾، ﴿بُيُوتِ﴾:

قرئ:

١- (بُيُوتكم، بُيُوت) وهي قراءة ورش، وأبي عمرو، وحفص.

٢- (بِيُوتكم، بِيُوت) وهي قراءة الباقين.

﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾:

قرئ:

١- (إِمِّهَاتكم) وهي قراءة حمزة.

٢- (إِمَّهَاتكم) وهي قراءة الكسائي.

٣- (أُمَّهَاتكم) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ حال من واو ﴿تَأْكُلُوا﴾.

﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ منصوب على المصدر؛ لأن قوله: ﴿فَسَلِّمُوا﴾ معناه: فحيّوا.

البلاغة:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾: إطناب بتكرار لفظ الحرج، تأكيداً للحكم شرعاً.

المفردات اللغوية:

﴿حَرَجٌ﴾ الحرج لغة: الضيق، ويراد به شرعاً الإثم أو الذنب .﴿أَوْ مَا

﴿مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ أي ما كنتم فيه وكلاء عن غيركم أو حفظة له .﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ الصديق: يطلق على الواحد والجمع، كالخليط والعدو، وهو من صدقكم في مودته. ومعنى الآية: يجوز الأكل من بيوت المذكورين، وإن لم يحضروا، إذا علم رضاهم به .﴿جَمِيعًا﴾ أي مجتمعين .﴿أَشْتَاتًا﴾ متفرقين، جمع شَتّ، أي متفرق، وشتى: جمع شتيت.

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ لكم لا أهل بها أو من هذه البيوت ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي على أهل البيوت، أو قولوا: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» فإن الملائكة تردّ عليكم، وإن كان بها أهل فسلموا عليهم. ﴿تَحِيَّةً﴾ مصدر حيًّا .﴿مُبَٰرَكَةً﴾ كثيرة الخير .﴿طَيِّبَةً﴾ تطيب بها نفس المستمع .﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي مثل ذلك البيان يبين لكم معالم دينكم، كرره مرة ثالثة لمزيد التأكيد وتفخيم الأحكام السابقة المختتمة به .﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي تفهموا ذلك، وتعقلوا الحق والخير في الأمور.

سبب النزول:

اختلف الرواة في سبب نزول هذه الآية، أذكر ثلاث روايات منها.

الأولى - في نفي الحرج عن الأكل من بيوت معينة:

قال سعيد بن المسيِّب: أنزلت هذه الآية في أناس كانوا إذا خرجوا مع النبي ﷺ وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والأعرج والمريض وعند أقاربهم، وكانوا يأمرونهم أن يأكلوا مما في بيوتهم إذا احتاجوا إلى ذلك، وكانوا يتقون أن يأكلوا منها ويقولون: نخشى ألا تكون أنفسهم بذلك طيبة، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ وهذا ما اختاره ابن جرير.

والآية وإن نزلت في تحرج أصحاب الأعذار هؤلاء من الأكل في بيوت من خلفوهم على بيوتهم، إلا أنها ذكرت حكماً عاماً لكل الناس. ومعنى نفي الحرج من أكل الناس في بيوتهم إظهار التسوية بين أكلهم من بيوتهم وأكلهم من بيوت أقاربهم وموكليهم وأصدقائهم.

الثانية - رفع الإثم عن المعذورين في التخلف عن الجهاد:

قال الحسن البصري: نزلت الآية في ابن أم مكتوم وضع الله عنه الجهاد، وكان أعمى.

وقال أبو حيان: إن الآية تنفي الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض في القعود عن الجهاد، وتنفي الحرج عن المخاطبين في أن يأكلوا من بيوت الذين ذكرهم الله. والجمع بينهما في مقام الإفتاء والبيان مقبول غير مستغرب. ووجه اتصال الآية حينئذ بما قبلها أنه تعالى بعد أن ذكر حكم الاستئذان، بيّن أن تخلف أصحاب الأعذار عن الجهاد لا يحتاج إلى إذن النبي ﷺ.

الثالثة - نفي الحرج عن الناس في مؤاكلة المرضى:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما أنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ٢/١٨٨] تحرَّج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزمنى والعُرْج، وقالوا: الطعام أفضل الأموال، وقد نهى الله تعالى عن أكل المال بالباطل، والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب، والمريض لا يستوفي الطعام، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال سعيد بن جبير والضحاك: كان العرجان والعميان يتنزهون عن مؤاكلة الأصحاء؛ لأن الناس يتقذرونهم، ويكرهون مؤاكلتهم، وكان أهل المدينة لا يخالطهم في طعامهم أعمى ولا أعرج ولا مريض تقذراً، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وأياً ما كان سبب نزول الآية فإنها تبيح الأكل من هذه البيوت، بشرط أن يعلم الآكل رضا صاحب المال بإذن صريح أو قرينة، وخصصت هذه البيوت بالذكر لتبسط الناس فيما بينهم عادة في الأكل من بيوت أقاربهم ووكلائهم وأصدقائهم.

سبب نزول آية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾:

قال قتادة والضحاك: نزلت في حيّ من كنانة يقال لهم: بنو ليث بن عمرو، وكانوا يتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده، فربما قعد الرجل، والطعام بين يديه من الصباح إلى الرواح، تحرّجاً من أن يأكل وحده، فإذا أمسى ولم يجد أحداً أكل، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال عكرمة: نزلت في قوم من الأنصار كانوا لا يأكلون إذا نزل بهم ضيف إلا مع ضيفهم، فرخص لهم أن يأكلوا كيف شاؤوا جميعاً متحلقين أو أشتاتاً متفرقين.

والكلام متصل بما قبله، فحين نفى الحرج عنهم في الأكل نفسه، أراد أن ينفي الحرج عنهم في كيفية الأكل، فلا جناح في الأكل من هذه البيوت، سواء مع أصحابها أو بدونهم. وقيل: الكلام مستقل عما قبله لبيان حكم آخر مماثل له، وهو أن الأكل كما يجوز منفرداً، يجوز مع الضيف.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى حكم دخول المماليك والصبيان إلى البيوت في غير العورات الثلاث دون استئذان، ذكر هنا حكم تخلف أصحاب الأعذار عن الجهاد من غير استئذان، وحكم الأكل من البيوت المذكورة في الآية من غير إذن صريح إذا علم رضا أصحابها.

التفسير والبيان:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي

ليس على هؤلاء الثلاثة إثم ولا ذنب في ترك الجهاد لضعفهم وعجزهم، كما نقل عن عطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وكما قال تعالى في سورة براءة: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٩١-٩٢].

وذكر الفخر الرازي أن الأكثرين قالوا: المراد منه أن القوم كانوا يحظرون الأكل مع هؤلاء الثلاثة وفي هذه المنازل، فالله تعالى رفع ذلك الحظر وأزاله.

والظاهر لي أن الآية في أمر يتعلق بنظام الحياة في الأسرة، كالآيات السابقة في الاستئذان وتخفيف العجائز من الألبسة الظاهرة، وأنها تريد أن تجمع بين أفراد الأسرة الأصحاء وأصحاب الأعذار في تناول الطعام على مائدة واحدة، وترفع الكلفة والمشقة في الأكل من البيوت الخاصة أو بيوت الأقارب والأصدقاء، دون إذن صريح، وأن الحكم في البيت الخاص كبيت القريب والصديق على حدّ سواء، وذكر الأكل من البيوت ليساوي ما بعده في الحكم ويعطفه عليه، فهو أدب اجتماعي من أدب الإسلام الرفيع.

﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ أي ولا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوتكم الخاصة، ويشمل ذلك بيوت الأولاد؛ لأنه وإن لم ينص عليهم، فهم كبيت الإنسان؛ لأن بيت الولد كبيت الوالد، ومال الولد بمنزلة مال أبيه. روى الإمام أحمد في المسند وأصحاب السنن عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أنتَ ومالُك لأبيك» وقال أيضاً فيما أخرجه البخاري في التاريخ والترمذي والنسائي وابن ماجه عن عائشة: «إن أطيبَ ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم».

وقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ للإشارة إلى أن الأكل مع أصحاب الأعذار لا يخل بقدر الأصحاء أهل الشأن، وأن التواضع مطلوب، والترفع عن مؤاكلتهم منبوذ ممجوج شرعاً وديناً، وفي ذلك توسعة على الناس، وبيان ما تقتضيه أواصر المحبة والصلة والود بين الأفراد.

﴿أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ﴾ أي إن الله تعالى أباح لنا الأكل من أحد عشر موضعاً بلا إذن صريح، حيث علمنا رضاه وسروره، وأنه لا يبخل ولا يتألم، فإن كان يتضجر أو يتأفف أو يتألم فلا نأكل من طعامه في غيبته، ويطلب التعفف حينئذ. وتلك المواضع هي:

الأكل من بيوتنا ومنها بيوت أولادنا كما بينا، وبيوت آبائنا وأجدادنا، وبيوت أمهاتنا وجداتنا، وبيوت إخواننا، وبيوت أخواتنا، وبيوت أعمامنا، وبيوت عماتنا، وبيوت أخوالنا، وبيوت خالاتنا، وما ملكنا مفاتحه بالوكالة عن أصحاب البيوت، وبيوت أصدقائنا إذا عرفنا أنه راض ومسرور بما نفعل، وإلا فلا يجوز لقوله ﷺ فيما رواه أحمد وأبو داود: «لا يحلُّ مالُ امرئ مسلم إلا بطيْب نَفْسٍ منه»، وحديث الشيخين عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «لا يحلبنَّ أحدٌ ماشيةَ أَحَدٍ إلا بإذْنه».

وهؤلاء المذكورون من الأقارب تطيب نفوسهم عادة وطبعاً بأكل أحد من قراباتهم عندهم.

أما المقصود بقوله: ﴿مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ فيراد به كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: وكيل الرجل وقيّمه في ضيعته وماشيته، لا بأس عليه أن يأكل من ثمر ضيعته، ويشرب من لبن ماشيته. وملك المفاتح: كونها في يده وحفظه. وهذا مأذون به ضمناً من الموكل، ولكن يأكل ولا يحمل ولا يدّخر، إذا لم يكن له أجر على عمله، فإن كان مستأجراً بأجر فلا يأكل.

وأما بيوت الأصدقاء الذين ترتفع الكلفة بينهم، ويصفو الودّ معهم، فيؤكل منها إذا علم رضاهم صراحة أو بالقرائن. روي عن الحسن البصري أنه دخل داره، وإذا حلقة من أصدقائه، وقد استلوا سلالاً من تحت سريره فيها الخبيص وأطايب الأطعمة، وهم مكبّون عليها يأكلون، فتهللت أسارير وجهه سروراً وضحك، وقال: هكذا وجدناهم، أي أكابر الصحابة. وكذلك يقال في دخول بيوت الأصدقاء لا بدّ فيه من إذن صريح أو قرينة.

واحتج أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية على أن من سرق من ذي رحم محرم أنه لا يقطع؛ لإباحة الله تعالى لهم بهذه الآية الأكل من بيوتهم ودخولها بغير إذنهم، فلا يكون ماله محرزاً منهم، أي بسبب وجود شبهة الإذن. والحقيقة أنه لا بدّ من الإذن الصريح، أو الضمني الذي يعرف بالقرائن.

ثم ذكر الله تعالى حكم الأكل الجماعي والانفرادي فقال:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ أي يباح ولا إثم عليكم أن تأكلوا كيف شئتم مجتمعين أو متفرقين.

وهذه رخصة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده ومع الجماعة، لكن الأكل مع الجماعة أبرك وأفضل؛ روى أحمد وأبو داود وابن ماجه عن وحشي ابن حرب عن أبيه عن جده أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إنا نأكل ولا نشبع، قال: «لعلكم تأكلون متفرقين، اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه». وروى ابن ماجه أيضاً عن عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كلوا جميعاً، ولا تفرقوا، فإن البركة مع الجماعة».

ثم ذكر الله تعالى حكم تحية الداخل على بيته فقال:

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي فليسلّم بعضكم على بعض، أو فإذا دخلتم بيتاً من هذه البيوت لتأكلوا فابدؤوا بالسلام على أهلها الذين هم

منكم ديناً وقرابة. وعبر بقوله: ﴿أَنفُسِكُمْ﴾ للدلالة على أنهم منكم بمنزلة أنفسكم، فكأنكم حين تسلمون عليهم تسلمون على أنفسكم.

﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ أي حيوا تحية ثابتة بأمر الله، مشروعة من لدنه، يرجى منها زيادة الخير والثواب، ويطيب بها قلب المستمع؛ لأن معنى التحية والتسليم طلب السلامة والحياة للمسلَّم عليه، ووصفها بالبركة والطيب؛ لأنها دعوة مؤمن لمؤمن ترجى بها من الله زيادة الخير وطيب الرزق، وتستجلب فيها مودة المسلم.

قال قتادة: إذا دخلت على أهلك فسلِّم عليهم، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد، فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإنه كان يؤمر بذلك. وكذلك قال مجاهد وابن عباس رضي الله عنهم.

وأخرج البخاري عن جابر بن عبد الله قال: «إذا دخلت على أهلك فسلِّم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة».

وهذا الحكم وهو التحية على الأهل، وإن كان معلوماً من الآية المتقدمة: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ إلا أنه أعيد هنا لطلبه بين الأقارب، حتى لا يظن أن علاقة القرابة لا تحتاج إلى تبادل السلام والتحية، فذلك من الآداب العامة والحقوق الإسلامية التي لا يصح إهمالها. قال الضحاك: في السلام عشر حسنات، ومع الرحمة عشرون، ومع البركات ثلاثون.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي هكذا يفصل الله لكم معالم دينكم، كما فصل لكم في هذه الآية ما أحل لكم فيها، وكما بيَّن لكم ما في هذه السورة أيضاً من أحكام وشرائع بياناً شافياً، لكي تتدبروها وتتفهموا عن الله أمره ونهيه وآدابه، فتفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآية على ما يأتي:

١ - لا إثم ولا حرج على أصحاب الأعذار في التخلف عن الجهاد، وهم الأعمى والأعرج والمريض، أي أن الله رفع الحرج عن الأعمى فيما يتعلق بالتكليف الذي يشترط فيه البصر، وعن الأعرج فيما يشترط فيه المشي للتكليف به، وما يتعذر من الأفعال مع وجود العرج، وعن المريض فيما يؤثر المرض في إسقاطه؛ كالصوم وشروط الصلاة وأركانها، والجهاد ونحو ذلك.

ولا مانع من مؤاكلة هؤلاء ذوي الأعذار، وترك عادة تخصيصهم بطعام خاص حذراً من استقذارهم والترفع عن مجالستهم.

٢ - أباح الله للناس الأكل من مواضع أحد عشر دون استئذان صريح إذا علم رضا صاحب الطعام؛ لما علم بالعادة أن هؤلاء القوم تطيب نفوسهم في الأغلب بأكل من يدخل عليهم، والعادة كالإذن في ذلك، لذا خصهم الله تعالى بالذكر، وافتتحها تعالى بالأكل من البيوت الخاصة بأصحابها للإشارة إلى التسوية بينها وبين تلك المواضع العشرة الباقية.

وأسباب رفع الحرج في الأكل من هذه المواضع إذن: إما الملك الخاص وإما القرابة وإما الوكالة والاستئجار، وإما الصداقة. والقرابة، وكذا الملك الخاص للبيوت: تشمل بيوت الأبناء والآباء والأمهات والإخوان والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات. والوكالة مفهومة من قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ فإنه يشمل عند جمهور المفسرين الوكلاء والعبيد والأجراء. والصداقة تبيح الأكل والشرب من بيوت الأصدقاء بغير إذن إذا علم أن نفس صاحب الشيء تطيب به لتفاهته ويسير مؤنته، أو لما بينهما من المودة. والصديق: من يَصْدقك في مودّته وتصدقه في مودتك، ولكن لا يجوز الادخار والحَمْل، واتخاذ ذلك وقاية لماله، ولو كان المتناول تافهاً يسيراً. وكان ﷺ يدخل حائط (بستان) أبي طلحة المسمى بـ (بَيْرُحا) ويشرب من ماء فيها طيب بغير إذنه.

وبناء عليه، لا تجوز في رأي المالكية شهادة الصديق لصديقه، ولا شهادة القريب لقريبه.

٣ - يباح الأكل منفرداً أو جماعة، وإن اختلفت أحوال الجماعة في الأكل كَمّاً وكيفاً، فللإنسان أن يأكل وحده، أو مع القريب أو الصديق أو الجار أو أي شخص مسلم أو كافر. وقد نزلت الآية كما عرفنا في بني ليث بن عمرو من كنانة، كانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده، ويمكث أياماً جائعاً حتى يجد من يؤاكله، ومنه قول بعض الشعراء:

إذا ما صنعتِ الزاد فالتمسي له أكيلاً، فإني لست آكله وَحْدي

أو إنها نزلت في قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا معه، أو في قوم تحرّجوا عن الاجتماع على الطعام؛ لاختلاف الطباع في القزازة.

قال ابن عطية: وكانت هذه السيرة موروثة عند العرب عن إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام؛ فإنه كان لا يأكل وحده. وكان بعض العرب إذا كان له ضيف لا يأكل إلا أن يأكل مع ضيفه؛ فنزلت الآية مبينة سُنّة الأكل، ومذهبة كل ما خالفها من سيرة العرب، ومبيحة من أكل المنفرد ما كان عند العرب محرَّماً، نَحَت به نحو كرم الخلق، فأفرطت في إلزامه، وإن إحضار الأكيل لحسن، ولكن بألا يحرم الانفراد.

٤ - يسن السلام عند الدخول على الأهل والأقارب في البيوت المسكونة، وكذا غير المسكونة، فيسلّم المرء فيها على نفسه بأن يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. وكذا المساجد، فيسلّم على من كان فيها، فإن لم يكن في المساجد أحد، فالسلام أن يقول المرء: السلام على رسول الله ﷺ. قال إبراهيم النخعي والحسن البصري عن آية: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ أراد المساجد.

قال ابن العربي: «القول بالعموم في البيوت هو الصحيح، ولا دليل على التخصيص» وأطلق القول ليدخل تحت هذا العموم كل بيت كان لغيره أو

لنفسه، فإذا دخل الإنسان بيتاً لغيره استأذن كما تقدم، فإذا دخل بيتاً لنفسه سلّم، كما ورد في الخبر المتقدم عن ابن عمر، يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. فإن كان فيه أهله وخدمه فليقل: السلام عليكم. وإن كان مسجداً فليقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

وقال القشيري في قوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾: والأوجه أن يقال: إن هذا عام في دخول كل بيت، فإن كان فيه ساكن مسلم يقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وإن لم يكن فيه ساكن يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وإن كان في البيت من ليس بمسلم قال: السلام على من اتّبع الهدى، أو السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

٥ - كرر الله تعالى ثلاث مرات في آيات متعاقبة [٥٨، ٥٩، ٦١] قوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ [٥٨، ٦١] لكن في الآية [٥٩] لفظ: «آياته» للتأكيد وتفخيم الأحكام المختتمة به، والمعنى: كما بيَّن لكم سنة دينكم في هذه الأشياء، يبين لكم سائر ما بكم حاجة إليه في دينكم.

الاستئذان عند الخروج وأدب خطاب النبي ﷺ والتحذير من مخالفة أمره

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾

القراءات:

﴿شَأْنِهِمْ﴾، ﴿شِئْتَ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (شانهم، شيت).

الإعراب:

﴿كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ الكاف في موضع نصب؛ لأنه مفعول لفعل ﴿تَجْعَلُوا۟﴾.

﴿لِوَاذًا﴾: منصوب على المصدر في موضع الحال من واو ﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾ أي يتسللون مُلاوذين، وهو مصدر (لاوذ) كقاوم قِواماً؛ لأن المصدر يتبع الفعل في الصحة والاعتلال، ولو كان مصدر (لاذ) لكان (لِياذاً) معتلاً لاعتلال الفعل، كقام قياماً.

البلاغة:

﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿أَلِيمٌ﴾ ﴿عَلِيمٌ﴾: صيغة مبالغة.

﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ التفات عن الخطاب إلى الغيبة.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي الكاملون في الإيمان. ﴿مَعَهُۥ﴾ مع الرسول ﷺ. ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أمر عام مهم يحتاج إلى الاجتماع والتشاور، كالجمعة والأعياد والحروب والمشاورة في الأمور، ووصف الأمر بالجمع للمبالغة، وقرئ «أمر جميع». ﴿لَّمْ يَذْهَبُواْ﴾ لطروء عذر لهم. ﴿حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ يستأذنوا رسول الله ﷺ، فيأذن لهم، والمطالبة بالإذن واعتباره في كمال الإيمان؛ لأنه دليل مصدق لصحته، ومميز للمخلص فيه من المنافق، ومبين تعظيم الجرم في الذهاب عن مجلس الرسول ﷺ بغير إذنه، ولذلك أعاده مؤكداً بأسلوب أبلغ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فإنه يفيد أن المستأذن مؤمن لا محالة، وإن الذاهب بغير إذن ليس مؤمناً.

﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أمرهم أو ما يعرض لهم من المهام، وفيه مبالغة وتضييق للأمر. ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ بالانصراف. ﴿دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ﴾ طلب اجتماع الرسول ﷺ بهم. ﴿كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ بأن تقولوا: يا محمد، بل قولوا: يا نبي الله، يا رسول الله، في لين وتواضع وخفض صوت، ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً في جواز الإعراض، والمساهلة في الجواب، والرجوع بغير إذن، فإن المبادرة إلى إجابته واجبة، والخروج بغير إذنه محرّم.

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ أي ينسلون أو يخرجون من المسجد خفية مستترين بشيء، فالتسلل: الخروج خفية، واللواذ: تستر بعضهم

ببعض. وقد: للتحقيق .﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ أي عن أمر الله تعالى أو أمر الرسول ﷺ، فإن الأمر لله في الحقيقة، ويصح عود الضمير للرسول ﷺ؛ لأنه المقصود بالذكر. والمخالفة: اتخاذ طريق مخالف في القول أو الفعل .﴿فِتْنَةٌ﴾ بلاء ومحنة وامتحان في الدنيا .﴿أَلِيمٌ﴾ عذاب مؤلم موجع في الآخرة .﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً .﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ قد يعلم ما أنتم عليه أيها المكلفون من الإيمان والنفاق والمخالفة والوفاق. وأكد علمه بقد: لتأكيد الوعيد .﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يوم يرجع المنافقون إليه للجزاء .﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾ يخبرهم بما عملوا من خير أو شر، فيجازي على سوء الأعمال بالتوبيخ وغيره .﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ أي الله عالم بكل شيء من أعمالهم، لا تخفى عليه خافية.

سبب النزول:

أخرج ابن إسحاق والبيهقي في الدلائل عن عروة ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما قالوا: لما أقبلت قريش عام الأحزاب، نزلوا بمجمع الأسيال من رومة - بئر بالمدينة - قائدها أبو سفيان، وأقبلت غَطَفان، حتى نزلوا بنعمى إلى جانب أُحُد، وجاء رسول الله ﷺ الخبر، فضرب الخندق على المدينة، وعمل فيه، وعمل المسلمون فيه، وأبطأ رجال من المنافقين، وجعلوا يأتون بالضعيف من العمل، فيتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بدّ منها، يذكر ذلك لرسول الله ﷺ، ويستأذنه في اللحوق لحاجته، فيأذن له، وإذا قضى حاجته رجع، فأنزل الله في أولئك المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾.

وقال الكلبي: كان النبي ﷺ يعرّض في خطبته بالمنافقين ويعيبهم، فينظر المنافقون يميناً وشمالاً، فإذا لم يرهم أحد انسلوا وخرجوا ولم يصلوا، وإن

أبصرهم أحد ثبتوا وصلوا خوفاً، فنزلت هذه الآية، فكان بعد نزول هذه الآية لا يخرج المؤمن لحاجته، حتى يستأذن رسول الله ﷺ، وكان المنافقون يخرجون بغير إذن.

نزول الآية (٦٣):

﴿لَّا تَجۡعَلُوا۟﴾ الآية: أخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال: كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فأنزل الله: ﴿لَّا تَجۡعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضࣰاۚ﴾ فقالوا: يا نبي الله، يا رسول الله.

المناسبة:

بعد الأمر بالاستئذان عند الدخول، أمر الله تعالى بالاستئذان حين الخروج، لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول ﷺ من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة أو تشاور في أمر مهم، ثم أمر المؤمنين بتعظيم النبي ﷺ ورعاية الأدب في مخاطبته، وحذرهم من مخالفة أمره وسنته وشريعته.

التفسير والبيان:

هذه آداب اجتماعية دينية إلزامية، وهي ثلاثة:

الأول - قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرࣲ جَامِعࣲ لَّمۡ يَذۡهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ﴾ أي إنما المؤمنون الكاملون في الإيمان الذين صدقوا بوجود الله ووحدانيته وصحة رسالة رسوله من عنده، وإذا كانوا معه في أمر اجتماعي مهم، كصلاة جمعة أو جماعة أو عيد، أو مشاركة في مقاتلة عدو، أو تشاور في أمر خطير قد حدث، لم ينصرفوا عن المجلس حتى يستأذنوا رسول الله ﷺ، فيأذن لهم.

وهذا الأدب مكمل لما سبقه، فلما أمر الله بالاستئذان حين الدخول، أمر

بالاستئذان حين الخروج، ولا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول ﷺ. والأمر الجامع: هو الأمر الموجب للاجتماع عليه، فوصف الأمر بالجمع على سبيل المجاز. روى أحمد في مسنده وأبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إذا انتهى أحدُكم إلى المجلس، فليسلم، فإن بدا له أن يجلس فليجلس، ثم إذا قام فليسلم فليست الأولى بأحق من الآخرة».

ثم أعاد الله تعالى طلب الإذن على سبيل التأكيد بأسلوب أبلغ من طريق جعله دليلاً على كمال الإيمان، ومميزاً المخلص من غيره، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي إن الذين يستأذنون الرسول ﷺ في الانصراف، ويشاورونه في الخروج، هم من المؤمنين الكاملين المصدقين الله ورسوله، الذين يعملون بموجب الإيمان ومقتضاه.

وبعد الاستئذان تعظيماً للنبي ورعاية للأدب، تكون حرية الإذن له، فقال تعالى:

﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ أي إذا استأذنك أحد منهم في بعض ما يطرأ له من مهمة، فأذن لمن تشاء منهم على وفق الحكمة والمصلحة، فقد استأذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في غزوة تبوك في الرجوع إلى أهله، فأذن له، وقال له: «انطلق فوالله ما أنت بمنافق» يريد أن يسمع المنافقين ذلك الكلام، فلما سمعوا ذلك قالوا: ما بال محمد إذا استأذنه أصحابه أذن لهم، وإذا استأذناه لم يأذن لنا، فوالله ما نراه يعدل.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن عمر استأذن رسول الله ﷺ في العمرة، فأذن له، ثم قال: «يا أبا حفص، لا تنسنا من صالح دعائك».

والآية تدل على أنه سبحانه فوض إلى رسوله ﷺ بعض أمر الدين، ليجتهد فيه برأيه.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي واطلب من الله أن يغفر لهم ما قد يصدر عنهم من زلات أو هفوات، إن الله غفور لذنوب عباده التائبين، رحيم بهم فلا يعاقبهم بعد التوبة.

وهذا مشعر بأن الاستئذان، وإن كان لعذر مقبول، فيه ترك للأولى، لما فيه من تقديم مصالح الدنيا على مصالح الآخرة، فالاستئذان مهما كانت أسبابه مما يقتضي الاستغفار، لترك الأهم.

ثم أمر الله تعالى أن يهاب نبيه ﷺ وأن يبجّل وأن يعظم وأن يسود، فقال:

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ أي لا تدعوا رسول الله باسمه بأن تقولوا: يا محمد أو يا ابن عبد الله، ولكن عظموه، فقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله مع التوقير والتعظيم والصوت المنخفض والتواضع، فهذا نهي من الله عز وجل عن مناداة النبي باسمه أو نسبه، وهو الظاهر من السياق، فلا تجعلوا تسميته ونداءه بينكم كما يسمي بعضكم بعضاً، ويناديه باسمه الذي سماه به أبواه.

وفي تفسير آخر: لا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً في جواز الإعراض والتساهل في الإجابة والانصراف من مجلسه بغير إذن، فإن المبادرة إلى إجابته واجبة، والرجوع عن مجلسه بغير إذن محرَّم.

ثم حذر الله تعالى وأوعد المخالفين تلك الآداب فقال:

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ قد: للتحقيق، أي إنه تعالى يعلم يقيناً أولئك الذين ينسلون من المسجد في الخطبة أو من مجلس النبي ﷺ خفية، واحداً بعد الآخر، دون استئذان، يتستر بعضهم ببعض أو بشيء آخر، فالله لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، يعلم البواعث والدواعي، والخفايا والأسرار، والظواهر والأفعال والأقوال. روى أبو داود

أن بعض المنافقين كان يثقل عليه استماع الخطبة والجلوس في المسجد، فإذا استأذن أحد من المسلمين، قام المنافق إلى جنبه، يستتر به، فأنزل الله الآية.

﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي فليخش من خالف شريعة الرسول ﷺ باطناً وظاهراً، وصدّ وخرج عن أمره وطاعته، وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، وهم المنافقون، أن يتعرضوا لمحنة أو بلاء وامتحان في الدنيا من كفر أو نفاق، أو يصيبهم عذاب مؤلم في الآخرة. وضمير ﴿أَمْرِهِۦٓ﴾ إما عائد إلى أمر الله تعالى أو أمر رسوله ﷺ.

والآية تدل على أن ظاهر الأمر للوجوب؛ لأن تارك المأمور به مخالف لذلك الأمر، ومخالف الأمر مستحق للعقاب، فتارك المأمور به مستحق للعقاب، ولا معنى للوجوب إلا ذلك.

والآية أيضاً تعم كل من خالف أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ، وليس المنافقين فقط.

ثم ختم تعالى السورة ببيان نطاق المخلوقات، وأنهم تحت سلطان الله وعلمه،

فقال:

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ ﴿قَدْ﴾ للتحقيق أيضاً كما هو حال ما قبلها، أي إن جميع ما في السماوات والأرض مختص بالله عز وجل خَلْقاً، وملكاً، وعلماً، وتصرفاً وإيجاداً وإعداماً، يعلم كل ما لدى العباد من سر وجهر، فكيف تخفى عليه أحوال المنافقين، وإن اجتهدوا في سترها عن العيون وإخفائها. فقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ معناه أنه عالم به، مشاهد إياه، لا يعزب عنه مثقال ذرة، كما قال: ﴿وَمَا

يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ١٠/٦١] .

﴿وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ أي إن الله تعالى سينبئهم يوم القيامة بما أبطنوا من سوء أعمالهم، وسيجازيهم حق الجزاء: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ١٣﴾ [القيامة: ٧٥/١٣] ، ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ١٨/٤٩] والله ذو علم شامل محيط بكل شيء، يوفره لهم، ويفاجئهم به يوم الحساب والعرض عليه. وهذا دليل على فصل القضاء الذي يتفرد به الله تعالى.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - وجوب استئذان النبي ﷺ عند الانصراف من مجلسه، وأما غير النبي فيطلب الاستئذان من صاحب البيت وجوباً أيضاً حتى لا يطلع الضيف على العورات كوجوب الاستئذان عند الدخول، كما تقدم، ويطلب الاستئذان من الإمام أيضاً.

وقد أوجبت الآية الاستئذان في الأمر الجامع وهو ما للإمام من حاجة إلى جمع الناس فيه لإذاعة مصلحة، من إقامة سُنَّة في الدين، أو لترهيب عدو باجتماعهم، وللحروب، قال الله تعالى: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٩] . فللإمام أن يجمع أهل الرأي والمشورة أو الناس لأمر فيه نفع أو ضرر.

٢ً - وقوله تعالى: ﴿فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ﴾ دليل على التفويض إلى الرسول ﷺ أو الإمام المجتهد بعض أمر الدين ليجتهد فيه برأيه النابع من أصول الشريعة وروح التشريع، والمنسجم مع المبادئ الشرعية.

٣ً - الآية كما قدمنا دليل على أن ظاهر الأمر للوجوب.

٤ً - كان المنافقون يتلوذون ويخرجون عن الجماعة ويتركون رسول الله ﷺ، فأمر الله جميع المسلمين بألا يخرج أحد منهم حتى يأذن له رسول الله ﷺ، ليتبين إيمانه؛ ولأنه لم يكن على المنافقين أثقل من يوم الجمعة وحضور الخطبة.

٥ً - قيل: إن قوله تعالى: ﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ وقوله: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ دالان على أن ذلك مخصوص في الحرب. أما في أثناء الخطبة، فليس للإمام خيار في منعه ولا إبقائه. والأصح القول بالعموم، فهو أولى وأحسن، ويشمل ذلك كل مجلس للنبي ﷺ.

٦ً - إن تعظيم الرسول ﷺ واجب، فلا ينادى كما ينادي الناس بعضهم بعضاً، فيقال: يا محمد أو يا أبا القاسم، وإنما يقال: يا رسول الله، في رِفْق ولين، وبتشريف وتفخيم، كما قال تعالى في سورة الحجرات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحجرات: ٣/٤٩].

٧ً - تكرر في الآيات التأكيد على إحاطة علم الله بكل شيء، ومنه نوايا المنافقين وأفعالهم وأقوالهم: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وبيان علم الله في هذه الأحوال للتحذير والوعيد والزجر عن مخالفة أمره.

٨ً - احتج الفقهاء بقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ على أن الأمر للوجوب وعلى وجوب طاعة الرسول ﷺ؛ لأن الله تبارك وتعالى قد حذر من مخالفة أمره، وتوعد بالعقاب عليها بقوله: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فتحرم مخالفته، فيجب امتثال أمره. ومخالفة أمره توجب أحد أمرين: العقوبة في الدنيا كالقتل والزلازل والأهوال وتسلط السلطان الجائر، والطبع على القلوب بشؤم مخالفة الرسول ﷺ، والعذاب الشديد المؤلم في الآخرة.

وقوله: ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ معناه: يُعرضون عن أمره، أو يخالفون بعد أمره.

٩ً - لله جميع ما في السماوات والأرض ملكاً وخلقاً وعلماً، ومنه العلم بأحوال المنافقين، فهو يجازيهم به، ويخبرهم بأعمالهم يوم القيامة، ويجازيهم بها، والله علام بكل شيء من أعمالهم وأحوالهم. وهذا دليل على القدرة الفائقة لله تعالى، واقتداره على المكلف فيما يعامل به من مجازاة بثواب أو بعقاب، وعلمه بما يخفيه ويعلنه، وأن له تعالى فصل القضاء.

تم الجزء الثامن عشر والحمد للّٰه

فهرس المجلد التاسع

فهرس الجزء السابع عشر

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

فهرس الجزء الثامن عشر

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *



